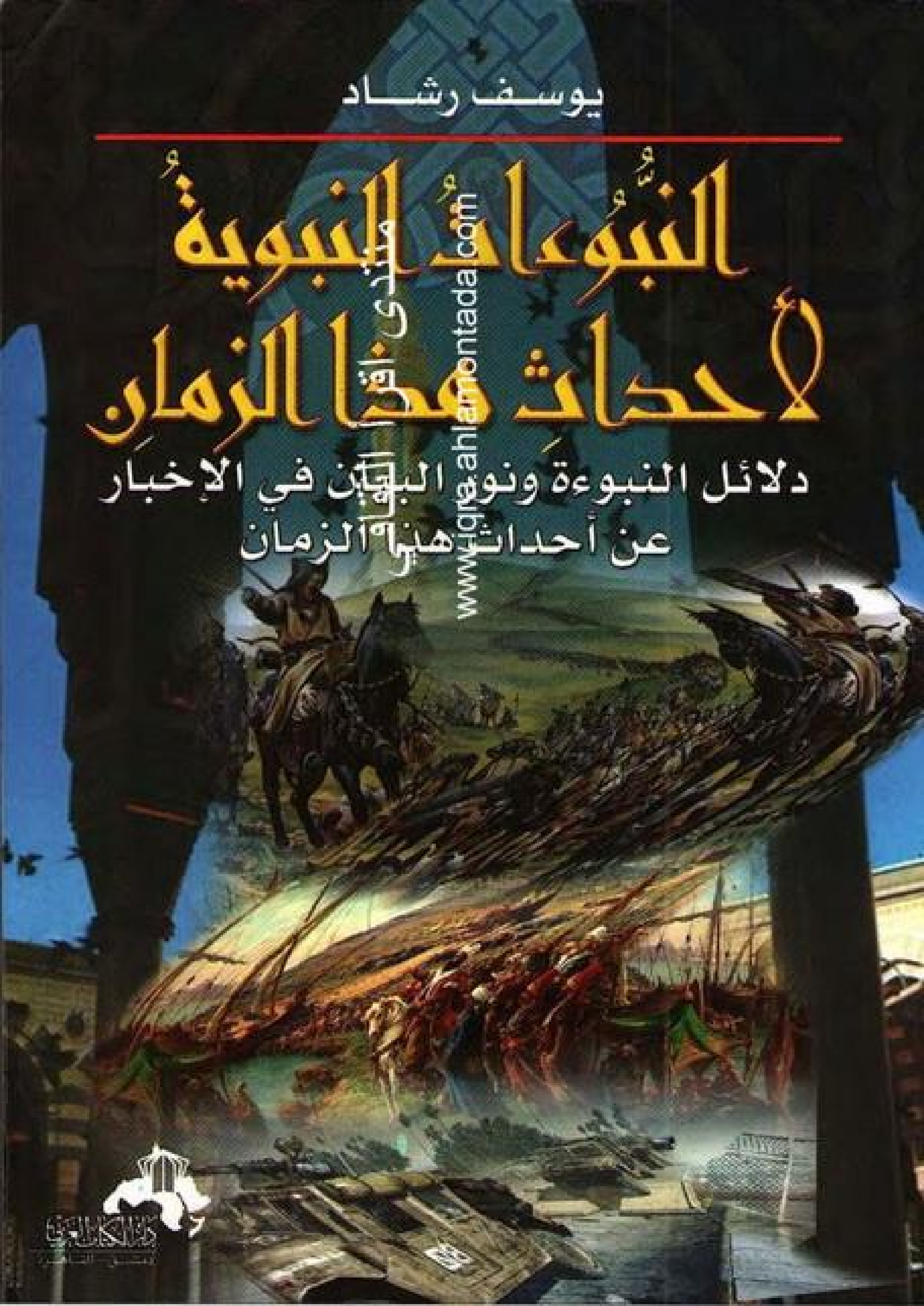

يوسف رشاد
النبوءات النبوية
لأحداث هذا الزمان
دلائل النبوءة ونور البيان في الإخبار
عن أحداث هذا الزمان
www.iqra.ahlamontada.com


منتدى إقراء الثقافي

النُبُوءَاتُ النبويَّةُ لأحداثِ هذَا الزَّمَان

دلائل النبوة ونور البيان في الإخبار عن أحداث هذا الزمان


الغلاف

اسم الكتاب: النبوءات النبوية لأحداث هذا الزمان
تأليف: يوسف رشاد
المراجعة اللغوية والتدقيق: طه عبدالرءوف سعد
تصميم الغلاف: قسم الجرافيك بدار الكتاب العربي
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٦٣٢٠ / ٢٠١١
الترقيم الدولي: 5-670-376-977-978

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربي - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين - ت: ٢٢٥٦٨٧٠
دمشق: مكتبة رياض العلبي - خلف البريد - ت: ٢٢٣٦٧٢٨
مكتبة النوري - أمام البريد - ت: ٢٢١٠٣١٤
مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: ٢٢٢٨٢٢٢
مكتبة الفتال - فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦
- فرع ثاني - ت: ٢٢٢٢٣٧٣



الطبعة الأولى
٢٠١٢

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودي تلفاكس: ٢٢٣٥٤٠١ ص.ب ٣٤٨٢٥
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبدالخالق ثروت - شقة ١١ تليفون: ٢٣٩١٦١٢٢ - فاكس: ٢٣٩٣٣٦٧١
لبنان - تليفون: ٠٣/٦٥٢٢٤١ - ٠٥/٤٣٤١٨٦ - ص.ب ٣٠٤٣ الشويفات
darelkitab@yahoo.com - daralwalid@yahoo.com - info@darketab.com
www.darketab.com http://www.facebook.com/groups/darketab
http://twitter.com/darelkitab http://www.youtube.com/darelkitab

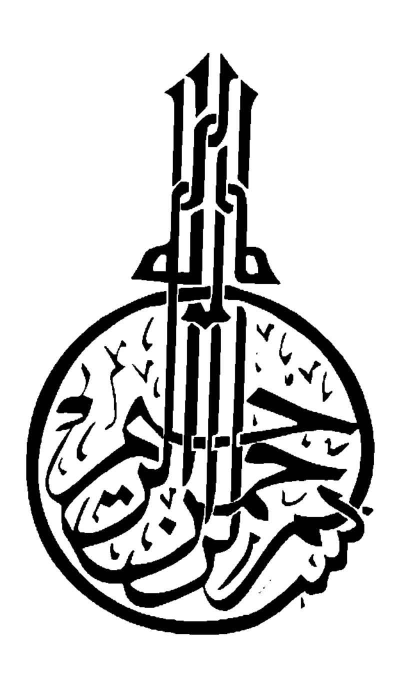
النُبُوءَاتُ النبويَّةُ لأحداثِ هذَا الزَّمَان

دلائل النبوة ونور البيان في الإخبار عن أحداث هذا الزمان

تأليف

يوسف رشاد





المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً ﷺ عبده ورسوله . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

[الأحزاب : ٧٠-٧١] .

أما بعد .. فإن خير الحديث كتاب الله - عز وجل - وخير الهدي هدي محمد ابن عبد الله ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

لا شك عزيزي القارئ أننا نعيش في زمن الفتن وزمن غُربة الإسلام فقد صحَّ عن النبي العدنان ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ غريباً فطوبى للغرباء»[١] وغُربة الإسلام تتمثل في ابتعاد الناس عن كتاب ربنا - سبحانه وتعالى - وعن سُنَّة نبينا ﷺ لذلك لكي يعود الناس إلى دينهم وإسلامهم فعليهم العودة إلى قرآننا الكريم والعمل بما فيه لأن هذا الكتاب قال عنه ربنا - سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء :٩] يعني يهدي الناس الطريقة التي هي أقوم

١- رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ٣٨٩ .

من غيرها من الطرق وهي ملة الإسلام ، فالقرآن الكريم يهدي للتي هي أقوم في عالم الضمير والشعور بالعقيدة الواضحة البسيطة التي لا تعقيد فيها ولا غموض والتي تطلق الروح من أثقال الوهم والخرافة ، وتطلق الطاقات البشرية الصالحة للعمل والبناء .. ويهدي للتي هي أقوم في التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه وبين مشاعره وأحاسيسه وسلوكه ، وبين عقيدته وعمله .. ويهدي للتي هي أقوم في عالم العبادة بالموازنة بين التكاليف والطاقة ويهدي للتي هي أقوم في علاقات الناس بعضهم ببعض ويقيم العلاقات الإنسانية على الأسس الوطيدة الثابتة التي لا تتأثر بالرأى والهوى ، ولا تميل عن المودة والشنآن ، فيهديهم للتي هي أقوم في جميع شؤون حياتهم لذلك كان القرآن الكريم بحق منهجَ حياة يُخاطب الفكر والقلب ويلبي الفطرة القويمة ويبقى مفتوحاً للأجيال المتتابعة تقرؤه وتؤمن به وتعمل بما فيه حتى قيام الساعة .

وأما الذين لا يريدون أن يهتدوا بهدي القرآن الكريم ، فهم متروكون لهوى الإنسان ، الإنسان العجول الجاهل القاصر عن فهم حقيقة هذا القرآن العظيم المندفع بشهواته وشبهاته والذي لا يضبط انفعالاته ولو كان من ورائها الشرُّ[1] .

وسوف ترى عزيزي القارئ الكريم بين ثنايا هذا الكتاب كيف حاول أعداء الإسلام - ولازالوا - إبعاد القرآن الكريم عن حياة المسلم ووضعوا لذلك الخطط والمؤامرات لإلهاء جموع المسلمين عن قرآنهم الذي حثهم نبيهم على التمسك به والعمل بما فيه .

فقد روى عن الحبيب ﷺ حديث وإن كان في سنده ضعيف إلا أنه صحيح المعنى والمبنى ، فعن علي بن أبي طالب - عليه السلام - قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا إنها ستكون فتنة» فقلت ما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : «كتاب الله ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبَّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلَّه الله وهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو

١- بتصرف من : «في ظلال القرآن لسيد قطب» (٤/ ٢٢١٥ ، ٢٢٣٧) .

الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا يشبع منه العلماء ولا يَخْلَق على كثره الرد ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾ [الجن ١ ، ٢] من قال به صدق ومن عَمِلَ به أُجِرَ ومن حَكَمَ به عَدَلَ ومن دعا إليه هُديَ إلى صراط مستقيم»[1].

وروى أبو داود بسند صحيح عن حذيفة بن اليمان – رضي الله عنهما في الفتن قال : قلت يا رسول الله هل بعد هذا الخير شرٌّ ؟ قال : «فتنة وشر» قال : قلت يا رسول الله هل بعد هذا الشرِّ خيرٌ ؟ قال : «يا حذيفة تَعَلَّم كتاب الله واتبع ما فيه .» ثلاث مرار .. الحديث[2] .

وروى الطبراني عن محمد بن جُبَير بن مُطعم ، عن أبيه ، قال : كنَّا مع رسول الله ﷺ بالجُحفة فخرج علينا ، فقال : أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، وأن القرآن جاء من عند الله ؟ قلنا : نعم ، قال : «فاصبروا فإن هذا القرآن طرفه بيد الله ، وطرفه بأيديكم ، فتمسكوا به ، ولا تهلكوا بعده أبدا»[3] .

فهذه وصايا رسول الله ﷺ لأمته من بعده لكي يتمسكوا بالقرآن الكريم ويتدبروا ما فيه ويعملوا به ، ثم يأتي التمسك بالمصدر الثاني للإسلام ألا وهي السُّنة النبوية لأنه لابد من فهم كتاب ربنا تعالى من خلال السُّنة ولأنها شارحة له ومُبينة لما جاء فيه ، ومن ترك السنة وأنكرها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه . وقد فصَّلنا ذلك في كتابنا الذي بين يديك عزيزي القارئ في فقرة (الإخبار النبوي عن القرآنيين) الذين قالوا نأخذ بالقرآن وندع السنة .

١- رواه الترمذي في فضائل القرآن وقال : هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول ٣١٥٣ .

٢- رواه أبو داود في السنن كتاب الفتن ٤٢٤٨ وصححه الألباني .

٣- رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ١٦٣ حديث رقم ١٥٢) ، ومصنف ابن أبي شيبة (٧/ ١٦٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٤ .

وقد روى ابن ماجة من حديث العرباض بن سارية - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقلنا يا رسول الله إن هذه لموعظة مودِّع فماذا تعهد إلينا ؟ قال : «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بما عرفتم من سُنَّتي وسُنّة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ»[1] .

وعليه فينبغي فهم الكتاب والسنة النبوية بفهم سلفنا الصالح كما وصى بذلك صاحب الشريعة العصماء ﷺ وهذا الفهم للنصوص لا نغفل فيه واقعنا الذي نعيش فيه دون تقديم العقل على النصِّ أو ليِّ أعناق النصوص لتتماشى مع حدث بعينه أو إسقاط حديث أو آية على واقعة محدَّدة دون رويَّة ولا تمحيص فتقع بذلك الفتن ، ولكن المقصد الذي نريد أن ننوه إليه هو قراءة النصوص من خلال الواقع الذي نعيش فيه ؛ لأنه من خلال هذا المنطلق والفهم الصحيح أردنا أن نقرأ الأحاديث النبوية الصحيحة التي أخبرت عن أحداث ونبَّأت عن وقائع وجدناها ماثلة أمام أعيننا في زماننا الحاضر ، وربما وقعت بعض العلامات في الأزمنة الإسلامية السالفة ولكن نجدها بلغت ذِرْوتها وبَرَز واقعها تماماً في هذا العصر الذي نعيش فيه ، كالإخبار عن زخرفة المساجد والتباهي ببنائها وموت الفجأة[2] . والتطاول في البنيان وغير ذلك من الأخبار والنبوءات التي أخبرنا بها الصادق المصدوق ﷺ لذلك فقد اتبعنا المنهج العلمي حيث قمنا بتجميع طُرُق الأحاديث الصحيحة التي أخبرت عن واقعة بعينها ، ثم تم شرح معاني ومفردات الحديث ثم التعليق عليها بما يتماشى مع واقعنا المعاصر وقد اتبعنا بذلك قول الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - حيث قال : «الحديث إذا لم تجتمع طُرُقه لم تفهمه ، والحديث يُفسِّر بعضه بعضاً»[3]

١- سنن ابن ماجة المقدمة ٤٥ وصححه الألباني في صحيح ابن ماجة .

٢- وهذه العلامات قد ذكرناها في كتابنا : الإعجاز النبوي في الفتن والملاحم [الناشر : دار الفاروق - مصر] .

٣- الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/ ٢١٢) .

وقول الإمام ابن حزم - رحمه الله تعالى - «تأليف كلام رسول الله ﷺ وضم بعضه إلى بعض والأخذ بجميعه ، فرضٌ لا يحل سواه»[1] وقول الحافظ ابن حجر العسقلاني - رحمه الله تعالى - : «الأحاديث إذا ثبتت وجب ضم بعضها إلى بعض ، فإنها في حكم الحديث الواحد ، فيُحمل مُطلقها على مُقيدها ، ليحصل العمل بجميع ما في مضمونها ، وبالله التوفيق»[2] فإذا اجتمعت طُرُق الحديث ظهر جليّاً المقصود بالواقعة أو الحادثة ، وفُهم مضمون الحديث فهماً صحيحاً . لأجل ذلك أردنا أن ننبه من خلال سرد أحاديث الكتاب على قراءتها بعين واقعنا المعاصر الذي نعيشه والذي نرى فيه رأي العين ما نبّأ به وأخبر عنه الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحيٌ يوحَى - صلوات ربي وسلامه عليه - للتنبيه والتحذير من الوقوع فيما حذَّر منه نبينا المعصوم ﷺ مع التمسك بالكتاب والسنة النبوية والالتفاف حول علماء الأمة الربانيين ثم التفاؤل بأن النصر مع الصبر وأن مع العسر يسرا وأن المستقبل إن شاء الله تعالى - للإسلام - وإن غداً لناظره لقريب . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلاةً وسلاماً على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

كتبه

أبو همام المصرى

يوسف رشاد

١- المحلَّى لابن حزم (٣/ ٢٤٠) .

٢- فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلاني (١١/ ٢٧٠) .

فصل :

دلائل النبوة ونور البيان في الإخبار عن النساء المتبرجات والعاريات في هذا الزمان

إن الدين الإسلامي جعل للمرأة الإسلامية مكانة سامقة تسمو بها على بقية نساء الدنيا ، ورفع الإسلام من شأنها فجعلها في مصافّ الرجال ؛ فقد روى أبو داود والترمذي عن السيدة عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – قالت : قال رسول الله ﷺ: «إنما النساء شقائق الرجال»[١] قال ابن الأثير : «أي: نظائرهم وأمثالهم في الأخلاق والطِّباع كأنهن شُققن منهم ولأن حواء خُلقت من آدم – عليه السلام –»[٢] ولِمَ لا ؟ والقرآن الكريم عندما ينادي على الذين آمنوا في كل سور القرآن فإنما يخاطب المرأة كما يخاطب الرجل في جميع الأوامر والنواهي القرآنية ، فلم يُقلِّل الإسلام قط من شأن المرأة المسلمة كما يدَّعي أصحاب القلوب والعقول المريضة من المغرضين والعلمانيين والجاهلين المتحاملين دائماً على الإسلام وأهله والذين ينقلون عن أعداء الإسلام من الحاقدين والموتورين ، وسوف أنقل شهادات بعض المنصفين الذين شهدوا على معاملة الإسلام السامية للمرأة وهي أقلام غير إسلامية ولكن موضوعية .

فيقول المستشرق الفرنسي : مارسيل بوازار[٣] : «إن الإسلام يخاطب الرجال والنساء على السواء ، ويُقدِّم التشريع الإسلامي للمرأة تعريفات دقيقة لما لها من حقوق

١– رواه أبو داود في كتاب الطهارة ٢٣٦ ، وكذلك الترمذي ١١٣ وصححه الألباني .

٢– النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٢/ ١١٩٥) .

٣– هو مفكر وقانوني فرنسي معاصر ، له العديد من الأبحاث والكتب عن العلاقات الدولية ،وحقوق الإنسان وله اهتمامات مضيئة في مجال الدراسات الغربية للإسلام .

ويُبدي اهتماماً شديداً بضمانها ، فالقرآن والسُّنَّة يُحضَّان على معاملة المرأة بعدل ورفق وعطف .. ولا يذكر التنزيل (القرآن الكريم) أن المرأة دفعت الرجل إلى ارتكاب الخطيئة الأصلية ، كما يقول سفر التكوين[١] ، وهكذا فإن العقيدة الإسلامية لم تستخدم ألفاظاً للتقليل من احترامها ، كما فعل آباء الكنيسة الذين طالما اعتبروها (عميلة للشيطان) .. لقد أثبتت التعاليم القرآنية وتعاليم محمد ﷺ أنها حامية حمى حقوق المرأة[٢] .

ويقول المستشرق الفرنسي (إميل درمنغم)[٣] : «ومن المزاعم الباطلة أن يقال إن المرأة في الإسلام قد جُرّدت من نفوذها زوجة وأُمًّا كما تُذم النصرانية لعدِّها المرأة مصدر الذنوب والآثام ولعنها إياها ، فعلى الإنسان أن يطوف في الشرق (الإسلامي) ليرى أن الأدب المنزلي فيه قوي متين وأن المرأة فيه لا تحسد بحكم الضرورة نساءنا ذوات الثياب القصيرة والأذرع العارية ولا تحسد عاملاتنا في المصانع وعجائزنا ، ولم يكن العالم الإسلامي ليجهل الحب المنزلي والحب الروحي»[٤] .

وتقول الباحثة الإيطالية (لورا فيشافاغليري)[٥] : «اجتناباً للإغراء بسوء السلوك ودفعاً لنتائجه يتعين على المرأة المسلمة أن تتخذ حجاباً وأن تستر جسدها كله .. وليس هذا ناشئاً عن قلة احترام النساء ، أو ابتغاء كَبْتِ إرادتهن ولكن لحمايتهن من شهوات الرجال ، وهذه القاعدة العريقة في القِدم ، القاضية بعزل النساء عن الرجال ، والحياة

١- راجع سفر التكوين ، الإصحاح الثالث من الفقرة (١٠ : ١٥) .

٢- إنسانية الإسلام لمارسيل بوازار ، ترجمة عفيف دمشقية من ص ١٠٩ - ١٤٠ [الناشر : دار الآداب بيروت - لبنان] .

٣- مستشرق فرنسي اهتم بالشؤون الإسلامية ومن آثاره كتاب (حياة محمد) نشره عام ١٩٢٩ في باريس ، وكذلك (محمد ﷺ - والسنة والإسلام) نشره عام ١٩٥٥م .

٤- حياة محمد ﷺ ٣٣١ نقلاً عن : قالوا عن الإسلام للدكتور عماد الدين خليل ص ٤١١ [الناشر : الندوة العالمية للشباب الإسلامي - الرياض - السعودية] .

٥- باحثة إيطالية لها العديد من الإسهامات في العلوم الإسلامية ونشرت العديد من الدراسات الإسلامية في الدوريات والمجلات الاستشراقية .

الأخلاقية التي نشأت عنها ، قد جعلتنا تجارة البغاء المنظمة مجهولة بالكلية في البلدان الشرقية (الإسلامية) ، إلا حيثما كان للأجانب نفوذ أو سلطان ، وإذا كان أحد لا يستطيع أن يُنكر قيمة هذه المكاسب فيتعين علينا أن نستنتج أن عادة الحجاب .. كانت مصدر فائدة لا تُثمَّن للمجتمع الإسلامي»[1] .

فهذه شهادات من كُتّاب غربيين منصفين وهي غيض من فيض مما كتبوه وقالوه عن تكريم وتعظيم الإسلام للمرأة ولكن شياطين الإنس والجن اجتالت واجتاحت عقول كثير ممن تأثروا وانبهروا بما يُسمى بالحضارة الغربية المعاصرة التي جعلت المرأة سلعة تباع وتشترَى في سوق النخاسة العالمية ، ويا ليتهم انبهروا واقتبسوا واهتموا بالتقدم العلمي والتكنولوجي الغربي ولكن للأسف استوردوا كل غث وساذج وغير نافع وجلبوه إلى عالمنا العربي والإسلامي كأدوات الزينة ومواد التجميل ، ويا ليت الأمر اقتصر على ذلك ولكنهم استوردوا الأفكار والاعتقادات واتبعوا الغرب في كل العادات والتقاليد المخالفة لأفكار واعتقادات الإسلام والمسلمين بما في ذلك ما يسمى بحقوق المرأة ، وذلك لأن الحضارة الغربية المسيحية كانت تحتقر المرأة وكانوا يعتبرونها باب الشيطان ومدخلا له ، فالقديس (ترتوليان) كان يقول عن المرأة «إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان وأنها ناقضة لنواميس الله» وقال القديس (سوسيام) عنها أيضاً : «إنها شر لابد منه ، وآفة مرغوب فيها ، ومحبوبة فتاكة ،ومصيبة مطلية مُموَّهة» ، وكان القانون الإنجليزي حتى عام ١٨٠٥م ، يُبيح للرجل أن يبيع زوجته ، وقد حدث أن باع إنجليزي زوجته عام ١٩٣١م بخمسمائة جنيه استرليني ، وقال محاميه في الدفاع عنه . إن القانون الإنجليزي قبل مائة عام كان يُبيح للزوج أن يبيع زوجته ، وكان القانون الإنجليزي عام ١٨٠١م قد حدَّد ثمن الزوجة بست بنسات بشرط أن يتم البيع بموافقة الزوجة .

---

١ – دفاع عن الإسلام لفاغليري ص ٥٦ – ٥٧ نقلاً عن «قالوا عن الإسلام» ص ٤٢١ .

فأجابت المحكمة بأن هذا القانون قد أُلغي عام ١٨٠٥م بقانون يمنع بيع الزوجات أو التنازل عنهن»[1] .

وهكذا الحال كانت في بقية العالم الغربي المسيحي في القرون الوسطى وهذه كانت حال المرأة في الغرب التي كانت تعاني من القهر والذل والعبودية عكس ما كانت عليه المرأة المسلمة في الشرق الإسلامي ، فعندما نادى أصحاب حقوق المرأة في الغرب بحريتها كانوا يقصدون تغيير الوضع الذي كانت تعانيه المرأة في تلك البلاد إلى إعطائها الحرية الكاملة حتى أصبحت على ما هي عليه الآن من الانحلال التام والتفسخ الأخلاقي الكامل حيث أصبحت تُؤتَى المرأة في قارعة الطريق كالحيوانات تماماً .. هذه هي الحرية التي يريد أصحاب العقول المريضة من العلمانيين وأعداء الالتزام والعفة والطهارة أن يُعطوها للمرأة العربية والإسلامية ، وقد كان لهم ما أرادوا فأصبحت النساء والفتيات يخرجن عاريات أجسادهن تحت زعم الحرية الشخصية وأصبحن يقلدن الغربيات في سلوكهن وملابسهن حتى وفي أفكارهن وابتعدن إلا من رحِم الله منهن تماماً عن التعاليم الإسلامية التي كفلها الدين الإسلامي للمرأة وبشهادة كثير من المستشرقين الغربيين - كما سبق وأشرنا - .

يقول الدكتور مصطفى السباعي - رحمه الله : «ليس في بلادنا قضية باسم (تحرير المرأة) بعد أن حرّرها الإسلام ، وإنما هي مشكلة كانت عند الغربيين ولا تزال ، وليس طلب الإسلام حشمة المرأة وتفرغها لأداء رسالتها الاجتماعية الكبرى (كبْتاً) للطاقة ، بل (تنظيما) لها ، والتنظيم غير الكبت ، ووضع كل شيء في موضعه ومنعه من تجاوز الحد ، أمر غير الفوضى والانفلات من كل حق للأسرة أو المجتمع»[2] ولكن كل من ينادي بحرية المرأة في عالمنا الإسلامي إنما هو نتاج ولع المهزوم والمقهور بتقليد الغالب

١- «المرأة بين الفقه والقانون» للدكتور مصطفى السباعي ص ٢١ [الناشر : المكتب الإسلامي - بيروت - دمشق ، الطبعة السادسة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م] .

٢- بتصرف من «المرأة بين الفقه والقانون» ، ص ١٩٩ (مصدر سابق) .

والمنصور واتباعه في كل صغيرة وكبيرة وفي أمثال هؤلاء قال الحبيب المصطفى ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو سلكوا جُحر ضب لسلكتموه ، قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن؟!»[1] .

وقد سلك كثير من نساء وفتيات الإسلام طرق النساء الغربيات واتبعن طريقتهن في الانحلال الأخلاقي والعُري الجسدي وصدقت نبوءة النبي الصادق ﷺ في هؤلاء النسوة الذي قال في حقهن في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ «ونساء كاسيات عاريات مُميلات مائلات ، رؤوسهن أسنمة البُخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا...»[2] وهذا الصنف من النساء هن من أهل النار ، أعاذنا الله وجميع القراء من المسلمين منها ..

شرح مفردات الحديث :

قوله ﷺ : (كاسيات عاريات) قال الإمام النووي - رحمه الله - «هذا الحديث من مُعجزات النبوة ، وقيل معناه كاسيات من نعمة الله عاريات من شُكرها ، وقيل : معناه تستر بعض بدنها وتكشف بعضه إظهاراً بحالها ونحوه ، وقيل : معناه تلبس ثوباً رقيقاً يصف بدنها[3] وقال ابن الجارود : «قال عيسي بن دينار قوله (كاسيات عاريات) قال: يلبسن ثياباً رقاقاً فهن كالكاسيات بلبسهن تلك الثياب ، وهن عاريات لأن تلك الثياب لا تواري منهن ما ينبغي لهن أن يسترنه من أجسادهن .. قال مالك - رحمه الله- : بلغني أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) نهى النساء أن يلبسنَ القباطيَّ[4] ، قال : وإن كانت لا تشفُّ فإنها تصفُ ، قال مالك : معنى تصف أي : تلصقُ بالجلد ، وسُئل

١- رواه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣١٩٧ ، ومسلم في كتاب العلم ٦٢٠٥ وسوف نشرح هذا الحديث تباعاً .

٢- رواه مسلم في اللباس والزينة ٣٩٧١ ، والإمام مالك في الموطأ ١٤٢١ .

٣- شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ٢٤٤) .

٤- نسبة إلى القبط من أهل مصر وهو نوع من ثياب النساء اللاتي كانت ترتديه النساء في المدينة النبوية .

مالك عن الوصائف يلبسن الأقبية[1] فقال : ما يُعجبني ذلك ، وإذا شدّتها عليها ظهر عُجزُها ، ومعنى ذلك أنه لضيقه يصف أعضاءها كعجُزها (وهو الجزء الأسفل الخلفي من المرأة) وغيره مما شُرِع ستره والله أعلم وأحكم»[2] . ورحم الله علماء أهل الإسلام من سلفنا الصالح حيث إنه لم يكن يدور بخلد أحدهم أن النساء سيرتدين ملابس عارية تماماً إلا أجزاء يسيرة يسترن بها عوراتهن المغلظة كما حدث في زماننا الذي نعيش فيه حيث عُري النساء على الحقيقة ، فقد ظهر هذا العُري النسوي في بدايات القرن الماضي حيث اتبعن النساء خطوات الشيطان خطوة خطوة بدأن بخلع بُرقع الوجه ثم خلع (الإيشارب) أو غطاء الرأس فظهرت المرأة حاسرة عن شعرها ، ثم تبعه الملابس الشفافة والفضفاضة كنساء أوربا ، ثم تبعه العُري الكامل سواء من أعلى أم من أسفل ثم أخيراً لبسن نساء المسلمين ما يُسمى المايوهات شبه العارية تماماً والتي لا تستر إلا شيئاً يسيراً من أجسادهن كما يظهرن بذلك المظهر على شواطئ البحر ، ولذلك يمكن القول إن الإشارة النبوية للنساء الكاسيات العاريات إنما قصد به – صلوات الله وسلامه عليه – نساء هذا الزمان اللائى تعرين على الحقيقة وأصبحن لا يخجلن وانقشع عنهن برقع الحياء الكامل ، حتى أصبحن على ما هن عليه الآن من سفور تام وعُري حقيقي ، كما هو مُشاهد الآن على محطات الفضائيات العربية من أفلام ماجنة داعرة وإعلانات فاضحة تباع فيها الفتيات المسلمات بأثمان رخيصة في سوق النخاسة العالمية الذي يسيطر عليه يهود هذا الزمان ، ومن عجب أن من يمتلك تلك الفضائيات ينتسبون إلى الإسلام .

أما الفضائيات التي تحث على الفضائل والأخلاق الإسلامية الحميدة فتصادر وتغلق تحت ذرائع وحجج واهية ولا حول ولا قوة إلا الله[3] .

١- نوع من الثياب الضيقة .

٢- المنتقى – شرح الموطأ لابن الجارود (٤/ ٣٠٨).

٣- وقد حدث ذلك قبل اندلاع الثورة المصرية والثورة التونسية من قبلها .

وقوله ﷺ (مائلات) فمعناه عن طاعة الله - عز وجل - وما يلزمهن حفظه ، زائغات عن طاعة الله - سبحانه وتعالى - وطاعة أزواجهن وما يلزمهن من صيانة الفروج والتستر عن الأجانب .

و(مُميلات) أي : يُعلِّمن غيرهن فعلهن المذموم ، وقيل : مائلات يمشين متبخترات ، مُميلات لأكتافهن ، وقيل : مائلات يمشُطن المِشطة المائلة ، وهي مِشطة البغايا ، مُميلات : يمشطن غيرهن تلك المِشطة ، وقيل (مُميلات) لقلوب الرجال بما يُبدين من زينتهن وطيب رائحتهن»[1] .

والحقيقة أن معنى (مائلات مُميلات) حسب تفسير عصرنا الذي نعيش فيه وما نشاهده ونسمعه عن نساء هذه الأيام وخاصة ممن ينادين بما يُسمى بتحرير المرأة (من العفة والدين والأخلاق والحياء) ، فذلك يرجع لتكسُّر النساء واعوجاجهن في مشيتهن بسبب ما يلبسن في أرجلهن من أحذية ونعال ذات كعوب عالية مما يساعد على ميلهن يمنة ويسرة ، فهؤلاء يمشين تلك المشية المائلة ليغرين ويفتنَّ الرجال وهذا مصداق الحديث النبوي الذي رواه الترمذي وأحمد عن أسامة بن زيد عن النبي ﷺ قال : «ما تركتُ بعدي في الناس فتنة أضرَّ على الرجال من النساء»[2] قال المباركفوري: «لأن الطباع كثيراً تميل إليهن وتقع في الحرام لأجلهن وتسعى للقتال والعداوة بسببهن ، وأقل ذلك أن تُرغِّبه (أى : الرجل) في الدنيا ، وأيُّ فساد أضرُّ من هذا ؟ وإنما قال (بعدي) : لأن كونهنَّ فتنة أضرَّ (بالرجال) ظهرت بعده»[3] وقال الحافظ ابن حجر : «إن فتنة النساء أشد من الفتنة بغيرهن ، ويشهد له قوله تعالى ، ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ [آل عمران : ١٤] . فجعلهن من حب الشهوات ، وبدأ بهن قبل بقية الأنواع إشارة إلى أنهن الأصل في ذلك ، وقد قال بعض الحكماء : النساء شرٌّ كلهن وأشرُّ ما فيهن عدم الاستغناء عنهن ، ومع أنها ناقصة العقل والدين ،

١- راجع النووي بشرح مسلم (٧/ ٢٤٤) ، والمدخل لابن الحاج (١/ ٣٦٩) .

٢- رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأحمد في المسند ٢٢٤٦٣ وصححه الألباني .

٣- تحفة الأحوذي شرح الترمذي للمباركفوري (٧/ ٨٩) .

تحمل الرجل على تعاطي ما فيه نقص العقل والدين كشغله عن طلب أمور الدين ، وحمله على التهالك على طلب الدنيا وذلك أشد الفساد»[١] وهذا مُشاهد ومُعاين بكثرة في هذا الزمن الذي كَثُر فيه النساء وقلَّ فيه الرجال!!

وقد روى الترمذي عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أنه قال : أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لا يُحدِّثكم أحدٌ بعدي أنه سمعه من رسول الله ﷺ قال : «إن من أشراط الساعة ... (ثم ذكر) .. ويكثر النساء ويقلُّ الرجال حتى يكون لخمسين امرأة قيِّم واحد...»[٢] .

وفي رواية لأبي عمرو الداني عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يتبع الرجل ثلاثون امرأة كلهن تقول : أنكحني أنكحني»[٣] ومعني أنكحني أي : تزوجني ، وهذا معاين ومُشاهد في زماننا حيث إن كثيراً من النساء يعرضن أنفسهن للزواج عبر وسائل الإعلام والاتصالات المختلفة ، وذلك لأن نسبة العنوسة في العالم العربي أي : نسبة عدم المتزوجات بلغت أرقاماً مخيفة حيث بلغت العنوسة في مصر إلى درجة كبيرة ، فحسب آخر الإحصاءات الرسمية يوجد في مصر (٥.٣ مليون) فتاة فوق سن الـــ ٣٥ سنة ومعدل العنوسة في مصر يُمثل ١٧٪ من الفتيات اللاتي في سن الزواج ، وهي في تزايد مستمر .

ونسب الطلاق التي تقع بين الشباب وهي أرقام مرعبة حيث بلغت في الإمارات العربية ٤٨٪ وفي الكويت ٣٥٪ وفي قطر ٣٨٪ حتى بالنسبة لسوريا والشام والتي يرتفع فيها نسب الجمال بين الفتيات والنساء عن بقية دول العالم العربي فشبح العنوسة يتهدد الكثيرات منهن ، وذلك نسبة إلى ارتفاع تكاليف الزواج وبعض العادات والتقاليد الاجتماعية التي تقف كحائلٍ أمام إقدام الشباب على الزواج ، وكذلك الحال

١- فتح الباري شرح البخاري لابن حجر العسقلاني (١٤/ ٣٣٧) .

٢- رواه الترمذي (٨/ ٤٠٢ حديث رقم ٢٣٦٥) وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وصححه الألباني، ورواه أبو عمرو الداني في السنن في الفتن (١/ ٤٨٣) .

٣- راجع السنن الواردة في الفتن للداني (١/ ٤٨٤) .

في بلاد المغرب العربي ، وهذا غيض من فيض مما ذكرته كثير من المواقع الإلكترونية التي تتحدث عن هذه الحالة الخطيرة والتي أصبح فيها النساء هم الكثرة الكاثرة في هذا الزمن ، وذلك تأكيداً على صدق الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى - صلوات ربي وسلامه عليه - وقوله ﷺ (رءوسهن كأسنمة البُخت المائلة) : الأسنمة جمع : سَنَام بفتح السين المهملة والنون وهو أعلى ما في ظهر الجمل البُخت : بضم الباء هي الإبل الخرسانية طوال الأعناق .. والمعنى : أن النبي ﷺ شبَّه النساء اللاتي يرفعن شعورهن تزييناً وتصنعاً ، وقد قال النووي رحمه الله في شرح معنى (رءوسهن كأسنمة البُخت) : «أن يُكبِّرنها ويُعظِّمْنَها بلفِّ عمامة أو عِصابة أو نحوهما»[1] وقال أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري المالكي المعروف بابن الحاج المتوفى سنة (٧٣٧ هـ) عن نساء عصره وزمنه في مصر المحروسة عن تلك العمامة التي تحدَّث عنها الإمام النووي: «وأقل ما فيه من الضرر أن رأسها (أي : رأس المرأة التي تعمم رأسها بتلك العمامة التي كانت على ما يبدو الموضة في ذلك الوقت) يعتل بسبب هذه العمامة؛ لأنهن تخذنها عادة من فوق الحاجبين ، وهي تغطي أكثره»[2] فهذه العمامة التي كانت تضعها النساء في تلك الأزمنة والقرون هي غاية الموضة في ذلك العصر حتى كان منتصف القرن الماضي والذي بدأت فيه النساء بالسفور والتبرج والكشف عن شعورهن ونزع الحجاب وكان ذلك منذ بداية الدعوة التي نادى بها قاسم أمين[3] والمسماة بتحرير المرأة ، ثم أعقبت تلك الدعوة ظهور الحركة النسائية بزعامة هدى شعراوي ثم توالت دعاوى الفساد وانسلاخ المرأة عن دينها وخِدرها وخروجها إلى الحياة العامة تقليداً أعمى لبنات ونساء أوربا والغرب المسيحي ثم بدأت بقية الدول العربية والإسلامية تحذو حذو مصر في الدعوة إلى سفور وتبرج المرأة بتأييد قوى الشر من العلمانيين ودعاة التبرج والانحلال الخُلُقي - حتى أصبحت المرأة على ما هي عليه الآن من التزين

١- شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ٢٤٤) .

٢- المدخل لابن الحاج (١/ ٣٦٩) .

٣- سيأتي الحديث عنه تباعاً .

الفاضح والعُري الفاحش وأصبح النساء يلبسن الباروكات ويصلن شعورهن بآخر مستعار ، وانتشر في العالم الإسلامي ما يُسمى بحلاق السيدات أو (الكوافير) .

ومن المعروف أن حُكم وصل الشعر في الإسلام لا يجوز ؛ لأن النبي ﷺ قال في الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : لعن رسول الله ﷺ الواصلة(١) ، والواصلة هي التي تصل شعر المرأة بشعر آخر ، هذا عن النساء مع النساء فما بالنا والحال الآن هو وصل الرجال لشعر النساء .. وقد أصبحت كثير من نساء زماننا ممن يلبسن الباروكات والشعور المستعارة رؤوسهن تماماً كما وصفهن رسول الله ﷺ كأسنمة البُخت ، وقد روى عبد الرزاق في مصنفه عن حبر الأمة عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما أنه قال : «إنما هلكت نساء بنى إسرائيل من قِبل أرجلهن ، وتهلك نساء هذه الأمة من قِبَل رؤوسهن»(٢) والمعنى أن نساء بني إسرائيل كن يضعن في أرجلهن ما كان يُسمى بالخلخال وذلك ليعلمن الرجال إذا مشين في الليل البهيم .

وأما نساء هذه الأمة من المتبرجات فإنما هلاكهن من لبس الباروكات ووصل شعورهن لإغراء الرجال وذلك سبب قول النبي ﷺ عندما مرَّ على مُصلًّى النساء وقال لهن «يا معشر النساء تصدَّقن ، فإني رأيتكن أكثر أهل النار»(٣) .

ولذلك كان هذا الصنف من النساء اللاتي يفعلن تلك الأعمال المنافية للأخلاق الإسلامية الحميدة والداعيات إلى ما يُسمى بـ (تحرير المرأة) من الحياء والعفة إلى السفور والتبرج هن صنف من أهل النار واللاتي لن يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها إن لم يدركن أنفسهن ويسرعن إلى التوبة بشروطها المعروفة ثم الدعوة إلى تحرير المرأة من الأفكار الدخيلة على شرع الله - عز وجل - ومن التقليد الأعمى للغرب المسيحي وعدم اتباع كل ناعق وناعقة الداعين إلى الانحلال والانسلاخ الكلي للمرأة من تعاليم

١- رواه البخاري ٤٨٨٧ ، وفي رواية مسلم : (لعن الله الواصلة والمستوصلة) ٥٦٨٧ والمستوصلة : هي التي تطلب من يفعل بها ذلك .

٢- مصنف عبد الرزاق (١١/ ٣٠٥ حديث رقم ٢٠٦٠٩) .

٣- رواه البخاري ١٤٦٢ ، ومسلم ٢٥٠ .

الإسلام التي حافظت على حريتها وكرامتها وصانت عِرضها من عيون ذئاب الرجال البشرية وذلك من خلال تمسكها بحجابها وجلبابها الإسلامي الذي يصون شرفها ويحفظ عفافها من نظرات أبالسة الجن والإنس ، حفظ الله النساء المسلمات العفيفات الطاهرات من كل سوء ومن كل شر الفتن التي يموج بها عصرنا الذي نعيش فيه ، وأدعو الله - عز وجل - أن يكن كاسيات في الدنيا والآخرة لا كبعض النساء اللاتي يلبسن الحجاب ويفعلن ما يخدش الحياء وهؤلاء حالهن كما وصفهن رسولنا الكريم - صلوات ربي وسلامه عليه - في الحديث الذي رواه البخاري عن أم سلمة (رضي الله عنها) قالت : استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة فقال : «سبحان الله ماذا أُنزل الليلة من الفتن وماذا فُتِحَ من الخزائن؟ أيقظوا صواحبات الحُجَر ، فَرُبَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»[1] .

و(صواحِب الحُجر) بضم الحاء وفتح الجيم : جمع حُجرة وهي منازل أزواج النبي ﷺ وإنما خَصَّهُنَّ بالإيقاظ لأنهن الحاضرات حينئذ وذلك للصلاة والاستعاذة مما نزل ليكونوا أول من استعاذ من فتن الدنيا .

وقوله (رُبَّ كاسيةٍ في الدنيا عارية في الآخرة) قال ابن بطال : يُحتمل أن تكون الكاسيات مما لا يسترهن من واصف الثياب ورقيقه ، فهي كاسية عارية ، فربما عُوقبت في الآخرة بالتعرية والفضيحة التي كانت تبتغي في الدنيا». وقال الإمام بدر الدين العيني المصري المتوفى سنة (٨٥٥ هـ) أي في القرن التاسع الهجري : «والمراد : إما اللاتي تلبس رقيق الثياب التي لا تمنع من إدراك البشرة معاقبات في الآخرة بفضيحة التعري ، وإما اللابسات للثياب الرقيقة النفيسة عاريات من الحسنات في الآخرة فندبهن على الصدقة وحضهن على ترك السرف في الدنيا يأخذن منها أقل التكلفة ويتصدقن بما سوى ذلك وهذه البلوى عامة في هذا الزمان (أي : في زمانه منذ خمسة قرون ونصف تقريباً) لا سيما في نساء مصر المحروسة ، فإن الواحدة منهن تتغالى في ثمن قميص إما من عندها أو بتكليفها زوجها حتى تُفصِّل قميصاً بأكمام هائلة وذيل

١- رواه البخاري في كتاب العلم ، باب : العلم والعظة بالليل ١١٥ .

سابلة جدّاً منجرة وراءها أكثر من ذراعين وكل كم من كميها يصلح أن يكون قميصاً معتدلاً ومع هذا إذا مشت يُرى منها أكثر بدنها من نفس كمها . فلا شك أنهن ممن يدخلن في هذا الحديث وهو من جملة معجزات النبي ﷺ حيث أخبر بذلك قبل وقوعه لما علم بإطلاع الله - تعالى - إياه أن مثل هذا سيقع في أمته من فتح الخزائن وكثرة الأموال المؤدية إلى مثل هذه الجريمة وغيرها»[1] .

ورحم الله شيخنا وعالمنا الجليل بدر الدين العيني الذي اعتبر - حسب الوصف الذي وصفه - لما ترتديه نساء عصره جريمة ، فما باله لو شاهد ما ترتديه نساء عصرنا ممن يلبسن الملابس الخليعة والعارية وشبه العارية ، فلا شك أن نساء عصره بالنسبة لنساء عصرنا هنَّ من الفضليات العفيفات!!

أما عن وصف نبينا المصطفى - صلوات ربي وسلامه عليه - للنساء الكاسيات في الدنيا العاريات في الآخرة فلا أخاله إلا ينطبق على نساء عصرنا تمام الانطباق فهو من دلائل الإعجاز النبوي ومن نور البيان ؛ لأننا شاهدنا وسمعنا وقرأنا عن نساء كاسيات بل ويرتدين الحجاب وربما النقاب ويأتين بأفعال فاضحة ومشينة ومنهن من ارتكبت جرائم وكبائر كالقتل والزنا والسرقة وهن يرتدين تلك الملابس الكاسية ، فأمثال هؤلاء هن الكاسيات في الدنيا العاريات في الآخرة إن لم يتبن قبل مماتهن ، وهذه الأحاديث النبوية إنما هي من الأحاديث الإعجازية التي كشف بها النبي الكريم ﷺ النقاب عن حال نساء كثيرات من أُمته سيقعن في شباك شياطين الإنس والجن ويفعلن تلك الأفعال الفاضحة كتعرية أجسادهن وكشف عوراتهن والانسلاخ من دينهن فكانت تلك الأحاديث بمثابة تحذير وتنبيه لمن تفعل منهن مثل تلك الجرائم أن عقوبتها الخسران في الدنيا وحرمانهن من دخول الجنة في الآخرة ومصيرهن إلى جهنم وبئس المهاد ، لذا كان هذا الوعيد والتحذير الشديد لكل فتاة وامرأة ممن تنطبق عليهن تلك الصفات التي ذكرناها آنفاً من مآلهن الذي ينتظرهن إن لم يتبن ويرجعن إلى حظيرة الإسلام وفسطاط الإيمان وطريق الهدى والرشاد والتأسي بالنساء الصالحات

---

١ - عمدة القاري بشرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (٢/ ١٧٤) .

القانتات العابدات ويقتدين بهن في سلوكهن وأخلاقهن الحميدة ، ولا يكن كالإمعات ممن يسرن وراء كل ناعق فاسد مريض القلب وكل ناعقة داعية إلى الانحلال الأخلاقي ممن كثرن في هذا الزمان ، ولتتأسى كل فتاة وامرأة تريد الصلاح والهدى بصواحبات الأخلاق الحميدة وليتبعهن في سلوكهن وهديهن وليعلمن أن النبي ﷺ قال في الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «الرجل على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»[1] . والخليل هو الصاحب والصديق ، وبما أن النساء شقائق الرجال - كما ذكرنا ذلك آنفاً فلتحرص النساء والفتيات اللاتي يُردن الهدى والصلاح من مصاحبة المؤمنات القانتات العفيفات الطاهرات ويبتعدن كل البُعد عن مجالسة ومصاحبة الفاسدات السافرات العاهرات ويقاطعن كل ما يؤدي إلى ذلك من مشاهدة الأفلام والمسلسلات والبرامج الهابطة في الفضائيات[2] التي يحاول أصحابها بكل ما أوتوا من إمكانيات من إشاعة الفاحشة في المؤمنين والمؤمنات والله - عز وجل - يقول عن أمثال هؤلاء : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور : ١٩] .

ولذلك أختي المسلمة وفتاتي المؤمنة كوني حريصة كل الحرص من أمثال هؤلاء واعلمي أن الخير كل الخير في التزامك واتباعك لأوامر دينك إذا أردت أن تلحقي بركب سلفك الصالح من أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن - والصحابيات الطاهرات النقيّات العفيفات - رضي الله عن الجميع - ولتعلمي أختاه أن أعداء الإسلام في عصرنا الحاضر يحاولون إفساد المرأة لأن بفسادها تفسد الأسرة المسلمة ولذلك هم يتربصون بالمرأة المسلمة لإخراجها من خِدرها وبيتها وعفتها وكرامتها والإيقاع بها في بئر الرذيلة وأوحال السفور والتبرج والفساد والآثام والأخلاق غير الحميدة ، وهذه شهادة من أحد الكُتّاب الأمريكيين وهو الدكتور (هنري ماكوو)[3]

١- رواه أبو داود في كتاب الأدب / ٤٨٣٥ ، والترمذي في الزهد ٢٥٥٢ وصححه الألباني .

٢- راجع إن شئت كتابنا : تربية البنات في الإسلام [الناشر : دار ابن الجوزي - القاهرة] .

٣- مقال بعنوان : البرقع مقابل البكيني للدكتور هنرى ماكوو (مقال على الإنترنت) .

ويشغل منصب أستاذ جامعي وهو مؤلف وباحث متخصص في الشؤون النسوية وحركاتها التحررية فيقول في مقال له في لحظة صدق مع النفس : «على حائط مكتبي صورتان : الأولى لامرأة مسلمة تلبس البرقع (النقاب أو الحجاب وغطاء الرأس) ، والثانية صورة متسابقة أمريكية لا تلبس شيئاً سوى (البكيني) ، المرأة الأولى تغطت تماماً عن العامة والأخرى مكشوفة تماماً» ثم يشير الكاتب إلى الدوافع التي كانت بالأمس خفية وأصبحت الآن مُعلنة وظاهرة للعيان لحرب الغرب على الأمة الإسلامية ، موضحاً أنها حرب ذات أبعاد سياسية وثقافية وأخلاقية وخاصة فيما يتعلق بالمرأة التي يريدون لها التعري واستبدال البكيني بالبرقع وما يحمله الأخير من قيم فاسدة تتعلق بالتفسخ والتعري فيقول : «إن الحرب في الشرق الأوسط إنما هي لتجريد العرب من دينهم وقيمهم وثقافتهم واستبدال البكيني بالبرقع» ثم يمتَدح د. هنري القيم الأخلاقية للحجاب أو البرقع أو ما يستر المرأة المسلمة فيقول : «لست خبيراً في شؤون النساء المسلمات وأحب الجمال النسائي كثيراً مما لا يدعوني للدفاع عن البرقع هنا ، لكنني أدافع عن بعض من القيم التي يمثلها البرقع لي ، فهو يُمثِّل التستر وتكريس المرأة نفسها لزوجها وعائلتها ، هم فقط الذين يرونها وذلك تأكيداً لخصوصيتها .. إن تركيز المرأة المسلمة مُنصب على بيتها ، وعش الزوجية حيث يُولد أطفالها وتتم تربيتهم ، فهي الصانعة المحلية للرجال ، وهي الجِذر الذي يُبقي على حياة الروح العائلية .. فهي تربي وتُدرِّب أطفالها ، وتمد يد العون لزوجها وتكون ملجأً له ..» ، هذه شهادته عن المرأة المسلمة ودورها في تربية أبنائها وتنشئتهم نشأة صالحة فهي في هذه الحالة مفرخة لجيل من الشباب الطاهر العفيف كما قال الشاعر حافظ إبراهيم :

الأم مدرسة إذا أعددتَها	أعددت شعباً طيب الأعراقِ
الأم روضٌ إن تعهده الحيا	بالريِّ أَوْرق أيّما إيراقِ
الأم أُستاذ الأساتذة الأُلى	شغلت مآثرهم مدى الآفاقِ
أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً	بين الرجال يجلن في الأسواق
ليست نساؤكم حُلَى وجواهراً	خوف الضياع تُصان في الأحقاق

ليست نساؤكم أثاثاً يُقتنى	في الدور بين مَخادِعٍ وطِباق
فتوسطوا في الحالتين وأنصفوا	فالشرُّ في التقييد والإطلاق
ربوا البنات على الفضيلة إنها	في الموقفين لهن خير وثاق
وعليكم أن تستبين بناتكم	نور الهدى وعلى الحياء الباقي[1]

ثم ينتقل الكاتب الأمريكي لوصف بنات ونساء جلدته فيقول : «على النقيض فإن ملكة الجمال الأمريكية وهي ترتدي البكيني فهي تختال عارية تقريباً أمام الملايين على شاشات التلفزة .. وهي ملك للعامة . تسوق جسمها إلى المزايد الأعلى سعرا .. هي تبيع نفسها بالمزاد العلني كل يوم .. ففي أمريكا فإن المقياس الثقافي لقيمة المرأة هو جاذبيتها ، وبهذه المعايير تنخفض قيمتها بسرعة .. فهي تشغل نفسها دائماً وتهلك أعصابها للظهور لأنها تعلمت أنها ستكون محبوبة فقط إذا مارست الجنس .. هكذا تتعلق بالعواطف الفارغة بدلاً من الخطوبة والحب الحقيقي والزواج الطبيعي .. فالعشرات من الذكور يعرفونها قبل زواجها .. تفقد براءتها التي هي جزء من جاذبيتها .. حتى تصبح جامدة بلا مشاعر وغير قادرة على الحب والعطاء والشعور بالأمومة الحقة .

إن النظام العالمي الجديد لا يريدنا أن نصل إلى هذا المستوى من الرُّشد .. حيث يريدوننا منفردين منعزلين .. جائعين جنسيًا ويُقدِّم لنا الصور الفاضحة بديلاً عن الزواج . إن تحرير المرأة خدعة من خدع النظام العالمي الجديد ، إنها دعوة فارغة وخدعة قاسية أغوت النساء الأمريكيات وخرَّبت الحضارة الغربية .. لقد دمرت الملايين وتمثل تهديداً كبيراً للمسلمين .. إنني لا أدافع عن البرقع أو النقاب والحجاب ، ولكن إلى حدٍّ ما بعض القيم التي يمثلها ، بصفة خاصة عندما تهب المرأة نفسها لزوجها وعائلتها .. فالتواضع والوقار يستلزم مني هذه الوقفة»[2] .

١- بتصرف من قصيدة رائعة لشاعر النيل حافظ إبراهيم (١٨٧١ - ١٩٣٢م) بعنوان : (في حب مصر) يقول في مطلعها : كم ذا يُكابدُ عاشقٌ ويُلاقي في حُبِّ مصرَ كثيرة العُشَّاقِ

٢- بتصرف من المقال السابق والذي عنوانه : (البرقع مقابل البكيني) .

فهذه شهادة من أمريكي معاصر عانى كغيره من جيله من سفور وتبرج بنات جنسه حتى أصبحت المرأة الأمريكية خاصة والغربية عامة على ما هي عليه الآن من السفور والعُري والجنس الفاضح ، وقد حكى لي أحد الإخوة العائدين من أمريكا أن المرأة هناك تُؤتَى على قارعة الطريق وأمام المارة كما تؤتى البهيمة ، ولذلك هم يريدون أن تصل المرأة في عالمنا العربي والإسلامي إلى هذه الدرجة من السفالة والانحطاط الأخلاقي ، وبالفعل فقد بدأت بوادر ذلك تظهر على نطاق واسع في بعض العواصم العربية وخاصة على شواطئ العُري وحتى داخل المدن ، فإذا مررت بالسيارة في قلب القاهرة وخاصة عند كورنيش النيل في المساء ستجد أمثلة على ذلك ولولا القوانين التي تُحرِّم وتُجرّم ذلك الفعل الفاضح مما نشاهده من بعض الشباب الطائش في أوضاعهم المخلة في تلك الأماكن لأصبحنا كالغرب المسيحي، ولست أدري أهذا الزمان الذي قال عنه أبو يعلى الموصلي في الحديث الذي رواه عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ أنه قال : «والذي نفسي بيده لا تفنى هذه الأمة حتى يقوم الرجل إلى المرأة فيفترشها في الطريق ، فيكون خيارهم يومئذ من يقول : لو واريتها وراء هذا الحائط»[1]. وفي رواية الحاكم عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى لا يبقى على وجه الأرض أحد لله فيه حاجة ، وحتى توجد المرأة نهاراً جهاراً تُنكح وسط الطريق ، لا يُنكر ذلك أحد ، ولا يُغيِّره فيكون أمثلهم يومئذ الذي يقول : لو نحَّيتها عن الطريق قليلاً ، فذاك فيهم مثل أبو بكر وعمر فيكم»[2] .

وفي رواية عند مسلم : «فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمُر ، فعليهم تقوم الساعة». قال الإمام النووي : «يتهارجون

١- رواه أبو يعلى الموصلي في المسند ١٢-٤٣٩ ، حديث رقم ٦٠٤٩ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد : رجاله رجال الصحيح (٧/ ٣٣١) .

٢- رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٤٩٥) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، وتعقبه الذهبي فبعد أن صححه ، قال : بل سليمان (أحد رواة الحديث) هالك ، والخبر شبه خرافة .

تهارج الحُمُر» أي : يجامع الرجال النساء بحضرة الناس كما يفعل الحمير ، ولا يكترثون لذلك . ، والهرْج بإسكان الراء : الجماع»[1] .

وهذا كائن اليوم في المجتمعات الغربية حيث يتهارج النساء والرجال في الطرقات العامة ، كما سبق وأشرنا ، وهذا ما يريدونه لأمتنا الإسلامية ، ولنساء المسلمين من انتشار الفساد والعُهر والانحلال الأخلاقي ..

لذا فعلى الرجال في هذا الزمن العبء الأكبر في تحمل مسؤولية تبرج النساء وخروجهن سافرات عاريات من بيوتهن حتى أصبحنا نعيش الآن – عياذاً بالله تعالى – في زمن الدياثة .. فما هي هذه الدياثة ؟

١- راجع : مسلم بشرح النووي (٩/ ٣٢٧) حديث رقم ٥٢٢٨ .



فصل :

دلائل النبوة ونور البيان في الإخبار عن انتشار الدياثة وقلَّة غَيْرةِ رجال هذا الزمان

قبل الدخول والولوج في الحديث عن الدياثة وأصحابها في زماننا نُلقي الضوء عن معني الدياثة ومن هم المعنيون بها .. فالدياثة من : دَيث ، يُقال : ديَّث الأمر : بتشديد الياء أى : ليَّنه ، وديَّث الطريق أي : وطَّأه . وديَّث البعير أي : ذلَّله بعض الذُّل .

والدَّيُّوث : بتشديد الدال المهملة والياء هو القوَّاد على أهله والذي لا يغار على أهله.. والتدييث أي : القيادة .

والديوث والديبوث : الذي يُدخل الرجال على حُرمته بحيث يراهم ، كأنه ليَّن نفسه على ذلك . وقيل هو : الذي تُؤتَى أهله وهو يعلم .

فالديوث : هو الرجل الذي لا غَيْرَةَ له على أهله ، والدِّياثة بالكسر : فعله [1] .

وقال الزبيدي : «وإذا كان مأخوذاً من قولهم : بعير مُدَيَّث أي : مُذَلَّل ، لكونه لا غيرة له كأنه ذُلِّل حتى صار كالبعير المُنقاد ، المرَوَّض لا يصعُب عليه الأمر . ويقال : داث الرجل يديث دياثة وهو ديُوث غير مُشدَّد الياء إذا لم تكن له غَيرة ولم يُبال بالحشمة» [2] .

والخلاصة أن الديوث من الرجال هو : القَوَّاد الذي يقود أهله إلى حتفهم وهلاكهم لأنه يُسهِّل لهم الفُحش والدعارة وهو الذي يفقد معنى القوامة الحقيقية التي سيسأله

١- راجع : تهذيب اللغة للأزهري (٤/ ٤٦٨) ، ولسان العرب لابن منظور (١٥/ ٣٩٨) والمصباح المنير للفيومي (٣/ ٢٨٧) .

٢- تاج العروس للزبيدي (١/ ١٢٥٨) .

الله - عز وجل - عنها يوم القيامة لأنه لم تكن له الغَيْرَة ولا الحميَّة على أهله ولأنه لم يخجل أن يُخرجها من خدرها وبيتها وهي عارية أو شبه عارية أو بملابس غير شرعية كما هو الحاصل الآن في عصرنا الحاضر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وقد روى النسائي وأحمد عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا ينظر الله - عز وجل - إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ، والمرأة المترجِّلة والديوث» . وفي رواية الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) أن رسول الله ﷺ قال : «ثلاثة قد حرَّم الله عليهم الجنة : مُدمن الخمر والعاق ، والديوث الذي يُقرُّ في أهله الخبث»[١] وأخرج عبد الرزاق في المصنف أن رسول الله ﷺ قال : «لا يدخل الجنة ديوث ، ولا مدمن خمر ، ولا رِجلة من النساء»[٢] والمرجِّلة ، والرِجلة : بكسر الراء هي التي تتشبه بالرجال في ملابسهم وطريقتهم وهن كُثر في زماننا وقد لعنهن رسول الله ﷺ فعن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ أنه قال «لعن المتشبهين من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء»[٣] .

وهؤلاء شر النساء الذي قال عنهن النبي ﷺ في الحديث الذي رواه البيهقي عن أبي أذينة أن رسول الله ﷺ قال «خير نسائكم الولود الودود المواسية المواتية إذا اتقين الله ، وشر نسائكم : المتبرجات المتخيلات وهن المنافقات ، لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم»[٤] وقد روى الطبراني عن أبي أمامة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «مثل المرأة الصالحة من النساء كِمثل الغراب الأعصم ، قيل يا رسول الله ﷺ : وما الغراب الأعصم ؟ قال : الذي إحدى رجليه بيضاء»[٥] وهو كناية عن

١- رواه النسائي (٨/ ٤.٣ حديث رقم ٢٥٧٤) باب : المنان بما أعطى ، وأخرجه الإمام أحمد في المسند ٥٤٨٩ وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٠٥٢ .

٢- مصنف عبد الرزاق (١١/ ٢٤٣ حديث رقم ٢٠٤٣٧) .

٣- رواه أبو داود (٤/ ٦٠ حديث رقم ٤٠٩٧) وصححه الألباني .

٤- رواه البيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٨٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٤٦٤ حديث رقم ١٨٤٩) .

٥- المعجم الكبير للطبراني (٧/ ٢٣٤ حديث رقم ٧٧٢٢) .

قلة من يدخل الجنة من النساء لأن هذا الوصف عزيز وقليل في الغربان ، وكذلك الحال في النساء اللاتي سيدخلن الجنة فهن قليل بالنسبة لنساء أهل النار - كما سبق وأشرنا إلى الأحاديث النبوية التي ذكرت ذلك - والتي منها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري قال : خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فِطر إلى المُصلَّى ، فمرَّ على النساء فقال : «يا معشر النساء تصدَّقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار» فقلن وبِمَ يا رسول الله قال : «تُكثِرن اللعن ، وتكفرن العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للُبِّ الرجل الحازم من إحداكن» قلن : وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله ؟ قال : «أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل» ، قلن بلى . قال : «فذلك من نقصان عقلها ، أليس إذا حاضت لم تُصلِّ ولم تَصُم». قلن بلى . قال : «فذلك من نقصان دينها»[1] .

وشاهدنا في الحديث قوله ﷺ «أذهب» وفي رواية مسلم : «أغلب» أي : أشد إذهاباً ، وغَلَبَة.. و «اللُّب» أخصّ من العقل وهو الخالص منه و(الحازم) أي : الرجل الضابط لأمره ، وهذه مبالغة في وصفهن بذلك ؛ لأن الضابط لأمره إذا كان ينقاد لهن فغير الضابط أولى»[2] وهم الرجال الأقل في الحزم والشدة والغَيْرة على نسائهم .

مما سبق يتضح أن معني الدياثة هي عدم غَيْرَة الرجال على نسائهم .. وأن المعنيَّ بهم هم الرجال الذين فقدوا هذا الشعور وذلك الإحساس المتمثل في عدم الحفاظ على شرف نسائهم والذود عن أعراضهن وهذا مُشاهد ومُعاين في كثير من رجال زماننا الذين تبلَّد شعورهم فأصبح الرجل منهم - إلا من رحم - لا يغار على زوجته ولا على ابنته ولا على بقية أهله ، وأصبحنا نشاهد كثيراً من النساء المتبرجات وشبه العاريات والمتخيِّلات (أي : الذين يمشين خُيلاء ، وهي مشية يبغضها الله - عز وجل - ورسوله ﷺ في الرجال ، ناهيك عن النساء) وهذا كله ناتج عن عدم الغَيْرَة ، فما العلاقة بين الغيرة والدياثة .

١- أخرجه البخاري ٣٠٤ ، ومسلم ٢٥٠ .

٢- بتصرف من فتح الباري شرح البخاري لابن حجر العسقلاني (١/ ٤٧٦) .

العلاقة بين الدياثة والغَيْرَة :

شرحنا آنفاً معنى الدياثة، وأما الغَيْرَة بفتح الغين المعجمة وسكون التحتانية بعدها راء هي مصدر (غار) أي : غار الرجل يغير أو غارت المرأة تغير غَيْرَة ، وهي مشتقة من تغَيُّر القلب وهيجان الغضب بسبب المشاركة فيما به الاختصاص ، وأشد ما يكون ذلك بين الرجل وزوجه ، وقيل الغَيْرَة في الأصل هي : الحميَّة والأنفة ، وهو تفسير بلازم التغيُّر ، فيرجع إلى الغضب»[1] والغَيْرَة منها المحمود المباح التي يحبها الله - تعالى - ، ومنها الغَيْرَة المذمومة التي يبغضها الله - تعالى - روى أبو داود والنسائى عن جابر بن عتيك -رضي الله عنه - أن نبي الله ﷺ كان يقول : «إن من الغَيْرَة ما يحبُّ الله ، ومنها ما يُبغض الله ، فأما التي يحبها الله فالغَيْرة في الرِّيبة ، وأما الغَيرَةُ التي يبغضها الله فالغيرة في غير ريبة ، وإن من الخُيَلاء ما يُبغض الله ، ومنها ما يُحب الله ، فأما الخيلاء التي يحب الله فاختيال الرجل نفسه عند القتال واختياله عند الصدقة ، وأما التي يُبغض الله فاختياله في البغي»[2] .

والغيرة في الريبة أي : مواضع التهمة والتردد ، فتظهر فائدتها وهي الرهبة والانزجار ، وإن لم تكن ريبة تُورث البُغض والفتن»[3] .

ومن ذلك أن يغار الرجل على أهل بيته ومحارمه إذا رأى منهم فعلاً مُحَرَّماً ، فإن الغَيْرَة في ذلك ونحوه مما يحبه الله - عز وجل - مما سنشرحه تباعاً ، ولكن أردنا أن نُطل إطلالة على معنى الغَيْرَة التي أصلها : المنع ، والرجل غيور على أهله أي : يمنعهم من التعلق بأجنبي بنظر أو حديث أو غيره .

١- بتصرف من فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني (١٥/ ٢٥) .

٢- رواه أبو داود في باب الخيلاء في الحرب ٢٦٦١ ، والنسائى في باب الاختيال في الصدقة ٢٥٧٠ وحسَّنه الألباني.

٣- انظر : حاشية السندي على سنن النسائي (٤/ ٤٤) ، وراجع كتابنا : كيد النساء الداء والدواء ص ١٣٦ [الناشر : دار الكتاب العربي ، دمشق - القاهرة] .

الغيرة في حق الله - عز وجل - والغيرة عند الأنبياء - عليهم السلام :

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : «إن الله يغار وغَيْرَة الله أن يأتي المؤمن ما حَرَّم الله»[1] .

وقد وصف نبينا - صلوات الله وسلامه عليه - أن الغيرة التي وصف الله بها نفسه إما أن تكون خاصة وهو أن يأتي المؤمن ما حُرّم عليه وإما عامة وهي غيرته - سبحانه - من الفواحش ما ظهر منها وما بطن ومن ذلك ما رواه البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - قالت - قال النبي ﷺ : «يا أُمَّة محمد ، والله ما من أحد أَغْيَرُ من الله أن يزني عبده أو تزني أمته .. الحديث»[2] وروى أيضاً عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «لا أحد أَغْيَرُ من الله ، ولذلك حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا شيء أحب إليه المدح من الله ، لذلك مَدَح نفسه»[3] .

إذن الغَيْرَة في حق الله - عز وجل - إنما تعني أن الله - سبحانه وتعالى - يغار من كل ذنب يأتيه العبد صَغُر ذلك الذنب أو كَبُر وأعظم هذه الذنوب الإشراك بالله - تعالى - كما روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : سألت رسول الله ﷺ أيُّ الذنوب أعظم عند الله ؟ قال : «أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك» قال : قلت له إن ذلك لعظيم . قال : قلت ثم أي ؟ قال : «ثم أن تقتل وَلَدَك مخافة أن يطعم معك» قال : قلت ثم أيٌّ ؟ قال : «ثم أن تُزانِي حليلة جارك»[4] فهذه الأنواع التي ذكرها النبي ﷺ هي أشد أنواع الذنوب والتي تضمنت أعظمها وإلا فهناك العديد من الذنوب والمعاصي التي يغار الله - عز وجل - التي يأتيها العبد المؤمن وذلك لأنها كلمة جامعة لكل ما حرَّم الله - عز وجل - كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ- في الحديث

١- رواه البخاري في باب الغَيْرَة ٥٢٢٣ ، ومسلم في باب : غَيْرَة الله - تعالى - وتحريم الفواحش ٧١٧١.

٢- رواه البخاري في كتاب الكسوف ١٠٤٤ .

٣- رواه البخاري في كتاب التفسير ٤٦٣٤ ، ومسلم في باب : غَيْرَة الله - تعالى - ٧١٦٧ .

٤- رواه البخاري في التفسير ٤٤٧٧ ، ومسلم في الإيمان ٢٦٧ ، ومعنى حليلة جارك أي: التي يحل له وطؤها .

الذي ذكرناه آنفاً - فصفة الغَيْرَة في حق الله - عز وجل - هي صفة كمال وجمال نؤمن بها كما جاءت ، ونثبتها دون تأويل ولا تعطيل أو إعمال عقل وكما فسَّرها رسولنا الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - في الأحاديث الصحيحة التي سقناها آنفاً ، لأن من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام الإقرار بما جاء به النبي ﷺ وهو ما جاء به من القرآن والسُّنَّة كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [آل عمران : ١٦٤].

وأما الغيرة عند الأنبياء - عليهم السلام - فهي الغيرة المحمودة ، فقد غار أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم - عليه السلام - على زوجته سارة - عليها السلام - وادعى للمَلك الجبار الذي أراد أن يستأثرها لنفسه أنها أخته فقد روى الشيخان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال النبي ﷺ : «هاجر إبراهيم - عليه السلام - بسارة ، فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك - أو جبار من الجبابرة - فقيل : دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء ، فأرسل إليه أن يا إبراهيم من هذه التي معك ؟ قال : أختي .... الحديث» [1] . قال الإمام بدر الدين العيني في شرح هذا الحديث : «يُستفاد من الحديث إباحة المعاريض لقوله : إنها أختي وإنها مندوحة عن الكذب .. وفيه ابتلاء الصالحين لرفع درجاتهم .. وفيه : الحيل وقد يجب في بعض الصور بالاتفاق لكونه ينجي نبيًّا أو وليًّا ممن يُريد قتله أو لنجاة المسلمين من عدوهم ، وقال الفقهاء : لو طلب ظالم وديعة لإنسان ليأخذها غصباً وجب عليه الإنكار والكذب في أنه لا يعلم موضعها»[2] . وهكذا دفعت غَيْرَة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - على زوجته السيدة سارة - عليها السلام - إلى التحايل على هذا الملك الجبار ليتفادى بطشه وعقابه ، وهو ابتلاء من الابتلاءات التي امتحن الله - تعالى - بها سيدنا إبراهيم - عليه السلام - فكان أجره عند الله - عز وجل - أن أهدى هذا الملك إليه السيدة هاجر - عليها

١- رواه البخاري في كتاب البيوع ٢٢١٧ ، ومسلم في باب : من فضائل إبراهيم - عليه السلام - ٦٢٩٤ .

٢- بتصرف من عمدة القارئ شرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني (١٨/ ٢٤٥) .

السلام - التي أنجب منها سيدنا إسماعيل - عليه السلام - والذي كان من سلالته آخر الأنبياء والمرسلين وخير البشر أجمعين سيدنا محمد ﷺ . ومن الأنبياء الذين أخبرنا رسول الله ﷺ عن غيرتهم سيدنا داود - عليه السلام - فقد أخرج الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «كان داود النبي فيه غَيْرَة شديدة ، وكان إذا خرج أُغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع ، قال : فخرج ذات يوم وغَلَّقت الدار ، فأقبلت امرأة تطلع إلى الدار ، فإذا رجل قائم وسط الدار ، فقالت لمن في البيت : من أين دخل هذا الرجل الدار ، والدار مُغلقة ؟ والله لتُفضحنَّ بداود ، فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود : من أنت؟ قال : أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمتنع مني شيء ؟ فقال داود : أنت والله مَلَك الموت ، فمرحباً بأمر الله...»[1] الحديث وهكذا كانت غَيْرة نبي الله داود - عليه السلام - كما هي في جميع الأنبياء - عليهم السلام - بمن فيهم خاتم الأنبياء والمرسلين ورسول رب العالمين سيدنا محمد ﷺ فقد روى البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة (رضي الله عنه) قال : قال سعد بن عبادة (رضي الله عنه) : لو رأيت رجلاً مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصَفَّح . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : «تعجبون من غَيْرَة سعد ، والله لأنا أغْيَرُ منه ، والله أغْيَرُ منِّي ، ومن أجل غَيْرَة الله حرَّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحبُّ إليه العُذْرُ من الله ، ومن أجل ذلك بعث المبشِّرين والمنذرين ولا أحد أحبُّ إليه المدحة من الله ومن أجل ذلك وعَدَ الله الجنة» وفي رواية مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه - قال : قال سعد بن عبادة (رضي الله عنه) يا رسول الله لو وجدتُ مع أهلي رجلاً لم أمسَّهُ حتى آتي بأربعة شهداء ؟ قال رسول الله ﷺ : «نعم»قال : كلا والذي بعثك بالحق إن كنتُ لأُعاجلُهُ بالسيف قبل ذلك . قال رسول الله ﷺ : «اسمعوا إلى ما يقول سيِّدُكم إنه لغيور وأنا أغْيَرَ منه والله أغْيَرَ مني»[2] .

١- أخرجه أحمد في المسند ٩٦٧٢ .

٢- أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ٧٤١٦ ، ومسلم في اللعان ٣٨٣٦ ، ٣٨٣٧ .

قال الإمام النووي : قال الماوردي وغيره : «ليس قوله هو ردًّا لقول النبي ﷺ ولا مخالفة من سعد بن عبادة - رضي الله عنه - لأمره ﷺ ، وإنما معناه الإخبار عن حالة الإنسان عند رؤيته الرجل عند امرأته واستيلاء الغضب عليه فإنه حينئذ يعاجله السيف وإن كان عاصياً .. ومعنى قوله (لضربته بالسيف غير مُصفّح) في الرواية الأولى أي : غير ضارب بصَفْح السيف وهو جانبه بل أضربه بحدِّه . وقال العلماء : الغَيْرَة بفتح الغين وأصلها المنع والرجل غيور على أهله أي : يمنعهم من التَّعَلُّق بأجنبي بنظر أو حديث أو غيره ، والغيرة صفة كما أخبر ﷺ بأن سعداً (رضي الله عنه) غيور ، وأنه أَغْيَر منه ، وأن الله أَغْيَر منه ﷺ وأنه من أجل ذلك حرّم الفواحش ، فهذا تفسير لمعنى غَيرَة الله - تعالى - أي : أنها منعه - سبحانه وتعالى - الناس من الفواحش ، لكن الغَيْرَة في حق الناس يُقارنها تغيُّر حال الإنسان وانزعاجه وهذا مستحيل في غَيْرَة الله - تعالى-»[1] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية :

«فالغيرة المحبوبة هي ما وافقت غَيْرَة الله - تعالى - ، وهذه الغيرة هي أن تُنتهك محارم الله ، وهي أن تُؤتى الفواحش الباطنة والظاهرة ، وكذلك عامة ما يُطلق من الغَيْرةِ إنما هو من جنس الفواحش ، وبيَّن النبي ﷺ أنه أَغْيَر من غيره من المؤمنين ، وأن المؤمن يَغار ، والله يحب الغَيْرة ، وذلك في الريبة ، ومن لا يغار فهو ديوث ، وقد جاء في الحديث (لا يدخل الجنة ديوث)[2] ، لذلك كانت غَيْرة العبد الخاصة هي من أن يشركه الغير في أهله ، فغيرته من فاحشة أهله ليست كغيرته من زنا الغير ، لأن هذا يتعلق به ، وذاك لا يتعلق به ، إلا من جهة بُغضه لمبغضة الله - عز وجل - ولهذا كانت الغيرة الواجبة عليه هي في غيرته على أهله ، وأعظم من ذلك امرأته ثم أقاربه ومن هم تحت طاعته : فالغيرة الواجبة ما يتضمنه النهي عن المخزي ، والغيرة المستحبة ما

١- راجع : شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ٢٦٧) .

٢- سبق تخريجه .

أوجبت المستحب من الصيانة وأما الغَيْرَة في غير ريبة ، وهي الغيرة في مباح لا ريبة فيه فهي مما لا يحبه الله ، بل ينهي عنه إذا كان فيه ترك ما أمر الله - عز وجل - به»[1] لذا كانت الغيرة في الصحابة - رضي الله عنهم - شديدة .

مقتطفات من الغَيْرَة عند الصحابة - رضي الله عنهم - :

ذكرنا آنفاً من خلال الحديث الذي رواه الشيخان البخاري ومسلم غَيْرَة الصحابي الجليل سيد الأنصار ورئيسهم سعد بن عبادة - رضي الله عنه - وسوف نقتطف نُتفاً من غَيْرَة الصحابة - رضي الله عنهم - على ذويهم ونسائهم وذلك من باب التذكر وأخذ العِبَر عسى أن تجد هذه القصص التي سنرويها من خلال الأحاديث النبوية الصحيحة آذاناً مصغية وقلوباً واعية لمن ضعفت عندهم حميَّة الغيرة على أهليهم وذويهم في زمن شاعت فيه الفاحشة وانتشرت فيه الدياثة وقلَّت فيه غَيْرَة الرجال الأشاوس فعزّت فيه المروءة والشهامة والنجدة والحَميَّة حتى وجدنا - كما سيأتي - مَنْ يُسامح زوجته بعد ما وجد عشيقها على سرير فراش الزوجية ولا حول ولا قوة إلا بالله ، ولذلك قال الإمام بدر الدين العيني : «والغيرةُ من أحمد الأشياء ومن لم تكن فيه فليس على خلق محمود».

وقد بالغ أصحابنا في هذا حيث قالوا : رجل وجد مع امرأته أو جاريته رجلاً يريد أن يغلبها ويزني بها (أي : يغتصبها ويأتيها دون إرادتها) له أن يقتله فإن رآه مع امرأته أو مع مَحْرَم له وهي مطاوعة له على ذلك فله أن يقتل الرجل والمرأة جميعاً ، ومنهم من منع ذلك مطلقاً»[2] . ولكن أضعف الإيمان أن من يجد رجلاً مع امرأته وهي راضية فله أن يفارقها ويطلقها لا أن يسامحها ويستمر في معاشرتها في زمن الدياثة الذي نعيش فيه .

١- بتصرف من الاستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٧، ٨) .

٢- عمدة القارئ شرح صحيح البخاري (٣٤/ ٢٨٠) وللعلماء والفقهاء تفاصيل كثيرة في هذه المسألة فليراجعها من شاء في كتب الفقه الإسلامي .

ولذلك تعمدت أن أذكر مقتطفات من الغيرة عند الصحابة - رضي الله عنهم - عسى أن يتأسى بهم من يسمح لزوجته أو لأحد من محارمه مخالطة الرجال الذي هو أصل كل الداء ويتركها تخرج بالمكياج الكامل ليتباهي بها أمام أصدقائه وأصحابه . وهذا غيض من فيض لما نشاهده ونسمعه ونقرأه عن حكايات الدياثة وعدم غَيْرَة رجال هذا الزمان إلا من رحم ربي وعصم ..

روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : بينما نحن عند رسول الله ﷺ جلوس فقال رسول الله ﷺ بينما أنا نائم رأيتني في الجنة ، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت : لمن هذا ؟ قالوا : هذا لعمر ، فذكرتُ غيرتك فوليت مُدبراً ، فبكى عمر وهو في المجلس ثم قال : أوَعليك يا رسول أغار» وفي رواية أخرى للبخاري أيضاً : «فأردت أن أدخله (أي : القصر) فلم يمنعني إلا علمي بغيرتك»[1] قال الحافظ ابن حجر : «يُحتمل أن يكون على ظاهره لا يُنكر كونها تتوضأ حقيقة لأن الرؤيا وقعت في زمن التكليف ، والجنة وإن كان لا تكليف فيها فذاك في زمن الاستقرار ، بل ظاهر قوله (تتوضأ إلى جانب قصر) أنها تتوضأ خارجة منه ، أو هو على غير الحقيقة ، ورؤيا المنام لا تُحمل دائماً على الحقيقة بل تحتمل التأويل ، فيكون معنى كونها تتوضأ أنها تحافظ في الدنيا على العبادة» . إلى أن قال : «وأغرب ابن قُتيبة وتبعه الخطَّابي فزعم أن قوله (تتوضأ) تصحيف وتغيير من الناسخ ، وإنما الصواب امرأة شوهاء ، ولم يستند في هذه الدعوى إلا إلى استبعاد أن يقع في الجنة وضوء لأنه لا عمل فيها ، وعدم الاطِّلاع على المراد من الخبر (أي : الأحاديث النبوية) لا يقتضي تغليط الحُفَّاظ»[2] وقد صدق وأصاب الحافظ ابن حجر في هذا القول فجزاه الله خيراً وذلك لأن كثيراً من أهل زماننا عندما لم يستسغ عقلهم خبرا وحديثا صحيحا وثابتا عن رسول الله ﷺ أسرعوا بتصحيفه أو تأويله على غير مراده ، بل وردِّه أحياناً وهذا ما لا ينبغي على

١- رواه البخاري في النكاح باب الغيرة ٤٨٢٦٦ ، وفي فضائل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه ٣٦٧٩.

٢- راجع فتح الباري شرح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني (١٠/ ٤٧٦) .

مسلم يؤمن بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً ، فلا ينبغي إعمال العقل القاصر في ردٍّ أو رفض النصوص الثابتة الصحيحة لذلك ينبغي التفكير قبل التأويل والرجوع إلى أقوال العلماء في شروح الأحاديث قبل الرفض والرد الذي لا مبرر له إلا التطاول على سُنة النبي ﷺ[1] ولذلك أردت التنويه والتنبيه والله من وراء القصد .

ومن غَيْرَة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ما رواه البخاري أيضاً عن عبد الله ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : كانت امرأة لعمر تشهد صلاة الصبح والعشاء في الجماعة ، فقيل لها : لِمَ تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار ؟ قالت : وما يمنعه أن ينهاني ؟ قال : يمنعه قول رسول الله ﷺ «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[2] وصلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد فقد أخرج الإمام أحمد وأبو داود عن ابن عمر - رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : «لا تمنعوا نساءكم المساجد ، وبيوتهن خيرٌ لهن»[3] وأخرج الإمام أحمد والحاكم من حديث أم سلمة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ قال : «خير مساجد النساء قعر بيوتهن»[4] .

ولذلك كان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يغار على امرأته أن تخرج وقت العتمة في صلاتي الصبح والعشاء وكان يكره ذلك فقد أخرج الإمام أحمد عن عبد الله ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : كان عمر رجلاً غيوراً ، فكان إذا خرج إلى الصلاة اتبعته عاتكة ابنة زيد ، فكان يكره خروجها ، ويكره منعها وكان يُحدِّث أن رسول الله ﷺ أنه قال : «إذا استأذنتكم نساؤكم إلي الصلاة فلا تمنعوهن»[5] وعاتكة بنت زيد هي زوجته ، فإن كانت هذه الغَيْرَة لخروج المرأة لأداء طاعة في سبيل الله - عز وجل -

---

١- راجع كتابنا : الإعجاز النبوي في الفتن والملاحم (أحاديث الآحاد حجة في الغيبيات ص ٣١) . - مصدر سابق - .

٢- رواه البخاري في كتاب الجمعة ٨٤٩ .

٣- رواه أبو داود في الصلاة باب ما جاء في خروج النساء ٥٦٧ ، وأحمد في المسند ٥٥٩٧ ، وصححه الألباني .

٤- أخرجه أحمد ٢٧٣١٠ والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٦١ حديث رقم ٧١٢) وصححه الألباني .

٥- أخرجه أحمد من مسند عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ٢٨٩ .

مع أن الأفضل لها الصلاة في بيتها فما بالنا ونساء زماننا يخرجن على النحو الذي نشاهده ولا يخرجن لطاعة الله - عز وجل - بل لأمور الدنيا ، وهذا لا ينافي خروج المرأة فكلامنا ينصب على خروج النساء الكاسيات العاريات المتبرجات لتحذيرهن من مخالفة أمر الله - عز وجل - فيما يفعلن من معاصٍ وآثام هي معلومة للجميع في الزمان الذي نعيش فيه التي قلَّت فيه غيرة الرجال على نسائهم .

ومن الصحابة الغيارى وكلهم غيارى - رضي الله عنهم - حواري رسول الله ﷺ وأحد العشرة المبشرين بالجنة الزبير بن العوام - رضي الله عنه ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنهما - ذات النطاقين وزوجة الزبير - رضي الله عنه - الحديث الطويل الذي نقتطف منه قولها : «فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفرٌ من الأنصار فدعاني ثم قال (إخ إخ) ليحملني خلفه ، فاستحييت أن أسير مع الرِّجال ، وذكرتُ الزبير وغَيْرته ، وكان أَغْيَرَ الناس ، فعرف رسول الله ﷺ أني قد استحييت فمضى ، فجئت الزبير فقلتُ لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النَّوى ، ومعه نفرٌ من أصحابه ، فأناخ لأركب ، فاستحييت منه وعرفت غَيْرَتَكَ ، فقال : والله لحملك النَّوي كان أشد عليَّ من ركوبك معه . قالت : حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادم يكفيني سياسة الفَرَس ، فكأنما أعتقني»[1] .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني : «قوله (ثم قال إخ إخ) بكسر الهمزة وسكون الخاء ، كلمة تُقال للبعير لمن أراد أن يُنيخه ، قوله (ليحملني خلفه) كأنها فهمتْ ذلك من قرينة الحال ، وإلا فيحتمل أن يكون ﷺ أراد أن يُركبها وما معها ويركب هو شيئاً آخر غير ذلك ، وقوله (والله لحملك النَّوى على رأسك كان أشد عليَّ من ركوبك معه).

ووجه المفاضلة التي أشار إليها الزبير (رضي الله عنه) أن ركوبها مع النبي ﷺ لا ينشأ منه كبير أمر من الغَيْرَة لأنها أخت امرأته (أي : السيدة عائشة رضي الله عنها)

١- رواه البخاري في كتاب النكاح ، باب : الغيرة ٤٨٢٣ ، ومسلم في كتاب السلام ، باب : جواز إرداف المرأة ٤٠٥٠ .

ولكن لاحتمال أن يقع لها من بعض الرجال مزاحمة بغير قصد ، وأن ينكشف منها حالة السير ما لا تريد انكشافه ونحو ذلك ، وهذا كله أخف مما تحقق من تَبذُّلها بحمل النَّوى على رأسها من مكان بعيد لأنه قد يتوهم خسَّة النفس ودناءة الهمَّة وقلَّة الغَيْرَة ولكن كان السبب الحامل على الصبر على ذلك شغل زوجها وأبيها (رضي الله عنهما) بالجهاد وغيره مما يأمرهم به النبي ﷺ ويُقيمهم فيه ، وكانوا لا يتفرغون للقيام بأمور البيت بأن يتعاطوا ذلك بأنفسهم ، ولضيق ما بأيديهم على استخدام من يقوم بذلك عنهم ، فانحصر الأمر في نسائهم فكن يكفينهم مؤنة المنزل ومن فيه ليتفرغوا هم على ما هم فيه من نصر الإسلام مع ما ينضمُّ إلى ذلك من العادة المانعة من تسمية ذلك عاراً محضاً»[1] .

وقال الإمام النووي : «قال القاضي عياض : هذا خاص للنبي ﷺ بخلاف غيره ، فقد أمرنا بالمباعدة من أنفاس الرجال والنساء ، وكانت عادته ﷺ مباعدتهن لتقتدي به أُمَّته ، وقال : وإنما كانت هذه خصوصية له لكونها بنت أبي بكر ، وأخت عائشة ، وامرأة الزبير (رضي الله عن الجميع) ، فكانت كإحدى أهله ونسائه ، مع ما خُصَّ به ﷺ أنه أَمْلَك لإربه ، وأما إرداف المحارم فجائز بلا خلاف بكل حال»[2] ولذلك كانت غَيْرَة الزبير بن العوام - رضي الله عنه - من أن ينكشف من زوجته شيئاً من جسدها أمام بعض الرجال الذين كانوا مع النبي ﷺ وليست غيرته من النبي ﷺ لأنه كان لها بمثابة مَحْرَم والدليل على ذلك ما روته السيدة عائشة - رضي الله عنها - أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثياب رقاق فأعرض عنها رسول الله ﷺ وقال : يا أسماء إن المرأة إذا بلغت المحيض لم تصلُح أن يُرَى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفيه»[3] ولذا كان غَيْرَة الزبير بن العوام - رضي الله عنه - من رجال الأنصار

١- فتح الباري شرح البخاري (١٥/ ٣٠) .

٢- شرح النووي على مسلم (٧/ ٣١٩) .

٣- رواه أبو داود (٤/ ٦٢ حديث رقم ٤١٤٠) وصححه الألباني .

الذين كانوا مع النبي ﷺ أنه قال : «أما تغارون أن يخرج نساؤكم» وقال هنَّاد ابن السَّري في حديثه : «ألا تستحيون أو تغارون فإنه بلغني أن نساءكم يخرجن في الأسواق يُزاحمن العلوج»[1] والعلوج : جمع العَلج وهو الشديد القوي على العمل ، والمراد بهم الأجانب عن النساء .

فهذه ثلة من قصص وحكايات وأقوال الصحابة - رضي الله عنهم - عن الغيرة والحمية على نسائهم وأهليهم وقد أعرضنا عن الاسترسال مخافة السآمة ، وتلك الطبائع والعادات هي من طباع وغرائز وسمات العرب الأصيلة والمتأصلة والمتجذّرة فيهم حيث كانوا يتصفون في جاهليتهم بجملة من الأخلاق والصفات الحميدة .. وسبب ما اختصوا به من الفضل - والله أعلم - ما جعل الله لهم من العقول والألسنة والأخلاق والأعمال وذلك أن الفضل إما بالعلم النافع أو العمل الصالح ، والعلم له مبدأ وهو قوة العقل الذي هو الفهم والحفظ وتمام ذلك قوة المنطق الذي هو البيان والعبارة فالعرب هم أفهم وأحفظ وأقدر على البيان والعبارة ولسانهم أتم الألسنة بياناً وتمييزاً للمعاني ، وأما العمل فإن مبناه على الأخلاق وهي الغرائز المخلوقة في النفس فغرائزهم أطوع من غرائز غيرهم فهم أقرب إلى السخاء والحلم والشجاعة والوفاء (والحميَّة والغَيْرَة والأَنَفة) من غيرهم ، ولكن حازوا قبل الإسلام طبيعة قابلة للخير معطلة عن فعله ليس عندهم علم مُنزَّل ولا شريعة مأثورة ولا اشتغلوا ببعض العلوم بخلاف غيرهم ، فإنهم كانت بين أظهرهم الكتب المُنزَّلة وأقوال الأنبياء فضلُّوا لضعف عقولهم (أي : اليهود والنصارى) ، فلما بعث الله محمداً ﷺ بالهدى تلقفوه عنه بعد مجاهدة شديدة ، ونقلهم الله - عز وجل - عن تلك العادات الجاهلية التي كانت قد أحالت قلوبهم عن فطرته فلما تلقوا عنه ذلك الهدى زالت تلك الريون[2] عن قلوبهم فقبلوا هذا الهدى العظيم وأخذوه بتلك الفطرة الجيدة فاجتمع لهم الكمال

---

١ - أخرجه أحمد في المسند ، مسند العشرة المبشرين بالجنة ، مسند علي بن أبي طالب رضي الله عنه ١٠٦٣ .

٢ - الريون جمع : ران أي : غطى بمعني غطّى على قلوبهم يقال : ران على قلبه الذنب إذا غُشِيَ على قلبه (راجع لسان العرب لابن منظور ١٣/ ١٩٢) .

بالقوة المخلوقة فيهم والكمال الذي أنزله الله - تعالى - إليهم ، فصار السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من العرب أفضل خلق الله سوى الأنبياء ، وصار أفضل الناس بعدهم من اتبعهم بإحسان - رضي الله عنهم إلى يوم القيامة من العرب والعجم ، والذي عليه أهل السنة والجماعة اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم وأن قريشاً أفضل العرب وأن بنى هاشم أفضل قريش وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم فهو أفضل الخلق نفساً وأفضلهم نسباً»[1] صلوات ربي وسلامه عليه ، ولذلك روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قيل يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال : «أتقاهم» قالوا : ليس من هذا نسألك . قال : «فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : «فعن معادن العرب تسألوني ، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[2] .

ومع أن تلك الصفات التي ذكرناها أنها كانت من سمات العرب وخاصة الصفة التي نحن بصدد الحديث عنها وهي صفة الغَيْرَة والأنفة والحميّة والتي تراجعت كثيراً في عصرنا الحاضر وأصبح كثير من رجال العرب والمسلمين - إلا من رحم ربي وعصم - يفتقدون إلى تلك الصفة الحميدة التي كانت من الصفات الأساسية والملازمة لرجال الزمن القديم والتي كانت تقوم بسببها الحروب ويتقاتل العرب والمسلمون من أجلها وتسفك الدماء من أجل الدفاع عن أعراض النساء .. أما في زماننا فأصبحت المرأة العربية والمسلمة تُسبَى ويُنتهك عرضها أمام مرأى ومسمع من العالم وما أدل على ذلك مما يحدث لبناتنا ونسائنا في فلسطين والعراق وأفغانستان وفي كثير من الدول العربية والإسلامية ولكن لا مُجير ولا مُغيث وذلك لضعف النخوة والغيرة عند بعض الحُكّام والمحكومين ، فتاريخ أمتنا الإسلامية مليء بالقصص

١- بتصرف من فضل العرب ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، واقتضاء الصراط المستقيم (١/ ١٤٤ ، ١٤٥) وكلاهما لشيخ الإسلام ابن تيمية .

٢- رواه البخاري في بدء الخلق ٣٣٥٣ ، ومسلم في الفضائل ٦٣١١ .

والحكايات[١] التي يفخر بها كل مسلم ويعتز بها كل حُرٍّ أبيٍّ وذلك في زمن اعتزاز الرجال بإسلامهم أيام كانوا رجالاً يعتبرون الغيرة على نسائهم وأعراضهم وشرفهم مظهراً من مظاهر الرجولة الحقة ، فكانوا قائمين على صوْن الأعراض ، وحفظ الحرمات والدفاع عن المقدسات والأعراض بالغالي والنفيس ولابد أن يعود ذلك الزمن وتلك الرجولة المفتقدة الآن وذلك بالعَود الحميد بالالتزام بالإسلام وتعاليمه .

الغَيْرَة عند الحيوانات :

إن الغَيْرَة لا تقتصر على بنى الإنسان فقط ولكنها فطرة وضعها الله- عز وجل - في كثير من مخلوقاته ومنها الحيوانات .. فقد شاهدتْ فيلماً تسجيليًّا عن فصيل خاص من فصائل القرود والذي شدَّ انتباهي لهذا الفيلم هو ذاك النوع الفريد والعجيب من تلك القرود حيث كان لونها يميل إلى لون الصفار والمائل إلى اللون البُني الفاتح أما مقدمة الوجه فكان لونه أزرق فاتحاً ، فسبحان خالق الكائنات ، ثم شاهدت أحد أولئك القرود وكان ذو جسد ضخم وكأنه (فتوة) يقوم بقهر إناث ذلك الفصيل بالقوة ، فما كان من باقي القرود إلا أن تجمعوا عليه وأوسعوه ضرباً وقذفوه بالحجارة حتى فرَّ هارباً .. وموضوع رجم القردة بعضها بعضاً بالحجارة معروف ومشهور فيما بينهم خاصة إذا اعتدى أحدهم على الآخر ، فقد روى البخاري عن عمرو بن ميمون قال رأيت في الجاهلية قردةً اجتمع عليها قِرَدَةٌ قد زنت ، فرجموها فرجمتها معهم[٢] . وقد ساق الإسماعيلي هذه القصة من وجه آخر مُطوَّلة كما ذكرها الحافظ ابن حجر العسقلاني عن عمرو بن ميمون قال : «كنت في اليمن في غَنَم لأهلي وأنا على شَرَف (أي : مكان مرتفع) ، فجاء قِرد من قِردة فتوسَّد يدها ، فجاء قِرد أصغر منه فغمزها ، فَسَلَّت يدها من تحت رأس القرد الأول سلاً رفيقاً وتبعته ، فوقع عليها وأنا أنظر ، ثم رجعت فجعلت تُدخل يدها تحت خدِّ الأول برفق ، فاستيقظ فزعاً ، فشمَّها فصاح ،

١- راجع كتابنا : كيد النساء الداء والدواء ص ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٠ .

٢- رواه البخاري في مناقب الأنصار باب : القسامة في الجالية ٣٨٤٩ .

فاجتمعت القرود ، فجعل يصيح ويُومئ إليها بيده ، فذهب القرود يمنة ويسرة ، فجاءوا بذلك القِرد أعرفه ، فحفروا لهما حُفرة ، فرجموهما ، فلقد رأيت الرَّجم في غير بني آدم».

ثم قال الحافظ ابن حجر : «اخْتُصَّ القِرد بذلك لما فيه من الفِطنة الزائدة على غيره من الحيوانات وقابلية التعليم لكل صناعة مما ليس لأكثر الحيوان ، ومن خصاله أنه يضحك ويطرب ويحلي ما يراه ، وفيه من شدَّة الغَيْرَة ما يوازي الآدمي ولا يتعدى أحدهم إلى غير زوجته ، فلا يدع في الغالب أن يُحمِّلها ما رُكِّب فيها من غَيْرَة على عقوبة من اعتدى إلى ما لم يختصَّ به من الأنثى ، ومن خصائصه أن الأنثى تحمل أولادها كهيئة الآدمية ، وربما مشي القِرد على رجليه لكن لا يستمر على ذلك ، ويتناول الشيء بيده ويأكل بيده»[1] .

وقد تكلم بعض العلماء في تلك الرواية واستنكرها البعض وردوها لمخالفة العقل تحت زعم أن البهائم والحيوانات غير مُكلَّفة وقد ردَّ عليهم الحافظ ابن حجر بقوله : «لا يلزم من كون صورة الواقعة صورة الزنا والرَّجم أن يكون ذلك زنا حقيقة ولا حدّاً ، وإنما أُطلق ذلك عليه لشبهه به ، فلا يستلزم ذلك إيقاع التكليف على الحيوان»[2] وهذا حق .

فمن المعروف عن تلك المنطقة أي منطقة تهامة في اليمن أنها من المناطق شاهقة الارتفاع وأن القرود يعيشون في تلك المنطقة بوفرة وكثرة ، وقد شاهدت بنفسي أثناء زيارة مدينة أبها وهي من أجمل مناطق المملكة العربية السعودية من حيث المناظر الطبيعية الخلاَّبة والهواء العليل حيث بها منطقة تسمى (الشفا) وهي شفاء حقيقة وهي ليست منطقة (الشفا) بالطائف وكلتاهما تتميزان بجمال الطبيعة لأنهما يقعان أعالي الجبال وإن كانت (شفا) مدينة أبها أبهى وأجمل حيث الأماكن المرتفعة والجبال

١- فتح الباري شرح البخاري لابن حجر العسقلاني (١١/ ١٦٦) .،

٢- المصدر السابق .

الشاهقة التي كُسيت بالخضرة وقد زُرت مدينة أبها بالسيارة وشاهدت بنفسي القِردَة على جانبي الطريق وهي ترمح وتجري هنا وهناك .. فلا ضَير ألبتة من وقوع تلك القصة التي ذكرها الصحابي عمرو بن ميمون - رضي الله عنه - الذي أسلم في حياة النبي ﷺ على يد الصحابي معاذ بن جبل - رضي الله عنه - وصحبه إلى الشام ثم قَدِمَ المدينة النبوية وصحب ابن مسعود - رضي الله عنه - وحدَّث عنهما وعن عمر وأبي ذر وسعد وأبي هريرة وعائشة - رضي الله عنهم وغيرهم[١] .

وهكذا نجد أن الغَيْرَة هي في القرود كما هي في الإنسان ولكنها قلَّت في هذا الزمن الذي أصبح سمته (الدياثة) وعدم الغَيْرَة على النساء حيث تتفاوت درجات الدياثة عند رجال هذا الزمن وعدم غيرتهم على نسائهم - إلا من رحم ربي وعصم - باختلاف مدى قربهم وبُعدهم عن الالتزام بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف «فكلما اشتدت ملابسة الرجل للذنوب أخرجت من قلبه الغَيْرَة على نفسه وأهله وعموم الناس وقد تضعف في القلب جدًّا حيث لا يستقبح بعد ذلك القبيح لا من نفسه ولا من غيره وإذا وصل إلى هذا الحد فقد دخل في باب الهلاك وكثير من هؤلاء لا يقتصر على عدم الاستقباح بل يُحسن الفواحش والظلم لغيره ويزينه له ويدعوه إليه ويحثّه عليه ويسعى له في تحصيله ، ولهذا كان الديوث أخبث خلق الله - عز وجل - والجنة عليه حرام ، وكذلك مُحلل الظلم والبغي لغيره ومُزينه لغيره ، فانظر ما الذي حملت عليه قلَّة الغيْرَة وهذا يدلك على أن أصل الدين الغَيْرَة ومن لا غَيْرَةَ له لا دين له ، فالغَيْرَة تحمي القلب فتحمي الجوارح فتدفع السوء والفواحش وعدم الغَيْرَة تُميت القلب فتموت الجوارح فلا يبقى عندها دفع البتة ، ومثل الغَيْرَة في القلب مثل القوة التي تدفع المرض وتقاومه ، فإذا ذهبت القوة وُجد الداء»[٢] .

ولذلك تتفاوت درجات الدياثة عند رجال هذا الزمان بمدى قربهم وبعدهم من الدين وتمسكهم به ، فقد قرأنا وسمِعنا في كثير من الصحف والمجلات عن رجال لا

١- الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر العسقلاني (٢/ ٣٧٧) .

٢- بتصرف من : الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء لابن قيم الجوزية ص ٤٥ .

خلاق لهم يُديرون شبكات دعارة وربما كانت بعض زوجات ونساء هؤلاء الرجال يعملون ضمن تلك الشبكات وهؤلاء الذين يرضون على نسائهم بإتيان الفاحشة هم أعلى درجات الدياثة الذين لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمِّ الخياط .. وهناك رجال يسمحون لزوجاتهم بالاختلاط الفاحش مع الرجال ويسمحون لهم بالخروج شبه عاريات والذهاب بهن إلى أماكن اللهو التي يختلط فيها الحابل بالنابل تحت دعاوَى شتى مثل الحفلات والسهرات الماجنة ، وهناك رجال يسمحون لزوجاتهم بالتعري على شواطئ البحار ولبس المايوهات الفاضحة والعارية ومنهم من يرضي لزوجته أو لابنته أو لأخته أن تقوم بأعمال فاضحة وخادشة للحياء وخاصة فيما يسمى بالفن ، فيسمح لمن هي تحت قوامته أو عصمته أو مسؤوليته أن تقوم بمشاهد إباحية مع رجال أغراب ويرضى لها بتمثيل أدوار إغراء أو القيام بأعمال منافية للدين والأخلاق والحياء التي جُبلت عليه المرأة ، ولكن هؤلاء لا دين لهم ولا أخلاق ولا حياء وكل هذا يتم أمام ناظري هؤلاء الرجال الذين انتزعت منهم الغَيْرة والحميَّة على أهليهم وذويهم تحت زعم ما يسمى بالفن وهو فن هابط داعر داعي إلى نشر الفحشاء والمنكر بين المسلمين والله – عز وجل يقول : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور :١٩] .

وكل من يعمل في هذا المجال في هذا الزمن يدخلون فيمن قال فيهم الله – عز وجل – ذلك ، فهم ممن يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمعات الإسلامية بإشاعة مثل الأفلام الهابطة والمسلسلات الساذجة التي لا طائل من ورائها إلا إضاعة الوقت وملأ جيوب هؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع الإسلامي ، فأمثال هؤلاء الرجال الذين يسمحون ويرضون لذويهم وأهليهم بالقيام بمثل تلك الأعمال هم أهل دياثة وهم الذين قال عنهم النبي ﷺ «لا يدخل الجنة ديوث»[1] . لأن هؤلاء لا غَيْرَة عندهم وبأمثال هؤلاء الرجال انتشرت الدياثة في هذا الزمان على النحو الذي نشاهده

١- سبق تخريجه .

ونسمعه الآن ولذلك انتشر الزنا وشاعت الفاحشة وكان هذا الزمن بحق هو زمن انتشار الزنا بجميع أنواعه بما ذلك زنا المحارم ، وسوف نُفصّل ذلك في الفقرات التي سنتحدث عنها تباعاً .

أما أقل الناس دياثة في هذا الزمن فهم الذين يسمحون بدخول الرجال غير المحارم على زوجاتهم ونسائهم تحت مزاعم وحجج واهية مثل الرجل الذي يُدخل على زوجته بعض أقاربه كأخيه وابن عمه وغيرهما تحت زعم الضيافة ويأمر زوجته أن تقوم على خدمتهم ، وقد أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ «إياكم والدخول على النساء، فقال رجل : يا رسول الله أرأيت الحمو ؟ قال : الحمو الموت»[1] .

والحمو هو : أخو الزوج وما أشبهه من أقارب الزوج ، قال الإمام النووي : «والخوف من (الحمو) أكثر من غيره ، والشرُّ يُتوقع منه ، والفتنة أكثر لتمكُّنه من الوصول إلى المرأة والخلوة من غير أن يُنكر عليه ، بخلاف الأجنبي ، وإنما المراد بالحمو: الأخ ، وابن الأخ ، والعم ،وابنه ، ونحوهم ممن ليس بمحرم ، وعادة الناس المساهلة فيه ، ويخلو بامرأة أخيه ، فهذا هو الموت ، وهو أولى بالمنع»[2] .

وقال الحافظ ابن حجر : «قيل المراد أن الخلوة بالحمو قد تؤدي إلى هلاك الدين إن وقعت المعصية ، أو إلى الموت إن وقعت المعصية ووجب الرَّجم ، أو إلى هلاك المرأة بفراق زوجها إذا حملته الغيرة على تطليقها .

وقال القرطبي في المفهم : «المعنى أن دخول قريب الزوج على امرأة الزوج يُشبه الموت في الاستقباح والمفسدة ، أي : فهو مُحَرَّم معلوم التحريم ، وإنما بالغ في الزجر عنه وشبهه بالموت لتسامح الناس به من جهة الزوج والزوجة لإلفهم بذلك حتى كأنه ليس بأجنبي من المرأة فخرَّجة هذا مخرج قول العرب : الأسد الموت ، والحرب الموت ،

١- متفق عليه .

٢- شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ٣٠٨) .

أي: لقاؤه يُفضي إلى الموت ، وكذلك دخوله على المرأة قد يُفضي إلى موت الدين أو إلى موتها بطلاقها عند غَيْرَة الزوج أو إلى الرْجم إن وقعت الفاحشة»[1] وقال ابن الأثير : حملها على أمور تُثقل على الزوج من التماس ما ليس في وسعه أو سوء عِشرة أو غير ذلك ، ولأن الزوج لا يؤثر أن يطلع الحمو على باطن حاله بدخول بيته»[2] .

وقد رأينا وسمعنا عن كثير من الحوادث التي وقعت بسبب هذا الاختلاط والجهل الذي تفشَّى في المجتمعات الإسلامية بسبب ضعف الوازع الديني وجهل كثير من الناس لأحكام الدين الإسلامي الحنيف فانتشرت الدياثة وقلَّت الغيْرَة عند الرجال وصدق الشاعر القحطاني الذي قال في نونيته :

إن الرجال الناظرين إلى النسـاء مثل الكلاب تطوف باللحمانِ
إن لم تصن تلك اللحوم أسودُها أُكِلَت بلا عِوَضٍ ولا أثمــانِ

وقال أبو الهدى الصيادي[3] :

من لـم يكـن ذا غَيْـرَةٍ لحمى ذويه ومن يليهمُ
لا فـرق عنـدي ذاك إن هو مات أو إن عاش فيهمُ

إذن فالدياثة درجات - كما ذكرنا - أعلاها القوّاد الديوث الذي يقود أهله وذويه إلى حتفهم وهلاكهم بفعل الفاحشة ومنهم من يُكرهون بنَاتهم وزوجاتهم على إتيان الفاحشة وربنا الكريم يقول في كتابه الكريم ﴿ ... وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٣٣] وهذا مشاهد ومُعاين في زماننا الذي

١- فتح الباري شرح البخاري (١٥/ ٤٢) .

٢- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (١/ ١٠٥٥) .

٣- هو : محمد بن حسن وادي بن علي بن خزام الصيادي الرفاعي الحسيني (١٣٢٨ هـ/ ١٩٠٩م) ، وُلِدَ في خان شيخون (من أعمال المعرّة أي : معرّة النعمان بسوريا) وتعلم بحلب وهو من أشهر علماء عصره (راجع الموسوعة الشعرية) .

كثرت فيه ما يسمى بشبكات الدعارة التي يقودها رجال يبتغون عرضاً من أعراض الدنيا فيبيعون بناتهم وزوجاتهم بثمن بخس في سوق النخاسة ، وأما أدنى درجات الدياثة فتتمثل في الرجال الذين يُدخلون على نسائهم وأهليهم من ليسوا بمحارمهم تحت زعم أنهم من ذويهم وأقاربهم ويتساهلون في ذلك كما ذكرنا آنفاً . وكل هذا حرام في شرعنا ومنافٍ للأخلاق الحميدة ومدعاة لانتشار الزنا والفاحشة - كما هو حاصل في زماننا - .

وأختتم هذا الفصل بتلكم الصرخة التي تنادي صاحبتها على رجال هذا الزمن العجيب الذي انتشر فيه هذا الداء اللعين والخُلق الذميم ألا وهي الدياثة .. فتقول عفاف .. والدمع يملأ ساحة الأجفان تخاطب زوجها : «عزيزي الزوج .. أيها الرجل.. اسمع لحديثي ، وأنصت لخطابي .. نعم أخاطب فيك رجولتك .. أخاطب فيك حميتك .. أخاطب فيك محبتك لي .. أخاطب فيك مروءتك .. عزيزي الزوج .. أيها الرجل ، أعلم أنك تغضب إذا أُخذ منك مالك ، وتحزن إذا فاتك نصيب في أعمالك .. أتذكرك .. نعم أتذكرك دائماً .. أنت تزمجر كالأسد عندما يكسر الولد زجاج النافذة .. وتزأر كالليث عندما ينسكب العصير على الأرض ، وتنتفخ أوداجك عندما يتأخر الغداء ساعة أو ساعتين ..

عزيزي الزوج ، أيها الرجل لا يزال في مُخيلتي ذلك الموقف الغريب ، نعم إنه لغريب حقًّا على من هذه صفاته .. قد تقول لي ذكريني ، فأقول : أما تذكر ذلك الرجل الذي سلَّط النظر عليَّ ، وحاول التحرّش بي .. نعم عزيزي .. هذا عجيب ، ولكن الأعجب هو برود أعصابك ، وسكوت عباراتك ، وليونة مخاطبتك ، هذا والله عجب العُجاب ، بل وأزيدك .. عندما أمرتني أن أصافح أبناء عمومتك .. عزيزي أنت تعلم أنهم رجال أجانب عليَّ وليسوا لي بمحارم ، ولكنك كنت تُردد حجتك الواهية دوماً : هؤلاء أبناء عمومتي وإخواني ، ونسيت قول النبي ﷺ «الحمو الموت»[1] ، بل وأزيدك

١- سبق تخريجه .

من الذكريات المُرَّة .. عندما خرجنا أنا وأنت خارج بلادنا الطيبة المباركة الموحِّدة [1] .. أتذكر ماذا قلت لي ؟ لقد أمرتني بنزع الحجاب ، وقلت لي : هؤلاء لا يعرفونك ، فخذي راحتك!! .. عزيزي .. دعني أنثر همومي في خطابي هذا ، فاستمع .. أما تذكر أيضاً إصرارك العجيب على أن أعرض نفسي على طبيب الأسرة .

ذلك الرجل الأجنبي (تقصد طبيب أمراض النساء الذي يقوم بالكشف على عورات النساء دون ضرورة شرعية) .. إنني أتمزق نفسيًّا من هذه الفعلة .. يا زوجي.. والله .. لقد كدت أنهار ، بل أفقد أعصابي وأنت تُبرر وتعتذر بعذر أقبح من الذنب .. تقول : (أي : الطبيب) ذو خبرة ، ومهارة ، وأنت تعلم وأنا أعلم أن في بنات جنسي من يقمن بهذا العمل ، وأن البديل الشرعي موجود .. وتذكر عزيزي عندما نزلت إلى السوق ، فقلت لي : أنا أنتظرك في السيارة وتركتني بمفردي .. عزيزي أنا بحاجة إلى حماية .. أنا بحاجة إلى رعاية .. بل وتذكر عزيزي الزوج حينما طلبت منك الذهاب إلى والدتي المريضة ، فقلت لي بكل بساطة ، اذهبي مع أخي ، يا سبحان الله .. أنا زوجتك.. أم زوجة أخيك ؟ أين أنت من هذا الغيور الذي قال :

أغار عليك من نفسـي ومنـي	ومنك ومن مكانك والزمان
ولو أني خبأتك فـي عيونـــي	إلــى يـوم القيامة ما كفانـي

أيها الزوج .. بعدما تقدم من الذكريات المُرَّة ، والأحداث المزعجة لكل عاقل أبعث إليك بهذه الرسالة وإلى كل من على شاكلتك .. أبعث بهذه الرسالة إلى من ذابت هويته في إناء غيره .. أبعث بهذه الرسالة إلى من ماتت همَّته وهلكت عزيمته .. أبعث بهذه الرسالة إلى كل رجل يتذكر رجولته وفحولته وغَيْرته وإيمانه وتقواه .. لكي يتذكر قوامته على زوجته وأهله ، لكي يتذكر مسؤوليته عنها أمام الله – عز وجل – أصرخ بها

١– وقد رأينا ذلك من بعض النساء الخليجيات اللاتي يلبسن العباءة ويضعن البرقع على وجوههن أنهن يقمن بخلع تلك الملابس التي تعودن عليها في بلادهن بمجرد صعودهن إلى الطائرة التي ستتجه إلى البلاد التي سيقمن بزيارتها وقد شاهدت ذلك بنفسي وأمام عيني في الطائرة المتجهة من إحدى دول الخليج إلى مصر .

مدوِّية ، وأعلنها صريحة .. الغيرة .. الغيرة .. الغيرة .. يا رجال إن كان هناك رجال .. الغيرة الغيرة .. يا أهل القوامة إن كانت لكم قوامة .. الغيرة .. الغيرة .. يا أهل الفحولة .. إن كانت لكم فحولة .. الغيرة .. الغيرة .. يا أهل الكرامة .. إن كانت لكم كرامة .. الغيرة .. الغيرة .. يا أهل المسؤولية .. إن كانت عندكم مسؤولية .

أيها الرجال .. خطابي هذا .. أكتبه بمداد دمعي ، وأسطره بلهيب حُرقتي .. على الواقع المرير .

أرسله إلى زوجي ... وإلى كل زوج

أرسله إلى أبي ... وإلى كل أب

أرسله إلى أخي ... وإلى كل أخ

أرسله إلى ولدي .. وإلى كل ابن

أرسله إلى كل رجل يشتمل على معاني الرجولة ،والفحولة .. فهل من مجيب ؟ وهل من لبيب ؟

وهل من غَيْرة علينا نحن بنات ونساء المسلمين[1] .

هذه الرسالة ، وهذه الصرخة ، وهذه الاستغاثة صادرة من أخت فاضلة من أرض الحرمين بارك الله فيها وفي أمثالها ، فهي تُحس بما تُحس به كل امرأة مسلمة صالحة قانتة مؤمنة بربها غيورة على دينها .. هذا الإحساس الذي يحس به كل مؤمن يغار على دينه وإسلامه وعِرضه ، فالإحساس نعمة وفقدانه نقمة ، فالغيرة المحمودة خلق قويم يتحلى به كل إنسان مسلم سويٍّ كرّمه ربه وهداه إلى الإيمان والالتزام وصدق شاعر باكستان العظيم محمد إقبال الذي قال :

إذا الإيمان ضـاع فلا أمان ... ولا دنيـا لمن لم يُحْيِ دينا

١- مقالة على الإنترنت بعنوان : غارت الغيرة .. صرخة عفاف ، وراجع : كتابنا : كيد النساء .. الداء والدواء ص ١٤٥ [مصدر سابق] .

فصل :

دلائل النبوة ونور البيان في الإخبار عن انتشار الزنا بأنواعه في هذا الزمان

تحدثنا في الفصلين السابقين عن إخبار الصادق المصدوق -صلوات ربي وسلامه عليه- بظهور النساء العاريات المتبرجات اللائى لم يكن على عهده ولم يظهرن في القرون من بعده وقد ظهر ما أخبر ونبأ به ﷺ بعد حوالي الألف وثلاثمائة عام من الهجرة ، فلم تظهر النساء على الصورة التي أخبر بها ﷺ إلا في أواخر القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الهجري ، وهذا لعمري هو الإعجاز النبوي الذي لا يُدانيه إعجاز ، ثم ظهرت الديائة وعدم غيرة الرجال الذين سمحوا ورضوا لنسائهم أن يظهرن أمام الرجال عاريات وشبه عاريات ومتبرجات على النحو الذي نشاهده في عصرنا . وكل هذا مقدمات طبيعية لظهور الزنا وانتشار الفاحشة وهذا ما أخبر به أيضاً الصادق المصدوق ﷺ في كثير من الأحاديث الصحيحة التي ستناولها تباعاً ..ومع أن الله - عز وجل - قد حذَّر الأمة الإسلامية من الوقوع في الزنا بل والاقتراب منه وذلك من خلال الآيات القرآنية الكثيرة والتي منها : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء :٣٢] ثم ذكر سبحانه وتعالى عقوبة وحدّ الزاني والزانية في سورة النور فقال تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور : ٢] وهذا الحكم بالنسبة لغير المتزوجين وغير المحصنين ، أي من زنى من الرجال أو زنت من النساء ، وهو حُرّ بِكْر غير مُحصن بزوج فاجلدوه ضرباً مئة جلدة ، عقوبة لما صنع وأتى من معصية الله - عز وجل - وأما الزاني المحصن بزوجة أو الزانية المحصنة بزوج فحكمها الرجم حتى الموت»[1] .

١- راجع : حدّ الزنا في كتب الفقه الإسلامي سواء للمحصن أو غير المحصن .

ولذلك حذَّر المولى - سبحانه وتعالى - عباده من الاقتراب من تلك الفاحشة في وصايا سورة الأنعام فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام : ١٥١] .

فالفاحشة هي الزنا كما في سورة الطلاق التي قال الله - عز وجل - فيها - : ﴿ .... لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ .... ﴾ [الطلاق : ١] . فقد أجمع أهل التفسير على أن الفاحشة هي : الزنا[١] ، ومع هذا التحذير الرباني والقرآني إلا أن زماننا انتشرت فيه ظاهرة الزنا وذلك بسبب النساء العاريات اللاتي أخبر عنهن النبي ﷺ وبسبب انتشار الدياثة بين الرجال - إلا من رحم ربي وعصم - وعدم غَيْرتهم على نسائهم فأصبحت الحال على ما نراه ونسمعه من انتشار جرائم الزنا وصدق النبي ﷺ الذي أخبر ونبّأ عن ظهور الزنا في آخر الزمان الذي نعيش فيه ، فروى الشيخان عن أنس - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن من أشراط الساعة ..... (فذكر منها) «ويظهر الزنا»[٢] ، وروى البخاري عن أبي عامر - رضي الله عنه- قال : سمع النبي ﷺ يقول : «ليكونن من أُمتي أقوام يستحلون الحِرَّ والحرير .. الحديث»[٣] .

ومعنى الحِرَّ : الفَرْج والمعنى يستحلون الزنا ، وفي رواية ذكرها الحافظ بن حجر عن عليّ - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : «يوشك أن تستحل أمتى فُرُوجَ النساء والحرير»[٤] .

وروى الطبراني عن أبي ثعلبة ، أن رسول الله ﷺ قال «إن دينكم نبوة ورحمة ، ثم خلافة ورحمة ، ثم مُلكًا وجبريّة ، ثم مُلكاً عضوضاً يُستحلّ فيه الحِر والحرير»[٥] وفي

١- راجع على سبيل المثال : تفسير الطبري (٢٣/ ٤٣٨) ، وابن كثير (٨/ ١٤٢) وتفسير القرطبي (١٨/ ١٥٨) .

٢- رواه البخاري في كتاب العلم ٨٠ ، ومسلم في كتاب العلم ٦٩٥٦ .

٣- رواه البخاري في الأشربة ٥٥٩٠ .

٤- راجع : فتح الباري شرح البخاري (١٦/ ٦١) .

٥- رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٦/ ٣٩ حديث رقم ١٨٠٣٧) وسيأتي شرح هذا الحديث تباعاً .

رواية : «إن أول دينكم نبوة ورحمة ؛ ثم خلافة ورحمة ، ثم مُلك ورحمة ، ثم مُلك وجبرية ، ثم مُلك عضوض يُستحل فيه الحر والحرير» . قال صاحب عون المعبود شرح سنن أبي داود : «فهذا إخبار عن استحلال المحارم ، ولكنه بتغيير أسمائها ، وإظهارها في صور تُجعل وسيلة إلى استباحتها ، وهي الربا والخمر والزنا ، فيُسمى كل منها بغير اسمها ، ويُستباح الاسم الذي سُمِّي به ، وقد وقعت الثلاثة»[1] وهناك طرق وحيل لاستحلال الزنا في هذا الزمن ..

طرق ووسائل استحلال الزنا والفروج في هذا الزمن :

روى الحافظ ابن بطة والإمام ابن كثير عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل».[2] وللأسف الشديد فإن الأمة الإسلامية سارت كما أخبر عنها نبيها ﷺ وراء اليهود حذو القُذَّة بالقُذَّة والنعل بالنعل[3] وقلدوهم في كل شيء وخاصة في هذا الزمن الذي نعيش فيه ، وسوف نُفصِّل ذلك تباعاً ،ولذلك فقد تحايل كثير من أبناء الأمة الإسلامية في هذا الزمان ليستحلوا فروج النساء والزنا بهن ومن ذلك ما يُسمى:

١ - الزواج العُرفي المتعارف عليه الآن :

وهو أن يتم الزواج العرفي بين زوجين دون علم ولي أمر الفتاة أو أهل الزوج ويكتب الاثنان عقداً بينهما دون وجود شهود .. وهذا النوع من التحايل هو ما يسمى اليوم بالزواج العرفي وهو الزنا المقنَّن أو استباحة فروج النساء والبنات تحت اسم الزواج العرفي وهذا النوع منتشر الآن بين كثير من شباب بعض الجامعات العربية عموماً والمصرية خصوصاً ، وهذا بمثابة عقد باطل فاسد لأنه لم يتم حسب الأصول

١- عون المعبود شرح سنن أبي داود (٧/ ٤٥٣) لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم أبادي .

٢- أخرجه ابن بطة في كتاب (إبطال الحيل) ص ٥٧ ، وقال ابن كثير : هذا إسناد جيد (تفسير ابن كثير ١/ ٢٩٣) وقال الألباني : هذا إسناد رجاله كلهم ثقات (راجع : إرواء العليل ٥/ ٣٧٥) .

٣- متفق عليه وسوف يأتي تخريجه عند حديثنا في فصل اتباع أمة الإسلام للأمم الأخرى .

الشرعية المتعارف عليها فلا وجود لولي أمر الفتاة ولا وجود لشاهدين ولا وجود أيضاً للإعلان أو الإشهار حسب ما هو متعارف عليه في حالات الزواج الشرعي .. لذا فنحن لا نتكلم هنا عن مفهوم الزواج العُرفي المكتمل للشروط والأركان الشرعية والتي لا يعرفها غالبية الشباب الذين يجهلون تفسيره الحقيقي ومعناه الأخلاقي ، ولكن قد يلجأ إليه كثير من شباب اليوم لتفريغ كبتهم الجنسي مما يشاهدونه ويسمعونه من مشاهد وكلمات تدغدغ شهواتهم من خلال ما تروج له كثير من وسائل حديثة كالقنوات الفضائية التي تنشر الفساد والانحلال الأخلاقي بين الشباب تحت دعاوى شتى أو انتشار الإنترنت الذي يعرض بعض المواقع الإباحية ، إضافة إلى الإحباط وعدم قدرة كثير من شباب وطننا العربي والإسلامي نتيجة البطالة والعامل الاقتصادي الذي يئن منه الجميع ، ولذلك يلجأ الشباب لحيلة ما يسمى بالزواج العرفي ليهرب حسب جهله مما يظنه فاحشة أو زنا فيتقابل الشاب مع الفتاة ويتعاقدان على الزواج العرفي وعندما يأخذ الشاب مأربه من فتاته يتركها لتتجرع مرارة المصائب التي ستقع على أم رأسها مع ما ستسببه من فضائح لأهلها ، وقد أصبح الزواج العرفي على نحو الطريقة التى ذكرناها ظاهرة تتفشى في المجتمع العربي عموماً .. لذا وجب علينا من خلال هذا البحث أن نُبيِّن ونُعرِّف الشباب بمفهوم الزواج العُرفي وخاصة الفتيات لكي لا يقعن فريسة لشاب مستهتر يضحك عليها بشرعية هذا الزواج المنتشر بين شباب اليوم وهو في حقيقته زنا وزواج باطل فما هو تعريف الزواج العُرفي الحقيقي والصحيح ؟

يقول الدكتور على جمعة مفتي الديار المصرية الحالي : «عقد الزواج الصحيح هو ما توافرت فيه الشروط والأركان الشرعية وهي : الإيجاب والقبول والشهود والمهر وحضور ولي الزوجة ويُستحب أن يكون مُشهَّراً ، فإذا ما توافرت فيه هذه الشروط كان صحيحاً تترتب عليه جميع الآثار الشرعية لعقد الزواج من وجوب النفقة على الزوج وإحضار مسكن الزوجية اللائق وثبوت نسب الأولاد ، فإذا تم عقد الزواج

مستوفياً الشروط والأركان الشرعية المشار إليها كان صحيحاً وحفظاً للحقوق المترتبة على عقد الزواج يلزم توثيق العقد أمام المأذون المختص بذلك»[1] والزواج إذا وُثِّق بوثيقة رسمية فهو لا يُحدث خللاً في العقد ، لأن الفقهاء جميعاً عندما عرَّفوا عقد الزواج لم يذكروا فيه التوثيق على الصورة التي نعهدها حديثاً والذي أصبح من الأهمية بمكان لأنه يضمن الحقوق ، ويحفظ النسل في زمن خربت فيه الذمم وفسدت الأخلاق ، وقد ذكرنا عدم صحة التوثيق لأن هناك بعض البلدان العربية والإسلامية لا يتم فيها التوثيق ولكن عقود الزواج فيها تتم بشكل شرعي ولذلك قال القاضي الشرعي بمصر حامد عبد الحليم الشريف : «ولأن الزواج عقد رضائى ، وليس من العقود الشكلية التي يستلزم لها التوثيق ، فالتوثيق غير لازم ، لشرعية الزواج أو صحته أو نفاذه أو لزومه والقانون لم يشترط لصحة الزواج السري الإشهار والإشهار فقط لم يستلزم التوثيق ، ولا يشترط إلا في حالة واحدة فقط وهي سماع دعوى الإنكار ، أما في حالة الإقرار فلا يشترط التوثيق» .

وهذا المعنى لا ينطبق على عصرنا الحاضر لغياب الوازع الديني والأخلاقي عند كثير من المسلمين إلا من رحم ربي وعصم . لأن المسلمين قديماً لم يهتموا بمسألة توثيق الزواج ، ولم يكن يعني ذلك لهم أدنى حرج وذلك لأن تعاليم الإسلام كانت تطبق وأحكامه كانت محفوظة فاطمأنت نفوسهم إليه ولذلك صار عندهم عُرفاً فلم يكن يُسجل في الماضي ولكنه كان مُكتملاً لجميع الشروط والأركان التي ذكرناها آنفاً.. أما عن الزواج العُرفي والذي نُسميه (الزنا المقنن) أو (الزنا العُرفي) وهو الذي لم تكتمل شروطه شروط الزواج العُرفي الصحيح والحقيقي والتي ذكرناها آنفاً فهو غير شرعي ولا يجوز أن يُطلق عليه اسم زواج لأنه ليس فيه للمرأة أيُّ حقوق بل إنه قد ظهرت أشكال حديثة وجديدة لما يُسمى بالزنا العُرفي ، وأشهرها أن يكتب الرجل ورقة وأن تكتب الفتاة ورقة أخرى ثم يتم تبادل الأوراق بينهما ، ثم ظهر شكل آخر وهو الزنا

١- فتاوى معاصرة ص ٩٤ .

العُرفي عن طريق شريط الكاسيت فيسجل الشاب صوته بأنه قَبِلَ الزواج منها وتقوم الفتاة بنفس الشيء ، ثم تطوَّر هذا الأمر حسب التطور التكنولوجي الهائل والسريع فأصبح مثل هذا الزنا العُرفي يتم عن طريق الهواتف المحمولة (الموبايل) ثم ظهر نوع غريب وهو ما عُرف بالزواج (استغفر الله) أقصد الزنا بالدم وهو أن يقوم الشاب والفتاة بخلط دمهما سوياً بالحقن وبمجرد حدوث هذا الخلط أصبحوا - حسب تحايلهم وخيالهم المريض - بمثابة أزواج ومارسوا معاً حقوق الفراش الذي هو الزنا بعينه أعاذنا الله وجميع المسلمين من هذا كله وحفظ الله شبابنا وفتياتنا من الوقوع في شَرَك الشيطان وحيله .. هذا عن الفرق بين الزواج العُرفي الصحيح والحقيقي وما يسمى بالزنا العُرفي أو بالاصطلاح الحديث الزواج العرفي وهو باطل وفاسد بالصورة التي ذكرناها وهو حرام شرعاً وهو كما ذكرنا بمثابة الزنا (المُقنَّن) .. أما عن الأسباب الدافعة لمثل هذا الزواج فهي تتمثل في التالي :

١- اشتعال الغريزة الجنسية لدى الشباب والمراهقين نتيجة الكبت الجنسي للأسباب التي ذكرناها آنفاً - وهذا السبب هو الغالب والأعم .

٢- رغبة الزوجة المتوفى عنها زوجها في عدم انقطاع معاش زوجها للزواج مرة أخرى وقد سُئلتُ شخصياً كثيراً عن هذا وقد أجبت بعدم جواز من تقدم على هذا الفعل لأنه من باب التحايل المحرَّم ..

٣- ارتفاع نسبة العنوسة في كثير من البلدان العربية لأسباب كثيرة مما يدفع كثيرات من الفتيات للإذعان والخضوع لمثل هذا الزواج .

فهذه الأسباب وغيرها الكثير الذي يدفع كثيرين من الشباب والفتيات والأرامل إلى التفكير في مثل هذا الزواج المُحرَّم والباطل شرعاً وقانوناً ..

وهذا نتاج طبيعي لما تعيشه الأمة الآن من ضعف الوازع الديني عند كثير من الناس وجهلهم بالأحكام الشرعية للإسلام وتحايلهم على الزنا بدعوى ومسمي الزواج العرفي ، والزواج العُرفي الحقيقي والصحيح براء من هذا المسمى الذي ألصق

به زوراً وبهتاناً .. ولذا فقد تحققت نبوءة الصادق المصدوق في قوله ﷺ في الحديث الذي ذكرناه آنفاً : «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَّ...»[1] أي : الزنا ، فطريقة ووسيلة الزواج العرفي أو الزنا العُرفي هو استحلال للزنا وهذا ما يقوله ويتلفظ به الشاب للفتاة التي يُغريها لكي تقع في شباكه فيزين له أن هذا الفعل (حلال) ليأخذ منها مراده ثم يتركها فريسة للضياع .. احذري يا فتاتي ويا ابنتي المسلمة من الوقوع في شباك أبالسة الإنس ومن حيل وحبائل الشيطان وقاكِ الله كل سوء وحماكِ من كيد شياطين الإنس والجن أينما كنتِ وحيثما حللتِ في عالمنا العربي والإسلامي ، وخاصة وأن مثل مُسمى هذا الزواج قد أصبح ظاهرة في عالمنا العربي حيث إن نسبته حسب بعض الإحصاءات في مصر وحدها وخاصة بين طلبة الجامعة وبعض مدارس الثانوي وصل إلى حوالي (١٧٪) ولا حول ولا قوة إلا بالله ومع تفشي هذه الظاهرة التي لم يتم إلى الآن حصرها في عالمنا العربي من حيث عدد المتزوجين مثل هذا الزواج العُرفي بمصطلحه وتعاريفه الحديثة نقول للمسؤولين والقائمين على أمور بلادنا اتقوا الله في شبابنا وامنعوا أو على الأقل حِدُّوا من نشر ما يُشيع الفساد والفاحشة بين هؤلاء الشباب من أفلام إباحية ومسلسلات هابطة وأغانٍ منحلة ورديئة تحت دعاوى شتى ومبررات متهافتة وذلك لمنع والحد من ظاهرة هذا (الزنا العُرفي) .

ومن وسائل وطرق استحلال الزنا ما يُسمى بنكاح المحلل فما هو هذا الزواج ؟

٢ - نكاح المُحلِّل واستحلال الفروج :

قال الله - عز وجل : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٣٠] رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قوله ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ أي : إن طلَّقها ثلاثاً فلا تحل حتى تنكح زوجاً غيره»[2] .

١- سبق تخريجه .

٢- راجع تفسير الطبري (٤/ ٥٨٦) .

وروى البخاري ومسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : جاءت امرأة رفاعة القُرظي النبي ﷺ فقالت : كنت عند رفاعة فطلَّقني فأبتَّ طلاقي ، فتزوجت عبدالرحمن بن الزبير ، إنما معه مثل هُدْبة الثوب . فقال : «أتريدين أن ترجعي إلى رفاعة؟ لا . حتى تذوقي عُسيلته ويذوق عُسيلتك»[1] قال الحافظ ابن حجر : «نزلت آية سورة البقرة ﴿ فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ﴾ في عائشة بنت عبدالرحمن النضرية كانت تحت رفاعة بن وهب بن عتيك وهو ابن عمها فطلقها طلاقاً بائناً فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير ثم طلَّقها فأتت النبي ﷺ فقالت : إنه طلَّقني قبل أن يَمسَّني أفأرجع إلى ابن عمي زوجي الأول ؟ قال : لا ... الحديث ، وقال جمهور العلماء : ذوق العُسيلة كناية عن النكاح والمجامعة .. وقوله (إنه ليس معه إلا مثل هُدبة) بضم الهاء وسكون المهملة هو : طرف الثوب الذي لم يُنسج مأخوذ من هُدْب العين وهو شعر الجفن والمعنى أنه لا يستطيع نكاحها ، وفي رواية أن زوجها سمع مقالتها فجاء ومعه ابنان له من غيرها .. وقال : كذبت والله يا رسول الله .. ولكنها ناشزة تريد رفاعة: [2] وقال الإمام النووي : «وفي هذا الحديث أن المُطلَّقة ثلاثاً لا تَحلّ لمطلِّقها حتى تنكح زوجاً غيره ، ويطأها ثم يُفارقها ، وتنقضي عدَّتها ، فأما مجرَّد عقده عليها فلا يُبيحها للأول ، وبه قال جميع العلماء من الصحابة (رضي الله عنهم) والتابعين من بعدهم»[3] .

ومما يُستفاد من الحديث الذي سقناه آنفاً أن الرجل المسلم إذا أراد أن يُعيد مُطلقته البائنة (أي : الذي طلقها بالثلاث) فلابد أن تتزوج مُطلقته برجل آخر زواجاً شرعيًّا ويدخل عليها ويعاشرها معاشرة الأزواج ولا يتزوجها الزوج الثاني بنيَّة التحليل لزوجها الأول وهو ما يُطلق عليه بـــ (المُحلل) لأنه في هذه الحالة يُعتبر زواج زنا

١- رواه البخاري في الشهادات ٢٦٣٩ وفي الطلاق ٤٩٠٥ ، ومسلم في النكاح ٣٥٩٩ .

٢- بتصرف من فتح الباري شرح البخاري ، كتاب الطلاق (٩/ ٤٦٥، ٤٦٦) .

٣- شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ١٥٧) .

واستحلال للفروج بالتحايل على الشرع وقد لعن رسول الله ﷺ الذي يفعل ذلك واعتبره كالتيس المستعار ، فقد روى أحمد والنسائي وأبو داود وابن ماجة من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : «لعن الله المُحلل والمُحلل له»[1] .

وروى ابن ماجة عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أخبركم بالتيس المستعار» قالوا : بلى يا رسول الله . قال : «هو المُحلِّل ، لعن الله المُحلِّل والمُحلَّلَ له»[2] .

ولذلك اعتبر جمهور العلماء من المسلمين أن النكاح بنيَّة التحليل يقتضي عدم الصحة وهو نكاح باطل ولذلك شبّه النبي ﷺ من يفعل ذلك بالتيس المستعار أي : الذي ليس عنده نَخوة ولا غَيْرة ولا أنفة ، وكان الفاروق عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يعتبر هذا النكاح من الزنا فقد روى ابن أبي شيبة في مصنفه عن عمر - رضي الله عنه - قال : «لا أُوتي بمحلٍّ ولا محلل له إلا رجمتهما» . وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - سُئل عن تحليل المرأة لزوجها قال : ذلك السِّفاح ، وقال : لعن الله المُحلِّل والمحلل له والمحللة»[3] وروى عبد الرزاق في مصنفه أن ابن عمر - رضي الله عنه : سُئل عن رجل طلّق ابنة عم له ، ثم رغب فيها وندم ، فأراد أن يتزوجها رجل يُحلُّها له ، فقال ابن عمر : كلاهما زان وإن مكثا كذا وكذا ، ذكر عشرين سنة أو نحو ذلك ، إذا كان الله يعلم أنه يريد أن يُحلَّها له» . وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : سأله رجل فقال: إن عمي طلَّق امرأته ثلاثاً ، قال : إن عمك عصى الله فأندمه ، وأطاع الشيطان فلم يجعل له مخرجاً ، قال : كيف ترى في رجل يُحلُّها له ؟ قال : من يُخادع الله يخدعه» .

١- رواه أبو داود في النكاح ٢٠٧٦ ، والنسائي في الطلاق ٣٤٢٩ ، وابن ماجة في النكاح ٢٠٠٩ ، وأحمد في المسند من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه ٤٣٩٦ . وصححه الألباني .

٢- رواه ابن ماجة في النكاح ٢٠١١ ، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٢٠٨) .

٣- مصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٣٩١) .

وعن قتادة قال : إن نوى الناكح ، أو المُنكح ، أو المرأة ، أو أحد منهم التحليل فلا يصلح»[١].

ومع توضيح هذا البيان الشافي والكافي الذي سردناه من آيات قرآنية وأحاديث نبوية صحيحة وأقوال سلف الأمة من الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين وآراء جمهور فقهاء وعلماء الإسلام حول تحريم شرعنا الحنيف لهذا النوع من النكاح إلا أن ثلّة قد خرجت علينا تستحل هذا الزواج الباطل والمحرَّم وسوف نأتي تباعاً على معنى الاستحلال وقد أشار العالم الجليل ابن قيم الجوزية وهو من القرن الثامن الهجري يحكي عن أهل زمانه في إعلام الموقعين عن ذلك فقال : «وأما في هذه الأزمان فقد شكت الفروج فيها إلى ربها من مفسدة التحليل وقُبح ما يرتكبه المحلِّلون مما هو رمد ، بل عمى في عين الدين ، وشجى في حلوق المؤمنين ، من قبائح تُشمِّت أعداء الدين به ، وتمنع كثيراً ممن يُريد الدخول فيه بسببه بحيث لا يُحيط بتفاصيلها خطاب ، ولا يحصرها كتاب ، يراها المؤمنون كلهم من القبائح ، ويعدونها من أعظم القبائح ، قد قبلت من الدين رسمه ، وغيَّرت منه اسمه ، وضمخ[٢] التيس المستعار فيها المطلقة بنجاسة التحليل ، وزعم أنه قد طيَّبها للحليل ، فيا لله العجب أيَّ طيب أعادها هذا التيس الملعون ، وأيَّ مصلحة حصلت لها ولمطلقها بهذا الفعل الدون ، أتُرى وقوف الزوج المطلق أو الولي على الباب ، والتيس الملعون قد حلَّ إزارها وكشف النقاب ، وأخذ في ذلك المرتع ، والزوج أو الولي يناديه لم يُقدَّم إليك هذا الطعام لتشبع ، فقد علمت أنت والزوجة ، ونحن والشهود والحاضرون ، والملائكة الكاتبون ، ورب العالمين أنك لست معدوداً من الأزواج ، ولا للمرأة وأوليائها بك رضا ولا فرح ولا ابتهاج ، وإنما أنت بمنزلة التيس المستعار ، الذي لولا هذه البلوى لما رضينا وقوفك على الباب ، فالناس يُظهرون النكاح ويُعلنونه فرحاً وسروراً ، ونحن نتواصى بكتمان هذا الداء العضال ونجعله أمراً مستوراً بلا نثار ولا دُف ولا خفوان ولا إعلان ، بل

١- مصنف عبد الرزاق (٦/ ٢٦٧) .

٢- أي : لطَّخ نفسه بنجاسة التحليل .

بالتواصي (بهس) و (بمس) والإخفاء والكتمان ، فالمرأة تُنكح لدينها وحسبها ومالها وجمالها ، والتيس المستعار لا يُسأل عن شيء من ذلك ، والله - تعالى - جعلَ كل واحد من الزوجين سكناً لصاحبه وجعل بينهما مودة ورحمة ليحصل بذلك مقصود هذا العقد العظيم ، وتتم بذلك المصلحة التي شرعه لأجلها العزيز الحكيم ، فَسَل التيس المستعار هل له من ذلك نصيب ؟ أو هو من حكمة هذا العقد ومقصوده ومصلحته أجنبي غريب ، وسَل هذا التيس المستعار هل حدَّث نفسه وقت هذا العقد الذي هو شقيق النفاق بنفقة أو كسوة أو وزن صَدَاق ، وهل طمعت المصابة منه في شيء من ذلك أو حدَّثت نفسها به هنالك ، وهل طلب منها ولداً نجيباً واتخذته عشيراً وحبيباً ، وسل عقول العالمين وفطرهم هل كان خير هذه الأمة أكثرهم تحليلاً وكان المحلل الذي لعنه الله ورسوله ﷺ أهداهم سبيلاً»[1] فهذا الكلام النفيس الذي ذكره العلامة ابن قيم الجوزية كان موجهاً لأهل زمانه منذ ما يقرب من خمسمائة عام ويزيد أما في أيامنا النحسات ، فقد استحلَّ الناس ، إلا من رحم ربي وعصم ، هذا النكاح الحرام والزواج الباطل ، بل أصبح الناس يستقون وينهلون الفتاوى وتعاليم دينهم من وسائل الإعلام المختلفة التي تعرض لهم ما يسمى بالعفن الفني ليل نهار والمتمثل في الأفلام والمسرحيات والمسلسلات التي تعرض لهم إباحة هذا الزنا المُقنن والمتمثل في زواج المُحلل ، وقد تصدَّر كثير من الجهلة وأفتوا لمن يُطلِّق امرأته طلاقاً بائناً بهذا الزواج دون وازع من علم أو خُلُق أو دين وذلك نتيجة انتشار الأفلام والمسرحيات التي تقول بإباحة هذا الزواج المحرَّم ، وهذا كله من باب التحايل على الشرع وتقليد لليهود الذين أباحوا لأنفسهم ما حرَّمه الله - عز وجل - عليهم ، ولذلك حذَّرنا رسول الله ﷺ في الحديث الذي سقناه آنفاً والذي قال فيه : «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»[2] .

١- بتصرف من : إعلام الموقعين عن رب العالمين للعلاّمة ابن قيم الجوزية (٣/ ٤٢) . بتحقيق طه عبد الرءوف سعد [الناشر : دار الجيل - بيروت ١٩٧٣م] ،

٢- سبق تخريجه .

وقد استحل البعض زواج المحلل تحت ذرائع وتبريرات واهية وآراء مغلوطة ولذلك أردنا من خلال عرضنا لتلك الفقرة أن ندق ناقوس الخطر ونقول لهؤلاء الذين يُفتون بغير علم اتقوا الله ولا تُحِلُّوا ما حرَّمه الله ولا تخوضوا في غمار العلم والدين إلا عن معرفة ودراية وإلا هلكتم وأهلكتم اللهم قد بلَّغت .. اللهم فاشهد ..

٣ - نكاح المتعة واستحلال الفروج :

زواج المتعة أو نكاح المتعة هو نكاح محذور ومُحرَّم في الشريعة الإسلامية بعد أن نسخه رسول الله ﷺ ومنعه وحذَّر ونهى عنه - كما سيأتي - وقد كان أباحه النبي ﷺ في أول الإسلام لحالات بعينها مثل السفر الطويل في ذاك الوقت حيث كان السفر يتم عن طريق سفينة الصحراء وهي الجمال وفي حالات الغزو البعيد - كما سنُفصِّل ذلك تباعاً - وقد يستدل بعض المخالفين الذين يقولون بإباحة هذا النكاح المُحرَّم ببعض الآيات المتشابهة والذي قال الله - عز وجل - في أمثال هؤلاء ممن يتبعون المتشابه من القرآن : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ .... ﴾ [آل عمران : ٧] فالذين يقولون بالإباحة هم الذين في قلوبهم زيغ والذين يريدون إشاعة الفاحشة بين المسلمين لأن زواج المتعة هو عبارة عن زنا مُقنن كالزواج العُرفي الذي ذكرناه آنفاً ، وذلك لأن استحلال الفروج في الإسلام من المسائل العظيمة والخطيرة ولا يصح التساهل فيها لكي لا تنتشر الفاحشة وتضيع حقوق النساء والأبناء - كما هو الحاصل الآن بين جمع من المسلمين الذين يُبيحون مثل هذا الزواج المُحرَّم الذي حرَّمه جمع غفير من السلف والخلف الذين اتبعوا الهدْي النبوي وتمسَّكوا بسنته المُطهَّرة في تحريم هذا الزواج ومنعه منعاً باتًّا ولكن ثلة - كما ذكرنا - ممن في قلوبهم زيغ اتبعوا المتشابه من القرآن فأوّلوا آيات الله - عز وجل - حيث تتماشى مع أهوائهم وأغراضهم ونشروا بعض الفتاوى على المواقع الإلكترونية التي تُبيح مثل هذا الزواج المُحرَّم تحت ذريعة أنه يقي من الوقوع في الفاحشة وقد جهلوا أنه هو ذاته

فاحشة . كما سنثبت ذلك من خلال الأدلة القاطعة والمتضافرة التي أجمع عليها جُلُّ الطوائف الإسلامية .

وقد كان هذا الزواج مُباحاً في صدر الإسلام للضرورة القصوى وقبل أن نسرد أدلة الإباحة التي قد يستند إليها البعض ، وقبل الرد عليهم نتطرق أولاً إلى التعريف العلمي لمعنى نكاح المتعة وما أجمع عليه فقهاء الإسلام حول هذا الموضوع .

نكاح المتعة هو : النكاح إلى أجل مُعيَّن وهو من التمتع بالشيء أي : الانتفاع به . يُقال به أتمَّع تمتُّعاً .. والاسم : المُتعة بالضم وهو أن يتزوج الرجل المرأة يتمتع بها أياماً ثم يُخلي سبيلها .. وكان ذلك مُباحاً في أول الإسلام ثم حرَّمه رسول الله ﷺ إلى يوم القيامة ، حيث كان يُشارط الرجل المرأة شرطاً على شيء بأجل معلوم ويعطيها شيئاً فيستحلُّ بذلك فرجها ثم يُخلِّي سبيلها من غير تزويج ولا طلاق .

وقال ابن منظور : والمتعة التمتع بالمرأة لا تريد إدامتها لنفسك ، وأما قول الله - عز وجل- ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ﴾ [النساء : ٢٤] فإن الزجاج (أحد كبار علماء اللغة) ذكر أن هذه الآية قد غلط فيها قوم غلطاً عظيماً لجهلهم باللغة العربية (وهؤلاء قالوا بإباحة نكاح المتعة) وذلك أنهم ذهبوا إلى قوله ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ ﴾ أنه: المتعة ، وهو غلط بيِّن ، فقد أجمع أهل العلم أنه حرام ، وإنما المعنى : ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ ﴾ أي : فما نكحتم به منهن على الشريطة التي جرى في الآية أنه الإحصان أن تبتغوا بأموالكم محصنين أي : عاقدين التزويج أي : فما استمتعتم به منهن على عقد التزويج الذي جرى ذكره فآتوهن أجورهن فريضة أي : مهورهن . فإن استمتع بالدخول بها أتي المهر تاماً، وإن استمتع بعقد النكاح أتى نصف المهر ، وقال الأزهري : من زعم أن قوله ﴿ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ ﴾ التي هي الشرط في التمتع الذي يفعله من قالوا بإباحة هذا الزواج فقد أخطأ خطأً عظيماً لأن الآية واضحة بينة»[1] .

١- راجع : النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٤/ ٦١١) ، وتاج العروس للزبيدي (١/ ٥٥٣٧) ، ولسان العرب لابن منظور (٨/ ٣٢٧ ، ٣٢٨) .

وقد عرَّف الفقهاء نكاح المتعة بأنه نكاح الرجل المرأة بشيء من المال مُعيَّن مدة معينة ، ينتهي النكاح بانتهائها ، من غير طلاق ، ولا وجوب نفقة وسكنى ، ولا توارث يجري بينهما ، وقد اتفقت جميع الطوائف الإسلامية إلا بعض المخالفين على أن زواج المتعة ونحوه حرام وباطل واعتباره زنا - كما سيأتي - وأما عن كون أن نكاح المتعة كان مُباحاً في أول الإسلام فإنما كان ذلك في بعض الغزوات ، فكان للضرورة القاهرة في الحرب والسفر البعيد وقد استدلوا ببعض الأحاديث التي وردت في هذا الشأن ، وقد بَوَّب الإمام البخاري باباً في صحيحه سمّاه : باب نهي رسول الله ﷺ عن نكاح المتعة آخراً ، فعن الحسن بن محمد بن على وأخوه عبدالله بن محمد بن علي عن أبيهما أن عليًّا - رضي الله عنه - قال لابن عباس إن النبي ﷺ نهى عن المتعة وعن لحوم الحُمُر الأهلية زمن خيبر» .

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه سُئل عن متعة النساء فرخّصَ فقال له مولًى له : إنما ذلك في الحال الشديد وفي النساء قلّةٌ أو نحوه . فقال ابن عباس : نعم . «وعن جابر بن عبد الله وسلمة بن الأكوع (رضي الله عنهما) قالا : كنا في جيش فأتانا رسول الله ﷺ : فقال : إنه قد أُذن لكم أن تستمتعوا ، فاستمتعوا»[١] .

وروى مسلم عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ليس لنا نساء فقلنا : ألا نستخصى ؟ فنهانا عن ذلك ثم رخَّص لنا أن ننكح المرأة بالثوب إلى أجل» وعن سلمة بن الأكوع - رضي الله عنه - قال : رخَّص رسول الله ﷺ عام أوطاس[٢] في المتعة ثلاثاً (أي : ثلاثة أيام) ثم نهى عنها».

وعن سَبْرَة الجهني - رضي الله عنه - أنه قال : أذن لنا رسول الله ﷺ بالمتعة فانطلقت أنا ورجل إلى امرأة من بني عامر كأنها بَكْرةٌ عيطاء[٣] ، فعرضنا عليها أنفسنا

١- راجع : صحيح البخاري ، كتاب النكاح ٥١١٥ ، ٥١١٦ و ٥١١٧ .

٢- أوطاس : وادٍ في ديار هوازن تجمَّع فيه المشركون بعد انهزامهم يوم حُنين وذلك بعد فتح مكة .

٣- البكرة : بفتح الباء وسكون الكاف : الفتية من الإبل والمراد أنها طويلة العنق في اعتدال ، العيطاء : طويلة العُنق مع اعتدال في القوام .

فقالت : ما تُعطي فقلت : ردائي ، وقال صاحبي : ردائي ، وكان رداء صاحبي أجود من ردائي ، وكنت أشبَّ[1] منه ، فإذا نظرت إلى رداء صاحبي أعجبها وإذا نظرت إليَّ أعجبتُها ثم قالت : أنت ورداؤك يكفيني ، فمكثت معها ثلاثاً ثم إن رسول الله ﷺ قال: «من كان عنده شيء من هذه النساء التي يتمتع فليُخَلِّ سبيلها»[2] .

قال الإمام النووي : «قال المازري : ثبت أن نكاح المتعة كان جائزاً في أول الإسلام ثم ثبت بالأحاديث الصحيحة أنه نُسِخَ ، وانعقد الإجماع على تحريمه ولم يخالف فيه إلا طائفة من المستبدعة ، وعلقوا بالأحاديث الواردة في ذلك ، وقد ذكرنا أنها منسوخة فلا دلالة لهم فيها .. وقال القاضي عياض : روى أحاديث إباحة المتعة جماعة من الصحابة، وليس في هذه الأحاديث كلها أنها كانت في الحضر ، وإنما كانت في أسفارهم في الغزو عند ضرورتهم وعدم النساء مع أن بلادهم حارة وصبرهم عنهن قليل ، وقد ورد أنها كانت رخصة في أول الإسلام لمن اضطُرَّ إليها كالميتة ونحوها ، ثم حُرِّمت بعد ذلك تحريماً أبديًّا إلى يوم القيامة ثم قال القاضي : واتفق العلماء على أن هذه المتعة كانت نكاحاً إلى أجل لا ميراث فيها وفِراقها يحصل بانقضاء الأجل من غير طلاق ، ووقع الإجماع بعد ذلك على تحريمها من جميع العلماء إلا من شذَّ عن هذا الإجماع»[3] .

ومن أقوال العلماء في التعليق على أحاديث الإباحة بأنها منسوخة يتبين أن نكاح المتعة حرام ومن يفعله فقد وقع في الزنا ، ولكي أُطمئن قلب القارئ الكريم إلى صحة ما نقول أسوق إليه بعض الأحاديث التي وردت في تحريم هذا النكاح ثم أعقِّبه بأقوال بعض علماء أهل الإسلام العدول :

١ - روى مسلم عن سبرة الجهني - رضي الله عنه - قال : نهى رسول اله ﷺ عن نكاح المتعة[4] .

١- أي : أصغر منه سنًّا ، وفي رواية : «فخرجت أنا ورجل من قومي ولي عليه فضل في الجمال وهو قريب من الدمامة» .

٢- راجع صحيح مسلم باب النكاح ٣٤٧٧ ، ٣٤٨٤ ، ٣٤٨٥ .

٣- انظر : شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ٧٦) .

٤- صحيح مسلم ، كتاب النكاح ٣٤٨٦ .

٢ - روى ابن حبان عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال : «نهى رسول الله ﷺ عن متعة النساء»[١] .

٣ - وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي -ﷺ لما خرج[٢] ثنية الوداع ، فرأى مصابيح ، وسمع نساء يبكين فقال : «ما هذا؟» قالوا : يا رسول الله نساء كانوا تمتعوا منهن أزواجهن . فقال رسول الله ﷺ : «هدم - أو قال - حرَّم المتعة : النكاح ، والطلاق ، والعِدَّة ، والميراث»[٣] .

٤ - وعن الربيع بن سبرة الجهني ، عن أبيه أن رسول الله ﷺ نهى عن المتعة وقال : «إنها حرام من يومكم هذا إلى يوم القيامة ، ومن كان أعطى شيئاً فلا يأخذه»[٤] .

٥ - وروى ابن ماجة عن ابن عمر قال : لما وَلِي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خطب الناس فقال : إن رسول الله ﷺ أَذِنَ لنا في المتعة ثلاثاً ثم حرَّمها ، والله لا أعلم أحداً تمتع وهو مُحصن إلا رجمته بالحجارة إلا أن يأتيني بأربعة يشهدون أن رسول الله أحلها بعد إذ حرّمها»[٥] ثم علَّق الإمام البيهقي على تلك الرواية قائلاً : «ونحن لا نشك في كونها (أي : المتعة) كانت على عهد رسول الله ﷺ لكنا وجدناه نهى عن نكاح المتعة عام الفتح بعد الإذن فيه ثم لم نجده أذن فيه بعد النهي عنه حتى مضى لسبيله ﷺ فكان نهي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عن نكاح المتعة موافقاً لسُنة رسول الله ﷺ» .

٦ - ثم روى عن سعيد بن جُبَيْر عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال : المتعة حرام كالميتة والدم ولحم الخنزير» . وروى أيضاً عن بسام الصيرفي قالت

١- صحيح ابن حبان ٤٢١٤ .

٢- أي : إلى فتح مكة .

٣- صحيح ابن حبان ٤٢٢٣ وصححه الألباني في صحيح الجامع ٧٠٢٢ .

٤- صحيح ابن حبان ٤٢٢٤ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٢٩ ، ٣٨١) ..

٥- رواه ابن ماجة في كتاب النكاح ، باب : النهى عن نكاح المتعة ٢٠٣٩ وصححه الألباني .

سألت جعفر بن محمد (أي : جعفر الصادق) - رضي الله عنه - عن المتعة فوصفتها له ، فقال لي : ذلك الزنا»[1] .

أما عن أقوال علماء وفقهاء الإسلام عن هذا النكاح الباطل فقال البغوي : «ذهب عامة أهل العلم أن نكاح المتعة حرام»[2] .

وقال أبو حيان الأندلسي : «اتفق على تحريم نكاح المتعة فقهاء الأمصار وقد ثبت التحريم عن رسول الله ﷺ»[3] .

وقال القرطبي : «رُوى عن علي - رضي الله عنه - أنه قال : نَسَخَ صوم رمضان كل صوم ، ونسخت الزكاة كل صدقة ، ونسخ الطلاق والعدة والميراث ، المتعة ، ونسخت الأضحية كل ذبيحة»[4] .

وقال الإمام الشوكاني : «نحن متعبدون بما بلغنا عن الشارع ، وقد صحَّ لنا عنه التحريم المؤبد (أي : في زواج المتعة) ومخالفة طائفة من الصحابة له غير قادحة في حُجِّيته ولا قائمة لنا بالمعذرة عن العمل به ، كيف والجمهور من الصحابة (رضي الله عنهم) قد حفظوا التحريم وعملوا به ورووه لنا»[5] وبالأحاديث قطعية الثبوت التي ذكرناها عن رسول الله ﷺ بنسخ وتحريم والنهي عن نكاح المتعة ، وبإجماع أقوال فقهاء وعلماء أهل الأمصار من المسلمين العدول على تحريم مثل هذا الزواج يتبين لكل ذي لُبٍّ وعقل سليم أن زواج المتعة حرام وهو الزنا بعينه وأن من يستحلون مثل هذا الزواج يندرجون تحت المسمى النبوي الذي أسماهم به وهم الذين (يستحلون الحِر) أي : الزنا - كما سبق وأشرنا - لذلك فلا يُغتر بمن يُفتون الآن باستحلال هذا الزواج

١- راجع السنن الكبرى للبيهقي (٧/ ٢٠٢٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٧) وقال الألباني في رواية الإمام جعفر الصادق : إسناده جيد (راجع السلسلة الصحيحة ٥/ ٥٢٧ حديث رقم ٢٤٠٢) .

٢- راجع : تفسير معالم التنزيل للإمام البغوي (٢/ ١٩٣) .

٣- تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي (٤/ ٩٢) .

٤- انظر : الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٥/ ١٣٠) .،

٥- راجع كلام الإمام الشوكاني النفيس حول هذا الموضوع في : نيل الأوطار (١٠/ ٢٠).

المُحرَّم الذي أثبتنا بها لا يدع مجالاً للشك أنه : زنا مُقنن ، ولينأ كل مسلم ومسلمة عن مثل تلك الفتاوى المُهلكة ،وأرجو أن أكون قد أمطت اللثام عن هذا الموضوع الشائك وأبنت مدى جُرم من يأتي بمثل هذا الفعل وخاصة في زماننا الذي نعيش فيه وذلك تحت ذريعة هذا النكاح الباطل والفاسد .. اللهم قد بلَّغت .. اللهم فاشهد .

فأمثلة هذه الزيجات التي ذكرناها تندرج تحت مسمى استحلال الزنا وهي للأسف منتشرة في زماننا ولذلك فقد حذَّر منها النبي ﷺ خوفاً على أمته من عذاب الله - عز وجل - فقد روى الحاكم والطبراني عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا ظهر الزنا والربا في قرية ، فقد أحلَّوا بأنفسهم عذاب الله»[1] .

وروى الإمام مالك عن ابن عباس (رضي الله عنهما) أنه قال : «ما ظهر الغلول في قوم قط إلا ألقى في قلوبهم الرعب ، ولا فشا الزنا في قوم قط إلا كثر فيهم الموت»[2] والغُلول من : غَلَّ ، يَغُل بضم الغين المعجمة وهو الخيانة في المغنم أثناء الحروب والسرقة من الغنيمة ، وكل من خان في شيء خُفية فقد غلَّ ، وفشا أي : انتشر وذاع[3]، وقدى البيهقي والحاكم عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «يا معشر المهاجرين ، خمس خصال إذا ابتُليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة (أي : الزنا) في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا..» الحديث[4] .

وهذا الحديث من أعلام النبوة لأن الزمن الذي نعيش فيه ظهرت فيه الفاحشة وأعلنوا عنها ومن ثمَّ فشت الأمراض التي لم تكن في أسلافنا فالأمراض التناسلية

١- رواه الحاكم في المستدرك ٢٢٢١ وقال هذا حديث صحيح ، ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١/ ٤٩٢ حديث رقم ٤٦٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع ٦٧٩ .

٢- رواه الإمام مالك في الموطأ ، كتاب الجهاد ٩٨٧ .

٣- راجع لسان العرب (١١/ ٤٩٩) ، (١٥/ ١٥٥) .

٤- رواه الحاكم في المستدرك ٨٧٧٢ وقال : حديث صحيح ولم يخرجاه ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٧٩٧٨ .

كالهربس والزهري والسيلان وغيرها وأخيراً الإيدز كلها نتيجة انتشار الفاحشة والإعلان عنها في جميع وسائل الإعلام من قنوات فضائية وإنترنت وغيرها من وسائل الاتصال الحديثة التي ساعدت على سرعة انتشار الفاحشة بين جميع بلدان العالم ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وروى الإمام أحمد عن ميمونة زوج النبي ﷺ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم وَلَدُ الزنا . فإذا فشا فيهم ولد الزنا فيوشك أن يعمهم الله - عز وجل - بعقاب»(١) .

وانتشار أولاد الزنا لا يخفى على أحد في هذا الزمان الذي نعيش فيه ، ولقد شاهدت بنفسي هذه الظاهرة عقب هزيمة العرب في حرب يونيو (حزيران) من عام ١٩٦٧م ، حيث انتشرت في مصر في ذاك الوقت ظاهرة إلقاء الأطفال الرُّضَّع ، ثم بُنيت الملاجئ بكثرة عقب ذلك والتي تأوي أطفال الشوارع وانتشرت انتشار النار في الهشيم حتى وقت كتابة هذا البحث وكل ذلك نتاج طبيعي لانتشار وظهور الفاحشة وفشو الزنا على الشكل والصورة التي نراها في مجتمعاتنا العربية والإسلامية ، حيث أصبحت هناك العديد من الإحصاءات عن أطفال الشوارع وأولاد الزنا فنسأل الله العلي العظيم بأسمائه وصفاته أن يُجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن وأن يرحمنا من عذابه وعقابه وأن لا يؤاخذنا بما فعل سفهاء هذا الزمان ممن ينشرون الفاحشة ويشيعونها بين أبناء الأمة الإسلامية عبر القنوات الفضائية من خلال ما يُبث فيها من أفلام داعرة وأجساد عارية ومسلسلات هابطة وما يُنشر فيها من كل غثٍّ وفاضح وإثارة غرائز الشباب . وقد اعترف العديد ممن يعملون فيما يسمى بالحقل الفني بهبوط وتدني المستوى الأخلاقي نتيجة عرض مثل هذه التفاهات وما يسمى بالعفن الفني على شاشات التلفاز والفضائيات(٢) ، وكان نتيجة ذلك انتشار الزنا وشيوعه على الصورة التي نراها الآن حتى سمعنا عن ما هو أفدح من الزنا بين الأغراب ألا وهو الزنا بحليلة الجار والزنا بالمحارم ...

١- مسند الإمام أحمد ٢٧٢٨٧ وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حديث رقم ٢٤٠٠ .

٢- راجع كتابنا : العفن الفني [الناشر : دار الكلمة - المنصورة - مصر] .

هذا زمان انتشار الزنا بحليلة الجار وزنا المحارم :

وهذا النوع لم يكن معروفاً في الأزمنة الماضية حيث أنه كان من الخطوط الحمراء التي لا يمكن الاقتراب منها وذلك لأن الجاهل بأحكام الدين الإسلامي في تلك الأزمنة كان يعلم أن هناك نصوصاً شرعية قد حرَّمت هذا النوع من الزنا.. حتى في المجتمعات الجاهلية القديمة كان زنا المحارم من الأنواع المُحرَّمة التي لا ينبغي للرجل أو المرأة الاقتراب منها ، وكان الزنا بالجارة يعتبر من الأمور المعيبة والمُحرَّمة أيضاً .. ولكن في زماننا للأسف الشديد استحلَّ البعض - قاتلهم الله - هذه المحرَّمات وفعلوها وهم لا يكترثون من عواقب هذه الأفعال الشنيعة والمشينة عليهم ولا على ذويهم ولا على مجتمعاتهم ولا يخافون عقاب الله وعذابه .. فاللهم إنا نبرأ إليك من أفعال هؤلاء ونعوذ بك من عذابك وعقابك الذي إذا نزل فلن يُفرِّق بين الصالح والطالح ، فقد روى الترمذي عن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ : «يكون في آخر هذه الأمة خَسْفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ»قالت : قلت يا رسول الله أنَهلَك وفينا الصالحون ؟ قال : «نعم إذا ظهر الخبث»[1] ، وهل هناك خَبَث أكثر من هذا النوع اللعين وهو انتشار الزنا بحليلة الجار والزنا بالمحارم؟ نعوذ بالله من الخذلان ومن عذابه الأليم ..

و(الخسف) هو المكان الذي يُخسَف به كانشقاق الأرض فجأة وابتلاع ما عليها وقد رأينا الخسف عبر بعض المواقع الإلكترونية وقع في بعض البلدان نسأل الله العفو والعافية ، وكما خسف الله - عز وجل - من قبل بقارون عندما بغى وتجبَّر وظن أن ماله وما آتاه الله من كنوز الأرض سيمنعه ويحميه من عقاب الله - تعالى - فقال سبحانه ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص : ٨١] .

وأما : (المسخ) فهو تغيير في الصورة والشكل والهيئة ، كما مسخ الله - عز وجل - بعض بني إسرائيل من اليهود إلى صورة القردة والخنازير فقال تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ

١- رواه الترمذي في الفتن ٢٣٤٤ ، وصححه الألباني .

﴿أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة : ٦٠] .

وأما (القذف) أي : رمي بالحجارة أو بالشُّهب الحارقة ، أو بالقنابل من الطائرات - كما هو الحال في عصرنا - وقد شاهدنا ذلك من خلال الحروب الحديثة التي تستعمل فيها الطائرات المقاتلة التي تقذف حمم القنابل والصواريخ من أماكن مرتفعة فتصيب وتدمر وتقتل كل من فوق الأرض والشاهد في هذا الحديث أنه إذا كَثُر الخبث أي : كَثُرت المعاصي والذنوب واستهان الناس بعفو الله - عز وجل - وحلمه وتمادى كثير من العابثين في غيِّهم وفسادهم وقعت لا محالة تلك الخطوب ونزل بلا شك العقاب الأليم من الله العفو الحليم فإنه سبحانه وتعالى يُمهل ولا يُهمل فقد روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «إن الله - تبارك وتعالى - يُملي وربما قال : يُمهل للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته». ثم قرأ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [سورة هود : ١٠٢][1] ، ومن أظلم من هؤلاء الناس الذين يأتون بمثل تلك الفواحش ويرتكبون هذه الآثام والذنوب والحماقات وقد اعتبر رسول الله ﷺ أن من أعظم الذنوب ارتكاب جريمة الزنا بحليلة الجار ، فقد روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : سألت النبي ﷺ أيُّ الذنب أعظم عند الله ؟ قال : «أن تجعل لله نِدّاً وهو خلقك «قلت : إن ذلك لعظيم : قلت : ثم أيُّ ؟ قال : «وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك .» قلت : ثم أيُّ ؟ قال : «أن تزني حليلة جارك»[2] وقوله (حليلة جارك) بفتح الحاء المهملة أي : التي يحلُّ له وطؤها ، وقيل التي تُحلُّ معه في الفراش ، وإنما عظّم الزنا بحليلة الجار ، وإن كان الزنا عظيماً ، لأن الجار له من الحُرمة والحق ما ليس لغيره ، فمن لم يراع حق الجوار فذنبه مضاعف لجمعه بين الزنا وخيانة الجار الذي وصَّى الله - عز وجل - بحفظه» فقال تعالى:

١- رواه الترمذي في الفتن ٢٣٤٤ ، وصححه الألباني .

٢- رواه البخاري في الأدب ٦٠٠١ ، ومسلم في الإيمان ٢٦٧ .

﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء : ٣٦] [١] . والآية تحث على الإحسان إلى الجار القريب ، وقيل : هو من له مع الجوار في الدار قُرب في النسب وأما (الجار الجُنُب) أي : المجانب وهو مقابل للجار ذي القربى ، وفي ذلك دليل على تعميم الجيران بالإحسان إليهم سواء كانت الديار متقاربة أو متباعدة ، وعلى أن للجوار حُرمة مرعية مأمور به ، وقد اختلف أهل العلم في المقدار الذي يصدق عليه مسمى الجوار ويثبت لصاحبه الحق ، فروي أنه إلى حدِّ أربعين داراً من كل ناحية» [٢] .

وقال الإمام النووي في قوله ﷺ (أن تزني حليلة جارك) : «سُميت بذلك لكونها تحل له ، وقيل : لكونها تُحلُّ معه ، ومعنى تزني أي : تزني بها برضاها ، وذلك يتضمن الزنا وإفسادها على زوجها واستمالة قلبها إلى الزاني ، وذلك أفحش وهو مع امرأة الجار أشد قُبحاً ، وأعظم جُرْماً لأن الجار يتوقع من جاره الذَّبَّ عنه ، وعن حريمه ، ويأمن بوائقه (أي : مصائبه ومهالكه ودواهيه) ويطمئن إليه ، وقد أُمر بإكرامه والإحسان إليه ، فإذا قابل هذا كله بالزنا بامرأته وإفسادها عليه مع تمكُّنه منها على وجهٍ لا يتمكن غيره منه كان في غاية من القبح»[٣] لذا فإن حُرمة الزنا بحليلة الجار أشد وأعظم من الزنا بغيرها من النساء فقد روى الإمام أحمد والطبراني عن المقداد بن الأسود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : ما تقولون في الزنا ؟» قالوا : حرام ، حرَّمه الله - عز وجل - ورسوله ، فهو حرام إلى يوم القيامة . فقال رسول الله ﷺ لأصحابه «لأن يزني الرجل بعشر نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره». [٤] فإن كان الزنا من أفحش الكبائر

١- راجع : فتح الباري شرح البخاري لابن حجر العسقلاني (١٩/ ٢٣٢) وشرح ابن بطال علي صحيح البخاري (٩/ ٤٦٤) .

٢- راجع تفسير فتح القدير للإمام الشوكاني (١/ ٧٤٢) بتحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة [الناشر : دار الوفاء/ المنصورة] .

٣- شرح النووي علي صحيح مسلم (١/ ١٨٧) .

٤- روا الإمام أحمد في المسند ٢٤٥٣ ، والطبراني في المعجم الكبير (١٥/ ١٩٤ حديث رقم ١٦٩٩٣) وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٠٤٣ .

فالزنا بحليلة الجار أشد وأفحش لقطع الزاني ما أمره الله - عز وجل - به من وصية الجار والإحسان إليه ودفع الأذى عنه ، فالزاني بفعلته هذه قد خان الأمانة وضيّع حق الجوار فاستحق بذلك غضب الله - عز وجل - وعقابه الشديد يوم القيامة.. قال المناوي : «ويكفي في مشهد العصيان أن يشهد فوت الإيمان الذي ذرَّة منه خير من الدنيا وما فيها بأضعاف فكيف يبيع هذا الزاني بشهوة تذهب لذتها ويبقى سوء مغبتها بتبعتها ، فتذهب الشهوة وتبقى الشقوة ، فالزنا ذنب كبير فإذا أُضيف إليه كونه بحليلة من يسكن جوارك والتجأ بأمانتك وثبت بينه وبينك حق الأمانة فقد زاد قُبحاً وكان الذنب والإثم أعظم وأفحش وأقبح وذلك لأن من حق الجار على الجار أن لا يخونه في أهله ، فإن فعل ذلك كان عقاب تلك الزنية يعدل عذاب عشر زنيات .. لذا فالزنا كبيرة من الكبائر وبغضه أفحش من بعض»[1] .

وزماننا الذي نعيش فيه الآن كثُرت فيه حوادث وجرائم الزنا وبخاصة هذا النوع الذي نحن بصدد الحديث عنه والتحذير منه والقارئ لا يجد كثير عناء حيال تلك الجرائم المنتشرة بكثرة في عصرنا الحاضر فالمتصفّح للجرائد والمجلات اليومية والأسبوعية سيجد ذلك بوفرة وكذلك على كثير من المواقع الإلكترونية ، ولقد كان لوسائل الإعلام الحديثة الأثر الأكبر في انتشار مثل تلك الفواحش وذلك عن طريق الأفلام القديمة والحديثة التي تدور كثير من قصصها حول موضوع الحب والعِشق الحرام أو الأغاني القديمة والحديثة التي تحمل معاني كلماتها أيضاً الحث على انتشار هذا الفعل الشنيع وتحث على معاكسة ومغازلة وعشق بنات الجيران . كل ذلك كان له أكبر الأثر في انتشار هذه الرذيلة والعادة القميئة بين مجتمعاتنا العربية ومما زاد الطين بلة أن هذا النوع من الزنا الفاحش أصبح في عصرنا الحاضر من الأمور العادية لكثرته وانتشاره بين الناس ، فقد نشرت شبكة الفتاوى الشرعية هذه الفتوى العجيبة عن امرأة من إحدى دول الخليج تقول : «عاملة في منزلي مارست الزنا مع سائق الجيران في منزلي بغيابي واعترفت بارتكابها جريمة الزنا مع وجود الأدلة ، فما كان من زوجي

١- بتصرف من فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي (٤/ ٧٠، ٥/ ٢٥٨) .

إلا أن أعادها للمكتب وقدَّم تنازلاً لعائلة أخرى ، ولم يتخذ الإجراء القانوني ضدهما ولم ينهر السائق أو يمنعه من دخول المنزل مرة أخرى ، فهل ما قام به يجوز شرعاً ، وهل يُعتبر تصرفه هذا فيه من الدياثة ؟ فأجاب المفتي الذي رُمز له بأنه خبير في الموسوعة الفقهية وعضو هيئة الإفتاء في تلك الدولة التي لا تُطبق ولا تتحاكم إلى شرع الله – تعالى – كبعض أخواتها من الدول العربية الذين يُطبقون القوانين الوضعية ، قال هذا المفتي سامحه الله بعد حمد الله تعالى والصلاة على رسول الله ﷺ : «فإذا تابت الخادمة والسائق عن ذلك فلا بأس بالعفو عنهما ، وإن لم يتوبا وجب إبعادهما أو الابتعاد عنهما واتخاذ إجراء قضائي في حقهما لئلا يتكرر ذلك منهما مرة ثانية والله أعلم»[1] والعجيب الغريب في هذه الفتوى غير الشرعية أن المفتي الذي يحمل شهادة حرف الدال ولست أدري في أيِّ تخصص ، حيث إننا نعيش الآن في زمن الفتاوى العشوائية لكل من هبَّ ودبَّ بإصدار الفتاوى دون خوف أو وجل من الله – عز وجل – وسوف نَفصِّل ذلك عند حديثنا عن زمن كثرة قبض العلماء ، والخطير في هذه الفتوى أن الذي أجاب عنها لم يُكلِّف نفسه ببيان وتوضيح الحكم الشرعي لُمرتكبي جريمة الزنا خاصة أن الزانية في هذه الحالة – كما ذكرت السائلة – أنها اعترفت بجريمتها مع سائق الجيران وأقرَّت بفعلتها وكأن ما ارتكبته من الصغائر حتى يقول لها هذا المفتى «فإذا تابت هي والسائق فلا بأس بالعفو عنهما» ، كذا وبكل جرأة على شرع الله الذي اعتبر أن جريمة الزنا هي من الكبائر وقرَّر لها الحكم الشرعي حسب النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال العلماء التي هي عدَّة كل مفتي يتصدر إلى الإفتاء ، وهكذا نجد أن هذا المفتي – سامحه الله – لم يُكلِّف نفسه ببيان الحكم الشرعي في هذه الحالة وهو الرجم إن كانا محصنين والجلد مائة جلدة إن كانا غير محصنين وذلك حسب النص القرآني ، فهذا من باب البيان والاعذار إلى الله – تعالى – في حالة عدم تطبيق الحكم الشرعي وذلك للتخويف والترهيب لكل من تسول له نفسه أو نفسها للإتيان

١- عن موقع شبكة الفتاوى الشرعية ، والراعي الإعلامي لهذه الشبكة قناة اقرأ الفضائية ، ورقم الفتوى هو (٨٠٢٦) وتاريخ نشرها (١١/ ١٠/ ٢٠٠٦) واسم المفتي نحتفظ به لأننا لسنا دعاة تشهير وسامحه الله على فتواه العرجاء !!

والإقدام على فعل تلك الفاحشة ، وللأسف فإن مثل تلك الفتاوى ذات البلاوي المنتشرة في عصرنا الحاضر والتي تقلِّل من شأن الحكم الرادع التي أقرَّته الشريعة الإسلامية لكل من يقوم بارتكاب تلك الجريمة النكراء ساعد - للأسف على انتشارها، لذا فعلى العلماء بيان وتوضيح أحكام الله - عز وجل - التي أقرَّتها الشريعة الإسلامية ويُعيدوا للأذهان الحدود التي أقرَّتها أحكام الشريعة في مرتكبي الجرائم الكبرى كالزنا والسرقة والرشوة وغيرها من الجرائم وإعلان ذلك عبر وسائل الإعلام والمطالبة بشدة لتطبيق شرع الله - تعالى - لكي يكون رادعاً لكل المجرمين وذلك بعد الأخذ بالأسباب المانعة لانتشار مثل هذه الجرائم ، وقد شاهدت بنفسي إقامة حد الرجم في مكة المكرمة على إحدى النساء التي ارتكبت جريمة الزنا وبعد اعترافها بجريمتها أُقيم عليها حدُّ الرَّجم وكان ذلك عام ١٤٠٦ هـ وقد رجمتها مع من رجمها وذلك تحقيقاً لقول الله - عز وجل ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور:٢] . وكنت أتخيل وقتها أن كل من يشهد هذا المنظر المهيب أو يسمع عنه - بغض النظر عن كُنه المقام عليه الحد أحد عوام الناس أو خواصِّهم لأن الشرع لا يُفرِّق بين الأمير والغفير - أقول إن من يرى ويسمع عن إقامة حدٍّ من حدود الله تعالى - لا يمكن بأي حال من الأحوال إن كان لديه ذرة من إيمان أن يفكر أو تفكر مجرد التفكير في الإقدام على فعل الفواحش أو ارتكاب جرائم الزنا ، ولذلك فقد روى ابن ماجة عن عبد الله ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «إقامة حدٍّ من حدود الله يُعمل به في الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمطروا أربعين صباحاً»[1] ، وعن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «أقيموا حدود الله في القريب والبعيد ولا تأخذكم في الله لومة لائم»[2] فإقامة حدود الله كما أمر الله - تعالى - ورسوله الكريم ﷺ كفيلة لدرء المفاسد ومنع ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن.. فاللهم ائذن لشرعك أن يسود ويعم الأرض .. آمين .

١- أخرجه ابن ماجة في باب إقامة الحدود ٢٦٣٤ ، ٢٦٣٥ ، وصححه الألباني .

٢- سنن ابن ماجة أيضاً في باب إقامة الحدود ٢٦٣٧ وصححه الألباني .

ومع عدم إقامة أحكام الله - عز وجل - وشرعه بين الناس وإعراض الحكومات عن تطبيق أحكام الإسلام وضعف الإيمان في نفوس كثير من المسلمين انتشرت ظاهرة الزنا بحليلة الجار وقد شاهدت بنفسي أحد رجال كبار السنّ وكان من الجيران الذين أراحنا الله - عز وجل - منه ومن شرِّه وترك هذا المسكن إلى غير رجعة رأيته ذات يوم وهو يقف في شرفة منزله يقوم بمغازلة ومعاكسة إحدى بنات الجيران وهي من سنّ بناته وقد أنبأنا رسولنا الكريم عن مثل هؤلاء الشيوخ الذين خفَّت عقولهم وقلَّ إيمانهم ممن يقومون بمثل هذه الأفعال المخزية أن عقابهم أليم وعذابهم شديد ومآلهم خطير إن لم يتوبوا إلى الله - عز وجل - توبة نصوحاً ويُقلعوا عن هذه الأفعال القبيحة والشنيعة قبل فوات الأوان لأن الصادق المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه - قد روى في حق أمثال هؤلاء الشيوخ (أي: كبار السن) الزناة روايات تحذيرية يشيب لها الولدان ، فمن ذلك ما رواه مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يُكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم - (قال أبو معاوية : أحد رواة الحديث) ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملكٌ كذَّاب ، وعائل مستكْبِر»[١] .

وروى الطبراني عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «لا ينظر الله يوم القيامة إلى الشيخ الزاني ، ولا إلى العجوز الزانية»[٢] .

قال المناوي في شرح معنى الشيخ الزاني الذي يستحق هذا العقاب الشديد من الله - عز وجل - : «ذلك لاستخفافه بحق الحقِّ - سبحانه وتعالى - وقلَّة مبالاته به ورذالات طبعه ، إذ داعيته قد ضعفت ، وهمَّته قد فترت ، فزناه عناد ومراغمة»[٣] .

١- رواه مسلم في كتاب الإيمان ٣٠٩ .
٢- رواه الطبراني في المعجم الكبير ١١٩٨ (القطعة من المفقود) وفي الأوسط أيضاً ٨٦٣٧ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة الجزء السابع حديث رقم ٣٣٧٥ .
٣- فيض القدير شرح الجامع الصغير (٣/ ٤٣٥) .

وقد كَثُر في زماننا هذا النوع من الرجال الذين خفَّت عقولهم ونقص دينهم وطُمِس على سمعهم وأبصارهم وأعرضوا عن الله - تعالى - وأسرعوا إلى تلبية شهواتهم في الحرام واستخفوا بعقاب الله - عز وجل - فاستحقوا أن يُعرِض الله - سبحانه وتعالى - عنهم يوم القيامة فلن ينظر إليهم ولن يزكيهم وسيكون لهم عذاب أليم ، وهذا الأمر ينطبق أيضاً على كل امرأة عجوز شمطاء ممن كان هذا خلقها ، ومن أنواع الزنا القبيح الذي انتشر في هذا الزمن .

زنا المحارم:

وهذا النوع من الزنا هو أفحش وأفظع أنواع الزنا وذلك لأنه لا يوجد أحد من البشر على وجه الأرض وعلى اختلاف أديانهم وأعراقهم وأجناسهم إلا ويعلم حُرمة هذا النوع الخطير والذي ما فتئ البعض عن ارتكابه في زماننا الذي نعيش فيه ، وقد كان لبعض الذين لا عقل لهم ولا دين ولا حياء ممن ينتسبون إلى الإسلام نصيب في ارتكاب هذا الجُرم الشنيع - كما سيأتي - ولكن قبل أن نستطرد ونذكر بعض حكايات هؤلاء الذين فقدوا عقولهم ممن فعلوا تلك الفواحش نُلقي الضوء بشيء من الاختصار غير المُخلّ عمن يكونوا هؤلاء المحارم الذين حرَّمهم الله - عز وجل - في شرعنا الإسلامي الحنيف .

فلقد حرّم الله - سبحانه وتعالى - نكاح وزواج نساء سمّاهنَّ في القرآن الكريم على الرجال تحريماً تامًّا وهن كما في سورة النساء : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٣] .

قال ابن عباس – رضي الله عنهما – : «حُرِّم من النسب سبع ومن الصِّهر سبع»[1] .

فأما السبع من النسب فهن : الأم ، والابنة ، والأخت ، والعمة ، والخالة ، وابنة الأخ ، وابنة الأخت .

وأما السبع من المصاهر (وهم أهل بيت المرأة وأهل بيت الرجل وكذلك الرِّضاع).

وهن : الأم من الرَّضاعة ، وتحرم الأم بخمس رضعات كاملات لما رواه مسلم عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت : «كان فيما أُنزل من القرآن : عشر رضعات معلومات يُحرِمن . ثم نُسخن بخمس معلومات ، فتوفَّ رسول الله ﷺ وهنَّ فيما يُقرأ من القرآن»[2] وروى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – قال: قال النبي ﷺ في بنت حمزة (أي : ابن عبد المطلب) : «لا تحلُّ لي ، يَحْرُمُ من الرَّضاعة ما يَحْرُم من النسب ، هي بنت أخي من الرضاعة (وكان حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه قد رضع مع رسول الله ﷺ»؟

وعند مسلم عن عائشة – رضي الله عنها – قالت : قال لي رسول الله ﷺ : «يَحْرُم من الرَّضاعة ما يَحْرُم من الولادة»[3] .

وعلى هذا تحرم : الأم من الرضاعة ، والأخت من الرضاعة ، كما نصَّت الآية من سورة النساء . وكذلك تحرم بالمصاهرة : أم الزوجة ، وبنات الزوجة الثانية وهن (الربائب) ، وزوجات الأبناء وهن (الحلائل) ، ثم أخت الزوجة التي تحت عصمة الرجل .. فهؤلاء المحرمات من المصاهرة والرَّضاعة التي ذكرتهم الآية رقم (٢٣) من سورة النساء ست نساء كما ذكرنا أما السابعة فقد وردت في الآية رقم (٢٢) من نفس السورة وهي قولة تعالى : ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٢٢] فهؤلاء النسوة قد

١– رواه البخاري في النكاح ٥١٠٥ .

٢– رواه مسلم في باب تحريم الرَّضاعة ٣٦٧٠ .

٣– رواه البخاري في الشهادات ٢٦٤٥ ، ومسلم في الرَّضاع ٣٦٤٢ ، وراجع كتب الفقه في مسألة تحريم الرَّضاعة، وراجع الاستيعاب لابن عبد البر (١/ ١٠٩) في مسألة رضاع حمزة – رضي الله عنه – مع النبي ﷺ.

حرَّمهن الله - عز وجل - في النكاح فما بال من يتحرش بهن ويزني بإحداهن كما نسمع ونقرأ عن زنا المحرمات في هذه الأيام التي نعيشها الآن ، وقد قال الحافظ الذهبي : «وأعظم الزنا الزنا بالأم والأخت وامرأة الأب وبالمحارم»[1] وقد روى ابن ماجة والحاكم عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : «من وقع على ذات محرم فاقتلوه»[2] وقال الإمام الترمذي بعد أن روى هذا الحديث : «والعمل على هذا عند أصحابنا قالوا من أتى ذات محرم وهو يعلم فعليه القتل ، وقال أحمد : من تزوج أمه قُتِل ، وقال إسحاق : من وقع على ذات محرم قُتِل»[3] .

وقد قال فقهاء وعلماء الإسلام أن الزنا بالمحارم هو من أفحش الفواحش ومن أكبر الكبائر ولذلك جعلوا عقوبته القتل وقد فصَّلوا ذلك في كتب الفقه ومع هذا نجد في عصرنا الحاضر من حوادث وجرائم زنا المحارم ما يشيب له الولدان وما تقشعر له الأبدان فهذا يجامع أخته في محضر أولادها البنات وقد نشرت الصحف هذه الجريمة الشنعاء ، وذلك وهو للأسف طالب كلية دينية ويبلغ من العمر إحدى وعشرين عاماً يغتصب ابنة شقيقته التي تبلغ من العمر سبع سنوات وآخر يجامع أخته وكذلك الحال في كثير من دولنا العربية فقد حكى لي أحد المشايخ أنه ورد له سؤالٌ عن رجل كان يجامع أخته منذ الصِّغر حتى تعودا على هذا الفعل في الكِبَر ولكنه علم بذنبه وأراد أن يتوب .. وقد شاهدت وسمعت على إحدى القنوات الفضائية هذا السؤال الفادح والفاضح وكان على الهواء وشاهده وسمعه الملايين من الناس ، وكان ذلك في شهر رمضان المبارك والبرنامج كان دينيًا والسؤال كان يقول : أخوان يمارسان مع بعضهما البعض منذ الصغر اللواط ثم تزوج أحدهما فكان كلاهما يعاشر تلك الزوجة برضاها ثم حملت تلك المرأة من أحدهما .. والسؤال يقول : لمن يكون هذا الطفل ؟

١- انظر الكبائر للحافظ الذهبي ص ٩٥ .

٢- رواه ابن ماجة في الحدود ٢٦٦١ ، والحاكم في المستدرك ٨١٦٨ ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

٣- انظر سنن الترمذي ، كتاب الحدود (٦/ ٥١) .

وبالطبع هذه الحادثة عقدت لسان الشيخ الذي كان يستضيفه البرنامج فلم يستطع الإجابة وسكت .. وهذه القصة أيضاً قد قصّها عليّ أحد المشايخ الثقات حيث ورد إليه هذا السؤال الذي كان بمثابة المفاجأة بالنسبة له ، والسؤال يقول : ابنة حملت من أبيها سِفاحاً وهي الآن في الشهر الخامس فهل عليها إنزال الجنين ، فنزل السؤال كالصاعقة على الشيخ وأخذ يُردد (ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا) .. هذا وقد نشرت إحدى الطبيبات المسلمات المتخصصات في طب النساء قصصاً في مذكرات طبيبة نساء عن زنا المحارم وقد ذكرت الدكتورة هالة مصطفى العديد من القصص العجيبة والغريبة عن زنا المحارم[1] التي تقشعر منها الأبدان ومن تلك القصص التي ذكرتها قالت : «دخلت الفتاة ذات الـ ١٥ عاماً إلى عيادتي بصحبة خالتها التي طلبت مني مباشرة الكشف الطبي عليها للاطمئنان على عذريتها ، وعندما سألتها عن السبب وضعت يدها على وجهها ونظرت إلى الأرض وقالت : «إن والد الفتاة ووالدتها في شجار مستمر تركت الوالدة على إثره منزل الزوجية وأخذت معها الطفلين الصغيرين ، وظلت هذه الفتاة وحدها مع الأب ، وكانت هذه المسكينة تتصل بالأم دائماً ، وتطلب منها سرعة العودة والأم ترفض بحجة أن الأمر لا يعدو كونه محاولة من الزوج لإجبارها على العودة ، وذات يوم أخذت الفتاة تبكي بشدة وتستعطف الأم بسرعة العودة قائلة : أنت لا تعرفين ما يحدث لي ، والأم في لا مبالاة حتى تدخلت أنا وأخذت التليفون من الأم ، وسألت الفتاة : ماذا يحدث ؟ ولماذا كل هذا البكاء ؟ فهذه ليست أول مرة تترك الأم المنزل ؟ ولكن الفتاة أغلقت التليفون بسرعة .. وأضافت الخالة : بعد يأسي من لا مبالاة أختي تجاه دموع ابنتها ذهبت إلى الفتاة التي ارتمت في حضني وأخذت في البكاء واشتكت لي مما يفعله أبوها معها عندما يعود في المساء ، وأنها أصبحت لا تستطيع المقاومة أكثر من ذلك فقمت بالكشف عليها وبفضل الله

١- راجع موقع إسلام أون لاين وكثيرا من المواقع التي نقلت تلك القصص عن زنا المحارم بتاريخ ٢٠٠٦/٦/١٤م.

وجدت أنها ما زالت عذراء ، فنصحت خالتها بجعل أمها تحتضنها ولا تتركها فريسة لهذا الأب المتوحش»[١] .

فاللهم إنا نبرأ إليك من أفعال هؤلاء الذين يرتكبون تلك الأفعال الشنيعة والفاضحة حيث أصبحت ظاهرة زنا المحارم في عالمنا العربي منتشرة بشكل مخيف وأمثال تلك القصص والحكايات هي غيض من فيض وما خفي كان أعظم ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وهذه الأفعال ما كانت تنتشر لولا ضعف الوازع الديني وانعدام الأخلاق الفاضلة عند مرتكبيها ..

فاحذر أخي المسلم وأختي المسلمة من الوقوع في شباك وحبائل وشراك شياطين الإنس والجن وخاصة ممن يحبون أن تشيع الفاحشة في وسط المجتمعات الإسلامية عبر القنوات الفضائية وما يذاع فيها من أفلام ماجنة خليعة ومسلسلات هابطة وفن مُبتذل ، ناهيك عن الأغاني التي تحمل كلماتها كل ساقط ومُبتذل ويؤديها مطربات خليعات .. فهل هذا الزمن هو زمن انتشار الأغاني والمغنيات والمعازف والخمور ؟ هذا ما سنستعرضه في الفقرة القادمة .

١- المصدر السابق .

فصل:

دلائل النبوة ونور البيان في الإخبار عن انتشار المعازف والخمور والمُغنِّيات في هذا الزمان

فهذا الزمن الذي نعيش فيه الآن حريٌّ به أن يُطلق عليه (زمن التلوث السمعي) وذلك لانتشار المعازف بشكل مخيف مع التقنيات الإلكترونية الحديثة التي تصم الآذان ناهيك عن الأصوات النشاز والشواذ والتي مكانها الطبيعي أماكن نفايات وقاذورات ، وخاصة من المطربات والمغنيات والمغنيين من أصحاب تلك الأصوات النشاز الذين ينعقون بكلمات هابطة ومُسفَّة ووضيعة وهم أنفسهم لا يفهمون معانيها . وهذه الأصوات والكلمات تنفر من سماعها كل الحيوانات ناهيك عن المخمورين أو ممن يستسيغون ويستحسنون سماع مثل هذا الغناء والهراء ممن تلوثت أسماعهم ، ولم لا وهناك من أصحاب تلك الأصوات من ظلم الحمار فأخذ ينعق ويتغنى له بصوت أنكر من نهيق صوت الحمار نفسه الذي يُعد من أنكر الأصوات ، كما قال الله – عز وجل – : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٩] . فما بالنا بسماع تلك الأصوات التي هي أنكر من صوت الحمار في المواصلات العامة وفي أفراح الأحياء الشعبية التي لا ضابط لها ولا رابط ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .. هذا ما وصلت إليه حال الغناء في زماننا والذي قال الله – عز وجل – عنه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان : ٦].

فعن سعيد بن جبير عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال في هذه الآية : «الغناء وأشباهه»[1] وهذا الغناء الماجن الذي فشا في عصرنا بتلك الكلمات الهابطة والأصوات النشاذ قد تم استحلاله وأصبح من يُنكر على الناس سماع مثل هذا الغناء لا يُسمع له صوت وسط هذا الضجيج والنعيق والنهيق ممن يستحلون ويستمتعون بتلك الأصوات في أماكن لهوهم ومواخيرهم التي تُدار فيها كؤوس الخمور تماماً كما وصف الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى . فقد روى ابن ماجة عن أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «ليشربن ناس من أمتي الخمر يُسمونها بغير اسمها يُعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات يخسف الله بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير»[2] .

وسوف نتحدث تباعاً عن الخمر ، ولكن الذي يعنينا هنا هو استحلال الناس في زماننا لهذا الغناء الهابط وخاصة من المغنيات الكاسيات العاريات اللاتي تغنين بأغانٍ يستحي صاحب كل ذوق في الأدب والشعر أن ينطق أو يتلفظ حتى بكلماتها والتي تحتاج كلمات كل أغنية من تلك الأغاني إلى بلاغ للنائب العام لمحاكمة مؤلفي وأصحاب الأصوات النشاذ من المغنيين والمغنيات ، ولكن للأسف أصبح انتشار مثل هذا الغثاء من الأغاني هو هدف في حدِّ ذاته وذلك لإلهاء الناس وتغييب عقولهم بمثل تلك التفاهات وهذا لا يكون إلا في زمن الهزائم والانكسارات والإحباطات والهبوط الذريع الذي تعيشه بعض الأمة الإسلامية اليوم على جميع المستويات وفي كل القطاعات ، ففسد الذوق العام وانتشر هذا التلوث بميكروباته الوبائية التي سادت في بعض المجتمعات العربية والإسلامية تحت ما يُسمى بالفن الهابط والغناء العفن ، والحقيقة التي لا مرية فيها أن جميع الأحاديث التي ذكرت المعازف والقينات جمع قَيْنَة وهي المُغَنِّية - كما سيأتي - إنما المقصود بها زماننا الذي انتشرت فيه كل أنواع الموبقات

١- أثر صحيح رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٤٣٢ حديث رقم ٢٦٥) وصححه الألباني .

٢- أخرجه ابن ماجة في الفتن ٤١٥٦ وصححه الألباني .

بما في ذلك آفات الأغاني الهابطة ومن تلك الأحاديث ما رواه البخاري عن أبي مالك الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحِرَّ والحرير والخمر والمعازف»[1] .

قوله (ليكونن من أمتي) أي : سيأتي زمان على أمتي ولا أخال هذا الزمان إلا زماننا ، وقوله (الحِر) بكسر الحاء المهملة أى : الزنا وقد تحدثنا في الفصل السابق عن استحلال أهل زماننا للزنا تحت مسميات ومبررات شتى ، وقوله (الحرير) أي : لبس الحرير وهو منتشر أيضاً في زماننا بين الرجال مع أن رسولنا الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - قد حرّمه على رجال الأمة وحلَّله لنسائها فقد روى الترمذي عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «حُرِّم لباس الحرير والذهب على ذكور أُمتي وأُحلَّ لإناثهم»[2] ومع هذا النهي الصريح فقد استحلَّ كثير من الناس في هذا الزمن لبس الحرير والذهب .

وقوله (الخمر) سيأتي الحديث عنها .. وأما قوله (المعازف) وهو الشاهد من حديثنا فهي آلات الملاهي ، وقيل هي : الغناء[3] ، واستحلال الغناء الهابط والسافل بكلماته البذيئة والوضيعة مما هو مُنتشر في هذا الزمن الذي نعيش فيه هو المقصود بحديث الاستحلال والذي أكدته روايات أُخر مثل ما رواه الطبراني عن سهل بن سعد - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «سيكون فى آخر الزمان خسفٌ وقَذْفٌ ، ومسخٌ ، قيل : ومتى ذلك يا رسول الله ؟ قال : إذا ظهرت المعازف والقينات ، واستُحلَّت الخمر»[4] .

١- رواه البخاري في كتاب الأشربة من صحيحه ٥٥٩٠ .

٢- رواه الترمذي في اللباس ١٨٢٤ وقال : هذا حديث حسن صحيح .

٣- راجع : فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني (١٠/ ٥١) .

٤- راجع الطبراني في المعجم الكبير (٥/ ٤٢٩) ، والبيهقي في شُعب الإيمان (١٢/ ٩٤) وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٦٦٥ .

والقينات جمع : قَيْنة : بفتح القاف وسكون التحتانية بعدها نون وهي : المُغنِّية ، وتُطلق على الأمَة مُطلقاً[1] ، وحيث إن عصور الإماء قد انتهت فيُفهم من المعنى أنها المُغنية أو المُطربة ، وقد شرحنا آنفاً معنى الخسف والقذف وقد ظهر بوادر ذلك في عصرنا الحالي الذي نعيش فيه وذلك بسبب هذا الاستحلال الذي استحلَّه الناس من ارتكاب الفواحش والمعاصي كاستحلال الزنا واستحلال المعازف وظهور المُغنيات على نحو لم يكن في عصر من العصور السالفة ، حيث انتشرن في زماننا انتشار النار في الهشيم وأصبحت كل من لديها مقومات الإغراء وإظهار مفاتن جسدها تدخل مضمار هذا الفن ، حيث أصبح الغناء اليوم بالأجساد العارية ولا علاقة له ألبتة بالأصوات وأصبح كثير من المعجبين والمعجبات بالطرب يتحسرون على ما يُسمى بزمن الفن القديم وزمن الطرب الأصيل ، وهؤلاء وأولئك لا يعلمون أن ديننا الحنيف قد أبدلنا بهذا الفن بما هو أزكى وأفضل وأحسن منه ألا وهو القرآن الكريم الذي اتخذونه وراءهم ظهريّاً ومهجوراً ، هذا القرآن الذي قال عنه الله - عز وجل ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٩] فأبدل الناس في عصرنا الحاضر - إلا من رحم ربي - سماع القرآن وتدبره والعمل به إلى سماع ما يُسمى بالغناء والطرب ومما زاد الطين بلة هذا الغناء والتلوث السمعي ممن ينعقون وينهقون في أيامنا النحسات ممن يسمون بالمغنيين والمغنيات ، فحق أن يُطلق على هذا الزمن بزمن استحلال المعازف والغناء الهابط على الصورة التي ذكرناها .

أما عن الخمر فقد سُميت خمراً لأنها تُركت فاختمرت ، واختمارها تَغَيُّرُ ريحها ، ويقال سُميت بذلك لمخامرتها العقل والخمر : ما خَمَرَ العقل وهو المُسكر من الشراب ، وهي خمرةٌ ، وخمر ، وخمور ، مثل : تمرة ، وتمر ، وتمور والخَمَّار : بائع الخمور ، وعنب خمريٌّ أي : يصلح للخمر ، ولون خمريٌّ يشبه لون الخمر ، والتخمير : التغطية ، فالخمر

١- انظر : فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (١١/ ٢٤٨).

إذن هي كل ما أسكر مادتها الموضوعة للتغطية والمخالطة وقد اختلف في حقيقتها ، فقيل هي من عصير العنب خاصة وقيل هي كل ما أُسكر من عصير سواء كان من عنب أو رطب أو تمر وبلح أو الشعير ، والخلاصة أن الخمر هو اسم لكل مُسكر العقل[1] والخمر كل شراب خمَّر العقل فستره وغطَّى عليه .. فما خامر العقل من داء وسُكر فخالطه وغمره فهو خمر ..

وقد تغنى العرب قديماً وحديثاً في أشعارهم بالخمر ، فقال امرؤ القيس :

فظللت في دِمَنِ الديار كأنني ... نشوان باكرةٌ صبوح مُدَامِ[2]

أُنُفٍ كلون دم الغزال مُعتَّقٍ ... من خمر عانة أو كروم شبام[3]

وكأن شاربها أصاب لسانه ... مومٌ يخالط جسمه بِسقامِ[4]

وقال أحمد شوقي :

وإذا جمعت الطيبات رددته ... لعَتيق خمرٍ أو قديم وداد

وقال علي محمود طه :

ليلُنا خمر وأشواقٌ تُغني حولنا

وشراعٌ سابح في النور يرعَى ظلنا

كان في الليل سُكارى وأفاقوا قبلنا

وكلام الشعراء في الخمر لا يُعوَّل عليه لأنه من الكلام القبيح ، فكما قيل عن الشعر أن حسنَه حسنٌ ، وقبيحه قبيح ، ويرجع قُبح الكلام فيه لمن يتغنى ويتغزل فيه عن الخمر وذلك لأن الله - عز وجل - قد حرَّم الخمر في شرعنا الحنيف .

١- بتصرف من : لسان العرب لابن منظور (٤/ ٢٥٤) ، وتاج العروس للزبيدي (١/ ٢٧٨٣) .

٢- دِمَن الديار أي : آثار الديار ، والمُدام بضم الميم وفتح الدال المهملة هي الخمر سُميت مُدامة لأنه ليس شيء تُستطاع إدامة شربه إلا هي وقيل لإدامتها .

٣- الشبام حيٌّ من العرب وقيل اسم جبل (انظر لسان العرب ١٢/ ٣١٦) .

٤- الموم هو الشمع وقيل العسل .

وقد نزل تحريم الخمر على المسلمين بتدرج لأنه كان مُباحاً في أيام الجاهلية وصدراً من الإسلام فأول ما نزل من القرآن عن الخمر قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : ٤٣] فهذه الآية هي أول ما نزل في قصة الخمر ثم نزلت آية سورة البقرة التي قال الله - عز وجل - فيها ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة : ٢١٩] ثم نزل القرآن بتحريم الخمر واجتنابه نهائيًا وذلك في سورة المائدة التي قال الله - سبحانه وتعالى - فيها - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة : ٩٠ ، ٩١] وروى أبو داود والنسائي والإمام أحمد عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً . فنزلت الآية في البقرة ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ الآية . (فقال الراوي وهو أبو ميسرة) فدُعي عمر فقرئت عليه فقال عمر : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في النساء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ ﴾ فكان مُنادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : لا تقربوا الصلاة وأنتم سُكارى ، فدُعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً .. فنزلت الآية التي في المائدة فدُعي عمر فقُرئت عليه فلما بلغ (فهل أنتم منتهون) قال عمر - رضي الله عنه - : انتهينا انتهينا»[١] .

وقوله تعالى في سورة المائدة إنه ﴿ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ أي : أن اجتناب الخمر وتلك الأفعال القبيحة هي من عمل الشيطان وأفعاله الخبيثة التي يريد أن يُوقع بها الفحشاء والبغضاء والرذائل بين بني آدم وهل هناك فعل أقبح وأخبث من شرب الخمر الذي يُذهب بعقل الإنسان ويُغيِّبه عن الوعي فيقوم بعمل وفعل كل الكبائر

١- رواه أبو داود في الأشربة ٣٦٧٢ وكذلك النسائي في الأشربة ٥٥٥٧ ، والإمام أحمد في المسند ٣٨٥ وصححه الألباني .

والنواهي والمُحرمات التي أمر الشرع الحنيف باجتنابها ، والخمر له علاقة وطيدة بالزنا والجنس ، فقد روى النسائي أن عثمان بن عفان – رضي الله عنه – قال : «اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث ، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبَّد فعلقته[1] امرأة غويَّةٌ فأرسلت إليه جاريتها فقالت له : إنا ندعوك للشهادة فانطلق مع جاريتها فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيئة عندها غلام وباطية[2] خمر ، فقالت : إني والله ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليَّ أو تشرب من هذه الخمر كأساً أو تقتل هذا الغلام . قال : فاسقيني من هذا الخمر كأساً فسقته كأساً . قال : زيدوني ، فلم يرم[3] حتى وقع عليها وقتل النفس . فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه»[4] وقد ذكرنا آنفاً حادثة الأخ الذي كان يقع على أخته في إحدى المدن الساحلية في مصر وقد نشرت الصحف تلك الحادثة وقد ذكرت بعض الصحف التي أطلقت على تلك الجريمة (جريمة العصر) أن هذا المجرم كان يتعاطى المخدرات ويشرب الخمر مع شقيقته وعندما يغيبا عن الوعي يقوما بفعلتها الشنعاء على ما قصصناه– آنفاً – لذلك فهناك علاقة وثيقة بين شرب الخمر والزنا وفعل الأعمال القبيحة وكله من عمل الشيطان – كما أخبر ربنا الجليل – سبحانه وتعالى – فقد روى ابن أبي الدنيا عن مجاهد أنه قال : «قال إبليس : ما أعجزنى فيه بنو آدم فلن يعجزوني في ثلاث : إذا سكر أحدهم أخذنا بخزامته[5] فقُدناه حيث شئنا وعَمِلَ لنا بما أحببنا ، وإذا غضب قال بما لا يعلم وعمل بما يندم ، ونُبخِّله بما في يديه ونُمنيه ما لا يدر عليه»[6] .

---

١ – أي : تعلقت به .

٢– الباطية هو إناء عظيم من الزجاج وغيره يُحفظ فيه الشراب .

٣– فلم يرم : الروم : طلب الشيء والمعنى أنه طلبها إلى نفسه ليقع عليها .

٤– رواه النسائي في الأشربة ، باب : ذكر الآثام المتوَلّدة عن شُرب الخمر ٥٦٨٤ وهو أثر صحيح عن عثمان بن عفان – رضي الله عنه – وقد رفعه ابن أبي الدنيا في ذم المسكر إلى النبي ﷺ – ص ٣ ورفعه لا يصح .

٥– الخزام : حلقة من الشعر تُوضع في ثقب أنف البعير يُشد بها الزمام .

٦– ذم المسكر لابن أبي الدنيا ص ٥٩ .

ومع هذا التحذير الإلهي والرباني عن الخمر ومضارها ومدى ارتباطها الوثيق بارتكاب المعاصي والآثام والكبائر وخاصة العلاقة الجنسية ، فمع هذه التحذيرات إلا أن بعض أهل زماننا نقلوا عن الغرب قولهم إن الخمر بها منافع وبالأخص في تلك العلاقات المُحرَّمة وهو «وهم شائع وذائع منذ أقدم الأزمنة وقول خاطئ بأن الكحول تُزيد من القُدرة الجنسية وواقع الأمر أنها لا تعدو كما وصفها الشاعر الإنجليزي المشهور شكسبير بقوله (إنها تُحفِّز الرغبة ولكنها تأخذ معها القدرة على التنفيذ) . ولا شك أن الخمور بتخديرها للمناطق المُخيَّة العليا تذهب الحياء والاعتبارات الأخلاقية عند الإنسان بل تزيد الرغبة في الجنس وتؤدي في كثير من الأحيان إلى الجرائم الجنسية الغريبة والشاذة (كالعلاقات المحرَّمة التي ذكرناها آنفاً والتي وصلت ذروتها ووقعت بين ذوي المحارم) إذ إن الوازع الأخلاقي والتفكير في العواقب تُشلّ شللاً تامًّا بالخمر.. ولكن الاستمرار في شُرب الخمر يؤدي إلى فقدان القدرة على أداء العمل الجنسى»[1] ولذلك حذَّر رسول الله ﷺ أمته من الخمر ومن الاقتراب من مجالسها ونواديها وفنادقها ذات الخمس نجوم التي تُدار فيها كؤوس الخمر علانية والمنتشرة في غالب أقطار العالم الإسلامي ومن هذه التحذيرات النبوية ما رواه البخاري ومسلم عن أنس – رضي الله عنه قال : كنت أسقي القوم في منزل أبي طلحة فأمر رسول الله ﷺ مُنادياً ينادي : «ألا إن الخمر قد حُرِّمت»قال . فقال لي أبو طلحة اخرج فأهرقها ، فخرجت فهرقتها ، فجرت سكك المدينة»[2] وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال النبي ﷺ : «لا يزنى الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ...... الحديث»[3] .

١- بتصرف من الخمر بين الطب والفقه للدكتور محمد علي البار ص ٥١ [الناشر : دار الشروق – جدة – السعودية] .

٢- رواه البخاري في المظالم ٢٤٦٤ ، ومسلم في الأشربة ٥٢٤٦ .

٣- رواه البخاري في المظالم ٢٤٧٥ ، ومسلم في الإيمان ٢١١ .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ «إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ، ويَثْبُتَ الجهل ، ويُشرب الخمر ويظهر الزنا»(١) .

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : لما نزلت آيات سورة البقرة عن آخرها خرج النبي ﷺ فقال : «حُرِّمت التجارة في الخمر»(٢) .

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح، وهو بمكة : «إن الله ورسوله حرَّم بيع الخمر ... الحديث»(٣) .

وعن عمر - رضي الله عنه - قال : «أما بعد... أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة ، من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير ، والخمر ما خامر العقل»(٤)
وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : «من شرب الخمر في الدنيا ، ثم لم يتُب منها ، حُرِمها في الآخرة» وفي رواية مسلم : «كل مسكر خمر وكل مُسكر حرام ، ومن شرب الخمر في الدنيا فمات وهو يُدمنها لم يتُب لم يشربها في الآخرة»(٥) .

وروى أبو داود عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ «لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه»(٦) .

وروى أيضاً عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الخمر من العصير والزبيب والحنطة والشعير والذرة ، وإني أنهاكم عن كل

١- رواه البخاري في العلم ٨٠ ، ومسلم في العلم ٦٩٥٦ .
٢- رواه البخاري في البيوع ٢٢٢٦ ، ومسلم في المساقاة ٤١٣٠ .
٣- رواه البخاري في البيوع ٢٢٣٦ ، ومسلم في المساقاة ٤١٣٢ .
٤- رواه البخاري في التفسير ٤٦١٩ ، ومسلم ٧٧٤٤ .
٥- رواه البخاري في الأشربة ٥٥٧٥ ، ومسلم في الأشربة ٥٣٣٦ .
٦- رواه أبو داود في الأشربة ٣٦٧٦ وصححه الألباني .

مُسكر»[١] وقد حرَّم النبي ﷺ التداوي بالخمر ليقطع بذلك كل السُّبُل والتبريرات لاتخاذها دواء فروى مسلم أن طارق بن سويد الجعفي سأل النبي ﷺ عن الخمر ، فنهى أو كَرِه أن يصنعها ، فقال إنما أصنعُها للدواء فقال : «إنه ليس بدواء ولكنه داء»[٢] قال الإمام النووي «هذا دليل لتحريم اتخاذ الخمر وتخليلها ، وفيه التصريح بأنها ليست بدواء فيحرم التداوي بها ، لأنها ليست بدواء ، فكأنه يتناولها بلا سبب»[٣] .

ويقول الإمام ابن قيم الجوزية : «المعالجة بالمُحرَّمات قبيحة عقلاً وشرعاً ، أما الشرع فما ذكرناه من هذه الأحاديث وغيرها ، وأما العقل فهو أن الله – سبحانه – إنما حرّمه (أي : الخمر) لخبثه فإنه لم يُحرِّم على هذه الأمة طيِّباً عقوبة لها كما حرَّمه على بني إسرائيل بقوله ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء : ١٦٠] وإنما حرَّم على هذه الأمة ما حرَّم لخبثه وتحريمه له حمية لهم وصيانة عن تناوله .. فلا يناسب أن يطلب به شفاء من الأسقام والعلل فإنه وإن أثر في إزالتها لكنه يعقب سقماً بسقم القلب ، وأيضاً فإن تحريمه يقتضي تجنبه والبُعد عنه بكل طريق وفي اتخاذه دواء حضٌّ على الترغيب فيه وملابسته وهذا ضد مقصود الشرع وأيضاً فإنه داء كما نصَّ عليه صاحب الشريعة ، فلا يجوز أن يُتخذ دواء . وأيضاً فإنه يكسب الطبيعة والروح صفة الخُبث لأن الطبيعة تنفعل عن كيفية الدواء انفعالاً بيِّنا فإذا كانت كيفيته خبيثة اكتسبت الطبيعة منه خبثاً ، فكيف إذا كان خبيثاً في ذاته ، ولهذا حرَّم الله – سبحانه – على عباده الأغذية والأشربة والملابس الخبيثة لما تكسب النفس من هيئة الخُبث وصفته ، وأيضاً فإن في إباحة التداوي به ولا سيما إذا كانت النفوس تميل إليه ذريعة إلى تناوله للشهوة واللذة لا سيما إذا عرفت النفوس أنه نافع لها مُزيل لأسقامها جالب لشفائها فهذا أحب شيء إليها ، والشارع سدَّ الذريعة إلى تناوله بكل ممكن ولا ريب أن بين سدِّ الذريعة إلى تناوله وفتح الذريعة إلى تأوله تناقضاً وتعارضاً . وأيضاً فإن هذا الدواء

١- رواه أبو داود في الأشربة ٣٦٧٩ ، والبيهقي في السنن الكبري (٨/ ٢٨٩ وصححه الألباني .

٢- رواه مسلم في الأشربة ٥٦٥٦ .

٣- شرح النووي على صحيح مسلم (٦/ ٤٨٣) .

المُحرَّم من الأدواء ما يزيد على ما يُظن فيه من الشفاء ، ولنفرض الكلام في أم الخبائث التي ما جعل الله لنا فيها شفاء قط فإنها شديدة المضرَّة بالدماغ الذي هو مركز العقل عند الأطباء وكثير من الفقهاء المتكلمين ، قال أبقراط في أثناء كلامه في الأمراض الحادة : ضرر الخمر بالرأس شديد لأنه يسرع الارتفاع إليه ويرتفع بارتفاعه الأخلاط التي تعلو في البدن وهو كذلك يضر بالذهن»[١] .

ولقد صدَّق الطب الحديث على كلام أبقراط الذي يُعتبر (أبو الطب) ومن أراد الاستزادة حول موضوع خطر الخمر على جسم الإنسان عموماً وعلى العقل والمخ فليراجع كتاب الدكتور محمد على البار - سالف الذكر (الخمر بين الطب والفقه) .

وبعد أن نقلنا كلام ابن قيم الجوزية النفيس حول موضوع التداوي بالخمر وخطره على الإنسان ومع ما ذكرناه عن تحريم الله - عز وجل - ورسوله الكريم ﷺ إلا أن بعض أهل زماننا قد استحلوا الخمر - كما أخبر بذلك الصادق المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه - وهذا ما سنتناوله في الفقرة القادمة بشيء من التفصيل .

استحلال الخمر من بعض أهل زماننا من المسلمين وتسميتها بغير اسمها :

الاستحلال هو : اعتقاد الإنسان المسلم حِلَّ ما حرَّمه الله - سبحانه وتعالى - ورسوله ﷺ ، قال الإمام ابن قيم الجوزية : «قال شيخنا (أي : شيخ الإسلام ابن تيمية) : «وإنما ذلك إذا استحلوا هذه المُحرَّمات بالتأويلات الفاسدة (كما يحدث الآن في عصرنا الحاضر) فإنهم لو استحلوها مع اعتقاد أن الرسول ﷺ حرّمها كانوا كفاراً ولم يكونوا من أُمَّته ، ولو كانوا معترفين بأنها حرام لأوشك أن يُعاقبوا بالمسخ كسائر الذين يفعلون هذه المعاصي مع اعترافهم أنها معصية ، ولما قيل فيهم : يستحلّون فإن المستحل للشيء هو الذي يفعله معتقداً حلّه ، فيشبه أن يكون استحلالهم للخمر يعني أنهم يسمونها بغير اسمها فيشربون الأنبذة المُحرَّمة ولا يسمونها خمراً»[٢] .

١- زاد المعاد في هدي خير العباد للإمام ابن قيم الجوزية (٤/ ١٤١) .

٢- بتصرف من إغاثة اللهفان لابن قيم الجوزية (١/ ٣٤٦) .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية «وبيان هذا أن من فعل المحارم مستحلًّا لها فهو كافر بالاتفاق فإنه ما آمن بالقرآن من استحلَّ محارمه ، وكذلك لو استحلها من غير فعل ، والاستحلال اعتقاد أن الله لم يُحرِّمها وتارة بعدم اعتقاد أن الله حرَّمها ، وهذا يكون لخلل في الإيمان بالربوبية ولخلل في الإيمان بالرسالة ، وتارة يعلم أن الرسول ﷺ إنما حرَّم ما حرَّمه الله - عز وجل - ثم يمتنع عن التزام هذا التحريم ويعاند المُحرَّم ، وقد يكون هذا مع علمه أن من لم يلتزم هذا التحريم عاقبه الله وعذَّبه»[١] .

والاستحلال عمل قلبي محض ولا يُعرف من الإنسان المسلم إلا إذا أقرَّ على نفسه إما بالتصريح باللسان أو بالكتابة وذلك لأن كثيراً من الناس الذين يفعلون المعاصي ويُصرُّون عليها يعتقدون أنها حرام ، وهذا لا يكفر لأنه يعلم أن ما يفعله من المعصية حرام وربما يستغفر الله منها ، ولكنه يقول إن النفس أمارة بالسوء وعجزتُ أن أتخلّص منها ، والدليل على ما رواه البخاري عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن رجلاً على عهد النبي ﷺ كان اسمه عبد الله ، وكان يُلَقَّب حِماراً ، وكان يُضْحِكُ رسول الله ﷺ ، وكان النبي ﷺ قد جَلَدَهُ في الشَّراب ، فأتى به يوماً فأمر به فجُلِدَ ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ما أكثر ما يؤتَى به . فقال النبي ﷺ : «لا تلعنوه ، فو الله ما عَلمتُ إنه يحب الله ورسوله»[٢] قوله (قد جَلَده في الشراب) أي : بسبب شُربه الشَّراب المُسْكِر . وفي رواية : «أُتي برجل قد شرب الخمر فحُدَّ ، ثم أُتي به فحُدَّ ، ثم أُتي به فحُدَّ ، ثمَّ أُتي به فحُدَّ أربع مرات» وقوله (فو الله ما علمت إنه يحب الله ورسوله) قال الحافظ ابن حجر العسقلاني : «(ما) موصولة والمعنى : فعلى هذا علمت بمعنى عرفت ، وقد وقع في بعض روايات الحديث كما جاء في شرح السُّنَّة (فو الله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله) ويصح معه أن تكون (ما) زائدة وأن تكون ظرفية أي : مُدَّة علمى ، وفي هذا الحديث من الفوائد والرد على من زعم أن مُرتكب الكبيرة كافر لثبوت النهي عن

١- الصارم المسلول على شاتم الرسول لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٥١٩) .

٢- رواه البخاري في الحدود ، باب : ما يُكره من لعن شارب الخمر وأنه ليس بخارج من الملّة ٦٧٨٠ .

لعنه والأمر بالدعاء له ، وفيه أن لا تنافي بين ارتكاب النهي وثبوت محبة الله ورسوله في قلب المرتكب ؛ لأنه ﷺ أخبر بأن المذكور يُحب الله ورسوله مع وجود ما صدر منه وأن من تكررت منه المعصية لا تُنزع منه محبة الله ورسوله ، ويؤخذ منه تأكيد ما تقدم أن نفي الإيمان عن شارب الخمر لا يُراد به زواله بالكلية بل نفي كماله ، ويحتمل أن يكون استمرار ثبوت محبة الله ورسوله في قلب العاصي مُقيَّداً بها إذا ندم على وقوع المعصية وأُقيم عليه الحد فكفَّر عنه الذنب ، بخلاف من لم يقع منه ذلك فإنه يُخشى عليه بتكرار الذنب أن يُطبع على قلبه شيء حتى يُسلب منه ذلك نسأل الله العفو والعافية»[١] .

ولا تنافي أو اعتراض بين قول شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية بكفر مُستحل المعاصي والكبائر كشارب الخمر وخاصة الذي يُقرّ على نفسه بأنه قد أحلَّ ما حرَّم الله ، - عز وجل ورسوله - ﷺ سواء بالقول باللسان أو بالإقرار بالكتابة ، وبين الذي لا يستحل ما حرَّم الله ورسوله ويعلم أن ما يأتيه من معصية إنما خارج عن إرادته - كما يُبرر ذلك كل من يفعل ويأتي المعاصي والكبائر ، ولكنه كما قال الحافظ ابن حجر فإن مثل هؤلاء من الناس يُخشى عليه بتكرار الذنب أن يُطبع على قلبه حتى يُسلب منه الإيمان بالكليَّة ، ومع ذلك فأمثال هؤلاء لابد وأن يُعاملوا معاملة خاصة ، ولا ينبغي على المُنكر عليهم أن يكون عوناً للشيطان عليهم وإنما يدعو لهم بالهداية كما في الرواية الأخرى التي رواها البخاري أيضاً عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : أُتِيَ النبي ﷺ بسكران فأمر بضربه ، فمنَّا من يضربه بيده ، ومنَّا من يضربه بنعله ، ومنا من يضربه بثوبه ، فلما انصرف قال رجل : ماله أخزاهُ الله ! فقال رسول الله ﷺ : «لا تكونوا عون الشيطان على أخيكم»[٢] . فأمثال هؤلاء لا ينبغي تكفيرهم وإنما ينبغي الدعاء لهم بالهداية ، وإنما يكفر كل من استحلَّ الحرام كُرهاً وبُغضاً للإسلام وأهله وهذا ما نشاهده ونقرأه اليوم على بعض المواقع الإلكترونية : من المنتديات التي

١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني (١٢/ ٧٥ ، ٧٦) .

٢- رواه البخاري في الحدود ٦٧٨١ .

تنضح بالكفر البواح والتهجم والتهكم على الإسلام ورموزه ، ونافلة القول في موضوع الاستحلال «إن كان الاستحلال مما يُكفِّر فهو كافر مرتد ، فمثلاً لو أن الإنسان شرب الخمر ، ولا يعتقد أنه حلال لكنه يصر عليه - كما أشرنا آنفاً - فإنه لا يكفر ، لأنه لا يستحله ، ولكن لو قال أو كتب أن الخمر حلال ويريد بذلك أن يُحَلَّ ما حرَّمه الله ، فإنه يكفر لأنه أنكر معلومة من الدين بالضرورة وكذَّب صريح القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية الصحيحة . ولذلك حذَّر الصادق المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه من أمثال هؤلاء وأخبرنا عن حالهم في الحديث الذي رواه البخاري وسقناه آنفاً عن أبي عامر الأشعري - رضي الله عنه - أنه سمع النبي ﷺ يقول : «ليكونن من أُمَّتي أقوام يستحلون الحِرَّ والحرير والخمر والمعازف»[1] .

وروى أبو داود عن مالك الأشعري - رضي الله عنه - أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «ليشربن ناس من أُمتي الخمر يسمونها بغير اسمها»[2] وفي رواية الطبراني : «ليشربن أُناس من أُمتي الخمر يسمونها بغير اسمها ، ويُضرب على رُؤوسهم بالمعازف والقينات ، يخسف الله بهم الأرض ، ويجعل منهم القردة والخنازير»[3] وروى ابن أبي الدنيا عن عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «ليستحلنَّ آخر أُمتي الخمر يسمونها بغير اسمها»[4] .

وقد استحلَّ قوم من أُمتنا في هذا الزمان الخمر وأطلقوا عليها اسم : (المشروبات الروحية) فسموها بغير اسمها كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ وقد أباح واستحل بعض أهل زماننا شرب الخمر ، فقد نشرت إذاعة هولندا العالمية في تقرير نشر في ١٨/ ١/ ٢٠١٠م تحت عنوان (في المغرب : الخمر حرام .. الخمر حلال) قالت فيه :

١- سبق تخريجه .
٢- رواه أبو داود في الأشربة ٣٦٩٠ وصححه الألباني .
٣- رواه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٤٥٦) وصححه الألباني .
٤- ذم المُسكر لابن أبي الدنيا ص ١٥ ..

«بدأت فتوى في الفقه ، ثم انتهت نقاشاً في الشارع العام : الخمر في المغرب حلال أم حرام؟ وإذا كان من المألوف سماع شيخ ينادي بتحريم الخمر ومنع بيعها للمسلمين ، فإن الجديد هذه المرة أن تيارات من داخل المجتمع المغربي أعلنت موقفها المطالب بالسماح رسميًّا ببيع الخمر لمن أراده من المسلمين كما لغيرهم وترسيمه بعد أن ظل - كما كان دائماً - محظوراً بالقانون ، مباحاً بسلطة الواقع تجده في كل مكان رهن إشارة الغني والفقير .

وبدأت القصة كما يحكيها الشيخ أحمد الريسوني نفسه (الرئيس السابق لحركة التوحيد والإصلاح) حين تلقى سؤالاً عبر الهاتف حول حكم التسوّق من المحلات التجارية التي تبيع الخمور ، فأجاب بتحريم ذلك لأن التسوق من محل بيع الخمور يُشجع على الحرام لذلك يرى أنه يجب مقاطعته ، وقد خالفه أحد علماء السوء ممن رأوا أن الشيخ الريسوني يُعسِّر على الناس ، ومن ذلك ما صرّح به أحد أعضاء البرلمان المغربي الذي رأى أن فتوى الريسوني تُعارض الحديث النبوي - كذا - (يسروا ولا تعسروا)[١] .

وقد اعتبرت إحدى الناشطات المغربيات لما يُسمى بمنظمة بيت الحكمة وهي ناشطة حقوقية قالت في بيان وجهته لعموم المغاربة تعقيباً على فتوى الشيخ الريسوني : «إن استهلاك الخمور بالمغرب يدخل في باب الحريات الفردية الأساسية - كذا - التي لا مجال فيها لتدخل السلطة أو غيرها بالردع أو المنع أو المصادرة ، كما أن الامتناع عن شُرب الخمر أو النفور منها لاعتبارات دينية أو شخصية هو أيضاً من الحريات الفردية الأساسية التي لا تناقش»[٢] .

وهكذا يُفتي في الدين من ليس له أدنى إلمام بعلم أو فقه أو حقوقية تدعي أن شُرب الخمر من الحريات الشخصية ، والواقع أن أمثال هؤلاء من مشايخ السلطة ممن يُحلّون

١- وهل يكون التيسير في تحليل الحرام ؟ رحماك اللهم هذا بهتان عظيم ،ومثل هؤلاء ممن يُسمون بالعلماء هم وبال ودمار على الإسلام وأهله وفيهم قال النبي ﷺ : «إن الله لا ينزع العلم منكم بعدما أعطاكموه انتزاعاً ولكن يقبض العلماء بعلمهم ويبقى جُهَّال ، فيُسألون فيفتون ، فيضلون ويضلون» وسوف نُفصِّل ذلك تباعاً .

٢- عن موقع الإذاعة الهولندية العالمية الإلكتروني .

ويُفتون حسب أهواء أسيادهم يملؤون أرجاء عالمنا الإسلامي كله فليس بلد المغرب الإسلامي الذي يحتضن أمثال هؤلاء المشايخ أو أصحاب الفكر العلماني والإلحادي الذي يجهرون الآن بالعداء الصريح والصارخ للإسلام ويحاربون أهله تحت دعاوى شتى ، ففي مصر الكثير أمثال هؤلاء ممن يحلون ويبيحون الحرام ، وفي اليمن يقول الكاتب الصحفي اليمني على المقري في كتابه (الخمر والنبيذ في الإسلام)[1] إن هدفه ليس تحليل الخمر وإنما أراد أن يبرهن على وجود تعدد في وجهات النصوص وتأويلها وتفسيرها - كذا - بما يُوحي بحلال وفقاً لمعيار وبحرام وفقاً لمعيار آخر ، وهكذا نجد أن في زماننا - كما أخبر نبينا - صلوات ربي وسلامه عليه أقوام قد استحلوا الخمر وقد أفتى في ذلك - كثير ممن ليس لهم أدنى علم ولا فقه في الدين الإسلامي ، فهذه كاتبة علمانية تكتب عن تحليل التبرج وتهاجم الحجاب وآخر صحفي وكاتب عقلاني أفتى بجواز شرب الخمر تحت تأويل النصوص الإسلامية التي لا يعرف عنها شيئاً وذاك محامٍ وحقوقي يكتب عن أحاديث البخاري التي لا يقبلها عقله المريض فيدعو مشيخة الأزهر إلى تنقية تلك الأحاديث التي لا يستسيغها عقله ، فالكل الآن يدلو بدلوه فيما ليس من اختصاصه وقد استبيح الدين الإسلامي من قِبَل هؤلاء، وهذا ما يدعونا إلى أن نناقش في الفقرة القادمة إخبار النبي ﷺ عن الزمن الذي سيكثر فيه الجهل ويقل العلم .

١- صدر الكتاب عن دار رياض الريس للكتب والنشر .

فصل :

دلائل النبوة ونور البيان في الإخبار عن كثرة الجهل وقلة العلم في هذا الزمان ــــــــــــ

إن زمن الجهل الذي نرمي إليه هو بعينه زمن رفع العلم كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ : «إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ، ويثبُت الجهل ، ويُشرب الخمر ، ويظهر الزنا» وفي رواية أخرى للبخارى : «..... يُرفع العلم ، ويظهر الجهل....»[1] .

قال الإمام النووي : «(يَثْبُت الجهل) أي : يُنشر ويشيع»[2] .

ونشر الجهل يُقابله قلَّة العلم كما في البخاري وأيضاً عن أنس قال لأحدثنكم حديثاً لا يحدثكم أحدٌ بعدي : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أشراط الساعة أن يقلَّ العلم ، ويظهر الجهل ...» الحديث وفي رواية لمسلم عن أبي وائل قال كنت جالساً مع عبد الله (أي : ا بن مسعود) وأبي موسى (أي : الأشعري) (رضي الله عنهما) فقالا : قال رسول الله ﷺ : «إن بين يدي الساعة أيّاماً يُرفع فيها العلم وينزل فيها الجهل ويكثر فيها الهَرْج ، والهرج : القتل» .

وفي رواية أخرى لمسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يتقارب الزمان يُقبض العلم وتظهر الفتن ، ويُلقى الشُّحُّ ويكثر الهرج»، قالوا : وما الهَرَج ؟ قال :

١- رواه البخاري في كتاب العلم ، باب : رفع العلم وظهور الجهل ٨٠ ، وفي كتاب المحاربين باب : إثم الزناة ٦٨٠٨ ، ومسلم في كتاب العلم ٦٩٥٦ .

٢- شرح النووي على صحيح مسلم (٩/ ٢٧) .

«القتل»[1] ، ورفع العلم أو قبضه أو قلّته ، كلها كلمات مترادفة وردت في ألفاظ الأحاديث التي ذكرناها إنما يكون بقبض أهل العلم وذويه مع عدم الاشتغال به والإعراض عنه والانكباب على الدنيا وزينتها ومتاعها الفاني ، وبالطبع يقابل رفع العلم وقبضه ظهور وانتشار الجهل وأهله ممن يتصدرون للعلم والفتوى وكل هذا حاصل ومُشاهد ومُعاين في زماننا سواء بظهور وانتشار الجهل أو برفع وقبض العلم ، وكان الإمام العادل عمر بن عبد العزيز قد كتب إلى أحد علماء عصره وهو أبو بكر بن حزم يقول له : «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فإني خِفتُ دروس العلم وذهاب العلماء ، وَلْتُجْلِسُوا حتى يُعَلَّمَ من لا يعلم ، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سِرّاً»[2] ولذلك إذا أراد الله - عز وجل - قبض العلم ورفعه قبض أهله بموتهم كما أخبرنا بذلك النبي الحبيب - صلوات ربي وسلامه عليه في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ، ينتزعه من العباد ، ولكن يقبضُ العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالماً ، اتخذ الناس رءوساً جهالاً ، فسُئلوا ، فأفتوا بغير علم ، فضلُّوا وأضلوا»[3] قال الإمام النووي - رحمه الله : «هذا الحديث يُبيِّن أن المراد بقبض العلم ليس هو محوه من صدور حُفَّاظه ، ولكن معناه أنه يموت حملته ، ويتخذ الناس جُهَّالاً يحكمون بجهالاتهم فيُضلون ويَضلُّون . والحديث فيه التحذير من اتخاذ الجُهَّال رؤساء»[4] قال الإمام ابن بطال المالكي المتوفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة أي في القرن الخامس الهجري عن ظهور الجهل وقبض العلم ورفعه وتقارب الزمان والفتن : «ونحن في ذلك من سائر أشراط الساعة ، قد قُبض العلم وظهرت الفتن وعمَّت وطبقت وكثر الهرج وهو القتل ، وكثُر المال ولا سيما عند أراذل الناس ، وقد شاهدنا

١- رواه البخاري في كتاب العلم ٨١ ، ومسلم في كتاب العلم ٦٩٥٩ ، ٦٩٦٤ .

٢- رواه البخاري في العلم باب : كيف يُقبض العلم .

٣- رواه البخاري في كتاب العلم ١٠٠ ، ومسلم في كتاب العلم أيضاً ٦٩٧١ ،

٤- شرح النووي علي صحيح مسلم (٩/ ٣١) .

ذلك وعاينَّاه ، أعاذنا الله من شرِّ المنقلب وختم أعمالنا بالسعادة»[١] ثم قال الحافظ ابن حجر العسقلاني مُعقباً على كلام ابن بطال : «الذي يظهر أن الذي شاهده (أي : ابن بطال) كان منه الكثير مع وجود مُقابله ، ولا يمنع من قبض العلم وجود طائفة من أهل العلم لأنهم يكونون حينئذ مغمورين في أولئك الجهلة ، والواقع أن الصفات المذكورة وُجِدت مباديها من عهد الصحابة (رضي الله عنهم) ثم صارت تكْثُر في بعض الأماكن دون بعض ، والذي يعقُبُه قيام الساعة استحكام (واستغلاق) ذلك (أي : أن عند اقتراب الساعة تماماً يُرفع العلم كُليًّا ويُنزع القرآن من الصدور ، وقد مضى من الوقت الذي قال فيه ابن بطال ما قال نحو ثلاثمائة وخمسين سنة [أي : حتى زمن الحافظ ابن حجر العسقلاني المتوفي سنة (٨٥٢هـ)] والصفات المذكورة (أي : من قبض العلم وظهور الجهل وانتشار الفتن واقتراب الزمان ... إلخ) . في ازدياد في جميع البلاد ، لكن يقل بعضها في بعض ويكثر بعضها في بعض وكلما مضت طبقة ظهر النقص الكثير في التي تليها»[٢] .

والدليل على أن العلم في انتقاص وسيظل كذلك حتى رفعه نهائيًّا ما رواه الترمذي وابن ماجة عن أبي الدرداء (رضي الله عنه) قال : كُنَّا مع رسول الله ﷺ فشخص ببصره إلى السماء ثم قال : «هذا أوان يُختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء» فقال زياد لبيد الأنصاري (رضي الله عنه) : كيف يُختلسُ منَّا وقد قرأنا القرآن ، فو الله لَنَقْرَأَنَّهُ ولنُقْرِئَنَّهُ نساءنا وأبناءنا . فقال : ثكلتك أُمُّك يا زياد إن كنت لأعُدُّك من فقهاء أهل المدينة ، هذه التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى ، فماذا تغنى عنهم؟» قال جُبير بن نُفير (الراوي عن أبي الدرداء - رضي الله عنه) فلقيتُ عُبادة بن الصامت (رضي الله عنه) قلت : ألا تسمع إلى ما يقول أخوك أبو الدرداء فأخبرته بالذي قال أبو الدرداء ، قال : صدق أبو الدرداء إن شئت لأحَدِّثَنَّك بأول علم يُرفع من الناس :

١- بتصرف من شرح ابن بطال على صحيح البخاري (٣/ ٢٤)

٢- انظر فتح الباري شرح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني (٢٠/ ٦٦)

الخشوع ، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلاً خاشعاً[1] قال القرطبي : «المقصود برفع العلم : العمل به كما قال ابن مسعود - رضي الله عنه - : ليس حفظ القرآن بحفظ الحروف ولكن إقامة حدوده ، ثم بعد رفع العمل بالعلم يُرفع الرقم والكتابة ولا يبقى في الأرض من القرآن آية تُتلى»[2] وقد روى ابن ماجة بسند ضعيف ولكن المعنى صحيح والواقع يؤيده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «تعلموا الفرائض (أي : علم المواريث) وعلموها للناس ، فإنها نصف العلم ، وهو يُنسى وهو أول شيء يُنزع من أمتي»[3] . والمعنى الذي يقصده الإمام القرطبي في رفع العلم هو الذي أشار إليه النبي الكريم ﷺ في الحديث الذي رواه ابن ماجة عن حذيفة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «يدْرُسُ الإسلام كما يَدْرُسُ وَشْيُ الثوب حتى لا يُدرى ما صيام ولا صلاة ولا نُسُكٌ ولا صدقةٌ ، وليُسْرَى على كتاب الله - عز وجل - في ليلة ، فلا يبقى في الأرض منه آيةٌ وتبقى طوائف من الناس الشيخ الكبير والعجوز يقولون : أدركنا آباءنا على هذه الكلمة لا إله إلا الله فنحن نقولها». فقال له : صِلَةُ (أحد رواة الحديث) ما تُغني عنهم لا إله إلا الله وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نُسُك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة ثم ردَّدها عليه ثلاثاً كل ذلك يعرض عنه حذيفة ثم أقبل عليه في الثالثة فقال : يا صلة تُنجيهم من النار . ثلاثاً»[4] .

ومعنى : (يَدْرُسُ) بفتح الياء وسكون الدال المهملة أي : لا يبقى منه شيء .

١- رواه الترمذي في كتاب العلم ٢٨٦٥ ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، وورواه ابن ماجة في باب : ذهاب القرآن والعلم ٤١٨٤ وصححه الألباني .

٢- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي (٢/ ٧٦٢) .

٣- رواه ابن ماجة في الفرائض ، باب الحث على تعليم الفرائض ٢٨٢٣ ، والطبراني في المعجم الأوسط (١٢/ ٢٩ حديث رقم ٥٤٥١) وقال : ولم يرو هذا الحديث عن أبي الزناد إلا حفص بن عمر بن أبي العطاف ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٢٦٠ حديث رقم ٧١٣٦) : رواه الطبراني وهو منقطع الإسناد .

٤- رواه ابن ماجة في الفتن باب : ذهاب القرآن والعلم ٤١٨٥ وصححه الألباني .

وقوله : (وَشْي) بفتح الواو وسكون الشين المعجمة أي : نقش الثوب .

ومعنى : (يُسْري) بضم الياء وسكون السين المهملة أي : يذهب الليل .

والحديث يُخبر عن قُرب قيام الساعة مباشرة كما قال القرطبي : «هذا إنما يكون بعد موت عيسى ابن مريم - عليه السلام - وبعد خروج يأجوج ومأجوج»[١] .

والحديث لا تعارض بينه وبين الحديث الآخر الذي ذكرناه عن قبض العلم بقبض العلماء وذلك لأن رفع العلم عن هذه الأمة إنما يكون بالتدرج فأول ما يُرفع منها الخشوع كما في الحديث الذي رواه الطبراني عن شدَّاد بن أوسٍ (رضي الله عنه) : أن رسول الله ﷺ قال : «أول ما يُرفع من الناس الخشوع»[٢] .

والفرائض التي هي المواريث أول شيء يُنزع عن الأمة ولا تعارض بين الحديثين فكما قال القرطبي «ولا تعارض والحمد لله فإن الخشوع إنما هو من علم القلوب ، والفرائض إنما هي من علم الظاهر»[٣] وليس المقصود - كما ذكرنا آنفاً من رفع العلم أو قبضه هو رفعه نهائيًّا من الصدور كما في الأحاديث التي ذكرت ذلك عن قرب قيام الساعة والتي ذكرناها آنفاً ولكن المقصود من حديث قبض العلم إنما يكون بموت حملته وأهله كما قال الحسن البصري - رحمه الله -» موت العالم ثلمة[٤] في الإسلام يسدها شيء ما طرد الليل والنهار»[٥] وقال الصحابي أبو الدرداء العِلم ، فإن رفع العلم ذهاب العلماء ، مالي أراكم تحرصون على ما قد توكل لكم به وتدعون دَبَراً ولا يسمعون إلا هجراً»[٦] وهذا هو المقصود عن المعنى الصحيح ألا وهو العلم الديني ، علم القرآن والسنة الذي يبدأ بترسيخ الإيمان وتعميقه في النفوس كما فعل ذلك النبي ﷺ مع

١- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (٢/ ٧٦٣) .

٢- رواه الطبراني في المعجم الكبير (٦/ ٤٥٣ حديث رقم ٧٠٣٣) وإسناده صحيح .

٣- التذكرة للقرطبي (٢/ ٧٦٣) .،

٤- الثَلَم : الكسر والخلل .

٥- جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (١/ ١٥٣) .

٦- المصدر السابق (١/ ١٥٦) .

الصحابة – رضي الله عنهم – فقد روى ابن ماجة عن جُندب بن عبد الله – رضي الله عنه قال : كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة[1] ، فتعلمنا الإيمان قبل أن نتعلم القرآن ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيماناً»[2] وروى ابن ماجة أيضاً عن العرباض بن سارية – رضي الله عنه – قال : قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم فوعظنا موعظة بليغة وَجَلَتْ منها القلوب وذرفت منها العيون ، فقيل يا رسول الله وعظتنا موعظة مُودِّعٍ فاعهد إلينا بعهد فقال : «عليكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبداً حبشيًّا ، وسترون من بعدي اختلافاً شديداً ، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديِّين عَضُّوا عليها بالنواجذ وإيَّاكم والأمور المُحدثات فإن كل بدعة ضلالة»[3] فهذا هو المقصود بمعنى العلم مع عدم نفي أو التقليل من العلم الدنيوي على جميع المستويات والذي للأسف تعتبر أمتنا العربية خاصة في ذيل الأمم المتقدمة علميًّا وأن جهابذة علماء الأمة العربية في مختلف العلوم الدنيوية سواء في الطب أو الفيزياء أو التكنولوجيا الحديثة المتقدمة هم من الطيور المهاجرة الذين يعيشون ويُقيمون في دول الغرب سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو الدول الأوربية .

إذن فالمقصود من رفع العلم وقبضه هو قبض وذهاب علماء الدين الإسلامي الذين هم مصابيح الأمة وأنهم وَرَثة الأنبياء ولذلك قال البخاري في قوله تعالى – من سورة محمد التي ذكرناها آنفاً : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فبدأ بالعلم ، وأن العلماء هم ورثة الأنبياء – ورَّثوا العلم – من أخذه أخذ بحظ وافر ، ومن سلك طريقاً يطلب به علماً سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة»[4] .

فهذا هو المفهوم والمقصود بمعنى العلم ورفعه وقبضه والذي مع رفعه وقبضه يظهر وينتشر ويفشو الجهل ويتخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً ، كما جاء في الحديث الذي

١- الحزاورة : جمع حَزْوَر وهو الغلام إذا اشتد وقوىَ .

٢- رواه ابن ماجة في المقدمة ، باب الإيمان ٦٤ ، وصححه الألباني .

٣- رواه ابن ماجة أيضاً في المقدمة باب الإيمان ٤٤ ، والنواجذ جمع ناجذ وهو أقصى الضروس والحديث صححه الألباني .

٤- رواه البخاري في كتاب العلم ، باب العلم قبل القول والعمل (١/ ١٣٠) وأخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٧٠٢٨ .

ذكرناه آنفاً والذي قال فيه ﷺ : «.... حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رءوساً جُهَّالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلُّوا»[١] .

ورُوى عن ابن مسعود – رضي الله عنه – أنه قال : «قُرَّاؤكم وعلماؤكم يذهبون ويتخذ الناس رؤساء جُهَّالاً»[٢] ، وروى ابن ماجة عن أبي موسى – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «إن من ورائكم أياماً ينزل فيها الجهل ويُرفع فيها العلم»[٣] .

وروى الحاكم في المستدرك عن عمرو بن تغلب ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إن من أشراط الساعة أن يفيض المال ، ويكثر الجهل ، وتظهر الفتن ، وتفشوا التجارة»[٤] وهذا الحديث من الأحاديث النبوية الإعجازية لأن كل فقرة من فقراته قد تحققت وخاصة في زماننا الذي نعيش فيه ، فمن حيث إفاضة المال فقد تحقق ذلك بظهور البترول في البلدان الغنية بالنفط وأصبح الثراء الفاحش هو سمة هذا العصر ، ولكن للأسف فإن هذا الثراء أصبح في بعض البلاد لفئة على حساب بقية الشعوب وذلك بسبب سوء توزيع تلك الثروات فإذا انتفضت بعض الشعوب للمطالبة بحقها فرَّت تلك الفئة المُتسلطة بما نهبته من أموال شعوبها إلى خارج البلاد كما حدث واتضح من خلال الثروات الطائلة التي كُشف النقاب عنها في البنوك العالمية بعد الثورات التي وقعت في كل من تونس ومصر نتيجة الظلم والفساد ، فهذا عن إفاضة المال في زماننا .

أما عن كثرة الجهل ، فهذا ما سنتحدث عنه لاحقاً وهذا زمان انتشار وظهور الفتن بجميع أنواعها ، وأما عن فُشوُّ التجارة وازدهارها فيكفي أن نشير إلى انتشار ما يسمى بــ (المُولات التجارية) في جميع البلدان العربية .

١- سبق تخريجه .

٢- أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١/ ١٥٢) .

٣- رواه ابن ماجة في الفتن باب : ذهاب القرآن والعلم ٤١٨٧ وصححه الألباني .

٤- رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٧) وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وإسناده على شرطهما ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٦٣١) حديث رقم ٢٧٦٧) .

وكذلك الأسواق والمحلات التجارية المنتشرة في ربوع وأنحاء عالمنا العربي والإسلامي ، وقد ساعد على ذلك ظهور وانتشار وسائل الاتصال الإلكترونية الحديثة مع سهولة الانتقال عبر وسائل المواصلات الحديثة أيضاً من طائرات عابرة للقارات وقطارات سريعة وسيارات عملاقة تنقل البضائع بين أقطار العالم العربي ، وبذلك انتشرت التجارة وفشت كما أخبر بذلك الصادق المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه - وبذلك تكون فقرات الحديث قد تمت وتحققت كلها في زماننا الذي نعيش فيه وكما نبَّأ وأخبر الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﷺ .

وبما أننا نتكلم عن ظهور وانتشار الجهل في زماننا فمن الآثار والأحاديث الإعجازية الدالة على ذم الجهل وانطباقه تمام الانطباق على أهل عصرنا الحاضر ما رواه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله يبغض كل جعظري ، جوَّاظ ، سخَّاب بالأسواق ، جيفة بالليل ، حمار بالنهار ، عالم بأمر الدنيا ، جاهل بأمر الآخرة»[١] .

شرح معاني الحديث : قوله (يبغض) أي : يكره ويمقت .

الجعظري : هو الفظ والغليظ في الطباع والمتكبر .

الجوَّاظ : هو الجموع المنوع ، وقيل كثير اللحم ، المختال في مشيته وقيل القصير البطن ، وقيل هو كثير الأكل .

السَّخَّاب في الأسواق : السَّخب والصَّخب هو الصياح واختلاط الأصوات وهما بمعنى واحد .

قوله (جيفة بالليل) : الجيفة هي الجثة الميتة المتنتة[٢] ، والمعنى أنه ينام الليل كالجثة الهامدة من شدَّة التعب طوال النهار فهو كالحمار وكالجسد الميت لا روح فيه ، لا يقوم

١- رواه ابن حبان في صحيحه في كتاب العلم (١/ ١٤٢ حديث رقم ٧٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٨٧١ .

٢- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (١/ ٨٣٩) ولسان العرب لابن منظور (١/ ٤٦١ ، ٣٧١٩) .

للصلاة ولا يذكر الله - عز وجل - لانشغاله بحياته الدنيا طوال النهار فهو عالم بتدبير أمور الدنيا ، جاهل لا يعرف شيئاً عن أمور آخرته ، وهذه المعاني الإعجازية التي ذكرها النبي ﷺ تنطبق في أوصافها مع كثير من أهل زماننا من المسلمين الذين لا يعرفون عن أمور دينهم شيئاً، وهذا هو الجهل بعينه ، فالجهل ضد العلم ونقيض المعرفة ، وقد روى الطبراني عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - عن رسول الله ﷺ قال : «قليل الفقه خير من كثير العبادة ، وكفى بالمرء فقهاً إذا عَبَدَ الله ، وكفى بالمرء جهلاً إذا أُعجب برأيه ، إنما الناس رجلان : مؤمن وجاهل ، فلا تؤذ المؤمن ، ولا تُجاور الجاهل»[1] .

ومن الأدلة على أن زماننا هو زمن كثرة الجهل والجهلاء وقلَّة العلم والعلماء ما رواه الحاكم عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال : «إنكم في زمان قليل خطباؤه ، كثير علماؤه ، يُطيلون الصلاة ، ويُقصرون الخطبة ، وإنه سيأتي عليكم زمان كثير خطباؤه ، قليل علماؤه ، يطيلون الخطبة ،ويؤخرون الصلاة» وفي رواية أخرى : «إنكم أصبحتم في زمان كثير فقهاؤه قليل خطباؤه ، قليل سؤاله ، كثير معطوه ، العمل فيه خير من العلم ، وسيأتي زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه كثير سؤاله ، قليل مُعطوه ، العلم فيه خير من العمل»[2] ولا أخال إلا أن زماننا هو ذاك الزمن الذي أشار إليه الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - وقلَّة الفقهاء والعلماء هي نتيجة طبيعية لكثرة الجهل وانتشاره وليس معنى القلَّة هو انتفاء العلم أو قبض العلماء والفقهاء نهائيًّا ومحو العلم من الصدور بالكلية - كما أشرنا إلى ذلك آنفاً - ودليلنا ما رواه البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «لا

١- رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ١٣٣) وقال : لم يرو هذا الحديث عن رجاء بن حيوة إلا إسحاق أبو عبدالرحمن، تفرد به الليث (أي : الليث بن سعد) .

٢- رواه الحاكم في المستدرك (٢/ ٣٨٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٤٠) والرواية الثانية رواها الطبراني في المعجم الكبير ورفعها إلى النبي ﷺ (٣/ ٣٢٦ ح ٣٠٤١) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣١٨٩ .

تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون». وفي رواية مسلم عن ثوبان - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[1] ، فالعلم والفقه والجهاد سيبقى مع هذه الطائفة (والتي أسأل الله - عز وجل - أن يجعلنا منهم) حتى قُرب قيام الساعة ، ولذلك فليس معنى رفع العلم أو قبضه هو رفعه ، أو قبضه نهائيًّا من الصدور ولكن المقصود برفعه وقبضه - كما أشرنا آنفاً - إلى قبض العلماء وموتهم وهذا ما حدث في زماننا ، ففي غضون العشر سنوات الماضية قُبض العديد من علماء الأمة الإسلامية في جميع أقطار دولنا العربية والإسلامية ولذلك انتشر الجهل وظهر أربابه وأنصاره .

وروى أن الحسن البصري - رحمه الله - قال عن الجاهل فيما رواه ابن أبي شيبة : «كانوا يقولون إن لسان الحكيم من وراء قلبه ، فإذا أراد أن يقول رجع إلى قلبه فإن كان له قال ، وإن كان عليه أن يقول رجع إلى قلبه ، فإن كان له قال ، وإن كان عليه أمسك ، وإن الجاهل قلبه في طرف لسانه لا يرجع إلى قلبه ، ما أتى على لسانه تكلم به»[2] .

ولذلك قيل : «ويل للعالم من الجاهل ، وويل للجاهل من العالم»وقيل أيضاً : «إذا أراد الله بقوم خيراً أكثر فقهاءهم وقلَّل جُهَّالهم حتى إذا تكلم العالم وجد أعواناً ، وإذا تكلم الجاهل قُهِر ، وإذا أراد الله بقوم شرًّا أكثر جُهَّالهم وقلَّل فقهاءهم حتى إذا تكلم الجاهل وجد أعواناً وإذا تكلَّم الفقيه قُهِر»[3] وهذا هو الحاصل في زماننا ، ولذلك روى أصحاب السنن عن جهل القُضاة ما رُوي عن بُريدة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «القضاة ثلاثة : واحد في الجنة ، واثنان في النار ، فأما الذي في الجنة فرجل

١- رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب ، باب قول النبي ﷺ : «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق» وهم أهل العلم ٧٣١١ ، ومسلم في الإمارة ، بباب قوله (لا تزال طائفة من أمتي) ٥٠٥٩ .

٢- رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٨/ ٣١١) .

٣- راجع : جمع الجوامع للسيوطي (١/ ٢٥٦٠٠ ، ١/ ١٦٢٥) .

عرف الحق فقضى به ، ورجل عرف الحق فجار في الحُكم فهو في النار ، ورجل قضى للناس على الجهل فهو في النار»[1] ولذلك قيل إن الجاهل له صفات عشر هي :

١ - أن يظلم من يُخالطه .

٢ - ويعتدي على من هو دونه .

٣ - يتطاول على من هو فوقه .

٤ - يتكلم بغير تدبير ، فإن تكلم أثم ، وإن سكت سها .

٥ - إن عُرضت له فتنة سارع إليها فأردَته .

٦ - إن رأى فضيلة أعرض وأبطأ عنها .

٧ - لا يخاف ذنوبه القديمة .

٨ - لا يرتدع فيما بقى من عُمُره عن الذنوب .

٩ - يُسرع إلي الشَّرِّ .

١٠ - يتوانى عن البر ويُبطئ عنه غير مكترِث لما فاته من ذلك أو ضيّعه ..

فتلك عشر خصال من صفة الجاهل الذي حُرِم العقل[٢] . ولذلك قالوا : «لا تُناظر جاهلاً» وقالوا أيضاً «لا تُناظر جاهلاً ولا لجوجاً ، فإنه يجعل المناظرة ذريعة إلى التعلم بغير شكر» .

وقال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - «لا مال أَعْود من العقل ، ولا فقر أضرُّ من جهل»[٣] وروى أن هناك خصالاً يُسرُّ بها الجاهل ، كلها كائن عليه ، وبالاً : منها أن يفخر من العلم والمروءة بما ليس عنده ، ومنها ، أن يرى بالأخيار من

١- رواه أبو داود ٣٥٧٥ ، والترمذي ١٣٧٢ ، وابن ماجة ٢٤٠٤ ،

٢- بتصرف من بُغية الحارث ، للحارث بن أبي أسامة (١/ ٢٦٢) .

٣- راجع : العقد الفريد لابن عبد ربه (١/ ١٧١) .

الاستهانة والجفوة ما يُشمته بهم ، ومنها : أن يُجادل عالماً وديعاً مُنصفاً له في القول فيشتد صوت ذلك الجاهل عليه ثم يغلبه نظراؤه من الجهال حوله بشدَّة الصوت ، ومنها ، أن تفرط منه الكلمة أو الفِعلة المعجبة للقوم فيُذكر بها ، ومنها ، أن يكون مجلسُهُ في المحْفِل وعند السلطان فوق مجالس أهل الفضل عليه»[1] ولذلك قال الإمام الشافعي في ديوانه :

اعرض عن الجاهل السفيه   فكل ما قال فهو فيه

وقال أبو العتاهية :

ولا تصحب أخا الجهــــل   وإيــــاك وإيَّـــاهُ

فكم مــــن جاهــل أردى   حليمــاً حين آخـــاهُ

***

ولذلك قال بعض البُلغاء : «رُبَّ جهل وقيتُ به علماً ، وسفه حميت به حلماً ، وهذه الطبقة مما لا يُرجى لها صلاح ، ولا يؤمَّل لها فلاح ، لأن من اعتقد أن العلم شين ، وأن تركه زَيْن ، وأن للجهل إقبالاً مُجدياً ، وللعمل إدباراً مُكدياً[2] كان ضلاله مستحكماً ، ورشاده مستبعداً»[3] ، وقيل : «من استشار الجاهل ضلَّ ، ومن جهل موضع قدمه زلَّ ، ولذلك قال الإمام الثوري : نعوذ بالله من فتنة العالم الفاجر ، وفتنة القائد الجاهل»[4] ، وقال الجاحظ : «واحذر مشورة الجاهل وإن كان ناصحاً ، كما تحذر مشورة العاقل إذا كان غاشًّا يوشك أن يُورّطاك بمشورتهما ، فيسبق إليك مكر العاقل ، وغرارة الجاهل ، وكان يُقال : خمس خصال تكون في الجاهل : الغضب في غير غضب ، والكلام في غير نفع ، والعطيَّة في غير موضع ، والثقة بكل أحد ، وألا يعرف صديقه من عدوه»[5]

١- الأدب الصغير والأدب الكبير لابن المقفع ص ٥٠ .
٢- أي : مانعاً من المال .
٣- أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٥١ .
٤- الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي (١/ ٨٩) .
٥- البيان والتبيين للجاحظ (١/ ٩٨ ، ١٨١) .

وقال القلقشندي : «والجاهل لا تمييز له بين الحق والباطل ، ولا معرفة ترشده إلى الطريق المعتبرة في الكتابة ، ومن سلك طريقاً بغير دليل ضل ، أو تمسَّك بغير أصل زلَّ»[١] .

وقال الثعالبي : «الجاهل صغير وإن كان شيخاً ، والعالم كبير وإن كان حَدَثاً» وقال: «جهل العاقل أعقل من عقل الجاهل» وقال : «ظن العاقل خير من يقين الجاهل» وقال أيضاً : «الجهل موت الأحياء .. الجهل في القلب كالأكلة في الجسد ، لا مصيبة أعظم من الجهل ، ومن جَهلَ قدر نفسه كان بقدْر غيره أجهل ، وقيل : لا صاحب أخذل من الجهل ، وقيل : بئس شعار المرء جهله . وقال ابن المعتز: «نعمة الجاهل كروضة على مزبلة ، كلما حسُنت نعمة الجاهل ازداد فيها قُبحاً» وقيل : «لسان الجاهل مفتاح حتفه» ، وقيل : «فرّ من الجاهل فرارك من المجذوم ، وقيل : من الأسد» . وقيل : «لا ترى الجاهل إلا مُفْرطاً أو مُفرِّطاً» وقيل أيضاً : «رُبَّ صديق يؤتى من جهله لا من نيَّته»[٢] .

فهذه باقة من أقوال الأدباء والحكماء والبُلغاء عن الجهل والجُهّال أوردناها لكي نتعرف على خطورة هذا الداء اللعين وهذا الصنف من الناس الذين انتشروا في زماننا كانتشار النار في الهشيم وأصبح الكثير منهم يتصدرون المجالس في جميع المحافل والمنتديات ، بل وصل الأمر إلى إصدار الفتاوى ممن يتجرؤون على الفتوى والتقوُّل على الله ورسوله ﷺ- بغير علم وهؤلاء الذين سمّاهم رسولنا الكريم - صلوات ربي وسلامه عليه - بالرؤوس الجُهّال الذين يُفتون بغير علم فضلّوا وأضلوا ، وأصبح زماننا يُطلق عليه زمن فوضى الفتاوى وذلك بعد ظهور الفضائيات التي كانت تستضيف العديد ممن ليس لهم أدنى معرفة بالعلوم الشرعية ويُفتون الناس بفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان وذلك بعد إقصاء وإبعاد العلماء الربانيين والفقهاء الحقيقيين

١- صُبح الأعشى للقلقشندي (١/ ٢٤) .

٢- بتصرف من كتاب : التمثيل والمحاضرة للثعلبي ص ٣٩ ، ٨٥ ، ٩٠ ، وراجع أيضاً : أدب الدنيا والدين للماوردي ص ٥١ ، ٥٢ .

من علماء الأمة عن الظهور على شاشات الفضائيات تحت دعاوى شتى وافتراءات كثيرة حتى انتشر الجهل وعمَّت الفوضى وظهر الضلال بين الناس ووقعت الفتن ، فكل هذه المحن والفتن التي تعيشها الأمة هو نتاج طبيعي لظلام الجهل وعتمته في ظل غياب العلماء الصادقين والعلم الحقيقي ونورانيته ، وسوف نستعرض في الفقرة القادمة نُتفاً من جهل الجهلاء من الخاصة ممن يتصدرون ويتجرؤون على الفتوى ومن العامة الذين لا يعرفون عن دينهم شيئاً .

زمن الجهل الرديء :

في غياب نور العلم الحقيقي - سواء بموت ورحيل العلماء الربانيين أو بإقصائهم وتغييبهم عن الناس يظهر ويعم ظلام الجهل ، فمن المصائب التي حلَّت على أهل هذا الزمن الذي نعيش فيه أن رؤوساً جُهالاً تصدَّروا للفتوى وتجرؤوا عليها بالرغم من التحذير النبوي في ذلك حيث روى عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من قال عليَّ ما لم أقل فليتبوأ بنيانه في جهنم ، ومن أفتى بغير علم كان إثمه على من أفتاه ، ومن أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرُّشد في غيره فقد خانه»[١] .

وروى الإمام النووي أنه قال : روينا عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : (أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ يُسأل أحدهم عن المسألة فيردها هذا إلى هذا ، وهذا إلى هذا ، حتى ترجع إلى الأول) وفي رواية : (ما منهم من يُحدِّث بحديث ، إلا وَدَّ أخاه كفاه إيّاه ، ولا يُستفتى عن شيء إلا وَدَّ أن أخاه كفاه الفتيا) ، وعن ابن مسعود وابن عباس - رضي الله عنهما - : (من أفتى عن كل ما يُسْأَل فهو مجنون) ، ورُوي عن سفيان بن عيينة أنه قال : (أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً) . وعن الإمام الشافعي - وقد سُئل عن مسألة فلم يُجب - فقيل له ، فقال: (حتى أدري أن الفضل في السكوت أو في الجواب) ، وعن الأشرم قال : سمعت أحمد ابن حنبل يكثر أن يقول (لا أدري) ، وذلك فيما عرف الأقاويل فيه ، وعن الهيثم بن جميل

١- رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (١/ ٣٤٢) ، ورواه أبو داود في سننه ، كتاب العلم ٣٦٥٩ وصححه الألباني .

قال : شهدتُ مالكاً سُئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها: (لا أدري) وكان يقول : (من أجاب في مسألة فينبغي قبل الجواب أن يعرض نفسه على الجنة والنار وكيف خلاصه ثم يُجيب) ، وقال أبو حنيفة (لولا الفَرَقُ - أي : الخوف - من الله - تعالى - أن يضيع العلم ما أفتيتُ ، يكون لهم المهنأ وعليَّ الوزر).»[1] ومع هذا التحذير والوعيد النبوي وخوف وورع الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين والأئمة الأعلام من الإقلال والتجرؤ على الفتوى أو الإقدام عليها إلا أن زماننا الذي نعيش فيه انتشرت فوضى الفتاوى وظهرت شرذمة من المفتين لا علاقة لهم بالعلم الشرعي تصدروا للفتوى ، حتى إن أحد هؤلاء ممن اشتهروا بحب الظهور على القنوات الفضائية وأصبح أحد مشايخ نجوم الفضائيات قال لي عندما أردت أن أُحذِّره من التجرؤ والرد على المستفتين بغير علم عبر التليفونات والهواتف التي تأتيه خلال البرامج التي يقدمها ، حيث إنه ليس من المتخصصين في هذا المجال فهو خرِّيج إحدى الكليات النظرية المدنية وتخصصه بل وعمله بعيد كل البُعد عن هذا الفن الذي لا يحذقه ولا يخوض فيه إلا الخاصة من أهل العلم ، حيث إن أهل العلم قد وضعوا شروطاً لمن يتصدر الفتوى منها :

١- أن يكون قيّماً بمعرفة أدلة الأحكام الشرعية عن الكتاب والسُّنة والإجماع والقياس ، وما التحق بها على التفصيل .
٢- وأن يكون عالماً بما يشترط في الأدلة ووجوه دلالتها ، وبكيفية اقتباس الأحكام منها ، وهذا يستفاد من أصول الفقه .
٣- عارفاً من علوم القرآن ، والحديث ، والناسخ والمنسوخ ، والنحو واللغة ، واختلاف العلماء واتفاقهم بالقدر الذي يتمكن معه من الوفاء بشروط الأدلة والاقتباس منها .
٤ - عالماً بالفقه ضابطاً لأمهات مسائله وتفاريعه[2] . وزاد الإمام ابن قيم الجوزية «ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحق إلا بنوعين من الفهم:

١- آداب الفتوى والمفتي والمستفتي للإمام النووي ص ٣ ، ٤ .
٢- المصدر السابق ص ٨ .

١ - فهم الواقع فيه ، واستنباط علم حقيقة ما وقع بالقرائن والأمارات والعلامات ، حتى يُحيط به علماً .
٢ - فهم الواجب في الواقع ، وهو فهم حُكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ في هذا الواقع ثم يُطبِّق أحدهما على الآخر»[1] .

ومع هذه الشروط القاطعة والحازمة والتي لا تتوفر إلا في القلَّة من ذوي أهل العلم الشرعي إلا أن صاحبنا : النجم الفضائى (نسبة إلى القنوات الفضائية التي انتشرت من خلالها فوضى الفتاوى الدينية) قال لي : ومالي لا أُفتي ،والجميع يُدلي بدلوه في هذا المجال ، فمثل هذا وغيره ممن انتشروا على القنوات الفضائية عمت بهم البلوى وانتشرت من خلالهم الفوضى وتحيَّر كثير من الناس والعوام نتيجة تلك العشوائيات وتضارب أقوال هؤلاء النجوم من الدعاة والمشايخ حول الفتوى الواحدة ، حتى إن أحد تلك البرامج المسماة دينية كان يتعمد مُقدِّم ذلك البرنامج أن يستضيف بعض المشايخ وممن ينتسبون إلى الأزهر من النساء الداعيات أن يُوقع بينهن ويُظهرهن وكأنهم يتناطحن ويتنافسن ويتصارعن فيما بينهن فيزداد الناس حيرة على حيرتهم فتنعدم بذلك ثقة الناس في العلماء ويكون هؤلاء البُسطاء من الناس هم الضحية لأنهم يُصدِّقون هؤلاء الدعاة والمشايخ الذين يظهرون على الشاشات الفضائية وبذلك ظهرت ما يُسمى فوضى الفتاوى ، فأصبحنا نقرأ ونسمع عمن يُصدر فتوى بإباحة شرب الدخان في نهار رمضان تحت حُجة أنه لا يُفطر ، وفتوى لنفس الدعيّ الجاهل بإباحة تبادل القبلات بين الشباب والفتيات واعتبر أن ذلك الفعل يدخل ضمن ما يُسمى بـ (اللمم أي : الذنوب الصغيرة) وقال أخزاه الله (علينا أن نعترف بالواقع الذي لا يمكن تجاهله في هذا العصر ، وهو عدم قدرة كثيرين من الشباب والفتيات على الزواج في ظل المعروض من المؤثرات الخارجية التي تؤثر على الغريزة الجنسية التي غرسها الله - عز وجل - في الإنسان) . ثم قال - عامله الله بما يستحق : (للأسف

---

١ - إعلام الموقعين عن رب العالمين للإمام ابن قيم الجوزية (١/ ٨٧ ، ٨٨) .

الشديد دائماً يتم تأويل ما أقوله ، والقاعدة عندي أنه ليس كل مُحَرَّم من الضروري أن لا يفعله الإنسان) . وهذه قاعدة من بنات أفكاره وعقله المريض لأنها ليس لها أصل في شرعنا وديننا الإسلامي الحنيف ، وقد اعتبر رجال وعلماء الأزهر أن قائل هذا الكلام ممن يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا – وهو كذلك ولا ريب – فهذا أحد الجهلاء الذي نصب نفسه في القنوات الفضائية للإفتاء والتقول على الله – سبحانه وتعالى – بغير علم ولا دليل شرعي صحيح وإنما جُل أفكاره وفتاويه نابعة من عقله المريض وجهله البغيض .

فهذه عينة وغيض من فيض انتشار الجهلاء في زماننا ممن يتجرؤون على الفتوى بغير علم ممن انتشروا عبر شاشات الفضائيات التي لا رقيب عليها ولا حسيب حتى إن أحدهم خرج علينا من خلال برنامج باسم (في سبيل الحكمة) على إحدى القنوات الفضائية يطعن في صحيح البخاري وقوله عن أحاديث الصادق المصدوق أنها مُلفَّقة لأنها خالفت عقله المريض وخياله البغيض ، وأنا أهيب بعلماء ورجال الأزهر وأناشد شيخ الأزهر شخصيًّا أن يُوقف مثل هذه المهازل والانحرافات التي انتشرت عبر وسائل الإعلام المختلفة حيث أصبح ديننا الحنيف كلأً مُباحاً لكل من هبَّ ودبَّ ولكل ناعق وزاعق وخاصة من أصحاب وذوي الأفكار المنحرفة ، فأرجو أن يضع الأزهر حدّاً لذلك واعتبار أن التطاول على ثوابتنا الإسلامية من الخطوط الحمراء التي لا ينبغي تجاوزها بأي زعم أو مبرر كان ، فالمسلمون يعيشون هذه الأيام في جهالات عقيمة نتيجة بُعدهم الكامل عن دين الله – تعالى – وانتشار الجهلاء ممن يفتون الناس بغير علم فعمَّ الجهل بين العوام حتى إن أحد المشايخ ذكر أن أحدهم سأله ذات يوم قائلاً : هل يجب الوضوء قبل صلاة النافلة أم أن الوضوء واجب لصلاة الفريضة فقط؟ فقال الشيخ : فعجبت من سؤاله ، وزاد عجبي عندما عرفتُ أنه طالب في المرحلة الثالثة الجامعية»[1] وقد شاهدت بنفسي البعض يضعون أيديهم الشمال فوق

١ – نهاية العالم للدكتور محمد عبد الرحمن العريفي ص ٧٧ [الناشر : دار التدمرية – الرياض – السعودية] .

اليمين في الصلاة ، وهذا الجهل العظيم بثوابت وأركان الدين منتشر الآن بين الناس انتشار النار في الهشيم وذلك لاتخاذ الناس رؤوساً جُهالاً يسألونهم فيفتون بغير علم كما ثبت ذلك عن الصادق المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه - في الحديث الذي ذكرناه آنفاً وذلك مع كثرة القُرَّاء في زماننا وتوفر أسباب العلم وقد صدق الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - حيث قال : «كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير وتُتخذ سُنَّة ، فإن غيَّرت يوماً قيل هذا منكر . قيل ومتى ذلك ؟ قال : إذا قلّت أُمناؤكم وكثرت أمراؤكم وقلّت فقهاؤكم وكثُرت قراؤكم وتُفقه لغير الدين والتُمست الدنيا بعمل الآخرة»[١] .

ومن الآثار العجيبة التي ثبتت عن الصحابة - رضي الله عنهم - أيضاً وحدثت في زماننا ما رواه حذيفة بن اليمان - رضي الله عنهما - حيث قال : «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع (وفي رواية : الأمانة) وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة ، ولتُصلينَّ النساء وهنَّ حُيَّض ، ولَيُنقضن الإسلام عروة عروة ، ولتركبن طريق من كان قبلكم حذو النعل بالنعل ، وحذو القُذَّة بالقذة لا تُخطئون طريقهم ولا يُخطئ بكم ، وتبقى فرقتان من فرق كثيرة تقول إحداهما: ما بال الصلوات الخمس ، لقد ضلَّ من كان قبلنا ، إنما قال الله - عز وجل - : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ [هود: ١١٤] لا يُصلُّون إلا صلاتين أو ثلاثة ، وفرقة أخرى تقول: إنَّا مؤمنون بالله كإيمان الملائكة ما فينا كافر ولا منافق ، حقًّا على الله - عز وجل - أن يحشرهم مع الدجال»[٢].

والشاهد من هذا الأثر العجيب أن بعض الأخوات ذكرن لي أن بعض الجاهلات بدينهن يذهبن إلى المساجد وهنَّ حُيّض وعندما تقام الصلاة يُصلين مع الإمام في مُصلاهنَّ ، وقد رأينا بعض الموتورين والجهلاء من أفتى بالصلاة مرتين في اليوم

١- مصنف عبد الرزاق (١١/ ٣٦٠) ومصنف ابن أبي شيبة (٨/ ٥٩٩) ، والمستدرك للحاكم ٨٧١٦ ، وراجع صحيح الترغيب والترهيب للألباني ١١١ .

٢- الإبانة لابن بطة (١/ ١٧٥) ، والبدع والنهي عنها لابن وضاح القرطبي ص ٥٨ - ٥٩ .

وهؤلاء ممن يُطلقون على أنفسهم بالقرآنيين الذين يرفضون السُّنة المطهرة جُملة وتفصيلاً ، وصدق الفضيل بن عياض - رحمه الله - حيث قال : «كيف بك إذا بقيت إلى زمان شاهدتَ فيه ناساً لا يُفرِّقون بين الحق والباطل ، ولا بين المؤمن والكافر ، ولا بين الأمين والخائن ، ولا بين الجاهل والعالم ، ولا يعرفون معروفاً ، ولا يُنكرون منكراً»[1].

وتلك العلامات كلها قد ظهرت في زماننا وهي نذير شر وشؤم يجب على كل ناصح للأمة مُشفق على الملة أن يُحذِّر من هذا الجهل الذي تفاقم وانتشر بين الناس نتيجة بُعدهم عن أصول وتعاليم دينهم الحنيف وقلة العلم واتباع الهوى وإعجاب كل ذي رأيٍ برأيه ، ومن صور الجهل أيضاً - كما ذكرنا - إعراض كثير من الناس عن تعلم ما يجب عليهم علمه من أحكام الدين التي يحتاجونها في عباداتهم ومعاملاتهم أو غير ذلك من شؤون حياتهم اليومية ، بحيث أصبح الدين في حياتهم هامشيًّا ، فإذا صادف أحدهم مشكلة - ما - أسرع إلى من يُفتيه حسب هواه لا حسب الحق والهدى والشرع وقد رأينا من أمثال هؤلاء الكثير وعندما تكاشفه أو تبين له الحكم الشرعي يأتيك بمبررات ما أنزل الله - عز وجل - بها من سلطان ، وحُق لهذا الزمان أن يُطلق عليه زمن التبرير حيث أصبح لهذا التبرير غير المؤصل تأصيلاً شرعيًّا فقهاً وأصبح أصحاب هذا النوع من فقهاء التبرير لهم مسوغاتهم الباطلة وكل هذا نتاج طبيعي لانتشار الجهل بجميع صوره وأشكاله التي ذكرناها مما أدى ذلك كله إلى انتشار وتفشي وظهور أمراض أخرى في الأمة كان من بينها ظهور الرويبضة وسفلة الناس ويتصدرون المجالس ويعتلون المناصب السيادية في البلاد مستقلة .

---

١ - الإبانة لابن بطة (١/ ١٨٨) وسوف نميط اللثام عن فرقة القرآنيين في فقرة مستقلة من هذا الكتاب .

ظهور الرويبضة والسفهاء وتصدرهم المجالس والمناصب المهمة في البلاد :

روى ابن ماجة والإمام أحمد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ: «سيأتي على الناس سنوات خدَّاعات ، يُصدَّق فيها الكاذب ، ويُكذَّب فيها الصادق ، ويؤتمن فيها الخائن ويخوَّن فيها الأمين ، وينطق فيها الرويبضة» قيل : وما الرويبضة ؟ قال : «الرجل التافه يتكلم في أمر العامة»[1] .

والخدَّاعات : بتشديد الدال المهملة للمبالغة ، قال السيوطي أي : تكثر فيها الأمطار ، ويقلُّ الربيع (النبات) ، فذلك خدعها أي : أنها تُطمعهم بالخير ثم تُخلف ، وقيل: الخدعة القليلة المطر ، وقد روى الإمام أحمد عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يمطر الناس مطراً عامًّا ، ولا تُنبت الأرض شيئاً»[2] .

والرويبضة تصغير : رابضة ، وهو العاجز الذي ربض عن معالي الأمور ، وقعد عن طلبها ، والتاء للمبالغة .

والتافه أي : الحقير من الناس ، قليل العلم[3] .

وروى الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال : «والذي نفس محمد بيده لا تقوم الساعة حتى يظهر الفُحش والبُخل ، ويخوَّن الأمين ويؤتمن الخائن ، ويهلك الوعول ، ويظهر التحوت» فقالوا : يا رسول الله وما الوعول وما التحوت؟ قال : «الوعول وجوه الناس وأشرافهم ، والتحوت الذين كانوا تحت أقدام الناس لا يُعلم بهم»[4] وفي رواية للطبراني عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «إن

١- رواه ابن ماجة في الفتن / ٤٠٢٦ ، والإمام أحمد في المسند ٧٥٧١ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٦٥٠.

٢- رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده ٤٢٢٧ .

٣- حاشية السندي على سنن ابن ماجة (٧/ ٤٣٠) .

٤- المستدرك على الصحيحين للحاكم ٨٧٩٣ وقال : هذا حديث رواته كلهم مدنيون ممن لم ينسبوا إلى نوع من الجرح .

من أشراط الساعة أن يظهر الشُّح ، والفُحش ، ويُؤتمن الخائن ، ويُخوَّن الأمين ، ويظهر ثياب يلبسها نساء كاسيات عاريات ، ويعلو التحوت الوعول» . قال أبو هريرة : أكذلك يا عبد الله بن مسعود سمعته من حِبي ؟ قال : نعم ، ورب الكعبة . قلنا . وما التحوت ؟ قال : فُسول الرجال ، وأهل البيوت الغامضة ، يُرفعون فوق صالحيهم ، والوعول : أهل البيوت الصالحة»[1] .

وهذا الحديث النبوي الشريف من دلائل الإعجاز النبوي وهو عَلَم من أعلام النبوة لأن عصرنا الحاضر الذي نعيشه قد شَهِدَ كل فقرة من فقرات هذا الحديث الإعجازي ، فقد :

١ - ظهر الشُّح والبخل بين أغنياء المسلمين على فقرائهم .

٢ - وظهر الفُحش وبذاءة اللسان وسمعنا بألفاظ ومصطلحات بين الشباب لم نكن نسمعها من قبل وهذا لا يُنكره إلا جاحد فهذا زمن الألفاظ البذيئة والمصطلحات الغريبة على الأسماع .

٣ - والخونة الذين ائتمنهم الناس على حياتهم ومعاشهم ما أشهرهم وأكثرهم في هذا الزمان الذين خانوا واستولوا على ثروات البلاد هم وأعوانهم ممن اعتلوا مناصب حكومية فاستغلوها أسوأ استغلال ولا زلنا نعيش هذه الفترة الحالكة من ضياع الأمانة وظهور الخونة والعملاء .

٤ - وأما عن الأمناء وهم الرجال والشباب الطاهر العفيف فقد وصموهم بكل ما هو رديء وألصقوا ولفقوا التهم الباطلة بل واعتقلوهم وزجوا بهم في السجون لا لشيء إلا أنهم أمناء شرفاء وواقعنا خير شاهد على ما نقول .

٥ - وظهرت ثياب النساء في عصرنا الحاضر والتي يُطلق عليها ثياب الموضة التي لبستها النساء الكاسيات العاريات اللاتي تكلمنا عنهن آنفاً ، ولم تظهر هذه الثياب في العصور السابقة على هذا النحو الغريب العجيب .

١- رواه الطبراني في الأوسط (٢/ ٢٥٨ حديث رقم ٧٥٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة الجزء السابع حديث رقم ٣٢١١ .

٦ - وأخيراً فهذا زمن التحوت وهم : أسافل الناس وفسول الرجال الذين كانوا تحت أقدام الناس ولا يُعلم عنهم ولا بهم وأصبحوا فوق صالحي الناس .. فهذا الحديث الإعجازي بحق قد نطقت كل فقرة فيه بها نعيشه ونشاهده ونعاصره في زماننا الذي ظهرت فيه كل هذه العلامات ، فصلوات ربي وسلامه عليك يا سيدي يا حبيبي يا رسول الله فقد تركتنا حقيقة على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ..

وهناك أحاديث كثيرة عن الفُحش والتفحش ورفع الأمانة وضياعها قد ذكرناها في غير هذا الموضع ولكن اكتفينا بهذا الحديث الجامع المانع الذي ذكر وجمع بين ثناياه كل تلك الأصناف التي يموج بها عصرنا الحاضر لندلل على الإعجاز النبوي في الإخبار النبوي عما نبّأ به الحبيب ﷺ فوقع كل ما أخبر به ورأيناه في القرن الخامس عشر الهجري وهذا هدفنا من سرد هذه الأحاديث والروايات النبوية الصحيحة وذلك ليزداد المؤمن إيماناً ويرتدع من كان في قلبه شك أو مرض ويهتدي بهذه الأحاديث إن كان كتب الله - عز وجل - له الهداية وليهلك من هلك عن بيِّنة بعدما كشفنا الستار وأزحنا النقاب عن الذين في قلوبهم مرض وحقد لهذا الدين وخاصة ممن يُنكرون السُّنة النبوية الصحيحة ممن يُسمون بالقرآنيين الذين سنكشف عوارهم ونفضح سترهم في فقرة مستقلة من هذا الكتاب .

فصل :

دلائل النبوة ونور البيان في الإخبار النبوي عن انتشار الربا ، وفشوّ التجارة ، وتقارب الأسواق ، وظهور القلم وانتشار الكتابة في هذا الزمان

من المعلوم أن الربا في اصطلح فقهاء الإسلام هو : الزيادة في أشياء مخصوصة أو هو فضل مال بلا عِوَض في معاوضة مال بمال آخر[1] ، وقد يُطلق على كل بيع مُحرَّم ، ولذلك فالربا حرَّمه الله - عز وجل - في جميع الشرائع السماوية إلا أن اليهود قد حرّفوا وأوّلوا هذا التحريم ، فجعلوه فيما بينهم مُحرَّماً وأباحوه مع غيرهم كما تقول التوراة : «لا تُقرض أخاك بربا ، ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء مما ما يُقرض بربا . للأجنبي تُقرض بربا ولكن لأخيك لا تُقرض بربا .. « [سفر التثنية ٢٣-١٩-٢٠] وقد صدق الله - عز وجل - وهو خير القائلين عنهم في قرآننا الكريم : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ [النساء : ١٦٠-١٦١] . فهذا عن تحريم الربا في شرع من قبلنا أما في شرعنا الإسلامي الحنيف فهو مُحرَّم بالقرآن والسُّنة النبوية وبإجماع علماء الأمة فأما القرآن الكريم فيقول : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ

١- انظر : المغني لابن قدامة المقدسي (٤/ ٣) ، تبيين الحقائق للزيلعي (٤/ ٨٥) .

وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) ﴾ [البقرة : ٢٧٥-٢٨٠] .

وقال الله - عز وجل أيضاً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٠] وقد أخبرنا المولى - سبحانه وتعالى _ أن الأمم السالفة كانوا يتعاملون بالربا رغم تحريمه من الله - عز وجل - واشتمال شرائع الأنبياء - عليهم السلام - قبلنا على تحريمه ، كما قصَّ لنا الله - سبحانه وتعالى - عن قوم شعيب - عليه السلام - ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ [هود : ٨٧] ثم انتقل هذا التعامل الربوي إلى الأمم المتعاقبة ولقد كان لليهود اليد الطولى في انتشاره بين الأمم قاطبة - كما أسلفنا - حتى إن القبائل العربية في الجاهلية وقبل الإسلام كانوا يتبايعون فيما بينهم بالربا ، فلما جاء الإسلام أُمِروا أن يأخذوا رؤوس أموالهم ، وهو ما كان يُسمى بربا النسيئة «وهو الأمر الذي كان مشهوراً ومتعارفاً عليه في الجاهلية ، وذلك أنهم كانوا يدفعون المال على أن يأخذوا كل شهر قدراً مُعيناً ، ويكون رأس المال باقياً ، ثم إذا حلَّ الدَّين طالبوا المديون برأس المال ، فإن تعذَّر عليه الأداء زادوا في الحق والأجل ، فهذا هو الربا الذي كانوا في الجاهلية يتعاملون به»(١) وقد روي أبو داود وابن ماجة من حديث عمرو بن الأحوص عن أبيه - رضي الله عنه - في خطبة الوداع أن النبي ﷺ قال : « ألا وإن كل ربا من الجاهلية موضوع ، لكم رؤوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون»(٢) .

١- راجع : تفسير الطبرى (٦/ ٢٤) ، وتفسير الفخر الرازي (٤/ ٢٥) .

٢- جزء من حديث رواه أبو داود (٣/ ٢٤٤) ، وابن ماجة (٢/ ١٠١٥) وصححه الألباني .

فهذا النوع من الربا المسمى (ربا النسيئة) هو الذي كان مشهوراً بين القبائل العربية في الجاهلية وكان معروفاً عندهم بهذا الاسم ، قال أبو بكر الجصاص : «والربا الذي كانت العرب تعرفه (أي : قبل الإسلام) وتفعله إنما كان قرض الدراهم والدنانير إلى أجل بزيادة على مقدار ما استقرض على ما يتراضون به»[١] وقد انتقل هذا النوع من الربا إلى العرب في الجاهلية عن طريق تعاملهم التجاري مع يهود الشام ويهود يثرب ، فجاء القرآن الكريم بتحريم هذا النوع بحكم قاطع وصريح لا يحتاج إلى تأويل متأول من أهل الفتنة في زماننا من أدعياء العلم الذين أرادوا أن يُهوِّنوا على الناس ويخففوا عنهم - حسب زعمهم المريض - أمر هذا الربا المُحرَّم والذي يتعامل به كثير من أهل زماننا تحت حجج وتبريرات واهية وساقطة - كما سيأتي - رغم التحريم الواضح بنص القرآن الكريم وبأحاديث النبي ﷺ الصحيحة التي منها ما رواه البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال ، أمن حلال أم من حرام»[٢] قال ابن بطال في شرح هذا الحديث : « نهى الله عباده المؤمنين أن يأكلوا الربا بعد إسلامهم»[٣] .

وقد نهى النبي ﷺ عن البيع بالربا فقد روى مسلم عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال :

«لا تبيعوا الدينار بالدينارين ولا الدرهم بالدرهمين»[٤] بل إن النبي صلوات ربي وسلامه عليه - قد لعن آكل الربا واعتبره من السبع الموبقات فقد روى مسلم وأصحاب السنن عن جابر بن عبد الله وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهم - قالا : لعن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم آكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه»[٥] .

١- أحكام القرآن للجصاص (١/ ٤٦٥) .

٢- صحيح البخاري ، كتاب البيوع ، حديث رقم / ١٩٤١ .

٣- انظر : شرح ابن بطال على صحيح البخاري (٦/ ٢٢٦) .

٤- رواه مسلم في المساقاة ، باب : الربا / ٤١٤٢ .

٥- رواه مسلم في المساقاة ٤١٧٧ ، رواه أبو داود في البيوع / ٣٣٣٥ ، والترمذي / ١٢٤٨ ، وقال : حديث حسن صحيح ، ورواه النسائي في الزينة ٥١٢٠ ، وابن ماجة في التجارات ، باب التغليظ في الربا ٢٣٦٣ .

أما عن عقاب آكل الربا يوم القيامة فقد روي البخاري عن سمرة بن جندب - رضي الله عنه - قال : قال النبي ﷺ : « رأيت الليلة رجلين أتياني ، فأخرجاني إلى أرضٍ مقدسة ، فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم ، وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة ، فأقبل الرجل الذي في النهر فإذا أراد الرجل أن يخرج رمى الرجل بحجر في فيه فردَّه حيث كان ، فجعل كلما جاء ليخرج رمى في فيه بحجر ، فيرجع كما كان ، فقلت : ما هذا ؟ فقال : الذي رأيته في النهر آكل الربا»[1] ومن علامات آكل الربا قبل أن ينزل عليه هذا العذاب الأليم يوم القيامة أنه يقوم - كما وصفهم الحق تبارك وتعالى أنهم ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] قيل : تلك علامة أهل الربا يوم القيامة ، يُبعثون وبهم خَبلٌ (أي : جنون) وقيل : معناه أن الناس يخرجون من الأجداث سِراعاً ، لكن آكل الربا يربو الربا في بطنه فيريد الإسراع فيسقط فيصير بمنزلة المتخبط من الجنون»[2] .

ولذلك كان الربا من السبع الموبقات التي حذرنا منهن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المتفق عليه فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : وما هي يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[3] ، بل إن نبينا العظيم - صلوات ربي وسلامه عليه - قد حذَّر الأمة من عقاب الله - عز وجل - إذا ظهر الربا بين الناس فقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : «ما ظهر في قوم الرِّبا والزِّنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله - عز وجل »[4] وروى ابن ماجة من حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ

١- رواه البخاري في البيوع ، باب : آكل الربا ٢٠٨٥ .

٢- بتصرف من فتح الباري شرح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني (٦/ ٣٩٩) .

٣- رواه البخاري في الوصايا ٢٧٦٦ ، ومسلم في الإيمان ٢٧٢ .

٤- رواه أحمد في المسند ٣٨٨٦ ، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع/ ٥٦٣٤ .

قال : «ما أحدٌ أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمرِهِ إلي قلَّة»[1] أي : ما من أحد أكثر ماله وجمعه من الربا إلا كان عاقبته إلى الخسران ونقصان ماله وقلَّته وذهاب بركته لأن الله - عز وجل - يمحق الربا ويبارك في الصدقات التي تكون من المال الحلال .

مظاهر انتشار الربا واستحلاله في زماننا

ذكرنا آنفاً أن الربا كان منتشراً في الأمم السابقة ثم جاء الإسلام فحرَّمه على أتباعه تحريماً بائناً وأبديًّا بنص آيات القرآن الكريم وبأحاديث الصادق الأمين ﷺ الصحيحة التى ذكرناها آنفاً ، ثم سار على هذا النهج القويم سلف الأمة من الصحابة - رضي الله عنهم - والتابعين وتابعيهم بإحسان وهم خير القرون كما أخبر عنهم ذلك النبي الحبيب ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري عن عمران بن حُصين - رضي الله عنه - قال : قال النبي ﷺ : «خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم» . قال عمران: لا أدري أذَكر النبي ﷺ بعد قرنين أو ثلاثة . قال النبي ﷺ : «إن بعدكم قوماً يخونون ولا يؤتمنون ، ويشهدون ، ولا يستشهدون ، وينذرون ولا يَفُون ، ويظهر فيهم السِّمَن»[2] وفي رواية الترمذي : «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يشهد الرجل ولا يُستشهد ويحلف الرجل ولا يستحلف»[3] قال الحافظ ابن حجر : «واتفقوا أن آخر من كان من أتباع التابعين ممن يقبل قوله من عاش إلى حدود العشرين ومائتين (من الهجرة) ، وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً ، وأطلقت المعتزلة ألسنتها ، ورفعت الفلاسفة رؤوسها ، وامتحن أهل العلم وتغيرت الأحوال تغيُّراً شديداً ، ولم يزل الأمر في نقص إلى الآن»[4] أي : إلى عصر وزمن الإمام ابن حجر العسقلاني الذي تُوفي في أواخر ذي الحجة سنة ٨٥٢ هـ ، فما بالنا والحال في انتقاص وتغيير الأحوال وكثرة الذنوب والمعاصي واشتداد الفتن في هذا العصر الذي نعيش فيه والذي كثرت فيه الأفكار والمعتقدات التي خرجت عن الإجماع والمألوف

١- رواه ابن ماجة / ٢٢٦٥ وصححه الألباني .

٢- رواه البخاري في الشهادات ٢٦٥١ .

٣- رواه الترمذي في الشهادات ٢٤٧٢ وقال : حسن صحيح .

٤- راجع : فتح الباري شرح البخاري لابن حجر العسقلاني (١٠/ ٤٤٥) .

وتأثرت بالأفكار اليهودية والغربية بما فيها التعاملات الربوية التي انتشرت انتشار النار في الهشيم في بلداننا العربية والإسلامية ، وصدق في زماننا قول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي والحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل مثلاً بمِثْل ، حذو النعل بالنعل حتى لو أن فيهم من نكح أُمّه علانية كان في أمتي من يفعل مثله ، إن بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ملّة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلها في النار إلا واحدة» فقيل يا رسول الله : ما الواحدة ؟ قال : «ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[1] ولا إخال إلا أن زماننا هو ذاك الزمن الذي أخبر عنه النبي ﷺ وأشار فيه إلى اتباع أُمة الإسلام لليهود والنصارى (في رواية أخرى للحديث)[2] في كل شيء ، ويا ليت الأمر اقتصر على استيراد وجلب الأشياء غير النافعة بل تعدى ذلك إلى تبعية الغرب في الأفكار والمعتقدات والمذاهب الهدَّامة بما في ذلك المذهب الرأسمالي القائم على الاحتكار والمعاملات الربوية من خلال البنوك والمصارف العالمية التي يسيطر عليها اليهود . ومن المعلوم أن البنوك اليوم هي عبارة عن مؤسسات تقترض من المودعين لكي تُقرض المقترضين ، ويُدفع للمودعين ثمناً محدداً يسمى (الفائدة) على الودائع (قروض إنتاجية) ويتقاضى من المقترضين ثمناً أعلى هو فائدة الإقراض (قروض استهلاكية) ، والفرق بين الفائدتين هو إيرادات البنوك ، فالبنوك تتعامل مع الأفراد في حالتي الأخذ والعطاء للمال بفائدة مشروطة ، وبنسبة في المائة معلومة نظير إقراض المال للأفراد أو استقراض المال من الأفراد ، ومن المعروف أن كل قرض جرَّ نفع فهو ربا .

وقد أجمع الفقهاء على تحريم الزيادة المشروطة على القرض وهي ما يُسمى اليوم بالفائدة وهي تسمية مستحدثة أراد من اخترعها أن يتحايل على الناس في العالم

١- رواه الترمذي في الإيمان ، باب : ما جاء في افتراق هذه الأمة ٢٨٥٣ ، وقال : هذا حديث مفُسَّر حسن غريب ، ورواه الحاكم في المستدرك ، كتاب العلم ٤٠٨ ، والحديث له شواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن [راجع : درء الارتياب عن حديث ما أنا عليه اليوم ،والأصحاب ، تسليم بن عيد الهلالي - الناشر : دارية الراية الرياض] وسوف نفرد الكلام عن هذا الموضوع لاحقاً .

٢- متفق عليه ، وسيأتي تخريجه تباعاً بتفصيل أكثر .

الإسلامي الذين يأنفون من تسمية الأشياء بمسمياتها الحقيقية ولذلك سمَّوا ربا البنوك بفوائد البنوك ولا شك أنه من باب التدليس على المسلمين تسمية الأشياء بغير مسمياتها الحقيقية تماماً كما يُسمي الناس في زماننا الحاضر الخمرة بالمشروب الروحي وقد أخبر الصادق المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه - عن ذلك الأمر فقد روى أبو داود عن أبي مالك الأشعري أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «ليشربن ناس من أمتي الخمر يُسمُّونها بغير أسمها» وكانوا قديماً يسمونها (الدادي) وهو نوع من أنواع الحبوب كان يطرح في النبيذ فيشتد حتى يُسكر[1] ، وفي عصرنا الحالي تسمى الخمر بالمشروبات الروحية ودليلنا رواية الطبراني عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال : إن أمتي يشربون الخمر في آخر الزمان يُسمُّونها بغير أسمها»[2] وروى عن ابن عباس - رضي الله عنهما - موقوفاً ومرفوعاً قال : «يأتي على الناس زمان يُستحل فيه خمسة أشياء : يستحلون الخمر بأسماء يسمونها بها ، والسُّحت بالهدية ، والقتل بالريبة ، والزنا بالنكاح ، والربا بالبيع» قال الشيخ رشيد رضا - رحمه الله ﷺ- : «أما السُّحت الذي هو العطية للوالي والحاكم ونحوهما باسم الهدية فهو ظاهر ، واستحلال القتل باسم الإرهاب الذي يُسميه ولاة الظلم سياسة وأبهة المُلك ونحو ذلك مظاهر أيضاً ، أما عن الربا فلما حَرَّم الله الربا في كتابه وتوعَّد عليه قَرَن تحريمه بحلِّ البيع وحِلِّ التجارة التي هي أعم من البيع ، فعُلم من ذلك أن حقيقة الربا المحرَّم غير حقيقة البيع والتجارة المحللين[3] وبذلك استحل الناس في زماننا الربا وانتشر هذا الانتشار الرهيب على النحو الذي نراه بين الأمم الإسلامية من خلال البنوك والمصارف الربوية المنتشرة بين جنبات وربوع عالمنا العربي والإسلامي مما لم يكن قبل زماننا ، حتى اشتُبه على كثير من الناس الحلال والحرام والتُبس عليهم موضوع الربا ، وقد روى الطبراني

١- سنن أبي داوود ، كتاب الأشربة ٣٦٩٠ ، ورواه الحاكم في المستدرك ٧٣٤٦ وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وصححه الألباني .

٢- رواه الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٣٢٦) حديث رقم ١١٠٦٥ .

٣- بتصرف من مجلة (المنار) المجلد ١٧ ، الجزء ١٠ ص ٧٥٣ ، والمجلد ٣٠ ، الجزء ٨ ص ٥٨٥ .

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «بين يدي الساعة يظهر الربا»[1] .

وقد روى أبو داود عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «ليأتين على الناس زمان لا يبقى أحد إلا أكل الربا ، فإن لم يأكله أصابه من بُخاره»وفي رواية أخرى[2] : «أصابه من غُباره» وهذا الحديث وإن كان فيه ضعف في إسناده كما ذكر الشيخ الألباني - رحمه الله - إلا أن معناه ومبناه ينطبق تمام الانطباق على زماننا الذي نعيش فيه ، وذلك لأن بعض المتسبين لأهل العلم قد أباحوا فوائد البنوك على إطلاقها ، ومنهم أحد المشايخ الذي خالف إجماع علماء الأمة في كثير من فتاويه ومنها فتواه في إباحة فوائد البنوك وقد ردَّ عليه العديد من علماء وفقهاء الأمة الإسلامية ومنهم فضيلة الدكتور أحمد طه ريان أستاذ الفقه المقارن بجامعة الأزهر ، وعضو مجمع الفقه الإسلامي بواشنطن الذي يرى أن القول بفوائد البنوك المحددة سلفاً يتصادم مع النصوص الشرعية في كتاب الله - تعالى - ، وسنة رسوله ﷺ لأن فوائد البنوك هي الزيادة في أحد العوضين خارج عقد البيع ؛ لأن زيادة أحد العوضين في عقد البيع يسمى ربحاً ، وهو حلال ، أم الزيادة في أحد العوضين في القرض ، سواء في البنوك أو غيرها ، فهو الربا ، ولو سمي باسم الفائدة ، سواء كانت محددة أو متغيرة وكذلك الفائدة على الإيداع في البنوك ، فهي فائدة ربوية [3] .

ومن خلال ما سبق يتضح أن التعامل بالربا له مفاسده الواضحة والجليلة في الشريعة الإسلامية والتي تعود تلك المفاسد والمخاطر على صاحبها بسوء العواقب في الدنيا والآخرة والتي من أهمها :

١- رواه الطبراني في الأوسط ٧٩١٠ ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٩) ، وصححه الألباني .

٢- رواه أبو داود في سننه في كتاب البيوع ، والنسائى ٤٣٧٩ ، وضعفه الألباني .

٣- راجع آخر قرار لمجمع البحوث الإسلامية حول قضية فتوى الربا عام ١٩٦٥ م ، والذي أفاد بحرمة فوائد البنوك ، وكلام الدكتور طه ريان نشرته جريدة الأسبوع الصادرة في ٣/ ١١/ ٢٠٠٧م .

١ - الحرب من الله ورسوله، كما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

٢ - إن المتعامل بالربا ملعون من رسول الله ﷺ كما أخبر بذلك في الحديث الذي رواه مسلم الذي ذكرناه آنفاً.

٣ - إن التعامل بالربا يسبب المحق وسحق البركة من الأموال والأرزاق.

٤ - وأخيراً أن من مات ولم يتب من هذا التعامل الربوي سيكون مآله في الآخرة العذاب الأليم يوم القيامة كما أخبر بذلك الصادق المصدوق صلوات ربي وسلامه عليه.

لأجل ذلك كان الربا خطره عظيماً على من يتعامل به لأنه يتنافي مع شرعنا الإسلامي الحنيف لأنه يقوم على استغلال الناس ولأن المرابي لا يراعي المبادئ الأخلاقية التي أقرَّها ديننا الحنيف القائمة على مراعاة الأخوة الإسلامية ومواساة الفقراء من خلال سد حاجاتهم من مصارف الزكاة، والصدقات، وكذلك الكرم والسخاء والإيثار والمواساة وعلو الهمة، وغير ذلك من الصفات العظيمة ومكارم الأخلاق الإسلامية الجليلة التي لو طُبقت في عالمنا الإسلامي لأصبحنا سادة الأمم، ولكن بما أننا في زمن علو الباطل على الحق انتشر هذا الداء اللعين بين ربوع عالمنا الإسلامي بحيث تجد غالب الدول العربية والإسلامية إلا وتتعامل بهذا المبدأ اللعين وهذا النظام الفاسد القائم على سحق الناس وإذلالهم على حساب شرذمة مُرابية فاسدة لا تراعي عهداً ولا ذمة لأحد من الناس، وعلى رأس هؤلاء اليهود ومن يتعاملون معهم ويوالونهم وللأسف هم كثر في زماننا الذي انتشرت فيه التعاملات التجارية القائمة على الربا وهي السمة المميزة لعصرنا الحاضر وخاصة بعد انتشار الأسواق التجارية وتقاربها وهذا ما سنتحدث عنه في الفقرة القادمة.

الإخبار النبوي عن فُشُوُّ التجارة وتقارب الأسواق التجارية :

لا شك أن الحديث عن انتشار التجارة وتقارب الأسواق التجارية والتي تسمى في عصرنا الحاضر (المولات التجارية) - كما سيأتي - أنه من النبوءات التي أخبر بها الصادق المصدوق لأنه قد وقع الكثير مما قاله - صلوات الله وسلامه عليه - حول هذا الموضوع في زماننا الذي نعيش فيه حيث انشغل فيه الناس بالتجارة وتعاملاتها وافتتن الكثير منهم بجمع المال وتكنيزه وتكثيره وصدق في هؤلاء قول - المولى عز وجل - ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران : ١٤] .

فتنافس الناس على الدنيا وتجميع المال وتخزينه وتكديسه ، ولم يبال الكثيرون منهم أجمع هذا المال من حلال أم من حرام ؟ كما أخبر بذلك الحبيب المصطفي - صلوات الله وسلامه عليه - في الحديث الذي ذكرناه آنفاً .

وأمثال هؤلاء هم من استحلوا محارم الله بأدنى الحيل وهم الذين يتعاملون ويتشبهون بغير المسلمين في تعاملاتهم وعاداتهم وتقاليدهم وهؤلاء أصحاب رؤوس الأموال وأغنياء هذه الأمة في عصرنا الحاضر - إلا ما ندر ورحم ربي وعصم - من شرفاء الأغنياء وهم قلة قليلة ، أما الكثرة الغالبة من هؤلاء الأغنياء وأصحاب الأموال من التجار ممن يطلق عليهم اليوم رجال الأعمال الذين يتحايلون على الكسب غير المشروع بكل وسائل المكر والخديعة والحيل العصرية والذين ساروا على نهج اليهود والنصارى فهؤلاء قد أخبر عنهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في كثير من الأحاديث التحذيرية ومع ذلك فقد وقعوا فيما حذَّر منه الصادق المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه - ومن تلكم الأحاديث ما رواه ابن بطة وابن كثير عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدني الحيل»[1] والمحارم : جمع مَحْرَم وهو الممنوع الذي حرَّم الله

---

١ - سبق تخريجه .

فعله ، ومن المعلوم أن اليهود من أبرع الناس في التعاملات التجارية المحرَّمة والقائمة على كل أنواع الغش والخداع والحيل والتعاملات الربوية وخاصة مع غيرهم ممن ليسوا على ديانتهم كما أخبرت بذلك التوراة المحرَّفة والتي تقول : «لا تقرض أخاك بربا .. للأجنبي تقرض بربا» [التثنية : ٢٣] .

وقد تتبع كثير من رجال الأعمال وأصحاب التجارات المختلفة في الشرق الإسلامي خطوات أصحاب رؤوس الأموال في الغرب وتشبهوا بهم في تعاملاتهم التجارية ، بل إن كثيراً من كبار رجال الأعمال من العرب والمسلمين لهم أرصدة كبيرة في البنوك الأمريكية والأوروبية التي تتعامل بالربا الصريح وكل معاملاتهم الاقتصادية قائمة على النظام الربوي وأسلوب الاحتكار ، بل إن منهم من شارك اليهود في تعاملاتهم وتجارتهم وصدق قول الحبيب في أمثال هؤلاء في الحديث الذي رواه النسائي عن عمرو بن تغلب – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ أنه قال : «إن من أشراط الساعة أن يفشو المال ويكثر ، وتفشو التجارة ، ويظهر العلم ، ويبيع الرجل البيع فيقول : لا ، حتى أستأمر تاجر بني فلان ، ويُلتمس في الحي العظيم الكاتب فلا يوجد»[1] .

وقد وقع في زماننا كثير إن لم يكن كل فقرات الحديث سالف الذكر فمن ناحية فشو المال وكثرته فهذا أمر واقع ومشاهد وخاصة بعد ظهور البترول والثراء الفاحش ، وقد شهدت مصر بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير عام ٢٠١١ م المباركة فداحة هذا الثراء عند كثير من ذوي النفوذ من الوزراء ورجال الأعمال الذين جمعوا المال الحرام من كل حدب وصوب وبطرق شيطانية غير مشروعة وفضائحهم وروائحهم فاحت وطافحة ومنشورة على صفحات الجرائد والمواقع الإلكترونية بعد إدانتهم ومحاكمتهم بسبب الكسب غير المشروع .

---

١ – رواه النسائي في البيوع من سننه (٧/ ٢٤٤) وصححه الألباني ، قال السندي : في بعض النسخ (ويظهر الجهل) بسبب اهتمام الناس بأمر الدنيا ، هكذا في بعض النسخ ، وفي كثير من النسخ (ويظهرالعلم) أي : يزول ويرتفع ويذهب عن وجه الأرض . والله أعلم) [راجع : شرح السندي على سنن النسائي ٦/ ١٣٨] .

وأما عن كثرة التجارة وانتشارها فهذا أمر واقع في عصرنا الحاضر أيضاً ولا يجهله إلا جاحد ، فإن التجارة اليوم قد انتشرت انتشاراً لم يسبق له مثيل في الأزمنة السابقة حتى أصبحت التجارة في عصرنا تتداول عبر شبكات الإنترنت الإلكترونية العالمية ، فمن السهل التجارة بين الأفراد والدول عبر تلك الوسائل الحديثة التي لم تكن في القرون السالفة مما ساعد على انتشارها وكثرتها عن ذي قبل ، بل أصبحت المرأة تشارك في التجارة بشكل كبير ، وأصبحن من سيدات الأعمال ، سواء شاركت زوجها أو كانت بمفردها ، وبالطبع ليس المقصود من كلامنا البتة تحريم التجارة سواء للرجال أو النساء ولكن مقصودنا التركيز على الإخبار والإعجاز النبوي من خلال الأحاديث التي تحدثت عما يحدث في زماننا ووقع منها الشيء الكثير ومن ذلك إعانة ومساعدة المرأة زوجها على التجارة ، فإن حدث ذلك في العصور السابقة ووقع فيمن كانوا قبلنا فهو في عصرنا وأيامنا التي نعيشها اليوم أصبح كثيراً ومشهوراً ولا يُنكره أحد ، فقد روى الإمام أحمد والحاكم عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : «بين يدي الساعة : تسليم الخاصة ، وفُشُوُّ التجارة ، حتى تشارك المرأة زوجها في التجارة»[1] وهذا إن دل فإنما يدل على التكالب على الدنيا والسعي الحثيث وراء حطامها ، فهذه المرأة التي تشارك وتعين زوجها على التجارة قلَّ وندر أن تجدها هي نفسها تعين زوجها على طاعة الله - عز وجل - وذلك لافتتانها بالدنيا هي ومن يعولها وانشغالهم بجمع المال وتكديسه وتخزينه ، وتنافسوا على الدنيا ، ولم يبال الكثير منهم بجمع هذا المال من حلال أم من حرام ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ في الحديث الذي سقناه آنفاً ، ولذلك حذَّر رسول الله ﷺ هؤلاء التجار ومن على شاكلتهم ، فعن قيس بن أبي غرزة قال : خرج علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونحن نسمي السماسرة ، فقال : «يا معشر التجار ، إن الشيطان والإثم يحضران البيع ؛ فشوبوا بيعكم

١- رواه الإمام أحمد في المسند (٥/ ٣٣٣) والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٤٥) وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة ٦٤٧ .

بالصدقة»[1] ومعنى فشوبوا أي : اخلطوا بيعكم بالصدقة ، وعن إسماعيل بن عبيد بن رفاعه عن أبيه عن جدِه ، أنه خرج مع النبي ﷺ إلى المصلى ، فرأى الناس يتبايعون ، فقال : «يا معشر التجار»، فاستجابوا لرسول الله ﷺ ورفعوا أعناقهم وأبصارهم إليه ، فقال : «إن التجار يُبعثون يوم القيامة فُجَّاراً إلا من اتقى الله وبرَّ وصدق»[2] ولذلك فالتاجر الصدوق والأمين هو من العملات النادرة والقليلة في زماننا ، لذا فقد بشّره رسولنا الكريم ﷺ ببشرى عظيمة فقد روى الترمذي عن أبي سعيد الخدرِي - رضي الله عنه - عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم - قال : «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصِّديقين والشهداء»[3] وهؤلاء التجار من القلّة القليلة المتواجدة في عصرنا الحاضر الذي انتشرت فيه التجارة الفاسدة القائمة على الاحتكار الحرام والكذب والغش والخداع وهؤلاء صدق فيهم قول - رسولنا الكريم - صلوات ربي وسلامه عليه - في الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن شبل - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ «إن التجار هم الفُجَّار» قيل يا رسول الله ، أوليس قد أحلَّ الله البيع ؟ قال : «بلى ، ولكنهم يُحدِّثون فيكذبون ، ويحلفون فيأثمون»[4] ولذلك فإن الفُجر والكذب وتلكم الأوصاف الذميمة لا تنطبق إلا على التاجر الكاذب ، والذي يحلف على بضاعته الفاسدة على أنها سليمة ليُروِّجها ، وقد نهى الرسول الكريم ﷺ عن الحلف مطلقاً سواء صدقاً أم كذباً فقد روى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «الحلف منفقة للسِّلعة ممحقة للربح»[5] وروى البخاري عن عبد الله بن أبي أوفي - رضي الله عنه - «أن رجلاً أقام سلعة ، وهو في السوق ،

١- رواه الترمذي في البيوع ١١٢٩ ، وقال : حسن صحيح ، وأبو داود (٣/ ٢٤٢) وصححه الألباني .

٢- رواه الترمذي في البيوع ١١٣١ وقال : حديث حسن صحيح .

٣- رواه الترمذي أيضاً في البيوع ١٢٥٢ وصححه الألباني .

٤- رواه أحمد في المسند ١٤٩٨٢ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٣٦٦ .

٥- رواه مسلم في المساقاة / ٤٢٠٩ .

فَحَلَفَ بالله لقد أعطى بها ما لم يُعط ، ليوقع فيها رجلاً من المسلمين ، فنزلت ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَـٰنِهِمۡ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] [آل عمران :٧٧] فإن كان هذا حدث في الأزمنة الأولى فما بالنا ونحن في هذا الزمان الذي كثرت فيه التجارة غير الرابحة والحرام بسبب ما يشوبها من الكذب والخداع وسوء الأخلاق وفساد الذمم وكل ذلك بسبب التكالب والتقاتل على الدنيا ومتاعها الزائل من التجار الذين يتنافسون عليها ويتقاتلون بسببها تقاتل الحُمُر الأهلية ، وعليه فينبغي إعادة النظر بين المسلمين بعضهم ببعض في جميع الأمور والمعاملات وأن يعودوا إلى جادة الصواب والطريق القويم والالتزام التام بتعاليم الإسلام وخاصة إخواننا التُّجَّار الذين إذا التزموا بأخلاق الإسلام السمحة من الأمانة والصدق والرحمة فيما بينهم فلا شك أن تجارتهم ستزدهر وتنمو ويباركها المولى - سبحانه وتعالى - لهم وخاصة إذا أخرجوا زكاة أموالهم عن تجاراتهم وهو فرض لازم وأدوا حق الله في أموالهم ، فهذه هي التجارة الحقيقية مع العاطي الوهاب - سبحانه وتعالى - وهي التجارة الرابحة .

فهيا أيها التاجر المسلم باب التجارة مع الله - عز وجل - على مصراعيه فما عليك إلا أن تلجه وتفتحه ، وأنفق في سبيل الله على الفقراء من أهلك وجيرانك وأهل بلدتك ، وعلى المساكين ، واليتامى ، والأرامل ، فكل هؤلاء يحتاجون إلى من يُنفق عليهم ، فقد أخرج الإمام أحمد عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ «قال الله - عز وجل - يا ابن آدم أَنْفِقْ أُنْفِق عليك»[2] أما من أصرَّ على غيِّه وسار في ركاب التُجَّار الفجار الذين يتاجرون مع شياطين الجن والإنس ويتعاملون بكل أنواع التجارات المحرّمة فهؤلاء لا يلومون إلا أنفسهم لأن هؤلاء التجار الذين يتعاملون بالغش والخداع والاحتكار يعلمون تماماً الفرق بين الحلال والحرام ومع

١- رواه البخاري في البيوع ٢٠٨٨ .

٢- متفق عليه .

ذلك فالغالب الأعم يُبرر لنفسه أكل الحرام عن طريق خداع نفسه أولاً ثم خداع الآخرين وقد روى الشيخان عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مُشتبهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعِرضه ومن وقع في الشُّبُهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يُوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل مَلِكٍ حمى، ألا وإن حمى الله محارمُهُ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صَلَحَت صلح الجسدُ كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب..»[1] قال الإمام النووي: «أجمع العلماء على عظم وقع هذا الحديث، وكثرة فوائده، وأنه أحد الأحاديث التي عليها مدار الإسلام. قال جماعة: هو ثُلُثُ الإسلام، وأن الإسلام يدور عليه، وعلى حديث: «الأعمال بالنيَّة»[2]، وحديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[3]، والأشياء ثلاثة أقسام: حلال بيّن واضح لا يخفى حِلُّه، والحرام بيّن، وأما المُشتبهات فمعناه أنها ليست بواضحة الحل ولا الحُرمة، فلهذا لا يعرفها كثير من الناس ولا يعلمون حكمها وعلى ذلك فيكون من الورع ترك تلك المشتبهات»[4].

أما عن تقارب الأسواق فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تظهر الفتن، ويكثر الكذب، وتتقارب الأسواق»[5] وقد ظهرت الكثير من الفتن في عصرنا الحاضر وكثُر الكذب بين الناس، وتقاربت الأسواق بشكل ملحوظ ولافت للنظر، وأصبح ما يُطلق عليها بـ (المولات التجارية) في كل مكان، وأصبحت أسواق الأرض قاطبة متقاربة بسبب التكنولوجيا الحديثة والتي لم تكن في العصور السابقة، فقد جعلت وسائل الاتصال

١- رواه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ٤١٧٨، واللفظ له.

٢- متفق عليه.

٣- رواه الترمذي في الزهد ٢٤٧٨، ورواه مالك في الموطأ ١٦٣٨ وصححه الألباني.

٤- بتصرف من شرح النووي على صحيح مسلم (٥/ ٤٦٩).

٥- رواه أحمد في المسند (٢/ ٥١٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٦٣٩)/ ٢٧٧٢).

الحديثة الكون كله كقرية صغيرة ، فالطائرات ، والسيارات ، والتقدم التكنولوجي الهائل في الاتصالات من خلال الأقمار الصناعية جعل ممارسة التجارة الآن تتم عبر الإنترنت والهواتف المحمولة وأصبحت تعقد الصفقات وغيرها عبر تلك الوسائل الحديثة ، كل ذلك كان سبباً مباشراً لانتشار التجارة على النحو الذي نراه ونشاهده في عصرنا الحالي ، وهذه التجارة عن بُعد تعني تقارب الأسواق معنويًا من خلال تلك الاتصالات الحديثة ، أما على المستوى الحسيِّ فهذا منتشر بشكل ملحوظ وعلى جميع المستويات وخاصة الأسواق التي تبيع المواد الاستهلاكية فتقارب تلك الأسواق مشاهد ومعاين في جميع الدول العربية والإسلامية ، ولذلك حذَّر النبي ﷺ من الاقتراب من تلك الأسواق ، إلا للحاجة الشديدة والشراء العاجل دون المكوث فيها لفترات طويلة كما يفعل كثير من المتسكعين والمتسكعات الذين يريدون إضاعة الوقت والمال دون وجه حق ، فقد روى الحاكم والطبراني عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – : قال رسول الله ﷺ : «خير البقاع المساجد ، وشر البقاع الأسواق»[1] وفي رواية : «أحسن البقاع إلى الله المساجد ، وأبغض البقاع إلى الله الأسواق»[2] وروى مسلم عن عبد الله ابن مسعود – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «إيَّاكم وهيشات الأسواق»[3] .

والهيشات جمع هيشة وهي الخصومات والمنازعات واللغط وارتفاع الأصوات وهذا ما تتسم به الأسواق قديماً وحديثاً حتى أسواق الكتب أصبحت تعج بها تلك الصفات الذميمة وخاصة ارتفاع الأصوات الغليظة والنشاز التي تُنادي على أسماء الكتب لترويجها وبيعها بين المارة بين أروقة المكتبات وربما نادى بعض هؤلاء الباعة على أسماء الكتب بطريقة خاطئة ومبتذلة وأمثال هؤلاء وصفهم الصادق المصدوق

١- رواه الحاكم في المستدرك (٤/٤٤٦) ، والمعجم الكبري للطبراني (١٥/٤٣٧ حديث رقم ١٧٦٠٩) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٢٧١ .

٢- مسند البزار (٥/ ٧٦ حديث رقم ٣٤٣٠) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٣٢٥ .

٣- رواه مسلم في كتاب الصلاة ١٠٠٢ .

- صلوات ربي وسلامه عليه - في الحديث الذي سقناه آنفاً والذي رواه ابن حبان عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ :

«إن الله يُبغض كل جعظري ، جوَّاظ ، سخّاب بالأسواق ، جيفة بالليل ، حمار بالنهار ، عالم بأمر الدنيا ، جاهل بأمر الآخرة»(١) .

وقد سبق وشرحنا مفردات الحديث ، والشاهد في حديثنا هو : بُغض الله - عز وجل - لهؤلاء الباعة الذين يرفعون أصواتهم في الأسواق لترويج بضاعتهم المزجاة .

فهذه هي صفات أصحاب الأسواق - إلا من رحم الله منهم وعصم - ولذلك كانت الأسواق بحق أبغض البقاع إلى الله - عز وجل - وشرَّها على الإطلاق .

الإخبار النبوي عن ظهور القلم وانتشار الكتابة وهو الظاهر في عصرنا :

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إن بين يدي الساعة : تسليم الخاصة ، وفُشُوَّ التجارة حتى تُعينَ المرأة زوجها على التجارة ، وقطع الأرحام ، وشهادة الزور ، وكتمان شهادة الحق ، وظهور القلم» (٢) .

وقد ظهرت في عصرنا كل تلك العلامات التي ذكرها الصادق المصدوق ﷺ فقد ظهر :

١ - **تسليم الخاصة أي : لا يُلقي الرجل السلام إلا على من يعرفه فقط وهذا مخالف** لمعنى إفشاء السلام ونشره بين الخاصة والعامة من الناس وهذا ما كان يفعله الصحابة ، فيما بينهم ، كما كان يفعل سلف الأمة فإنهم كانوا يتأسون بالحبيب ﷺ في دعوته إلى إفشاء السلام ، فقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تدخلون الجنة حتى تُؤمنوا ، ولا

١- سبق تخريجه .

٢- رواه الإمام أحمد في المسند ٣٩٤٧ ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٢٤٦ - ٢٤٧) ، ورواه البخاري في الأدب المفرد ، باب : من كره تسليم الخاصة ١٠٤٩ .

تُؤمنوا حتى تحابوا أَوَلاَ أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام بينكم»[1] .

وفي زماننا أصبح الرجل لا يُلقي السلام إلا على من يعرف فقط تماماً كما أخبر بذلك الحبيب المصطفى والصادق المصدوق ﷺ في الحديث الذي رواه ابن خزيمة عن سالم بن أبي الجعد ، عن أبيه قال : لقى عبد الله رجل ، فقال : السلام عليك يا ابن مسعود ، فقال عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : صدق رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سمعت رسول الله - عليه السلام - وهو يقول : «إن من أشراط الساعة أن يمر الرجل في المسجد لا يصلي فيه ركعتين ، وأن لا يُسلم الرجل إلا على من يعرف»[2] .

وقد حدث هذا في زماننا مع أن رسولنا العدنان ﷺ قد قال في الحديث المتفق عليه عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - أن رجلاً سأل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أيُّ الإسلام خيرٌ .؟ قال : «تُطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف» قال الإمام النووي : «ومعنى (تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف) أي : تُسلِّم على كل من لقيته ، عرفته أم لم تعرفه . ولا تخص به من تعرفه كما يفعله كثيرون من الناس»[3] . فإفشاء السلام بين المسلمين شعيرة ينبغي نشرها بينهم كما حثنا على ذلك صاحب الشريعة - صلوات ربي وسلامه عليه - تعظيماً وإجلالاً لشعار الإسلام الذي أساسه ومبدؤه : السلام .

ومن العلامات التي ذكرها النبي ﷺ .

٢- فشو التجارة حتى تُعين المرأة زوجها على التجارة: وقد تحدثنا عن هذه النبوءة في الفقرة السابقة .

١- رواه مسلم في كتاب الإيمان ٢٠٣ .

٢- رواه البخاري في الإيمان ١٢ ، ومسلم في كتاب الإيمان من صحيحه ١٦٩ .

٣- راجع : شرح مسلم للنووي (١/ ١١٨) .

ومن العلامات التي ظهرت أيضاً :

٣ - **قطع الأرحام** : وفي عصرنا الذي نعيشه لم تقطع الأرحام فقط بل تفتّتَتْ واندثرت في هذا الزمان العجيب الذي انتشر فيه قطع الأرحام انتشاراً كبيراً ، وقد أمرنا المولى - عز وجل - بصلة الرحم وحذَّرنا من القطيعة فقال عز وجل : ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ۝﴾ [محمد : ٢٢ ، ٢٣] .

وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة تحث على صلة الأرحام منها ما رواه الشيخان عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «من أحبَّ أن يُبسط له في رزقه ، ويُنسأ له في أثره فليصل رحمه»[1] . والبسط في الرزق أي التوسعة والبركة فيه وتكثيره .

وينسأ أى : يؤخَّر له ، والأثر : بقية العُمر والمعنى : من أحب أن يوُسِّع الله - تعالى - له في رزقه ويبارك له فيه ، ويمد له في عمره ويُطيله بقوة في جسده وعافية فعليه أن يصل رحمه .

وأما عن العلامة الرابعة وهي :

٤ - **شهادة الزور وكتمان شهادة الحق** : فإن المحاكم الآن تشهد على انتشار هذه العلامة بين جنباتها حيث انتشرت شهادة الزور وكتمان شهادة الحق حتى وصل الأمر الآن أن بعض من ماتت ضمائرهم وباعوا دينهم بعرض زائل من أعراض الدنيا يقفون أمام المحاكم ليبيعوا شهادتهم الزور لمن لا يعرفونهم ، وقد روى الشيخان عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال : سُئل النبي ﷺ عن الكبائر قال :

« الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، وشهادة الزور» .

---

١ - أخرجه البخاري ، كتاب البيوع ٢٠٦٧ ، ومسلم في كتاب البرو الصلة ٢٥٥٧ .

وفي رواية : «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر». ثلاثاً . قالوا : بلى يا رسول الله - قال : «الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين» . وجلس وكان متكئاً فقال . «ألا وقول الزور» . قال : فما زال يُكررها حتى قلنا : ليته سكت[1] .

وشهادة الزور أصبحت سمة من سمات هذا العصر الذي نعيش فيه على جميع المستويات فهي ليست قاصرة فقط على الشهادة أمام المحاكم ولكن أصبحت ظاهرة في كل مناحي الحياة وعلى مستوى جميع الأعمار .

وأما عن كتمان شهادة الحق فقال الله - عز وجل - : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾ [البقرة : ٢٨٣] ويكفي هذا التحذير الرباني لمن يكتم شهادة الحق ، وهذه العلامة منتشرة في زماننا أيضاً ولا حول ولا قوة إلا بالله ، أما عن العلامة الخامسة والأخيرة وهي الخاصة بفقرتنا فهي :

٥ - **ظهور القلم أي** : كثرة الكتابة وانتشار الكتب وظهور الصحف والمجلات ومن يكتبون فيها ، فهذه العلامة لم تنتشر على مر العصور الإسلامية كانتشارها في عصرنا الذي نعيشه وأصبحت هذه العلامة سمة مميزة لهذا العصر وذلك بسبب توافر وسائل الطباعة الحديثة والنشر التي لم تكن في العصور والأزمنة السابقة ، فظهرت في عصرنا الكتابة والكتب الكثيرة ولكن مع كل هذا الانتشار والكم الهائل من الكتب التي تزدحم بها المكتبات العامة والخاصة إلا أننا نعاني من قلّة القراء حيث أصبح الجهل متفشياً - كما سبق وأشرنا - وحتى قال عنا أحد الإسرائيليين المتوحشين وهو موشي ديان وزير دفاع العدو الإسرائيلي السابق : (إن العرب لا يقرأون وإذا قرأوا لا يفهمون)[2] قد صدق

١- رواه البخاري في الشهادات ، باب : ما قيل في شهادة الزور : ٢٦٥٣ ، ٢٦٥٤ ، ومسلم في الإيمان ، باب الكبائر ٢٧١ .

٢- وكانت هذه العبارة إجابة لوزير دفاع العدو الإسرائيلي موشي ديان عندما ظهر على تليفزيون بريطانيا عام ١٩٦٧ م وعندما وجه له سؤالاً حول : كيف تنشر خطتك المستقبلية في كتابك (مذكرات حملة سيناء ١٩٥٦م) التي ستتبعها في حرب ١٩٦٧ م فتكشفها فيستعدون العرب لمواجهتكم ؟ فقال : إن العرب لا يقرأون !!

وهو كذوب ، حيث إن أصحاب المكتبات يعانون أشد المعاناة من قلّة بيع كتبهم نظير عدم إقبال الناس على القراءة ، حتى المكتبات العامة التي تعتبر القراءة فيها بالمجان تشكو قلّة الزائرين لها ، فمع ظهور القلم وانتشار الكتابة والكتب فالعرب لا يقرأون !! فخطط اليهود مكتوبة ومعلنة وما أدل على ذلك مما هو مكتوب في بروتوكولات خبثاء صهيون والتي تم تنفيذها بكل دقة وعناية فائقة وسط غفلة من العرب الذين لا يقرأون .

ولقد خططت الصهيونية العالمية لإقامة دولة يهودية على أرضنا في فلسطين منذ مؤتمر بازل في سويسرا عام ١٨٩٧م ونفَّذت كل خططها بكل دقة ومهارة بعد ذلك حتى قامت دولة الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨م وسط غفلة من العرب الذين لا يقرأون ، وقد حاولوا ولو معنويًّا تنفيذ وعدهم بإقامة الدولة اليهودية من النيل إلى الفرات ، فهذا علم الكيان الصهيوني يرفرف على ضفاف نهر النيل في سفارتهم التي أقاموها عن عمد في هذا المكان الذي يُطل على النيل ، وها هي سفارة الكيان الصهيوني في المنطقة الخضراء ببغداد والتي تقع على ضفاف نهر دجلة .. وهكذا تحقق الحلم الصهيوني وسط غياب وتآمر عربي وعلى مرأى ومسمع من الجميع ورغم أنفهم وذلك لأن العرب لايقرأون وإذا قرأوا لا يفهمون وأنا أزيد وإذا فهموا لا يُطبقون ، ولكن بعد تلكم الصحوة من الشعوب العربية التي ثارت على حكامها فأنا أُبشِّر العدو الصهيوني بنهايته الوشيكة بإذن الله تعالى على يد أبناء إسماعيل – عليه السلام – المتوضئة[1] فعلامة ظهور القلم قد تحققت ووقعت كما أخبر الصادق المصدوق – صلى الله عليه وآله وسلم فقد روى الطيالسي في مسنده عن عمرو بن تغلب – رضي الله عنه – قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن من أشراط الساعة أن يكثر التُّجار ويظهر القلم»[2] وكما سبق وأشرنا إلى أن معنى ظهور القلم المقصود به انتشار الكتابة بكل أشكالها الدينية والثقافية والعلمية ولكن الأهم من كل ذلك – كما ذكرنا آنفاً – هو القراءة ثم القراءة ثم القراءة .

١– راجع كتابنا : السبي الأخير لبني إسرائيل [الناشر : دار الكتاب العربي ، دمشق – القاهرة] .

٢– مسند الطيالسي ١٢٥٤ .

فصل :

دلائل النبوة ونور البيان في الإخبار النبوي عن افتراق الأمة الإسلامية واتِّباعها لسنن وهَدْي الملل السابقة في هذا الزمان

قبل الاستطراد في الحديث عن هذا الفصل نشير إلى أنه من أهم فصول الكتاب قاطبة وربما يكون من أطول الفصول أيضاً وذلك يرجع إلى أهمية هذا الفصل حيث سنتناول فيه أهم وأخطر قضية من القضايا التي تهم عالمنا العربي والإسلامي والتي أوصلته إلى ما هو عليه الآن من حالة ضعف وذل وهوان نتيجة الفُرقة وتشرذم الأمة وتبعيتها العمياء للغرب المسيحي وذلك من خلال نشر الفكر التغريبي وتغلغله بين أبناء أمتنا العربية والإسلامية منذ عقود من الزمن ،ومفهوم التبعية هو عبارة عن علاقة تنطلق من التابع - الذي هو الغرب المسيحي - إلى المتبوع وهو بالطبع الشرق الإسلامي بدوله العربية قاطبة دون استثناء .. وأما عن مصطلح الفكر التغريبي فالمقصود به هو ذاك التيار الفكري ذو الأبعاد السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية الذي يعتمد على تصورات ومفاهيم وآراء ومذاهب الفكر الغربي ، ويهدف إلى صبغ المسلمين بصبغة الحياة والحضارة الغربية ، ويقوم أتباع هذا الفكر التغريبي ممن اعتنقوه وآمنوا به في الشرق الإسلامي بدعوة عموم المسلمين إلى الإيمان والاعتقاد بهذا الفكر التخريبي التغريبي واتباع سنن (بفتح السين) وهدي أصحاب هذا الفكر من المستشرقين الغربيين الذين يهدفون من خلال كتاباتهم عن الشرق الإسلامي إلى زعزعة الإيمان في نفوس المسلمين عن طريق نشر الفكر التغريبي من خلال أبناء الأمة الإسلامية الذين آمنوا بهذا الفكر الضال ، وهذا لعمرى أهم سبب

عمل عليه المستعمر الأجنبي بعد إخفاقه في حروبه الصليبية أمام المسلمين ، فأراد هذا المستعمر أن ينشر فكره التغريبي من خلال أذنابه من المسلمين الذين تَرعرعوا ونشأوا في أحضان هذا الفكر الضال .

لذا كان هذا الفصل من الأهمية بمكان لفضح هذا الفكر وكشف الستار عن أتباعه في الشرق الإسلامي ..

ذكرنا آنفاً أن من ضوابط فهم الحديث ما ذكره الإمام أحمد بن حنبل – رحمه الله تعالى – بقوله : «الحديث إذا لم تُجمع طُرقه لم تفهمه فالحديث يُفسِّر بعضه بعضاً».

وإذا طبقنا هذه القاعدة على الفقرة التي نحن بصدد الحديث عنها وهي اتباع أمة الإسلام في عصرنا الحاضر للأمم الأخرى سواء في العادات والتقاليد أو الأفكار والمعتقدات والمذاهب الهدامة سنصل حتماً إلى الفهم الواضح وستنجلي الكثير من الحقائق وستضح لنا أسباب تكالبهم واجتماعهم على أمة الإسلام .

وسوف تظهر لنا الحقيقة كاملة حيال هذا الموضوع الهام والخطير .

وبداية سنحاول استقصاء طرق حديث اتباع أمة الإسلام للأمم الأخرى .

روى الشيخان البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – أن النبي ﷺ قال : «لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، حتى لو سلكوا جُحر ضبٍّ لسلكتموه ، قلنا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : فمن» [1] وعند الحاكم عن ابن عباس (رضي الله عنهما) ، قال : قال رسول الله ﷺ: « لتركبن سنن من كان قبلكم شِبراً بشبر ، وذراعاً بذراع حتى لو أن أحدهم دخل جُحر ضب لدخلتم ، وحتى لو أن أحدهم جامع امرأته بالطريق لفعلتموه» [2] .

١- متفق عليه ، رواه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣١٩٧ ، ومسلم في العلم ٦٢٠٥ .

٢- رواه الحاكم في المستدرك في كتاب الفتن والملاحم/ ٨٥٣٥ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥٠٦٧ .

وروى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها ، شِبراً بشبر ، وذراعاً بذراع ، فقيل يا رسول الله كفارس والروم . فقال : «وَمَن الناسُ إلا أولئك»[1] .

وروى الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أُمتي من يصنع ذلك»[2] .

هذه روايات وطُرُق حديث اتباع الأمم جمعناها حسب الاستطاعة من كتب الصحاح والسنن . قال الإمام النووي : «والمراد : الموافقة في المعاصي والمخالفات ، لا في الكفر ، وفي هذه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ فقد وقع ما أخبر به - صلى الله عليه وسلم»[3] وقد نقل ابن بطال عن المهلب قوله : «إن أمته - صلى الله عليه وسلم - قبل قيام الساعة يتبعون المحدثات من الأمور والبدع والأهواء المضلة كما اتبعتها الأمم من فارس والروم ، حتى يتغير الدين عند كثير من الناس ، وقد أنذر - صلى الله عليه وسلم - في كثير من حديثه أن الآخرة شر ، وأن الساعة لا تقوم إلا على شِرار الخلق ، وأن الدين إنما يبقى قائماً عند خاصة من المسلمين ، لا يخافون العداوات ، ويحتسبون أنفسهم على الله - تعالى - في القول بالحق ، والقيام بالمنهج القويم في دين الله»[4] وقال الحافظ ابن حجر : «وقد وقع معظم ما أنذر به - صلى الله عليه وسلم - وسيقع بقية ذلك»[5] وقد وقع بقية ذلك وأكثر منه في عصرنا الحاضر ، حيث لم يكن لليهود دولة أو كيان قائم بذاته في العصور الإسلامية قاطبة ، فهم كانوا متشرذمين ومشتتين بين

١- رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب/ ٧٣١٩ .

٢- رواه الترمذي في الإيمان ٢٨٥٣ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١٣٤٨ وقال : وقع في مستدرك الحاكم (امرأته) بدل (أمه) وهو خطأ من أحد رواته أو نُسَّاخه (٣/ ٣٣٥) .

٣- انظر : مسلم بشرح النووي (١٦/ ٢١٩، ٢٢٠) .

٤- شرح ابن بطال على صحيح البخاري (١٠/ ٤٨٣) وهذا أقرب الأقوال إلى الصواب .

٥- فتح الباري شرح البخاري (١٣/ ٣٠١) .

الأمم الأخرى[1] حتى حدثت نكبة عام ١٩٤٨م والتي استولى فيها اليهود بمساعدة الاستعمار الإنجليزي آنذاك على أرضنا في فلسطين المحتلة ، ولذلك كان التحذير من اليهود من الوقوع في شراكهم واتباع خطواتهم وسننهم وطريقتهم كثير الورود في القرآن والسنة ، ويكفي للدلالة على ذلك أن القرآن الكريم ذكر قصة سيدنا موسى – عليه السلام – في كثير من السور القرآنية ، وتعتبر قصة موسى – عليه السلام – مع قومه من أكثر القصص سرداً في القرآن الكريم وذلك لتحذير الأمة الإسلامية من الوقوع فيما وقعوا فيه فقال الله – عز وجل – ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] والآيات التحذيرية لمخالفة اليهود كثيرة جدًّا في القرآن الكريم .. وأما السُّنَّة النبوية والأحاديث الصحيحة فغزيرة أيضاً من حيث التحذير النبوي للأمة الإسلامية في عدم اتباع وارتكاب اليهود للمعاصي والآثام وعدم التشبه بهم في العادات والاعتقادات فمن ذلك ما ذكرناه آنفاً ورواه الشيخان في التحذير من اتباع سنن من كان قبلنا وهم اليهود والنصارى والسَّنَن : بفتح السين والنون أي : الطريق . ومن ذلك ما رواه ابن بطة عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله ﷺ : «لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»[2] وروى الطبراني عن حذيفة – رضي الله عنه – قال: قلت للنبي ﷺ : «يا رسول الله ، متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهما سيدا أعمال أهل البر ؟ قال : «إذا أصابكم ما أصاب بني إسرائيل» قلت : يا رسول الله ، وما أصاب بني إسرائيل ؟ قال : «إذا داهن خياركم فجّاركم ، وصار الفقه في شراركم ، وصَار الملك في صغاركم ، فعند ذلك تلبسكم فتنة ، تكرّون ويُكرُّ عليكم» وفي رواية : «إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل ، إذا ظهر الادهان في خياركم ، والفُحش في شراركم ، والملك في صغاركم ، والفقه في أراذلكم»[3] وقد ظهر كل ذلك في أمة الإسلام

١- انظر : كتابنا السبي الأخير لبني إسرائيل [الناشر : دار الكتاب العربي – دمشق – القاهرة] .

٢- سبق تخريجه .

٣- المعجم الأوسط للطبراني (١/ ١٤٧ حديث رقم ١٤٨) وقال الهيثمي : فيه عمار بن يوسف ، وثقه العجلي وغيره وضعفه جماعة .

وخاصة في عصرنا الذي نعيش فيه ، فقد رأينا تلكم الأصناف بأم أعيننا ولا زال الكثير منهم يعيشون بين أظهرنا ويعيثون في الأرض فساداً ، وقد ذكر الحاكم في المستدرك أن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنهما - ذكروا عنده قول الله - عز وجل - «﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] فقال رجل من القوم : إن هذا في بني إسرائيل . فقال حذيفة : «نعم الإخوة بنو إسرائيل إن لكم الحلو ولهم المر ، كلا والذي نفسي بيده ، حتى تحذو حذوهم السُّنة بالسُّنة ، وحذو القُذّة بالقُذة»[١] .

وحذو الشيء أي : يُوازيه ويُقابله ويُساويه .

والقُذَّة بالقُذّة : بضم القاف المعجمة وتشديد الذال المعجمة مع فتحها هي : ريش السهم والمقصود أنهم يسيرون على نهج واحد لا يختلفان مع التتابع في الأفعال والأقوال . وهذا هو الحاصل الآن من تتبع غالبية أهل الإسلام وتشبههم بكثير من أفعال وأقوال اليهود والنصارى سواء في العادات والتقاليد أو الاعتقادات والأفكار ، وقد وقع تشبه ومُحاكاة أهل الإسلام - إلا من رحم ربي وعصم - بالأمم الأخرى وخاصة اليهود والنصارى كما أخبر الحبيب المصطفى - صلوات ربي وسلامه عليه - .

- فأمة الإسلام اليوم تحاكي الغرب المسيحي في الملبس والمأكل والمشرب وأدوات الزينة وفي العادات والتقاليد التي لا يعرفها أهل الشرق الإسلامي .
- وأكثر أمة الإسلام تحاكي اليوم اليهود والنصارى في ظهور الإلحاد والاستهزاء بالدين بل ورفضه وإنكاره وهناك مواقع إلكترونية عربية تحمل مسميات الكفر والإلحاد مثل موقع: الملحدون العرب ، والحوار المتمدن ، وهو موقع يساري يهاجم الدين بشدة وعنف .. إلى غير ذلك من المواقع التي تنشر الفكر الإلحادي والكفري بين المجتمعات العربية والإسلامية والتي تبث الكفر البواح والإلحاد التام بين المسلمين الموحدين ..

١- رواه الحاكم في المستدرك في كتاب التفسير ، تفسير سورة المائدة ٣١٧٥ وقال هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

- وأمة الإسلام اليوم تحاكي ما وقع في اليهود والنصارى من التشرذم والفُرقة والخلاف وهو ما يُسمى بالصراع الطائفى أو العرقي ، وقد حذَّرنا رسول الإسلام - صلوات الله وسلامه عليه - من هذا الاختلاف وتلك الفُرقة التي ستقع في أمة الإسلام ، وخاصة فيما وقعت فيه اليهود من الفُرقة والاختلاف .

فقد روى ابن ماجة عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال : قال رسول الله ﷺ : «إن بني إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة وإن أمتي ستفترق على ثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وهي : الجماعة»[١] .

وعند البيهقي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «افترقت اليهود على إحدى أو اثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»[٢] .

وعند الإمام أحمد من حديث معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «إن أهل الكتابين (أي : اليهود والنصارى) افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملَّة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين مِلَّةً - يعنى الأهواء - كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة ، وإنه سيخرج في أمتي أقوام تجاري بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكَلْبُ بصاحبه لا يبقى منه عِرْقٌ ولا مفصل إلا دخله». ثم قال معاوية : والله يا معشر العرب لئن لم تقوموا بما جاء به نبيكم - صلى الله عليه وسلم - لغيركم من الناس أحرى أن لا يقوم به[٣] .

وعند الحاكم عن عوف بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «ستفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة ، أعظمها فرقة : قوم يقيسون

١- رواه ابن ماجه في الفتن ٤١٢٨ ، وصححه الشيخ الألباني .

٢- سنن البيهقي ، كتاب الشهادات (٢/ ١١٠ حديث رقم ٢١٤٢٩) .

٣- رواه الإمام أحمد في المسند من حديث معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنه ١٧٤٠٠ ، وهو في سنن أبي داود ٤٥٩٩ وصححه الألباني .

الأمور برأيهم فيُحرِّمون الحلال ويحللون الحرام»[1] قال أبو سليمان الخطابي - رحمه الله تعالى - في تعليقه على حديث افتراق أمة الإسلام : «وفيه دلالة على أن هذه الفرق كلها غير خارجين من الدين ، إذ أن النبي - صلى الله عليه وسلم - جعلهم كلهم من أمته ، وفيه أن المتأول لا يخرج من الملَّة وإن أخطأ في تأويله»[2] .

فهذه روايات وطُرق حديث افتراق أمة الإسلام وتشبهها ومحاكاتها لليهود والنصارى في افتراقهم إلى فرق شتى ومذاهب متناحرة ، وقد سارت أمة الإسلام على سنن اليهود خاصة ومن تبعهم من النصارى وتفرَّقت الأمة إلى عدَّة فِرق وملل ومذاهب متناحرة فيما بينها ، كل حزب بما لدى تلكم الفرق التي حادت عن طريق الحق فرحون بما لديهم من ضلال وبهتان وهم الخاسرون لأنهم اتبعوا الأهواء فضلوا وأضلوا وصدق الله العظيم إذ قال فيهم : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص : ٥٠] .

وأصحاب الأهواء هم الذين يميلون عن طريق الحق والرشاد وسبيل السداد بغير هدى وبيان من عند الله - عز وجل - واتبعوا أهواء أنفسهم التي زينها لهم الشيطان طاعة له فاتخذوا بذلك الباطل سلوكاً وطريقاً ومنهجاً فاستحقوا بذلك الضلال المبين وخاصة هؤلاء الذين يحملون العلم ممن ختم الله - سبحانه وتعالى - على حواسهم والذين وصفهم المولى - جل وعلا - في قوله : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٣] وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣] وهؤلاء الذين تركوا متابعة الهدى وأقبلوا على متابعة الهوى ، فكانوا يعبدون الهوى كما يعبد الرجل إلهه ، كلما مال طبعه إلى شيء اتبعه وذهب خلفه فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى يعبد كل وقت واحداً منها[3] .

١- رواه الحاكم في المستدرك في كتاب الفتن والملاحم ٨٤٤٣ وقال : هذا حديث صحيح ولم يخرجاه .

٢- راجع : سنن البيهقي (٢/ ١١٠) .

٣- تفسير الفخر الرازي - التفسير الكبير - المسمى : مفاتيح الغيب (١٤/ ٣٢)

ولذلك حذرنا المولى – سبحانه وتعالى – بعدم اتباع أهواء الذين ضلوا وكذّبوا وحرّفوا دينهم من اليهود والنصارى ، فقال – تعالى – : ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٠] وقد حذّر الله – جل وعلا – النبي ﷺ من اتباع أهواء هؤلاء القوم فقال – تعالى – : ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة : ١٢٠] ثم قال النبي – صلوات ربي وسلامه عليه – بتحذير أمته من الوقوع فيما وقعت فيه اليهود والنصارى، فحذرنا ﷺ من الفُرقة والاختلاف ومع ذلك وقعت الأمة الإسلامية فيما وقع فيه اليهود والنصارى فخرجت على أمة الإسلام فرق أضلهم الله على علم فتأولوا الآيات وتقولوا على الله – عز وجل – وعلى رسوله ﷺ وعلى آل بيته – عليهم السلام – وغالت في دين الله – تعالى – أشد المغالاة وتجارت بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه فكانوا كمثل من قال الله – عز وجل – فيهم ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾ [الأعراف : ١٧٥ – ١٧٦] .

ومن صفات الكلب أنه يلهث إن تركته أو طردته ، كذلك هو الحال بصاحب الكلب الذي تتجارى به الأهواء فإن وعظته ضل ، وإن تركته ضل ، فهو كصاحبه وهؤلاء هم الذين وصفهم رسول الله ﷺ في الحديث الذي سقناه آنفاً والذي يقول فيه: «سيخرج في أمتي أقوام تتجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه لا يبقى منه عِرق ولا مفصل إلا دخله»[1] .

ومعنى تتجارى بهم الأهواء أي : تتمايل وتتلاعب بهم الأهواء كما يتلاعب ويتجارى الكلب مع صاحبه .. وقد فسَّر الإمام جعفر الصادق – عليه السلام – معنى الهوى عندما سُئل عن الشيء الذي يُعوَّل عليه المرء فقال : «عقله الذي يرجع إليه فيه» .

---

١ – سبق تخريجه .

قيل له : فأين العقل من الهوى ؟ (وهو كل ما يريده الإنسان ويختاره ويرضاه ويشتهيه ويميل إليه) فقال : «هما جميعاً في وعاء» فقيل له : فأيهما على صاحبه أقوى ؟ قال : «العدل من السلطان عقل ، والجور من السلطان هوى ، والنفس بينهما ، فمن أطاع عقله سدَّده وأرشده ، ومن مال به هواه أضله وأهلكه»[1] .

ولذلك حذَّرنا رسول الله – صلى عليه وآله وسلم – من الوقوع فى تلك الأهواء المضلة فقد روى الإمام أحمد والطبراني عن أبي بَرَذة – رضي الله عنه – أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم – قال : «إن ما أخشى عليكم بعدي : بطونكم ، وفروجكم ، ومُضلات الهوى»[2] ، وروى الطبرانى عن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال لعائشة – رضي الله عنها – : «يا عائشة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا ﴾ [الأنعام : ١٥٩] ، هم أصحاب البدع وأصحاب الأهواء ، ليس لهم توبة ، أنا بريء منهم ، وهم مني براء»[3] وروى الدارمي عن أبي قِلابة أنه قال عن أهل الأهواء : «إن أهل الأهواء أهل ضلالة ، ولا أرى مصيرهم إلا النار ، فجرِّبهم ، فليس أحد منهم ينتحل قولاً أو قال حديثاً فيتناهى به الأمر دون السيف ، وإن النفاق كان ضُرُوباً ، ثم تلا : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ ﴾ [التوبة : ٧٥] ، وقوله – تعالى – : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ [التوبة : ٥٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ ﴾ [التوبة : ٦١] ، فاختلف قولهم واجتمعوا في الشَّكِّ والتكذيب ، وإن هؤلاء اختلف قولهم واجتمعوا في السيف ، ولا أرى مصيرهم إلا النار»[4] ، ولذلك روى الطبراني عن أبي أمامة – رضي الله عنه – أنه قال : «كنا نُسمِّي أصحاب الأهواء : كلاب النار»[5] .

١- شعب الإيمان للبيهقي (١٠/ ١٩٥) .

٢- رواه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ١١٢ – ٥١٢) والإمام أحمد في المسند ٢٠٣٠٤) ، وصححه الألباني في ظلال الجنة ١٤ .

٣- رواه الطبراني في المعجم الصغير (٢/ ١٦٣ حديث رقم ٦٥١) وقال الهيثمي : إسناده جيد [مجمع الزوائد (٦/ ٣٨٦) .

٤- سنن الدارمي (١/ ١١٨) .

٥- المعجم الكبير للطبراني (٧/ ٣١٢ – ٧٩٦٩) والمقصود بكلاب أهل النار : الخوارج – كما سيأتي ذلك على لسان النبي ﷺ .

فأهل الأهواء هم أهل الفُرقة والزلاَّت في الأقوال والأفعال وهم أصحاب الآراء المتضاربة والمذاهب المُضلَّة والأقوال الرديَّة في كل زمان ومكان وفي كل دين من الأديان السماوية التي أراد أصحاب تلك الأهواء أن يُحرِّفوا الكلم عن مواضعه ، وهم كذلك الذين يؤولون النصوص حسب أهوائهم المُضلة ونفوسهم المريضة التي حادت عن الحق واتبعت الباطل ومع التحذير الرباني والقرآني والنبوي من وقوع أمة الإسلام فيما وقعت فيه الأمم السابقة من الفُرقة والاختلاف إلا أن الأمة الإسلامية نالت نصيبها من أصحاب تلكم الأهواء فوقعت في المحذور وتفرقت قديماً وحديثاً إلى فرق شتى ومذاهب مختلفة ، وإذا أردنا أن نصنف أصحاب تلكم الأهواء فيمكن أن نقول إنهم ينقسمون إلى قسمين :

القسم الأول : أرباب الفِرق الضالة التي فرَّقت الأمة الإسلامية إلى فِرق شتي متناحرة ومتقاتلة كالخوارج والقدرية وغيرهما من الفرق سواء التي بادت ولم يعد لها وجود على الساحة الإسلامية في عصرنا الحاضر ، أو التي لا زالت أفكارها وعقائدها موجودة بين ظهرانينا الآن كفكر الخوارج المنحرف أو فِكر الإرجاء أو الفكر المعتزلي الذي يُقدِّم العقل على النص الصحيح الصريح ، أو غير ذلك من الأفكار والمذاهب التي استحضرها البعض الآن واستجلبها من بطون الكتب التي تحمل تلك الأفكار والعقائد المنحرفة التي خالفت مذهب أهل الحق والعدل وهو مذهب أهل القرآن والسنة النبوية الصحيحة ، مذهب أهل السنة والجماعة .

أما القسم الثاني : فهم أصحاب المذاهب والأفكار المنحرفة الذين ينتسبون إلى الإسلام ولكنهم اتبعوا أهواء المذاهب والأفكار الغربية المضلة التي استوردوها من الغرب كالشيوعية والعلمانية والليبرالية والاشتراكية وغيرها من المذاهب والأفكار المعاصرة التي تبناها العديد ممن يُسمون بالمثقفين العرب الذين نهلوا ثقافتهم ومعارفهم من الغرب المسيحي الذي تختلف ثقافته ومعارفه عن ثقافة أهل الشرق الإسلامي اختلافاً جذريًّا ..

ولذلك قبل أن نلقي الضوء على تلكم الفرق والمذاهب المختلفة بشيء من الاختصار غير المُخل نُزيد القارئ الكريم أدلة من القرآن الكريم ومن السنة الصحيحة على خطورة الافتراق والتحذير من التحزُّب والاختلاف ليحيى من يحيى عن بيِّنة ويهلك من يهلك كذلك عن بيِّنة ..

يقول الله - عز وجل - : ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [آل عمران : ١٠٣ - ١٠٥] .

وحبل الله فسَّره رسول الله ﷺ بالقرآن الكريم كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن زيد بن أرقم - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : «ألا وإني تارك فيكم ثقلين أحدهما كتاب الله - عز وجل - هو حبل الله ، من اتبعه كان على الهُدى ومن تركه كان على ضلالة»[1] .

لذا فقد وصَّانا الله - عز وجل - كمسلمين أن نعتصم بهذا الحبل المتين وكذلك بالسُّنَّة النبوية ، كما وصَّانا كذلك رسول الإسلام محمد بن عبد الله ﷺ بذلك في كثير من أحاديثه بالاعتصام بالكتاب والسنة حق الاعتصام ، ففي الاعتصام بهما كل الخير والفلاح للمسلمين ، وفي الفُرقة والاختلاف واتباع الباطل كل الشر والتباغض والتناحر والاقتتال والتشرذم والانشقاق . لذا قال الله - عز وجل - : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٩] وهذا التفرّق والتشرذم علاجه الجماعة والتمسك بصراط الله المستقيم كما أرشدنا ربنا - سبحانه وتعالى - إلى ذلك فقال : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا

---

١ - رواه مسلم في فضائل الصحابة ٦٣٨١ .

فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] وقد روى ابن ماجة والإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : خطَّ لنا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خطاً ثم قال : «هذا سبيل الله ، ثم خطَّ خطوطاً عن يمينه وعن شماله - ثم قال - : هذه سُبُلٌ متفرقة على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه» ثم قرأ : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (١) .

فصراط الله المستقيم هو التمسك بحبله - سبحانه وتعالى - المتين الذي هو القرآن الكريم مع اتباع والتمسك بسنة وبهدي الحبيب - صلوات ربي وسلامه عليه - واقتفاء أثر الصحابة الكرام العدول - رضي الله عنهم - في فهمهم للنصوص القرآنية والأحاديث النبوية من خلال قراءة واقعنا المعاصر الذي نعيش فيه مع الاعتصام بجماعة المسلمين ، كلها وصايا أمرنا الله - عز وجل - التمسك والعمل بها إن أردنا الفلاح والنجاح في حياتنا الدنيا وكذلك هي طريق النجاة والصراط الذي سنعبر به إلى الفوز بالجنة في الآخرة إن تمسكنا بتلكم الوصايا والإرشادات الربانية والنبوية ، فهل نحن فاعلون ؟ أم أننا سنقع في حبائل ومكائد الشيطان اللعين وجنده كما هو الحاصل في أيامنا التي نعيشها اليوم وتعيشها أمتنا الإسلامية من حالة التشتت والتشرذم والفرقة .

إن التمسك بصراط الله - عز وجل - المستقيم ، وبحبله المتين وطاعته - سبحانه وتعالى - وطاعة رسوله - ﷺ - هما النجاة من التنازع والاقتتال فقال - سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٤٦] .

وإن كانت هذه الوصايا قد خصتها تلكم الآيات بالثبات عند لقاء أعداء الله - سبحانه وتعالى - في المعارك والحروب إلا أنها عامة للنجاة من الفتن وعصمة من الوقوع في براثن

١- رواه ابن ماجة في المقدمة ١١ ، والإمام أحمد في المسند ، واللفظ له ٤٢٢٥ ، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة .

الفرقة والاختلاف ، لذا كان النبي ﷺ حريصاً على عدم وقوع أمته في هذا الاختلاف حتى في تسوية الصفوف في الصلاة ، فقد روى أصحاب السنن عن البراء بن عازب - رضي الله عنه - أنه قال : كان رسول الله ﷺ يتخلل الصف من ناحية إلى ناحية يمسح صدورنا ومناكبنا ويقول : «لا تختلفوا فتختلف قلوبكم»[1] فكان أول اختلاف وقع بين المسلمين هو اختلافهم في تسوية الصفوف في الصلاة ، وعندما وقع هذا الاختلاف واعوجت صفوف المصلين فيها وقعت الفتن واختلفت القلوب والوجوه كما في الرواية التي ساقها أبو داود أيضاً عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - يقول : كان النبي ﷺ يُسوِّينا في الصفوف كما يُقوَّم القدح حتى إذا ظنَّ أن قد أخذنا ذلك عنه وفقهنا أقبل يوما بوجهه إذ رجلٌ مُنتبذ بصدره فقال : «لَتُسَوُّنَ صفوفكم أو لَيُخالِفَنَّ الله بين وجوهكم»[2] ، لذا كان الخليفة الراشد والإمام العادل من أشد الأئمة حرصاً على تسوية الصفوف في الصلاة ، فقد روى الإمام مالك والبيهقي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يأمر بتسوية الصفوف ، فإذا جاءوه فأخبروه أن قد استوت ، كبَّر . ورُوى أنه قد كان يُوكِّل رجلاً بإقامة الصفوف ، ولا يُكبِّر ، حتى يُخْبر أن الصفوف قد استوت[3] وقد سار على هذا الهدي الخليفة عثمان بن عفان - رضي الله عنه - من بعده ، فقد روى أيضاً الإمام مالك عن عمه أبي سهيل بن مالك عن أبيه أنه قال : كنت مع عثمان بن عفان (رضي الله عنه) فقامت الصلاة وأنا أكلمه في أن يفرض لي ، فلم أزل أكلمه وهو يُسوِّي الحصباء بنعليه حتى جاءه رجال قد كان وَكَلهم بتسوية الصفوف ، فأخبروه أن الصفوف قد استوت فقال لي : استو في الصف . ثم كبَّر»[4] .

وهكذا كان حرص الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين بالتمسك بهذه الشعيرة النبوية وهي تسوية الصفوف في الصلاة لعلمهم وتأكدهم أن عدم التسوية سوف

١- رواه أبو داود في كتاب الصلاة ٦٦٤ ، وكذلك النسائى ٨١٩ ، وابن ماجة ١٠٢٩ وهو حديث صحيح .

٢- رواه أبو داود ٦٦٣ وصححه الألباني .

٣- رواه الإمام مالك في الموطأ ٣٧٨ ، والبيهقي في السنن ، كتاب الصلاة ٢٣٨٥ .

٤- رواه الإمام مالك في الموطأ كتاب : قصر الصلاة ، باب ، ما جاء في تسوية الصفوف ٣٧٩ .

يؤدي إلى الاختلاف والفُرقة ، وقد وقع ذلك عندما تهاون أئمة الصلاة في الالتزام بهدي واتباع النبي المعصوم ﷺ بتلكم السُّنة النبوية فتفرقت القلوب واختلفت الوجوه ووقعت الفتن .

وليعلم القارئ الكريم أن اختلاف المصلين في تسوية الصفوف هو - كما ذكرنا - أول خلاف وقع بين المسلمين ثم توالت الاختلافات بعد ذلك في الآراء والأقوال والأفعال تترا على المسلمين وافترقت الأمة إلى عدَّة فرق ومذاهب متناحرة ، وسوف نميط اللثام في الفقرة القادمة عن أهم تلكم الفِرق والمذاهب .

القسم الأول : نبذة عن الفرق المنتمية إلى الإسلام ولكنها حادت عن طريق الحق:

ذكرنا آنفاً أن أول خلاف وقع بين المسلمين كان في تسوية الصفوف في الصلاة ، ثم وقع الاختلاف في كيفية قراءة القرآن الكريم بين الصحابة - رضي الله عنهم - والنبي ﷺ بين أظهرهم ، فد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : سمعت رجلاً قرأ آية سمعت من النبي ﷺ خلافها ، فأخذت بيده ، فأتيت به رسول الله ﷺ فقال : «كلاكما محسن» قال شعبة (أحد رواة الحديث وهو من الأئمة الأعلام في علم الحديث) أظنه قال : لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[1] ، ثم حسم النبي ﷺ اختلاف الصحابة في كيفية قراءة القرآن فيما رواه الشيخان البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : «إن هذا القرآن أُنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه»[2] ، وقد فصَّل علماء القراءات ذلك تفصيلاً شافياً واضحاً فيما يسمى بكتب علوم القرآن ، بل إن بعض العلماء تفردوا بكتب خاصة بعلم القراءات كالشيخ أبو طاهر إسماعيل بن خلف بن سعيد النحوي المقرئ الذي ألَّف (العنوان في القراءات السبع) ، والحافظ الجزري الذي ألف (النشر

١- رواه البخاري في كتاب الخصومات ٢٤١٠ .

٢- رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ٤٩٩١ ، ومسلم في صلاة المسافرين ١٩٣٦ .

في القراءات العشر) ، وابن خالويه في كتابه (الحُجة في القراءات السبع) وغير ذلك من الكتب التي شرحت علم القراءات فالحمد لله في الأولى والآخرة الذي هيّأ للأمة هؤلاء العلماء الذين رفعوا شأن القرآن وأزالوا اللبس والخلاف الذي قد يتوهمه البعض أنه حاصل في القرآن الكريم الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] .. فإن كان هذا الحديث الذي روى هذا الخلاف خاص بتلك الحالة إلا أن المعنى عام ويشمل كل أوجه الاختلاف على جميع الأصعدة ، والتحذير من التشبه بالأمم السابقة التي اختلفت فيما بينها في كل شيء فأورثهم هذا الخلاف الفُرقة الشديدة والخصومة واللدد فيما بينهم ،وكل ذلك وقع للأسف في أمتنا الإسلامية وقد فتح باب الفتن على مصراعيه بعد موت الخليفة الثاني عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - .

فقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال : أيكم يحفظ قول رسول الله ﷺ في الفتنة فقال حذيفة : أنا أحفظ كما قال . قال : هات إنك لجريء . قال : قال رسول الله ﷺ : «فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفّرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» قال : ليست هذه ، ولكن التي تموج كموج البحر . قال : يا أمير المؤمنين لا بأس عليك منها ، إن بينك وبينها باباً مُغلقاً . قال يُفتح الباب أو يُكسر ؟ قال : لا ، بل يُكسر . قال : ذاك أحرى أن لا يُغلق . قلنا : عَلِمَ الباب ؟ قال : نعم ، كما أن دون غدٍ الليلة ، إني حدَّثتُه حديثاً ليس بالأغاليط. فهبنا أن نسأله ، وأمرنا مسروقاً ، فسأله ، فقال : من الباب ؟ قال : عمر»[1]
لذا كان أمير المؤمنين والخليفة العادل عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هو الحائط الصد ، والسد المنيع لولوج الفتن واختلاف الأمة وكان هو الباب الموصد أمام ظهور أصحاب الأهواء من الفِرق الضالة والأفكار المنحرفة التي خالفت منهج الإسلام الصحيح وأصحابه وهم أهل القرآن والسنة والجماعة .. لذا كانت أول فرقة ظهرت في الإسلام وثلمت فيه ثلمة لم تندمل إلى الآن ، وهم الذين ألبوا جموعا من المسلمين على

١- البخاري في المناقب ٣٥٨٦ ، ومسلم في كتاب الإيمان ٣٨٦ .

الخليفة الثالث عثمان بن عفان - رضي الله عنه - وحرَّضوا بعض الأعراب والغوغاء ممن لم يتمكن الإسلام في قلوبهم فقاموا بثورة ظالمة على هذا الخليفة الذي راح ضحية هؤلاء الموتورين الذين عاملهم بالهوادة واللين فلم يُثنهم ذلك وعاملوه بكل غلظة وفظاظة واستقبلوا عفو الخليفة وحلمه بالخديعة والغدر والمؤامرة والثورة وإشعال الفتن في الأمصار وتقليب الناس وإثارتهم على خليفة المسلمين فكان لهم ما أرادوا وقتلوا الخليفة ظلماً وعدواناً فكانت أشرّ فتنة وقعت في الأمة الإسلامية وكانت أول فرقة ظهرت في الإسلام تحمل أفكاراً تخالف أفكار وأصول الإسلام وكانت تلك الفرقة هي :

١ - السبئية : وهم أصحاب رجل من يهود اليمن يُدعي عبد الله بن سبأ الحميري من أهل صنعاء ، أسلم لا رغبة في الإسلام ولكن ليُغر المسلمين بإسلامه فيفسد أمورهم ويُغري بينهم ، أسلم زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ثم أخذ يتنقل بين الأمصار الإسلامية ، ويحاول إثارة الفتن والقلاقل بأفكاره المنحرفة التي كان يطلقها بين الفينة والأخرى فبدأ بالحجاز ثم بالبصرة ثم الكوفة ثم الشام فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام لوجود العديد من الصحابة - رضي الله عنهم - الذين كانوا ينفرون من أقواله وأفكاره الضالة ويردون عليه تلك الأفكار ويصححون للناس أصول اعتقادهم ، يقول الطبري عن عبد الله بن سبأ «حتى أتى مصر فقال لهم : العجب ممن يُصدِّق أن عيسى - عليه السلام - يرجع ويُكذِّب أن محمداً ﷺ يرجع ، فهو أول من قال بالرجعة في الإسلام ، ثم قال بعد ذلك : إنه كان لكل نبيّ وصيٌّ ، وعلي - عليه السلام - هو وصي محمد ﷺ ، ثم قال : محمد ﷺ خاتم الأنبياء وعلي (عليه السلام) خاتم الأوصياء . ولا زالت تلك الأفكار الغريبة على الإسلام تتعلق بها بعض فرق الشيعة حتى الآن وتعتقد بالرجعة والوصية ، ثم ادعى هذا الكذاب الأشر بعد ذلك أن عثمان - رضي الله عنه -قد أخذ الخلافة بغير حقها وسعى إلى إشعال الفتن وإثارتها بين المسلمين فآمن بدعوته بعض من أظهروا الإسلام وأضمروا الكفر والحقد على الإسلام والمسلمين فبدأوا بغرس بذرة الغلو والتطرف في الإمام علي - عليه السلام - وآل بيته خاصة .

ولذلك فهذه الفرقة هي أول فرقة وضعت بعض العقائد والأفكار المخالفة لأصول واعتقاد أهل الإسلام كالقول بالرجعة والوصية والنص على الإمام علي - عليه السلام - فعندما قُتل الإمام علي بن أبي طالب - عليه السلام - زعم ابن سبأ أن المقتول ليس عليًّا ، وإنما كان شيطاناً تصوّر للناس في صورة علي - عليه السلام - وأن عليًّا صعد إلي السماء كما صعد عيسى ابن مريم - عليه السلام - إليها . ثم غالى السبئية في علي - عليه السلام - فزعموا أنه في السحاب وأن الرعد هو صوته ، والبرق سوطه إلى آخر هذه الترهات والخزعبلات والضلالات التي ابتدعتها هذه الفرقة الضالة وحكت عنها كتب التاريخ والسير[١] .

٢ - الخوارج : وهم الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب - عليه السلام - وقاتلهم في معركة النهروان ، وقد اجتمعت طوائف تلكم الفرقة الضالة على تكفير الإمام علي بن أبي طالب - عليه السلام -[٢] وأجمعوا كذلك على أن كل من اقترف كبيرة من الكبائر فهو كافر مُخلَّد في النار ، ومن لم يقل بكلامهم ويؤمن بأفكارهم ومقالاتهم فهو كافر حلال الدم ، وأن دار مخالفيهم من المسلمين اعتبروها دار كفر حتى لو أقيمت فيها شعائر الإسلام .. وقد ظهرت في عصرنا الحاضر جماعة وانبثقت عنها جماعات أخرى تقول بقول سلفهم الطالح من الخوارج الضالين كقولهم بتكفير مرتكب الكبيرة وأنه من المخلدين في النار ، وتكفير مخالفيهم من المسلمين الذين لا يقولون بقولهم ومن أشهر تلك الجماعات المعاصرة التي كانت تؤمن بتلك الأفكار والمعتقدات الخاطئة جماعة شكرى مصطفى أو ما يُطلق عليها جماعة التكفير والهجرة والتي لها ذيول إلى الآن ، ولذلك كانت فرقة الخوارج ومن قال بمقالاتهم من أكثر الفرق التي حذَّرنا منها رسولنا الكريم - صلوات ربي وسلامه عليه - فقد روى

١- راجع : تاريخ الطبري (٢/ ٦٤٧) والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٣٤ ، وكتابنا اليهود المتخفون وأثرهم في المسيحية والإسلام ص ٣٢٩ .

٢- راجع : مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ص ٢٢ ، والنهروان : نهر يقع بالقرب من بغداد [راجع معجم البلدان لياقوت الحموي (٤/ ٢٦٠)] .

البخاري في باب : قتل الخوارج بعد إقامة الحُجَّة عليهم وقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة : ١١٥] ، وكان ابن عمر (رضي الله عنهما) يراهم شِرار خلق الله ، وقال إنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين ، فعن أبي سعيد (الخُدري) قال : بينا النبي ﷺ يُقسِّم جاء عبد الله بن ذي الخُويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله . فقال : «ويلك من يعدل إذا لم أعدل» . قال عمر بن الخطاب : دعني أضرب عنقه . قال : «دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاته ، وصيامه مع صيامه ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرَّميَّة ، يُنظر في قذذه[١] فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنظر في نصله[٢] فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنظر في رِصافه[٣] فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنظر في نضيّه[٤] فلا يوجد فيه شيء ، قد سبق الفَرْث والدم ، آيتهم رجلٌ إحدى يديه - أو قال ثدييه - مثل ثدي المرأة - أو قال مثل البَضعة - تُدردر[٥] ، يخرجون على حين فُرقة من الناس» . قال أبو سعيد : أشهد أني سمعت من النبي ﷺ وأشهد أن عليًّا قتلهم وأنا معه ، جيء بالرجل على النَّعت الذي نعته النبي ﷺ[٦] .

وروى البخاري ومسلم عن يُسَيْر بن عمرو قال : قلت لسهل بن حنيف (رضي الله عنه) هل سمعت النبي ﷺ يقول في الخوارج شيئاً قال : سمعته يقول - وأهوى بيده قِبَل العِراق - «يخرج منه قوم يقرءون القرآن لا يُجاوز تراقيهم ، يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرَّميَّة»[٧] .

١- القَذَذ : جمع قُذَّة وهي ريش السهم .
٢- نصل السهم : بفتح النون وسكون الصاد المهملة هو : حديد السهم ، وإذا أضيف له مقبض فهو حديدة السيف [راجع : لسان العرب (١١/ ٦٦٢)] .
٣- الرصاف : بكسر الراء هو : مدخل النصل في السهم .
٤- النَضيّ : بفتح النون والضاد المعجمة وتشديد الياء هو : السهم بلا نصل ولا ريش ، أو هو ما بين السهم وريشه .
٥- البضعة : بفتح الباء الموحدة : قطعة اللحم ، تُدردر : بضم التاء وبدالين وراءين مهملات أى : تضطرب ، والدردرة : صوت إذا اندفع سُمع له اختلاط .
٦- رواه البخاري واللفظ له في استتابة المرتدين ٦٩٣٣ ، ومسلم ٢٠٥٥ .
٧- رواه البخاري ٦٩٣٤ ، ومسلم ٢٥٠٣ .

وروى مسلم عن عُبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أن الحرورية[1] لما خرجت وهو مع علي بن أبي طالب - عليه السلام - قالوا : لا حكم إلا لله . قال عليٌّ : كلمة حق أُريد بها باطل . إن رسول الله ﷺ وصف ناساً إني لأعرف صفتهم في هؤلاء «يقولون الحق بألسنتهم لا يجوز هذا منهم - وأشار إلى حلقه - من أبغض خلق الله إليه، منهم أسود إحدى يديه طُبْي شاة[2] أو حَلَمَة ثدي» . فلما قتلهم علي بن أبي طالب - عليه السلام - قال : انظروا : فنظروا فلم يجدوا شيئاً . فقال : ارجعوا ، فو الله ما كذبت ولا كَذبت . مرتين أو ثلاثاً ، ثم وجدوه في خربة فأتوا به حتى وضعوه بين يديه) . وفي رواية : فالتمسوه فلم يجدوه فقام علي - عليه السلام - بنفسه حتى أتى ناساً قد قتِل بعضهم على بعض قال أخِّروهم . فوجدوه مما يلي الأرض فكبَّر ثم قال : صدق الله وبلَّغ رسوله . فقام إليه عبيدة السلماني فقال يا أمير المؤمنين : الله الذي لا إله إلا هو لسمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ فقال : إي والله الذي لا إله إلا هو . حتى استحلفه ثلاثاً وهو يحلف له[3] . وهؤلاء هم (الحرورية) من الخوارج الذين خرجوا على الإمام علي بن أبي طالب - عليه السلام - فقاتلهم واستأصل شأفتهم إلا أن أفكار هؤلاء القوم انتقلت من جيل إلى جيل حتى وصلت عصرنا الحاضر فخرجت جماعة على أصول واعتقاد مذهب أهل السنة والجماعة وقالت بتكفير مخالفيها وتبنت أفكار ومعتقدات تلكم الفرقة الضالة التي حذرنا منها رسول الله ﷺ وقد حذرنا منهم أيضاً فقد روى أبو داود ومسلم عن علي بن أبي طالب - عليه السلام - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «سيخرج في آخر الزمان قومٌ أحداث الأسنان ، سفهاء الأحلام ، يقولون من خير قول البريَّة يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدِّين كما يمرق السهم من الرَّميَّة ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة»[4] وقد أعلمنا رسولنا الحبيب ﷺ

١- حروراء هو موضع بظاهر الكوفة بالعراق نُسبت إليه الحرورية وهم من أراذل فرق الخوارج .

٢- طُبي شاه المراد به : ضَرع الشاة .

٣- رواه مسلم في باب التحريض على قتل الخوارج ٢٥١٦ ، ٢٥١٧ .

٤- رواه مسلم في باب التحريض على قتل الخوارج ٢٥١١ ، وأبو داود في باب قتال الخوارج ٤٧٦٩ .

بعلامة مميزة لهؤلاء الخوارج لكي نتعرف عليهم بسهولة ويُسر ، فعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - : «قيل ما سيماهم» قال ﷺ «سيماهم التحليق» أو قال : «التسبيد»[١] والتسبيد هو: استئصال الشعر والتحليق حلق شعر الرأس بالموسي ، ولذلك كرِه فقهاء الإسلام حلق الشعر بغير حاجة لعدم التشبه بالخوارج . قال الكرماني : «ولا يستلزم أن كل من كان محلوق الرأس فهو من الخوارج وقد كان السلف لا يحلقون رؤوسهم إلا للنُّسك أو في الحاجة ، والخوارج اتخذوه ديدناً ، فصار شعاراً لهم وعُرفوا به ، وقيل : ويحتمل أن يُراد حلق جميع شعر الوجه سواء اللحية والشارب مع حلق شعر الرأس»[٢] والقول الأول هو الأصوب ، لأن العرب قديماً كانوا يعتبرون اللحية من الفِطرة وكانوا يتندرون بمن يتشبهون بالأعاجم في حَلق لحاهم ، وعندما جاء الإسلام أكد رسول الله ﷺ على تلكم الفطرة وأمر أمته بمخالفة الأعاجم في ذلك وقد جاءت كثير من أحاديثه الشريفة لتؤكد على هذا المعنى ، فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ «خالفوا المشركين أحفوا الشوارب وأوفوا اللحى»[٣] لذا كانت علامة فرقة الخوارج وسيماهم الأكيدة حلق شعر الرأس وإطلاق اللحى ، والله أعلم .

٣ - القدرية : ثم ظهرت بدعة فرقة القدرية في آخر أيام الصحابة - رضي الله عنهم - وكانت على يد رجل يُدعي : معبد الجهني[٤] وهو أول من قال بالقدر في مدينة البصرة بالعراق وسار على دربه ومنهجه بعض من اقتنعوا بنفي القدر وإنكار الخبر

١- رواه البخاري ٧٥٦٢ .

٢- بتصرف من فتح الباري شرح البخاري (٢١/ ١٦٢) ، وعمدة القاري شرح البخاري للعيني (٣٦ ٢٦١) .

٣- رواه مسلم في باب خصال الفطرة ٦٢٥ .

٤- هو محمد بن عبد الله الجهني أول من قال بالقدر ، خرج مع ابن الأشعث على الحجاج بن يوسف الثقفي فقتله الحجاج صبراً بعد أن عذَّبه ، وقيل : صلبه عبد الملك بن مروان بدمشق على القول بالقدر ثم قتله ، توفي سنة (٨٠ هـ ٦٩٩م) [راجع : تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني (١٠/ ٢٢٥) ، ميزان الاعتدال للحافظ الذهبي (٣/ ١٨٣) ، وقال عنه ابن أبي حاتم : كان معبد الجهني رأساً في القدر ، قَدِمَ المدينة فأفسد بها ناساً ، وقد وثقه يحيى بن معين] الجرح والتعديل (٨/ ٢٨٠) .

والشر إلى القدر ، وعلى رأس هؤلاء : غيلان الدمشقي[1] ، ويونس الأسواري[2] ، ثم نسج على منوالهم العديد من الفرق الأخرى فتصدى لهم كثير من التابعين الأوائل وعلى رأسهم الحسن البصري ومن تبقى من كبار الصحابة الذين سمعوا من النبي ﷺ القول الفصل في تلكم الطائفة الضالة منها ما رواه أبو داود والإمام أحمد عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال «القدرية مجوس هذه الأمة ، إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[3] وروى الطبراني عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «صنفان من أمتي لا يردان على الحوض ، ولا يدخلان الجنة : القدرية ، والمرجئة»[4] وروى أبو داود والحاكم عن نافع قال : كان لابن عمر - رضي الله عنهما صديق من أهل الشام يُكاتبه ، فكتب إليه عبد الله بن عمر إنه بلغني أنك تكلمت في شيء من القدر ، فإياك أن تكتب إليَّ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إنه سيكون في أمتي أقوام يُكذِّبون بالقدر»[5] .

١- هو : غيلان بن مسلم الدمشقي ، أبو مروان ، تُنسب إليه فرقة (الغيلانية) من القدرية ، وهو ثاني من تكلم في القدر بعد معبد الجهني ، قال الحافظ ابن حجر : قال الساجي عن غيلان : كان قدريًّا داعية ، دعا عليه عمر ابن عبد العزيز فقتل وصلب وكان غير ثقة ولا مأمون ، وكان الإمام مالك - رحمه الله - ينهي عن مجالسته ، وكان الإمام الأوزاعي هو الذي أفتى بقتله ، وقال فيه رجاء بن حيوة: قتله أفضل من قتل ألفين من الروم [راجع : لسان الميزان (٢/ ٢٨٦)] .

٢- يونس الأسواري : اختلفوا في تسميته ، فقال العقيلي : «أول من تكلم في القدر معبد الجهني ، ورجل من الأساورة يقال له : سيصوه وكان حقيراً» [الضعفاء للعقيلي (٤/ ٢١٨] وقال عنه ابن أبي حاتم : (سيسويه زوج أم موسي الأسواري .. سمعت أبي يقول عنه : هو مجهول) [الجرح والتعديل ٤/ ٣٢٦] وقال ابن عساكر عن ابن عون أنه قال : « كان أول من تكلم في القدر معبد الجهني وقال ابن عساكر عن ابن عون أنه قال: «كان أول من تكلم في القدر معبد الجهني ورجل من الأساورة يقال له سيسويه وكان حقيراً» . [تاريخ دمشق (٥٩/ ٣١٩] .

٣- رواه أبو داود في السنة ، باب في القدر ٤٦٩٣ ، والإمام أحمد في المسند ٥٧١٧ ، والحاكم في المستدرك ٢٦٢ وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، وحسَّنه الألباني .

٤- رواه الطبراني في الأوسط (٩/ ٤٠٧ حيث رقم ٤٥٥) ، والطبري في تهذيب الآثار ١٩٦٩ .

٥- رواه أبو داود ٤٦١٥ ، والحاكم في المستدرك ٢٦١ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٣٠٦٥ .

وروى أبو داود وأحمد عن زيد بن ثابت وأبي بن كعب وحذيفة بن اليمان وعبد الله ابن مسعود - رضي الله عنهم - أنهم قالوا : «لو أن الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته لهم خير من أعمالهم ، ولو أنفقت مثل أُحد ذهباً في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر ، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك ، ولو مت على غير هذا لدخلت النار»[١].

وروى الترمذي عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبدٌ حتى يؤمن بالقدر خيره وشره ، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه»[٢] .

وروى الإمام مالك في الموطأ عن سهيل بن مالك أنه قال : كنت أسير مع عمر بن عبد العزيز فقال : ما رأيك في هؤلاء القدرية ؟ فقلت : رأيي أن تستتيبهم ، فإن تابوا وإلا عرضتهم على السيف ، فقال عمر بن عبد العزيز وذلك رأيي . وقال مالك : وذلك رأيي[٣] . قال جماعة من أهل العلم أن القدرية سُمُّوا بذلك لأنهم نفوا القدر ، وقال قوم : سُمّوا بذلك لأنهم ادعوا أن لهم قدرة على خلق أفعالهم ، ونفوا قدرة الباري - سبحانه وتعالى - عليها ، تعالى الله عما قالوا علوًّا كبيراً . قال عبد الملك بن المجشون (أحد كبار علماء المذهب المالكي) : ويدِّعي القدري أن الأمر إليه ، وأنه ما شاء فعل هو وأنه يريد أن يعصى ، وأن الله - تعالى - يريد أن يُطيع فيكون ما أراد هو ، ولا يكون ما أراد الله - عز وجل ، ولذلك قال أئمة الإسلام إن توبة القدري تركه ما هو عليه (أي : القول بنفي القدر) قال الإمام مالك : ومن لم يتب منهم قُتِلَ وإن كانوا جماعة»[٤] . وقال ابن عبد البر : ومذهب مالك وأصحابه أن القدرية يُستتابون . قيل لمالك : كيف يُستتابون ؟ قال : يُقال لهم : اتركوا ما أنتم عليه وانزعوا عنه»[٥] .

١- رواه أبو داود ٤٧٠١ ، وأحمد في المسند ٢٢٢١٠ وصححه الألباني .
٢- رواه الترمذي في باب : القدر/ ٢٢٩٤.
٣- موطأ الإمام مالك ، كتاب القدر ، باب : النهي عن القول في القدر/ ١٦٣١ .
٤- المنتقى لابن الجارود (٤/ ٢٨١) .
٥- الاستذكار لابن عبد البر (٨/ ٢٦٨) .

فمن قال بقول هؤلاء القدرية استحق العذاب والخسف والمسخ كما روى الترمذي عن ابن عمر - رضي الله عنهما - جاءه رجل فقال إن فلاناً يقرأ عليك السلام . فقال له: إنه بلغني أنه قد أحدث ، فإن كان قد أحدث فلا تُقرئه مني السلام فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يكون في هذه الأمة خسف ومسخ أو قذف في أهل القدر» وفي رواية : «يكون في أمتي خسف ومسخ وذلك في المكذبين بالقدر»[1] .

وروى ابن بطة عن ابن محيريز أن رسول الله ﷺ قال : «إن أخوف ما أتخوفه على أمتي آخر الزمان ثلاثاً : إيماناً بالنجوم ، وتكذيباً بالقدر ، وحِيفَ السلطان»[2] وقد وقع كل ذلك في عصرنا الحاضر ، فكثير من الناس يؤمنون اليوم بطوالع النجوم أو بما يسمى (حظك اليوم) أو (توقعات بُرجك اليوم) وقد حاز هذا النوع من الدجل على اهتمام عدد غير قليل من المسلمين وخاصة في مجتمعاتنا العربية التي سرعان ما انتقلت إليها هذه العادة السيئة من الغرب المُولع بمثل هذه الترهات لفراغهم الروحي والعقيدي .

وأصبحت هذه الخزعبلات تُمثِّل عند شريحة كبيرة من المثقفين للأسف بؤرة اهتمام كبيرة بحيث إن بعضهم ربما لا ينزل من بيته إذا قرأ أن برجه لا يُبشِّره بخير في ذاك اليوم ، وأصبحت الجرائد والصحف والمجلات لا تخلو من ركن (حظك اليوم) بل أصبح لهذا العلم الدجلي مواقع إلكترونية خاصة به وكتب تباع ويُقبل على شرائها كثيراً من السُّذج الذين يعتقدون بتصديقها والإيمان بها ظانين أن تأثير النجوم له علاقة وطيدة مع ذواتهم وشخصياتهم وأن هناك سمات شخصية تربط بين صاحب أو صاحبة الشخصية بذاك البرج .

وقد ساعد على انتشار هذا الدجل أن كثيراً من وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة تستضيف في مطالع كل عام ميلادي جديد بعض هؤلاء الذين يزعمون

١- رواه الترمذي في كتاب القدر ٢٣٠٥ ، ٢٣٠٦ ، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي .

٢- رواه الطبراني في المعجم الكبير (٢/ ٢٩٤ ١٨٢) ، ومسند أبي يعلى الموصلي (٣/ ١١٨ - ١١٢٧) ، وهو في الإبانة الكبرى لابن بطة (٤/ ٦٥ ١٥١٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٣/ ١١٨ ١١٢٧) .

أنهم خبراء في علم الأبراج وقراءة الطالع والحفظ وتأكيد هؤلاء المشعوذين أن هذا علم وجزء من علوم الفلك ، وهذا لعمري بعيد كل البعد عن هذا العلم الجليل ولا علاقة له البتة بدراسة علم الفلك الدراسة الأكاديمية العلمية التي تعود على الإنسانية بكثير من المنافع وخاصة بعد التقدم العلمي والتكنولوجي الهائل الذي نعيشه في عصرنا الحاضر ، فالإيمان بالنجوم ما هو إلا إيمان بالكهانة والدجل والشعوذة وليس له علاقة بعلم الفلك ولا بشرعنا الإسلامي الحنيف ، ولذا حذَّر النبي المعصوم - صلوات ربي وسلامه عليه - أُمته في آخر الزمان منه كما ورد آنفاً وذلك لأنه يخالف صريح الإيمان بالله - عز وجل - وبقضائه وقدره ، لأن الذين يؤمنون بمثل هذه الترهات والخرافات لابد حتماً وأنهم يُكذبون بالقدر وذلك لأن فكرة ربط ما يسمى بحظوظ الناس وما يحدث لهم بالطالع وعلاقته بالنجوم بحسب تواريخ ميلادهم هي فكرة جاهلية واعتقاد شركي وهذا دليل قطعي على فراغ إيماني وعقدي لكل من يؤمنون بمثل هذه الأفكار الغريبة على مجتمعاتنا العربية والإسلامية وهذا دليل قاطع على اتباع الأمة الإسلامية لسنن الأمم الأخرى من اليهود والنصارى وغيرهم الذين يؤمنون ويعتقدون بالإيمان بالنجوم ، ولذلك كانت علاقة الإيمان بالنجوم والتكذيب بالقدر مرتبطتان «فالناس إذا صدَّقوا بتأثيرات النجوم مع قصور نظرهم على الأسباب القريبة السافلة والانقطاع عن الترقي إلى مسبب الأسباب هلكوا بلا ارتياب ، فمعرفة الأسباب من حيث كونها معرفة غير مذمومة لكنها تجر إلى الإضرار بأكثر الخلق والوسيلة إلى الشر ، فلما نظر المصطفى ﷺ إلى ما يتولد منه من الشر خاف على أمته منه وفيه كمال شفقته عليهم ونظره بالرحمة إليهم»[1] صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آل بيته - .

وأما الصنف الثالث الذي خاف النبي ﷺ على أمته منهم فهو : (حيف السلطان) أي : جوره وظلمه وطغيانه وعسفه وهم الحكام الذين حادوا عن الحق والعدل في كل زمان ومكان ، ضد الشعوب الضعيفة التي عانت من ويلات وقهر تلكم الحكومات

---

١ - فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي (١/ ٢٦٤).

التى أفسدت وأبادت الحرث والنسل بل أفسدت الماء والهواء فاستحقت الذلة والصغار وشربت من نفس الكأس التي أذاقت بها شعوبها وصدق الله العظيم في هؤلاء قوله تعالى : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ [آل عمران : ٢٦] وجزى الله - عز وجل - نبينا وعظيمنا محمد بن عبدالله ﷺ الذي خاف على أُمته فحذرها من تلك الأصناف في آخر الزمان .

والحاصل أن فرقة القدرية التي كذَّبت بالقدر وما تبعها من طوائف كالمعتزلة وغيرها لا زالت أفكار تلك الطوائف المنتسبة لتلك الفرقة تعشش في أذهان وأفكار كثير ممن ينتسبون إلى طائفة المثقفين الذين نهلوا ثقافتهم من الغرب فتأثروا بتلك الثقافات فأعملوا عقولهم المريضة في النصوص الصريحة والصحيحة فضلوا وأضلوا . لذا وجب التنبيه وبشدة على خطورة تلك الفرقة وطوائفها وقد آثرنا عدم الخوض في التفاصيل عن تلكم الفرقة وطوائفها وتركنا ذلك للقارئ الكريم الذي يريد زيادة معرفة ليرجع إلى كتب الأصول والاعتقاد والفِرَق المخالفة لمنهج أهل الحق والعدل أهل القرآن والسنة والجماعة التي فضحت كثير من أفكار واعتقادات تلك الفرق الضالة وكشفت وأزاحت الستار عن شذوذ أفكارهم وشرود اعتقاداتهم فإليها المرجع والمآب فستجد فيها عزيزي القارئ ما يُطمئن قلبك ويريح نفسك إلى جادة الحق والصواب .

٤ - فرقة المرجئة : وهي من الإرجاء أي : المُهلة والتأخير . فقيل إن المرجئة سُميت بذلك لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد .

وقيل أيضاً إنهم قالوا : لا تضُر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة وأن صاحب الكبيرة (أي : الذي يرتكب الكبائر ، كالزنا والسرقة .. إلخ) يؤخر[١] حُكمه إلى يوم الحساب ، فلا يُقضى عليه بحكم ما في الحياة الدنيا حتى يوم القيامة .

---

١ - راجع : الملل والنِّحل للشهرستاني (١/ ١٦٢) ، والفَرق بين الفِرق لعبد القاهر البغدادي ص ٢٣٠ .

وقد ظهرت هذه الفرقة كردة فعل على أفكار فرقة الخوارج التي كفّرت أهل القبلة واعتبرت أن مرتكب الكبيرة كافر - كما سبق وأشرنا إلى اعتقاداتهم الباطلة - فاستحلت بهذا الفكر المنحرف دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، فجاءت فرقة المرجئة لتخالف فكر الخوارج بفكر آخر أكثر في التفريط فأخرجت الأعمال التي تعتبر من مسميات الإيمان واكتفت بالقول إن الإيمان هو نُطق باللسان وتصديق بالجنان أي : بالقلب فقط ، وأما الأعمال فاعتبروها شرط كمال في الإيمان وليس من أصوله أو مُسمياته فقالوا بأن من صدَّق بقلبه ونطق بلسانه فهو مؤمن كامل الإيمان ولو ارتكب ما ارتكب من المعاصي والكبائر والآثام ولو ترك الواجبات التي أُمر بها ، ولا شك أن هذا الفكر هو عين الضلال وهذا الاعتقاد فاسد وباطل ومخالف تمام المخالفة لصريح القرآن الكريم وصحيح السنة النبوية وما أجمعت عليه أمة الإسلام والصحابة الكرام - رضي الله عنهم - الذين أنكروا وتبرأوا تماماً من هذه الترهات الضالة والاعتقادات الفاسدة ، وقد أخرج الترمذي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : «صنفان من أمتي ليس لهما في الإسلام نصيب : المرجئة والقدرية»[1] وروى الطبراني عن أنس - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «صنفان من أمتي لا يردان على الحوض ، ولا يدخلان الجنة : القدرية ، والمرجئة»[2] .

وأهل الحق والعدل من أهل القرآن والسنة والجماعة هم الذين لا يعرفون الإفراط الذي جاء به الخوارج في قولهم بأن مرتكب الكبيرة كافر ، ولا التفريط التي جاءت به فرقة المرجئة عندما أخرجوا الأعمال الصالحة عن مسمى الإيمان ، وذلك لأنهم أمة وسطاً يقولون إن الإيمان هو تصديق بالجنَان ونطق باللسان وعمل بالأركان طاعة للرحمن ومعصية للشيطان .

فمن أصول اعتقاد مذهب أهل القرآن والسنة والجماعة أن الدين والإيمان قول وعمل ، قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح ، وأن الإيمان يزيد

١- رواه الترمذي في سننه ، كتاب القدر ٢٣٠١ وضعفه الألباني .

٢- سبق تخريجه وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٥٦٣ حديث رقم ٢٧٤٨).

بالطاعات وينقص بالمعاصي والأدلة على ذلك كثيرة من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ومن أراد مزيد بيان فعليه بكتب أهل السنة والجماعة وهي كُثر في هذا المجال مثل : أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائى ، وكتاب السُّنَّة للإمام أحمد بن حنبل ، وكتاب السنة للخلال وغير ذلك من الكتب التي أصَّلت مذهب أهل الحق ، أهل الوسط ، أهل القرآن والسنة والجماعة ..

ومن خلال ما ذكرنا يمكن أن نُجمل القول بأن أصول الفرق التي خرجت على أصول أهل الإسلام أربعة هم : السبئية وما انبثقت عنها من فرق كالباطنية والروافض ، والخوارج وما انبثق عنها من طوائف وكذلك القدرية وما تفرَّعت منها من جماعات ثم المرجئة وما تبعتها من طوائف قالت بمقولتها وآمنت بأفكارها ، واعلم عزيزي القارئ أن هؤلاء الفرق لا زالت أفكارهم ومعتقداتهم تسيطر علي بعض المسلمين في عصرنا الحاضر . قال ابن بطة - رحمه الله - بعد أن ذكر حديث افتراق الأمم : «فقد ذكرت من الرواية عن رسول الله ﷺ وما أخبر به من تفرّق هذه الأمة ومضاهاتها في تفرقها اليهود والنصارى والأمم السالفة ما في بعضه كفاية لأهل الحق والرعاية ، فإن قال قائل : قد صح عندنا من كتاب ربنا ومن قول نبينا ﷺ أن الأمم الماضية من أهل الكتاب تفرقوا واختلفوا وكفّر بعضهم بعضاً ، ومثل ذلك فقد حلَّ بهذه الأمة حتى قد كثرت فيهم الأهواء وأصحاب الآراء والمذاهب ، وكل ذلك فقد رأيناه وشاهدناه ، فنريد أن نعرف هذه الفرق المذمومة لنجتنبها ونسأل مولانا الكريم أن يعصمنا منها ويعيذنا مما حلَّ بأهلها الذين استهوتهم الشياطين فأصبحوا حيارى ، عن طريق الحق صادفين عنه ، قلت : فاعلم رحمك الله أن لهذه الفرق والمذاهب كلها أصولاً أربعة ، فكلها عن الحق حائدة والإسلام وأهله مُعاندة ، وعن أربعة أصول يتفرقون ومنها يتشعبون وإليها يرجعون ثم تتشعب بهم الطُّرق وتأخذهم الأهواء وقبيح الآراء حتى يصيروا في التفرّق إلى ما لا يُحصى ، فحدثنا أبو القاسم حفص بن عمر ،

قال: حدثنا أبو حاتم الرازي ، قال : حدثنا يحيي بن زكربا بن عيسي ، قال : قال حفص بن حميد المروزي ، قلت لعبد الله بن المبارك على كم افترقت هذه الأمة ؟ فقال : الأصل أربع فرق هم : الشيعة ، والحرورية ، والقدرية ، والمرجئة»[1]

والشيعة هم الذين انبثقوا عن السبئية ممن قالوا وتأثروا بمقالاتهم - كما ذكرنا - كالقول بالرجعة والوصية والنصّ .. إلى غير ذلك مما لا نصَّ فيه من قرآن ولا سُنَّة صحيحة ، والحرورية هم أول طائفة من طوائف الخوارج - كما أسلفنا - ثم القدرية والمرجئة .

وقد تكلمنا عن كل فرقة من تلكم الفرق آنفاً في اختصار غير مخل أو إسهاب مُمل ، وكل أفكار ومعتقدات هذه الفرق لازالت تتغلغل وتعشش في أذهان بعض المسلمين اليوم ، لذلك أفردنا لها تلك المساحة من هذا الفصل لأهميتها القصوى ، ولتنبيه وتحذير إخواننا من المسلمين من الوقوع في براثن تلكم الفِرَق الزائغة عن الحق والمتبعة لكل ناعق والمخالفة لأصول واعتقادات أهل القرآن والسنة والجماعة .

هذا عن القسم الأول الذي خصصناه للحديث عن تقليد أمة الإسلام للأمم السابقة في تفرقهم إلى فرق شتى وجماعات متناحرة وأن أمة الإسلام قد وقعت في نفس الطريق الذي هوت فيه اليهود والنصارى من الاختلاف والتفرّق والتحزّب الأعمى وقد ساعد على ذلك أعداء الإسلام الذين اتبعوا سياسة : فرِّق - تسد ، فرفعوا بعد شأن تلك الفِرق وساعدوهم على الخروج عن جماعة المسلمين كما فعل ابن سبأ اليهودي وخلفه من يهود ونصارى اليوم .. أما عن القسم الثاني فهذا ما سنتحدث عنه في الفقرة التالية :

١- بتصرف من الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومُجانبة الفرق المذمومة للشيخ الإمام أبي عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري (١/ ٣٧٦) .

القسم الثاني : تقليد أمة الإسلام للنظريات الفلسفية الغربية واتباع المذاهب الفكرية المعاصرة :

لقد تحققت نبوءة الحديث النبوي الذي سقناه في بداية هذا الفصل والخاص باتباع أمة الإسلام لسنن الأمم السابقة وتقليدهم في أفكارهم ومذاهبهم في هذا القسم الذي نتحدث عنه بصورة واضحة لا لبس فيها ولا غموض وذلك من خلال استيراد النظريات الفلسفية اليونانية القديمة عبر ترجمة كتب أرسطو وأفلاطون وسقراط وغيرهم إلى العربية وسوف نبين مدى تأثير هذه الكتب على الإسلام وأهله في بحثنا من خلال اعتكاف بعض المسلمين على دراسة فلسفات اليونان القديمة واخترعوا ما يُسمى بالفلسفة الإسلامية التي لم يكن لها وجود مطلقاً في القرون الثلاثة الأولى وكان على رأس هؤلاء : الكِندي[1] والفارابي[2] وابن سينا[3] ، قال ابن العماد الحنبلي ، قال الفقيه حسين : «هؤلاء الثلاثة متهمون في دينهم ، يعني الفارابي ، والكِندي ، وابن سينا» فلا تغتر بالسكوت عنهم»[4] .

١- هو : يعقوب بن إسحاق ، بن الصباح الكندي الأشعثي الفيلسوف ، كان رأساً في حكمة الأوائل ومنطق اليونان والهيئة والتنجيم والطب وغير ذلك .. كان يقال له : فيلسوف العرب ، وكان متهماً في دينه ، ساقط المروءة .. [راجع سير أعلام النبلاء (١٠/ ٣٣٧) ، توفي الكندي نحو (٢٦٠ هـ/ ٨٧٣م)] .

٢- هو : محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ ، التركي ، الفارابي ، المنطقي ، له تصانيف مشهورة ، من ابتغى الهدي منها ، ضلَّ وحار ، منها تخرَّج ابن سينا ، وقال ابن الأهدل : قيل هو أكبر فلاسفة المسلمين ، لم يكن فيهم من بلغ رتبته وبه رأى : بتآليفه - تخرَّج أبو علي ابن سينا ، وكان يحقق كتاب أرسطو ، وكتب عنه في شرحه سبعين سفراً ، وسئل الفارابي : من أعلم أنت أو أرسطو ؟ فقال : لو أدركته لكنت أكبر تلامذته ، فمن ابتغى الهدى في كتبه أضلّه الله ..[راجع شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٤/ ٢٠٩) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٥/ ٤١٧)] . توفي الفارابي سنة (٣٣٩هـ) .

٣- هو : الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا ، أبو علي ، البلخي ثم البخاري ، صاحب التصانيف في الطب والفلسفة والمنطق ، كان أبوه كاتباً من دعاة الشيعة الإسماعيلية ، وُلِد سنة سبعين وثلاثمائة (٣٧٠ هـ الموافق ٩٨٠م) وتُوفي عام (٤٢٨ هـ الموافق ١٠٣٧ م) . [راجع : سير أعلام النبلاء (١٧/ ٥٣١) ، الأعلام للزركلي (٢/ ٢٤١)] .

٤- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي (٤/ ٢١٣) .

وقال أبو حامد الغزالي عن الفارابي وابن سينا : «مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنفنا كتاب (تهافت الفلاسفة) ، أما المسائل الثلاثة فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك قولهم : إن الأجسام لا تحشر وإن المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة ، والعقوبات روحانية لا جسمانية ، ومن ذلك قولهم : إن الله يعلم الكليات دون الجزئيات ، وهذا كفر صريح»[١] .

وقال ابن العماد الحنبلي في ترجمة الفارابي : «وبالجملة فأخباره وعلومه وتصانيفه كثيرة شهيرة ، ولكن أكثر العلماء (من المسلمين) على كفره وزندقته»[٢] وقالت دائرة المعارف الإسلامية : «وكان فلاسفة الإسلام الآخذون بفلسفة أرسطو منذ عصر الكندي وما بعده ، يعتمدون في فلسفتهم على روايات تتفاوت صحة واضطراباً . وقد أنكر المسلمون على هذه الفلسفة ما فيها من زندقة؛ وذلك لتعارضها مع عقيدتهم في ثلاث مسائل هي : خلق العالم ، والعناية الإلهية ، وبعث الأجسام ، ولعل الغزالي في كتابه (التهافت) وهو أبلغ من كتب في نقض هذه الفلسفة في إسهاب»[٣] فرحم الله - تعالى - العالم الجليل الغزالي الكبير الذي رفض هذه الفلسفة ونقضها بعد دراستها بعناية فائقة لخطورتها وحذر أهل الإسلام منها ومع ذلك فقد تبنى هذه الفلسفة كثير من المستشرقين الغربيين وممن درسوا وتتلمذوا على أيدي هؤلاء المستشرقين من الدارسين المسلمين - كما سيأتي - .

وهؤلاء هم من يُسمون بفلاسفة الإسلام ،وهم عند خلفهم أعلام نجباء وعند أهل الإسلام زنادقة ، ضُلاَّل انحرفوا عن كتاب ربهم وسُنَّة نبيهم ﷺ إلى هدي وسُنة أرسطو ، وأفلاطون ، وسقراط وغيرهم من فلاسفة اليونان .. وواضح مما سبق أن

١- المنقذ من الضلال والمفصح عن الأحوال لأبي حامد الغزالي ص ٥٥ : ٦٠ .

٢- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ، رجمة الفارابي (٤/ ٢١٤) .

٣- دائرة المعارف الإسلامية ، بتحرير مجموعة من المستشرقين (١/ ٦١٥) .

فكرة الفلسفة الواردة إلينا من الغرب تختلف اختلافاً كليًا عن أصول واعتقاد أهل الإسلام .

«وكانت المراحل التي مرّت بها الفلسفة الإسلامية متدرجة في محاولات التوفيق بينها وبين الدين (الإسلامي) ، فكان الكندي أقرب إلى أفكار المتكلمين المعتزلة منه إلى الفلسفة اليونانية ، ثم خط الفارابي خطوة أخرى نحو المزج بين الفلسفة والإسلام ، ثم ظهرت عملية الدمج كاملة تقريباً في فلسفة ابن سينا»[1] .

وإذا أردنا أن نُقسِّم مراحل انتقال تلك المذاهب الفلسفية إلى عالمنا الإسلامي فسوف نجدها كانت مرتبة على النحو التالي :

أولاً : في العهد الأموي :

من المعروف عند علماء المسلمين أن أول من أدخل الترجمة من كتب اليونان إلى العربية هو :خالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ، الذي كان مولعاً بكتب الكيمياء، وكانت الترجمة في تلك الفترة قاصرة على كتب الفلك والطب والكيمياء . قال ابن النديم : «وكان خالد بن يزيد المتوفي سنة (٨٥ هـ/ ٧٠٤م) يُسمى حكيم آل مروان ، وكان فاضلاً في نفسه ، وله همّة ومحبة للعلوم ، خطر بباله الصنعة - أي : تعليم الكيمياء ، فأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة اليونانيين ممن كانوا ينزلون بمصر، وقد أمرهم بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي إلى اللغة العربية ، وهذا أول نقل من كتب اليونان كان في الإسلام»[2] والشاهد أن العهد الأموي لم يعرف شيئاً قط عن كتب الفلسفة وعلومها ، ولم تترجم أعمال أرسطو ، أو أفلاطون ، أو سقراط ، ولم يشهد هذا العصر مناظرات أو مجادلات ومساجلات بين علماء الإسلام مع المتكلمين من المسلمين ممن شغلوا أنفسهم بعلوم فلسفة اليونان إلا في العصر العباسي .

١- الإسلام والمذاهب الفلسفية للدكتور مصطفي حلمي ص ١٠٠ .

٢- راجع : الفهرست لابن النديم ص ٣٥٤ ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٤/ ٢٨٣) .

ثانياً : العصر العباسي :

كان العصر العباسي الإسلامي الأول هو بمثابة العصر الذهبي لظهور الفلسفة وانتقالها من الغرب والمُمثَّل حينئذ في علوم بلاد اليونان التي اشتهرت بفلاسفتها مثل : أرسطو ، وأفلاطون ، وسقراط .. وغيرهم إلى اللغة العربية . وقد ذكر ابن أبي أُصَيْبَعَة صورة مجملة عن نقل الفلسفة ومدارسها اليونانية إلى العالم الإسلامي في عهد الخلافة العباسية الأولى فقال : «كانت العرب في صدر الإسلام لا تُعنى بشيء من العلوم إلا بلغتها ، ومعرفة أحكام شريعتها ، حاشا صناعة الطب ، فإنها كانت موجودة عند أفراد من العرب منكرة عند جماهيرهم ؛ لحاجة الناس لهذا العلم ، ثم لما أفضت الخلافة إلى الخليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد ، الذي أقبل على طلب العلم ، فداخل ملوك الروم ، وأتحفهم بالهدايا الخطيرة ، وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة ، فبعثوا إليه بما حضرهم من كتب أفلاطون ، وأرسطاليس ، وأبقراط ، وجالينوس ، وأقليدس ، وبطليموس .. وغيرهم من فلاسفة اليونان ، فاستجاد لها المهرة من المترجمين ، وكلفهم بإحكام ترجمتها ، فتُرجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حضَّ الناس على قراءتها ، ورغَّبهم في تعلمها ، فأتقن جماعة من ذوي الفنون في التعليم - في أيامه - كثيراً من أجزاء الفلسفة ، وسنُّوا لمن بعدهم مناهج الطلب ، ومهَّدوا أصول الأدب ، حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومانية[١] : (أي : في هذه العلوم الفلسفية) . ومن المعروف عن هذا المأمون - سامحه الله - أنه ترجم كتب فلاسفة اليونان والخاصة بالإلهيات والأخلاق ليدلل على نُصرة رأيه الباطل واعتقاده الفاسد بمسألة خلق القرآن[٢] ، التي سادت في عهده غير الميمون ،

١- نقلاً عن الفكر الفلسفي في الإسلام ص ٢٠١ للدكتور عبد الحليم محمود .

٢- وهو قول باطل ورأى فاسد تبنته فرقة المعتزلة وأراد هذا المأمون - عليه من الله ما يستحق أن يفرضه على المسلمين ، ولكن تصدى لهذا الرأي الضال إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - فأبطل مقولتهم ودحض شبهاتهم وأثبت لهم أن القرآن الكريم : هو كتاب الله الذي نزل به الروح الأمين جبريل عليه السلام - على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله ﷺ بألفاظه العربية ومعانيه الحقة ، وأحكامه قانون ودستور واجب علي المسلمين اتباعه وأنه من عند الله - عز وجل - لفظاً ومعنى ويتعبد بتلاوته ، وجميعه منقول بالتواتر فهو قطعي الثبوت ، وهو المصدر الأول لتشريع الأمة الإسلامية .

وأن عملية الترجمة بدأت على نطاق واسع بواسطة يحيي بن خالد البرمكي المتوفى سنة (١٩٠هـ) وذلك في خلافة هارون الرشيد ، وقيل إن يحيي بن خالد هذا كان زنديقاً ، وإنه صَانَعَ ملك الروم وأرسل إليه الهدايا طالباً نقل الكتب اليونانية إلى العربية ، فجمع ملك الروم البطارقة والأساقفة والرهبان ، طالباً منهم المشورة والرأي ، وكان من رأيه أن الخير في حبس الكتب عن رعيته من النصارى ؛ لأنه خاف عليهم منها؛ إذ قد تكون سبباً لهلاك دينهم ، وهو يُفضِّل إرسالها إلى خالد البرمكي لكي يُبتلى المسلمون بها ، ويُسلم رعاياه من شرِّها ، فوافقه المجتمعون على ذلك ، فنفذه»[١] وإن صحَّت هذه الرواية التي ذكرها الإمام السيوطي فإنها تعني مدى الشر الذي أصاب أهل الإسلام وما لحق بهم من ضرر بالغ نتيجة جلب تلك الكتب إلى البلاد الإسلامية وترجمتها ، وقد أنكر كثير من علماء الإسلام الأثبات دخول تلك الكتب التي تحمل هذا الكم الهائل من الأفكار المنحرفة وخاصة في علم الإلهيات إلى بلاد المسلمين فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – : «وفي دولة أبي العباس المأمون ظهرت فرق من المنافقين وعرَّب من كتب الأوائل المجلوبة من بلاد الروم ما انتشر بسببه الفساد الكبير ، فلما ظهر ما ظهر من الكفر والنفاق في المسلمين وقويَّ ما قويَّ من حال المشركين وأهل الكتاب ؛ كان من أثر ذلك ما ظهر من مقالات بعض الفرق من أهل الضلال وتقريب الصابئة ونحوهم من المتفلسفة . وذلك بنوع رأى يحسبه صاحبه عقلاً وعدلاً وإنما هو جهل وظلم ، إذ التَّسوية بين المؤمن والمنافق؛ والمسلم والكافر أعظم الظلم ، وطلب الهُدى عند أهل الضلال أعظم الجهل ، فتولّد من ذلك المحن التي امتحنت بها الأمة جرَّاء دخول هذه الكتب الباطلة ، وما أظن أن الله يغفل عن المأمون ولابد أن يقابله على ما اعتمده مع هذه الأمة من إدخاله هذه العلوم الفلسفية بين أهلها»[٢] .

١- صون المنطق والكلام للحافظ السيوطي بتحقيق د. علي سامي النشار (١/ ٤٢) نقلاً عن الإسلام والمذاهب الفلسفية للدكتور مصطفي حلمي ص ١٠٢ .

٢- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٢١) .

أما عن كيفية تأثير هذه العلوم وتلكم المذاهب الفلسفية على المسلمين فيقول : ابن الجوزي : «وقد ذهب أكثر الفلاسفة إلى أن الله - تعالى - لا يعلم شيئاً ، وإنما يعلم نفسه - تعالى الله عما يقول الكافرون علوًّا كبيراً - وقد ثبت أن المخلوق يعلم نفسه ويعلم خالقه ، فقد زادت مرتبة المخلوق على رتبة الخالق ، وهذا أظهر فضيحة من أن يُتكلم عليه ، فانظر إلى ما زيَّنه إبليس - لعنه الله - لهؤلاء الحمقى مع ادعائهم كمال العقل ، وقد خالفهم أبو علي ابن سينا في هذا فقال : بل يعلم نفسه ويعلم الأشياء الكلية ولا يعلم الجزئيات وتلقف هذا المذهب منهم فرقة المعتزلة وكأنهم استكثروا المعلومات ، فالحمد لله الذي جعلنا ممن ينفي عن الله -ﷺ عز وجل - الجهل والنقص ونؤمن بقوله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك ١٤] ... وقد رأينا من المتفلسفة من أمتنا جماعة لم يكسبهم التفلسف إلا التحيُّر فلا هم يعملون بمقتضاه ولا بمقتضى الإسلام ، بل فيهم من يصوم رمضان ويصلي ثم يأخذ في الاعتراض على الخالق وعلى النبوات ويتكلم في إنكار بعث الأجساد .. ولما كانت الفلاسفة قريباً من زمان شريعتنا والرهبنة كذلك مدَّ بعض أهل ملتنا يده إلى التمسُّك بهذه وبعضهم مدَّ يده إلى التمسك بهذه ، فترى كثيراً من الحمقى إذا نظروا في باب الاعتقاد تفلسفوا ، وإذا نظروا في باب التزهُّد ترهبنوا ، فنسأل الله ثباتاً على ملتنا وسلامة من عدونا إنه ولي الإجابة»[١] .

وقد رأينا في عصرنا الحاضر ممن ينتسبون إلى الإسلام بل ومن أهل العلم من يقول ويتكلم ويعتقد بتلكم الأفكار الفلسفية ، حتى إن بعضهم ردَّ الأحاديث النبوية[٢] وأعملوا عقولهم وأوّلوا الآيات القرآنية الصريحة لتتماشى مع أهوائهم وأفكارهم المنحرفة ، ومنهم من أنكر كثيراً من الثوابت الإسلامية ، كعذاب القبر ونزول المسيح ابن مريم - عليه السلام - وخروج الدجال في آخر الزمان[٣] تحت دعوى أن الأحاديث التي أثبتت ذلك هي أحاديث آحاد فأعملوا عقولهم المريضة في النصوص الإسلامية .

١- بتصرف من تلبيس إبليس لابن الجوزي بتحقيق د. السيد الجميلي ص ٦١ : ٦٤ .

٢- راجع كتابنا : الإعجاز النبوي في الفتن والملاحم ص ٣١ .

٣- راجع كتابنا : المسيحان يلوحان في الأفق [الناشر : دار الكتاب العربي ، دمشق القاهرة] .

وما ذلك إلا لتأثر هؤلاء بالعلوم الفلسفية وبآراء وأفكار أهل المذاهب الفلسفية الذين تكلموا في الإلهيات بغير علم فضلوا وأضلوا ..

لذا يقول علماء الإسلام مُحذِّرين الأمة الإسلامية من دراسة هذه العلوم التي وردت إلينا من الغرب المسيحي وخاصة علوم الفلسفة والمنطق وعلم الكلام «ولهذا . ما زال علماء المسلمين وأئمة الدين يُذمُّون علم الكلام ويُذمُّون أهله وينهون عنه وعن أهله ، حتى رأيت للمتأخرين فتيا فيها خطوط جماعة من أعيان زمانهم من أئمة الشافعية والحنفية ، وغيرهم فيها كلام عظيم في تحريمه وعقوبة أهله»[1] .

وقال الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - فيمن يشتغلون في هذه العلوم التي لا طائل منها إلا الجدال العقيم: «حُكمي في علماء الكلام أن يُضربوا بالجريد ويُطاف بهم في العشائر ويقال لهم : هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنَّة وأخذ في الكلام» .

وقال الإمام مالك - رحمه الله تعالى - : «الكلام في الدين أكرهه ، ولم يزل أهل بلدنا (أي : المدينة النبوية) يكرهونه وينهون عنه ،ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل».

وقال الإمام أبو حنيفة النعماني - رحمه الله تعالى - عندما سُئل عن علم الكلام : «مقالات الفلاسفة !! عليك بالأثر وطريقة السلف وإيَّاك وما أحدث ، فكل مُحدثة بدعة» .

وقال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - : «لا يصلح صاحب كلام أبداً ، علماء الكلام زنادقة»[2] ومع تحذير الأئمة الأربعة - رحمهم الله تعالى - وغيرهم من علماء الإسلام الأثبات وخاصة ممن اشتغلوا بتلك العلوم وأفنوا أعمارهم في تحصيل علم الفلسفة والمنطق ثم وجدوا أنه لا طائل من ورائها فرجعوا وتمسَّكوا بما كان عليه سلف الأمة : القرآن والسنة ، وكان على رأس هؤلاء الإمام الغزالي ، وأبو المعالي

١- مجموع الفتاوي لشيخ الإسلام ابن تيمية (٩/ ٧) .

٢- راجع : كتابنا ذم الجدل والمراء ص ٦٦ وما بعدها [الناشر : دار الكلمة - المنصورة] .

الجويني ، والفخر الرازي - رحمهم الله تعالى - أقول فمع هذه التحذيرات وأقوال العلماء العدول من الخوض في تلكم العلوم إلا أن عصرنا الحاضر يشهد على أن الأزهر الشريف فتح الباب على مصراعيه لولوج أبنائه وعلمائه هذه العلوم وخاصة ممن يذهبون إلى الغرب لينهلوا علومهم الإسلامية ودرجاتهم العلمية من الجامعات الغربية عامة والفرنسية خاصة ، فكانت الطامة الكبرى والبلية العظمى التي حلَّت بهذه الأمة حيث إن جُلَّ هؤلاء الذين نهلوا معارفهم وعلومهم من تلك الجامعات تتلمذوا على يد كثير من المستشرقين الحاقدين من اليهود والنصارى ، ثم رجع هؤلاء التلاميذ الذين تم غسل عقولهم بالأفكار والمذاهب الغربية فدرّسوا في جامعاتنا العربية والإسلامية فخرجت أجيال تحمل نفس أفكار أساتذتهم الذين نهلوا معارفهم على غير الأصول الإسلامية الصافية فأصبح كثير من المثقفين ثقافة غربية يتصدرون المناصب القيادية في حياتنا الثقافية والإعلامية وتغلغلت هذه الأفكار عن طريق أصحابها بين كثير من شباب اليوم الذي لا يعرف كثيراً عن ثقافته الإسلامية - كما سنرى - .

ثالثاً : العصر الحديث وتأثره بالمذاهب والأفكار الغربية :

وهذه المرحلة هي نتاج طبيعي لما أفرخته المراحل السابقة ولكن خطورة هذه المرحلة عن سابقتها أنها رسَّخت أفكار ومذاهب الغرب في نفوس وعقول كثير من المثقفين على مدار ما يقرب من قرنين من الزمان ولأهمية هذه الفقرة فسوف نُقسِّمها إلى ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى :

حيث كانت البداية عام ١٢٤٢ هـ الموافق ١٨٢٦ م عندما ابتعث الوالي محمد علي باشا[1] ، بعثته التعليمية إلى فرنسا والتي تكوَّنت من (٤٤ طالباً مصريًّا) لدراسة العلوم

١- هو والي مصر محمد علي باشا ، وُلِدَ في مقدونيا (اليونان حالياً) عام ١٧٦٩ م وهو من أصل ألباني ويُطلق عليه مؤسس مصر الحديثة وحاكمها ما بين عامي (١٨٠٥ إلى ١٨٤٨م) وفي هذه الفترة استطاع أن ينهض بمصر عسكريًّا وتعليميًّا وصناعيًّا وزراعيًّا وتجاريًّا ، مما جعل من مصر دولة ذات ثقل في تلك الفترة ، وقد جاء إلى =

العسكرية والإدارية والطب والزراعة والتاريخ الطبيعي وصناعة الأسلحة والطباعة والعمارة والترجمة ، وقد رشَّح شيخ الأزهر آنذاك : حسن العطار[١] الذي كان مولعاً بإصلاح التعليم في البلاد وخاصة التعليم المدني كالهندسة والطب والصيدلة وغيرها من العلوم الأخرى بما في ذلك الأزهر الذي حاول تطويره وإدخال بعض العلوم الحديثة فيه ولكن وقف في وجهه العديد من المشايخ ومنعوه من ذلك وكان في كل ذلك متأثراً بالوالي والحاكم محمد على باشا لذلك اختار الشيخ رفاعة الطهطاوي[٢] ليكون مع البعثة التي ستسافر إلي فرنسا ليكون لهم إماماً وواعظاً وأوصاه بكتابة يومياته هناك ، وبالفعل سافر رفاعة رافع الطهطاوي مع البعثة وهناك تعلَّم اللغة الفرنسية وأتقنها وبدأ بممارسة علم الترجمة وكتب يومياته التي أصبحت من مؤلفاته الشهيرة وهو : تخليص الإبريز في تلخيص باريس ، ثم عاد رفاعة الطهطاوي إلي مصر

= مصر عام (١٨٠١م) كمعاون لرئيس كتيبة مع جيش (القبطان حسين باشا) الذي جاء لإجلاء الفرنسيين منها ، ونظراً لتميّزه في العسكرية فقد رُقِّيَ إلي عدَّة مناصب فأصبح نائباً للسلطان العثماني ، ثم اعتلى عرش الولاية على مصر عام (١٨٠٥م) ، حيث بدأ مهامه كوالٍ بالقضاء على المماليك في مذبحة القلعة الشهيرة ، وبدأت تستتب له الأمور مما ساعد على استقرار البلاد سياسيًّا فساعده ذلك على بنائها وتقوية مركزها بين الدول المختلفة فالتفت إلى الإصلاح الداخلي وكانت البداية من خلال تأسيس أول جيش نظامي يدين له بالولاء ، ثم بدأ في إنشاء المدارس الحربية ، ووضع اللبنة الأولى لإنشاء أول أسطول بحري مصري وذلك من خلال الاستعانة بالخبرات الأجنبية سواء كانت الموجودة في مصر عقب الحملة الفرنسية أو بإرسال البعثات الخارجية . تُوفي محمد علي باشا في شهر أغسطس من عام (١٨٤٨م) عن عمر يناهز الثمانين عاماً ودفن في جامع محمد علي بالقلعة في القاهرة .

١- هو : الشيخ حسن بن محمد العطار المولود في القاهرة عام (١٧٦٦م) ، وقد عُيِّن شيخاً للأزهر في عهد محمد على باشا وهو الذي أوعز إليه بضرورة إرسال البعثات إلى أوربا وخاصة فرنسا لتحصيل العلوم المختلفة ، وكان حريصاً على مساعدة محمد علي باشا في تطوير مصر والنهوض بها عن طريق تحصيل العلوم الدنيوية والاستفادة من تطور الغرب في تلك العلوم .. توفي عام (١٢٥٠ هـ الموافق ١٨٣٥م) .

٢- هو : رفاعة رافع الطهطاوي : وُلِدَ في ١٥ أكتوبر عام ١٨٠١ م بمدينة طهطا إحدى مدن محافظة سوهاج بصعيد مصر ، وقد اشتغل بالترجمة بعد عودته من فرنسا في مدرسة الطب ، ثم عمل على تطوير مناهج الدراسة في العلوم الطبيعية ، وهو الذي افتتح مدرسة الترجمة عام (١٨٣٥م) التي صارت فيها بعد مدرسة ثم كلية (الألسن) ، وقد جمع بين الأصالة والمعاصرة ، لذا أطلق عليه (رائد التنوير في العصر الحديث) ، تُوفي عام (١٢٩٠ هـ الموافق ١٨٧٣م) .

عام (١٢٤٧ هـ الموافق ١٨٣١م) وهو منبهر بما شاهده وتعلمه في فرنسا المسيحية كعالم أزهري ، ونستطيع أن نلتمس هذا الإعجاب وذلك الانبهار من خلال ما كتبه في (تخليص الإبريز)» الذي كتبه أثناء إقامته في باريس وعرضه على أستاذه الفرنسي (جومار) قبل أن ينشره بعد عودته إلى مصر ، وقد ترجم في هذا الكتاب الدستور الفرنسي وقد أبدى إعجابه بالمادة الأولى من ذلك الدستور والتي تنص على أن (سائر الفرنساوية مستوون قُدَّام الشريعة ، أي : القانون الفرنسي) وقد أشاد بتقديسهم للحرية ، وقال : (لقد كادت هذه القضية ، أي : الحرية ، أن تكون من جوامع الكلم عند الفرنساوية . وهي من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم إلى درجة عالية ، وتقدمهم في الآداب الحضرية ، وما يُسمونه الحرية ويرغِّبون فيه هو عين ما يُطلق عليه عندنا العدل والإنصاف . وذلك لأن معنى الحكم بالحرية هو التساوي في الأحكام والقوانين ، بحيث لا يجور الحاكم على إنسان .. بل القوانين هي المحكَّمة المعتبرة»[١] ، وهكذا أبدى الطهطاوى إعجابه وانبهاره الشديد بما رآه[٢] وسمعه في بلاد الإفرنج كعادة كثير من مشايخ الأزهر الذين جاءوا من بعده وذهبوا إلى أوربا ليتعلموا بها ويحصلوا منها على شهادات الماجستير والدكتوراه - كما سيأتي - فجميعهم وبلا استثناء أخذتهم الدهشة والإعجاب والانبهار وتأثروا بما شاهدوه وسمعوه ودرسوه فرجعوا إلى بلادهم يحملون أفكاراً جديدة ومذاهب شتى تخالف المبادئ والأسس التي تعلَّموها في الأزهر مع إدراك الكثير منهم ومعرفتهم أن ما درسوه في بلاد الغرب المسيحي هو مخالف تماماً لما نحن عليه في الشرق الإسلامي ، فيقول الطهطاوي ويُقرر ذلك الإدراك في تخليص الإبريز : «إن أحكامهم القانونية ليست مستنبطة من الكتب

١- تخليص الإبريز ي تلخيص باريز ص ١٤٨[كتاب ألكتروني] .

٢- مثال ذلك دفاع الطهطاوي عن مشاهدته مراقصة الرجال للنساء فيقول : «إن الرقص عندهم فن من الفنون.. ويتعلق بالرقص في فرنسا كل الناس .. فلذلك كان دائماً غير خارج عن قوانين الحياء . بخلاف الرقص في أرض مصر ، فإنه من خصوصيات النساء ، لأنه لتهييج الشهوات . أما في باريس فإنه نطٌّ مخصوص لا يُشَمُّ منه رائحة العُهر أبداً . وكل إنسان يعزم امرأته يرقص معها ، فإذا فرغ عزمها آخر للرقصة الثانية وهكذا سواء كان يعرفها أم لا» . [تخليص الإبريز ص ١٦٨] .

السماوية ، وإنما هي مأخوذة من قوانين أُخر غالبها سياسي . وهي مخالفة بالكليّة للشرائع . والفرنساوية على إطلاقهم ليس لهم من دين النصرانية غير الاسم ، فلا يعتنون بما حرّمه دينهم أو أوجبه أو نحو ذلك»[١] .

يقول الدكتور محمد محمد حسين : «مع إدراك الطهطاوي لذلك كله ، فإنه لم يستطع أن يُدرك الأغوار البعيدة والجوانب المتعددة لكلمة الحرية ، ولم يستطع أن يدرك أن نقل هذه الآراء إلى المجتمع الإسلامي يمكن أن ينتهي به إلى النتيجة نفسها : نبذ الدين ، وتسفيه رجاله ، والخروج على حدوده»[٢] وهذا ما حدث بالفعل بعد ذلك وتم بكل دقة وعناية ، فقد قرأنا وسمعنا وشاهدنا من يريد نبذ الدين الإسلامي من الحياة ككل وقصره فقط على العبادات ، ورأينا وسمعنا وقرأنا أيضاً من استهزأ وسفّه رجال الدين الإسلامي وبعمامة الأزهر وبمدرِّس اللغة العربية في كثير من الأعمال الفنية التي قصدت وتعمدت إبراز رجال العلم والدين بمظهر السخرية لإضحاك العوام والدهماء[٣] ، ثم شاهدنا وقرأنا وسمعنا التطاول على حدود الشريعة الإسلامية واعتبارها مظهراً من مظاهر التخلف والرجعية إلى غير هذا الهراء الذي نقرأه ونشاهده شبه يومي من جميع الوسائل الإعلامية التي تسلَّط عليها وهيمن على معظمها الذين ينادون بنبذ الدين أو الاستهزاء منه ومن رجاله ورموزه .

فحسبنا الله ونعم الوكيل .. ولذلك نجد أن الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي الذي يُعد بمثابة رائد التنوير في العصر الحديث هو أول من بذر فكرة مصدر التلقي واستيراد الفكر الغربي الحديث والمتمثل في رؤيته لحكم البلاد وفق الدستور الفرنسي من خلال إعجابه الشديد بمفهوم الحرية الفرنسية والتي قسَّمها في كتابه سالف الذكر إلى خمسة أقسام : حرية طبيعية ، وحرية سلوكية ، وحرية دينية ، وحرية مدنية ، وحرية سياسية ،

١- تخليص الإبريز ص ١٥٤ .

٢- الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين ص ٢٥ [الناشر مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان] .

٣- راجع كتابنا : العفن الفني [الناشر : دار الكلمة - المنصورة] .

وبعد أن تكلم عن كل قسم من هذه الأقسام يقول : «فالحرية بهذه المعاني هي الوسيلة العظمى في إسعاد أهالي الممالك»[1] .

وهكذا بشَّر الطهطاوي الأمة الإسلامية بأفكار الغرب وبقوانين الغرب وأخلاقه وذلك نتيجة لمكوثه في بلاد الإفرنج وأهل فرنسا على وجه الخصوص وتتلمذ على يد عدد من الفرنسيين وانبهاره وتأثره بالدستور الفرنسي وقوانينه ، ومن خلال قراءاته للأحداث التي عاشها في فرنسا قراءة مادية بحتة ومن ثمَّ محاولة تطبيق تلك القراءات على أرض الواقع عند عودته لبلاده وتطبيق ما شاهده وقرأه هناك على بلاده التي تدين بدين يخالف تمام المخالفة دين البلاد التي تأثر بها وكذلك الأمر ينطبق على جميع مظاهر الحياة من أخلاق وسلوك ومعاملات تختلف اختلافاً جذريًّا عن ما شاهده وعايشه في تلك البلاد .. لذا فلا غضاضة مطلقاً أن نعتبر الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي هو واضع اللبنة الأولى للعلمانية في العالم العربي والإسلامي والتي نُعاني منها الآن أشد المعاناة من التلاميذ الذين تتلمذوا بدورهم على تلاميذ الشيخ رفاعة الطهطاوي المؤسس الحقيقي للاتصال بالحضارة الغربية باعتباره أول من ابتُعث إلى البلاد الأوربية ونهل منها واستنَّ بسنتها واتبع طريقتها وأراد تقليد فرنسا في عاداتها وأفكارها ونقل هذه العادات والتقاليد الغربية إلى مصر تحت دعوى التنوير والإصلاح والتجديد إلى غير ذلك من المصطلحات التي أطلقها أرباب هذا الفكر الظلامي .

ثم يستمر مسلسل البعثات والمناداة بهذه التوجه التغريبي وإرسال طلبة الأزهر ليتزودوا من العلوم الغربية وعلى رأس تلك العلوم بالطبع دراسة الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع بالمفهوم الغربي وعلى يد أساطين وأساتذة ومؤسسي تلك العلوم من اليهود والنصارى ثم نقل تلك العلوم المليئة بالمغالطات والمخالفات التي لا تتفق والمنهج الإسلامي الصحيح القائم على كتاب الله - عز وجل - وسنة النبي ﷺ الصحيحة ، وقد تأثر كثير من دارسي تلك العلوم

---

١ - تخليص الإبريز ص ١٢٨ .

بأساتذتهم الغربيين فنقلوا كل غث وفكر ضحل من تلكم الأفكار والمذاهب إلى بلادنا الإسلامية - كما سيتضح بعد ذلك - ، وللمفارقات العجيبة أن يواكب ظهور رجل الإصلاح الأول في العصر الحديث في مصر رجلاً آخر يحمل نفس الأفكار تقريباً ولكن من بلاد تونس الحبيبة الخضراء إنه خير الدين التونسي[1] الذين أطلقوا وأسبغوا عليه عدَّة ألقاب أيضاً كرجل النهضة الأول في تونس ومؤسس الإصلاح والتنوير التونسي الحديث ، وكأن مصر وتونس لهما ارتباط من نوع معين حول بداية حركات الإصلاح والتجديد والثورات في عالمنا العربي والإسلامي ، فقد سافر خير الدين التونسي إلى باريس سنة (١٢٦٩هـ / ١٨٥٣م) وقد عاش فيها أربع سنوات فأُعجب أيضاً بما شاهده هناك فرجع وألّف كتاباً أسماه : (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك)[2] ، وقد شارك خير الدين التونسي رفاعة الطهطاوي في الإعجاب بالحرية التي قامت عليها الحضارة الغربية، ويشاركه أيضاً في عدم التنبيه إلى الأصول العلمانية - كما يسمونها - أو اللادينية - التي تقوم عليها ويقرر خير الدين في مقدمة كتابه سالف الذكر أن الحرية

١- هو : خير الدين باشا التونسي ، وُلِدَ عام (١٨٢٠م) بجبال القوقاز وهي سلسلة جبال تقع بين البحر الأسود وبحر قزوين في منطقة القوقاز عند حدود أوربا وآسيا ، وكانت تلك البلاد حينئذ ضمن ممتلكات الخلافة العثمانية . كانت له حظوة عند البلاط العثماني فأرسلوه إلى فرنسا فنهل من علومها وتأثر بما رآه وسمعه هناك ثم رجع إلى تونس فأراد أن يُطبّق ما رآه وسمعه في تلك البلاد التي تأثر منها بمفهوم الحرية والتي قسّمها إلى ثلاثة أقسام : الحرية الشخصية ، والحرية السياسية ، وحرية الرأي ، وهي عنده حريات مطلقة ومتحققة بدرجات متفاوتة في البلاد الأوربية ، وقد كان تفكير خير الدين واضحا وصريحا فيما ذهب إليه من أن الحصول على أسباب القوة السياسية والحربية والاقتصادية في بلاد الشرق الإسلامي مرهون بتغيير نظم المجتمع الإسلامي والاقتباس من النُّظم الغربية وتقليدها فيما ذهبت إليه . توفي خير الدين التونسي في تركيا عام (١٨٩٠م) ثم نُقلت رفاته إلى تونس بعد ذلك .

٢- وهو كتاب يتألف من مقدمة طويلة جدًّا تتضمن تقريباً مضمون الكتاب، وجزئين ، يحوي الجزء الأول عشرين باباً ، كل باب مُخصص لبلد من البلدان الأوربية ، وتضم الأبواب فصولاً تتضمن الحديث عن تاريخ كل بلد وجغرافيته وموقعه ومساحته وأهم ملوكه ، وتنظيماته الإدارية والسياسية والعسكرية ، أما الجزء الثاني فيحتوي على ستة أبواب ، خمسة منها في جغرافية القارات الخمس ، و خصص الباب السادس للبحار .

هي : «منشأ سعة نطاق العرفان والتمدن بالممالك الأوربية»[1] وقد تأثر الطهطاوي بفكر خير الدين التونسي حول مفهوم الحرية المقتبسة من فرنسا – كما أسلفنا–.

المرحلة الثانية :

ثم تأتي المرحلة التالية من مسلسل تغريب الأمة وتقليد الغرب في أفكاره ومذاهبه ومبادئه بعد أن وضع لَبِنَات وأساس المرحلة الأولى رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي ، وهذه المرحلة كان من أبرز رموزها جمال الدين الأفغاني[2] ، وتلميذه محمد عبده[3] ، والاهتمام بهما يستند إلى اعتبارين : «أولهما هو أن الصورة الشائعة المعروفة

١- الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين ص ٢٥ [مصدر سابق] .

٢- هو : جمال الدين الأسد أبادي المعروف بالأفغاني ، يقال إنه وُلِدَ في مدينة كابل بأفغانستان ، ويقال إن أصله إيراني ينتمي إلى مذهب الشيعة الأثنى عشرية ، وقد جزم الدكتور محمد محمد حسين بذلك «وقال إنه كان إيرانياً شيعياً من أسد آباد (بالقرب من مدينة همدان الإيرانية) ولم يكن أفغانيًّا من أسعد آباد) من أعمال مدينة كابل الأفغانية) وقد نقل الدكتور محمد محمد حسين هذا الكلام من كتاب ألفه ابن أخت الأفاني ويدعى : ميرزا لطف الله خان ، الذي كان يلازم الأفغاني في كل زياراته لإيران ، وقد نُشر هذا الكتاب لأول مرة عام (١٩٢٦م) ، ثم تُرجم إلى اللغة العربية عام (١٩٥٧م) تحت عنوان : جمال الدين الأسد آبادي ، وقد أكدت على ذلك المجموعة الوثائقية والمنشورة باسم (مجموعة إسناد مدارات) وقد أثبتت صور لتذكرتي مرور (جواز سفر) باسم الأفغاني صادرة من قنصلية إيران . وُلِدَ الأفغاني عام (١٢٥٤ هـ الموافق ١٨٣٩م) وقد دارت حول شخصيته وترجمته كثير من تضارب الأقوال وذلك ناتج عن الغموض الشديد الذي صاحب تلكم الشخصية وعلاقته بالماسونية العالمية وعلاقته كذلك الوطيدة بالإنجليز وذلك من خلال مراسلاته مع زوجة رئيس الوزراء البريطاني آنذاك (أندي بلير) وتوقيع رسائله بعبارة (صديقكم المخلص) ، كما اتهمه السلطان عبد الحميد الثاني في مذكراته بالعمالة للإنجليز ، واتهمه الدكتور عبد الله عزام في كتابه القومية العربية بأنه كان عميلاً للشاه الإيراني . وقد تُوفي الأفغاني بالسرطان في فكه الأسفل ، وقال طبيبه الخاص إن شدة ولع الأفغاني بالسيجار الإفرنجي وتدخينه بشراهة وكثرة شربه للشاي وتناوله الطعام مالحاً كان من مُسببات ذلك المرض ، حتى قال بعض تلاميذه: **الملح والشاي والدخان أودت بروح شيخنا الأفغاني**

وقد نقل الشيخ رشيد رضا في كتاب (تاريخ الأستاذ) أن الأفغاني كان يشرب قليلاً من الكونياك ، وهو نوع من أنواع الخمور . [راجع : الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين ص ٦٣ ، ودائرة المعارف الشيعية (٦/ ١١،١٢) ، وأعلام طبقات الشيعة لأغابزرك الطهراني (١/ ٣١٥) ، تاريخ الأستاذ لرشيد رضا (١/ ٤٩)] .

٣- هو : الشيخ محمد عبده ، وُلد عام (١٢٦٦ هـ الموافق ١٨٤٩م) لأب تركماني الأصل وأم مصرية ، نشأ في قرية: محلة نصر بمحافظة البحيرة بمصر .. انتقل للدراسة في الأزهر عام ١٨٦٥ م بعد أن التحق بالجامع الأحمدي=

عنهما بين الناس تخالف حقيقتيهما . وهذه الصورة الشائعة تستمد وجودها وقوّتها من الدعاية الدائبة التي لا تفتر ، والتي تسهر عليها قوى ومؤسسات قادرة ذات نفوذ . ولذلك كان الكشف عن حقيقتيهما محتاجاً إلى مجهود كبير ، وإلى مزيد من الدأب يقابل دأب الدعاية المبذولة في تدعيم مكانتيهما ، وثاني هذين الاعتبارين هو أن جلاء حقيقة الرجلين يتبعه جلاء حقيقة كثير من الأوهام التي تأصلت في نفوس الناس تبعاً لاستقرار شهرتيهما فيها ، فكشف السِّتر عنهما هو في الوقت نفسه كشف للستر عن أباطيل كثيرة ترتبط بهما ، وتستمد قوتها وبريقها الخدَّاع من شهرتيهما ومن ارتباطها بهما»[1] وأنا أقول إن معرفة المزيد عن كشف حقيقة تلك المرحلة التي كان يمثلها الأفغاني ومحمد عبده وتلامذته الذين تأثروا به والدور الحقيقي لحركة الإصلاح الديني

= (نسبة إلى جامع السيد أحمد البدوي بطنطا) وحصل على شهادة الأزهر العالية عام ١٨٧٧م. وقد انتمى الشيخ إلى حركة الإصلاح الديني ، والتي كانت ترى أن الميدان الأول لهذا الإصلاح هو الجامع الأزهر المتمثل في مناهجه الدراسية وطريقته الفكرية ، وكذلك التدرج في الحكم النيابي بالبلاد ، وكان سعد زغلول من مؤيدي هذا التيار وكان من أنصاره أيضاً ومؤيديه (أديب إسحاق) ومجموعة من المثقفين الذين تلقوا علومهم في الدول الأوروبية ، وقد تبنت بريطانيا هذا التيار وشجعته بعد احتلال مصر عام ١٨٨٢م، فعندما قامت الثورة العرابية كان محمد عبده من مؤيديها وتم القبض عليه وحُكِمَ عليه بالنفي لمدة ثلاث سنوات وكان منفاه في بيروت بلبنان ، ثم دعاه جمال الدين الأفغاني إلى باريس التي كان يقيم فيها ، حيث قاما بتأسيس جريدة العروة الوثقى .. ثم صدر العفو عن الشيخ بعد ست سنوات قضاها في فرنسا تعلم فيها اللغة الفرنسية كرفاعة الطهطاوي وأتقنها واطلع على العديد من الكتب والقوانين الفرنسية وقام بترجمة كتاب في التربية من اللغة الفرنسية إلى اللغة العربية ، ولم أقف حتى الآن على السرِّ الذي يربط مشايخ الأزهر بدولة فرنسا ودراساتهم في جامعتها وآخرهم شيخ الأزهر الحالي الدكتور أحمد الطيب الذي حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون الفرنسية ، فهل هناك علاقة بالفكر التغريبي وحركة الإصلاح وفرنسا ؟! .

وفي عام ١٨٩٩م عُيّن الشيخ محمد عبده مفتياً للديار المصرية ، ولم يلبث طويلاً حيث وافته المنية عام ١٩٠٥م في شهر يوليو بمدينة الإسكندرية متأثراً بمرض السرطان وقد راجت الدعاوي قديماً وحديثاً بأن الشيخ محمد عبده كان كأستاذه الأفغاني متواطئاً مع الإنجليز لتخريب العقول الإسلامية والنخر في هيكل الدين وعقائده ، ويكفي شهادة المندوب السامي البريطاين (كرومر) وتقاريره السنوية التي كانت تحمل الثناء على الشيخ وكذلك (مستر بلنت الإنجليزي) [راجع : الإسلام والحضارة الغربية لمحمد محمد حسين ص ٧٤ ، وكبرى اليقينيات الكونية للشيخ سعيد رمضان البوطي ص ١٨٥].

١ – الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين ص ٦١ [مصدر سابق] .

التي تبنته إنجلترا ودافعت عنه إبان أوائل الاحتلال البريطاني لمصر يكشف الغطاء ويُزيح الستار عن كثير من حقائق تلك المرحلة من مراحل تغريب مجتمعنا الإسلامي والدعوة إلى تقليد الغرب في أفكاره وآرائه ومذاهبه الباطلة ، وخاصة أن الشيخ محمد عبده يُذكر في مناهجنا الإسلامية ويُعتبر من الثوابت التي لا يجوز الاقتراب منها عند البعض ويُذكر دائماً في المحافل الأدبية والصالونات الثقافية على أنه رائد الفكر المستنير في العصر الحديث وقد عقد أتباعه مؤتمراً في القاهرة يحمل عنوان (محمد عبده مُفكراً ورائداً للاستنارة) ومن العجيب أن المندوب السامي البريطاني اللورد كرومر[1] قد أسبغ على الشيخ محمد عبده نعوت الاستنارة والتحرر وخلافه ، فيقول في تقريره السنوي عن عام ١٩٠٥م في الفقرة السابعة التي كتبها بعنوان (الشيخ محمد عبده) بمناسبة وفاته : «وكان لمعرفته العميقة بالشريعة الإسلامية ، ولآرائه المتحررة المستنيرة ، أثرها في جعل مشورته والتعاون معه عظيم الجدوى» ثم ضرب لذلك مثلاً فتواه المشهورة في إباحة فائدة ربح صناديق التوفير ..

ثم يقول كرومر في تقريره : «والأيام وحدها هي التي ستكشف ، عما إذا كانت الآراء التي تعتنقها المدرسة التي تزعمها الشيخ محمد عبده ، سوف تستطيع التسرب إلى المجتمع الإسلامي ، وأنا شديد الرجاء في أن تنجح في اكتساب الأنصار تدريجيًّا ، فلا ريب أن مستقبل الإصلاح الإسلامي ، في صورته الصحيحة المبشرة بالآمال ، يكمن في ذلك الطريق الذي رسمه الشيخ محمد عبده .. وإن أتباعه ليستحقون أن يُعاونوا بكل ما هو مستطاع من العطف الأوربي وتشجيعه»[2] .

١- هو : اللورد كرومر (٢٦ فبراير ١٨٤١م - ٢٩ يناير ١٩١٧) كان رجل دولة ودبلوماسي وإداري للمستعمرات البريطانية ، وكان من كبار دعاة التغريب والاستعماريين في العالم الإسلامي ، وتتمثل كتاباته في تقاريره السنوية التي كانت تعتبر خطة عمل كاملة وشاملة للقضاء على مقومات الفكر العربي الإسلامي وتمزيق وحدة الأمة الإسلامية ، ومقاومة القيم والمفاهيم العربية والإسلامية ، ولقد أمضى هذا اللورد في مصر ما لا يقل عن ربع قرن قابضاً على زمام السلطة من عام ١٨٨٢م وحتى عام ١٩٠٦م .

٢- نقلاً عن الإسلام والحضارة الغربية لمحمد محمد حسين ص ٧٤ - ٧٥ .

ومن خلال الاستقراء لتلك المرحلة يتضح مدى العلاقة بين بعثات مشايخ الأزهر لنيل شهادات الدكتوراه من جامعة السوربون في العقيدة والفلسفة وسياسة بريطانيا التي كان يتزعمها آنئذ اللورد كرومر ، ومن خلال قراءة كتابات الشيخ محمد عبده الإصلاحية ودعواته إلى تقديم العقل على النص بل وإعمال العقل إلى تأويل النص ليتماشى مع مقتضيات العصر ، فنجده يُفسِّر قول الله - عز وجل - في سورة الفيل ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ [الفيل : ٣] فأوَّل ذلك على أنه وباء الجدري ، وكذلك كان يؤول الجن الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم على أنهم ميكروبات ، وهكذا تتضح أهمية تلك المرحلة التغريبية التي رسَّخت مفهوم الإصلاح والتجديد من خلال تقديم إعمال العقل في نصوص الشريعة وتأويلها على غير مُرادها لتخريج أجيال تبعد شيئاً فشيئاً عن مفهوم الغيبيات الذي هو أصل من أصول الإيمان في العقيدة الإسلامية ، وبهذه التفسيرات الغريبة تتضح طريقة هؤلاء التغريبيين لتطوير فهم الدين والعقيدة الإسلامية ، بشكل يتفق مع مضمون ومفاهيم الأفكار الغربية وما يُسمى عندهم بالفكر العلمي والعقلي المقبول وما هو إلا فكر استشراقي تغريبي درسه الكثير من المشايخ الذين نهلوا علومهم ودروسهم عن المستشرقين اليهود والنصارى ثم عادوا إلى بلادهم ليؤصِّلوا تلك المفاهيم الغربية والعقلانية التي لا تمت إلى الإسلام الصحيح بصلة مما يعني ضرورة تخليص الفكر الديني من كل حقيقة غيبية غير محسوسة عند هؤلاء التغريبيين ، وسرعان ما استجاب إلى هذه الدعوة أولئك المفتونون والمأخوذون بالنهضة العلمية الأوربية الحديثة والحضارة الغربية عامة ، ممن لم يرسخ الإيمان في قلوبهم ولم تتمكن حقائقه في عقولهم ولا أعمالهم ، فهذا الشيخ مصطفى عبد الرازق[1]

١- هو : الشيخ مصطفي بن حسن بن أحمد محمد عبد الرازق ، وُلِدَ في قرية أبي جرج بمحافظة المنيا عام (١٨٨٥م) ، حصل على شهادة الأزهر العالمية عام (١٩٠٨م) ، ثم سافر إلى فرنسا عام (١٩٠٩م) لدراسة الفلسفة واللغة الفرنسية من جامعة السوربون ، وتتلمذ على العديد من المستشرقين أهمهم المستشرق اليهودي الفرنسي (دور كايم) ١٨٥٨ - ١٩١٧م ، صاحب نظرية العقل الجمعي الذي يقول عنها : (إن العقل الجمعي شيء كائن خارج عقول الأفراد .. إنه لا يمكن من ثمَّ تصور ثبات شيء من القيم على الإطلاق ، لا الدين ، ولا الأخلاق ، ولا التقاليد ، وإن النظر إلى هذه الأمور على أنها أمور قائمة بذاتها هو تفكير غير =

يقول عن أستاذه محمد عبده : قضى شيخنا نحو أربع سنين في بداية تكوينه الفكري بالجامع الأحمدي بطنطا ، ولا ينبغي أن نغفل أن مسجد طنطا ، هو جامع سيدي أحمد البدوي[1] ، فيه مقامه ومُخَلّفاته ، وفيه آثار مقدسة - كذا - عند العامة وكثير من

= معقول .. وقد تلقف أصحاب النظرية الشيوعية هذه الفكرة وأسسوا عليها مذهبهم الاشتراكي .. وهذا اليهودي صاحب تلكم النظرية هو أحد أبرز من تتلمذ عليهم الشيخ مصطفى عبد الرازق في فرنسا، وقد حضر وسمع منه دروساً في الأدب والتاريخ ، ثم تتلمذ على يد الأستاذ (جوبلر) ودرس عليه تاريخ الفلسفة ودروساً في تاريخ الأدب الفرنسي .. ثم عاد الشيخ إلى مصر عقب اندلاع الحرب العالمية الأولى ، وفي عام (١٩١٦م) عينه السلطان سكرتيراً للمجلس الأعلى للأزهر والمعاهد الدينية ، ثم في عام (١٩٢٧م) نُقل إلى التدريس في جامعة القاهرة كأستاذ في الفلسفة ، ولنا أن نتخيل عدد الذين تتلمذوا على يد اليهودي الفرنسي (دور كايم) الذي رسّخ قضية فصل الدين عن السياسة وهي النظرية التي قامت عليها العلمانية وتوابعها كالليبرالية وغيرها ، ثم عُين الشيخ بعد ذلك وزيراً للأوقاف عام (١٩٣٨م) واستمر في هذا المنصب حتى عام (١٩٤٢م) وفي السابع والعشرين من شهر ديسمبر من عام (١٩٤٥م) تم تعيينه شيخاً للأزهر ولم يدم طويلاً في هذا المنصب حيث وافته المنية في الخامس عشر من شهر فبراير من عام (١٩٤٧م) وهو الأخ الأكبر للشيخ علي عبد الرازق صاحب كتاب الإسلام وأصول الحكم الذي أصَّل فيه مبدأ فصل الدين عن الدولة - كما سيأتي - [راجع الأعلام للزركلي (٧/ ٢٣١) ، الأزهر في اثني عشر عاماً ، نشر إدارة الأزهر ، مذاهب فكرية معاصرة للأستاذ محمد قطب ص ٩٥].

١- هو : أحمد بن علي بن إبراهيم المشهور بالبدوي ، وُلِدَ بمدينة فاس بالمغرب سنة ٥٩٦ هـ ، وعُرِف باسم البدوي لكثرة ما كان يتلثم لكي لا يعرفه أحد وقد نقل ابن العماد الحنبلي عن عبد الرؤوف المناوي قوله إن سبب تلثم البدوي : «خوفه على مريديه أن يروا وجهه لأن من يرى وجهه يخر صعقاً في الحال - كذا -» ثم قال المناوي : :ولا ضرورة أن أربط بين قصة موسى - عليه السلام - وطلبه رؤية الله وخروره صعقاً وصعق من أراد أن يرى وجه البدوي» وقالوا في ترجمته : «إنه لم يتزوج قط ، وأنه اعتزل الناس ، ولزم الصمت وكان لا يتكلم إلا بالإشارة ، وسار إلى طندتا (أي : طنطا) وأقام فوق سطوح أحد الأبنية وكان يطوي أربعين يوماً لا يتناول فيها طعاماً ولا شراباً ، وأنه كان من المجاذيب وكان له شطحات ومشاهدات» إلى آخر ما ذكر عن ترجمته في الكتب الصوفية ومن نقل عنهم أمثال المناوي والسخاوي والسيوطي راجع : [طبقات الشاذلية الكبرى ص ٦٦ - ٦٧ لأبي الحسن بن محمد بن القسام المغربي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي (٧/ ٦٠٣ : ٦٠٦)] ويقول الشيخ أحمد شاكر : «وبهذه المناسبة نريد أن نسأل المؤرخين العارفين عن تاريخ (السيد أحمد البدوي) الذي يقول بعضهم بوجوده وينكره بعضهم وأعني بهذا أنه هل وُجد شخص حقيقي بهذا الاسم هو المدفون في طنطا والذي نُسب إليه المسجد ، لأن الذين كتبوا في ترجمته إنما هم المتأخرون ، والقاعدة الصحيحة عند علماء النقل وزعمائه - وهم حُفَّاظ الحديث - أن المرسل لا تقوم به الحُجة وهو ما يرويه شخص عمن لم يدركه ولم يتلق عنه مباشرة لما فيه من جهالة الواسطة فلعله غير ثقة» . [حكم الجاهلية ، فقرة بعنوان : بحث في تاريخ السيد البدوي ص ١٦٦] .

الخاصة ، وفيه مقابر لغير السيد من الأولياء .. والسيد البدوي هو أشهر أولياء القطر المصري ، وصيته وكراماته ذائعة في وادي النيل ، ولزائريه من صور التوسل والزلفى[1] ما لا يخلو من شطط ، ومسجد السيد مورد الدراويش ، ومجتمع المجاذيب .. هذه السنون الأربع في هذه البيئة نبَّهت عقل الشيخ محمد عبده إلى البدع الدينية وعملها في العقول والأخلاق ، ولكنها أيضاً مسَّت بعض الجوانب من نفس الفتى ، فتركت في منازعها المتسامية إلى الكمال والفهم موطن تأثر.

ثم أخذ الشيخ مصطفى عبد الرازق يُثني على البعثات العلمية التي تذهب إلى أوربا وما استحدثته تلك البعثات من الدعوة إلى حركة التجديد والإصلاح في الأزهر فقال: «إن إرسال البعثات العلمية إلى أوربا أوجد حركة تجديد في الأزهر ، وكان في ذلك العهد (أي : عهد الخديوي إسماعيل) قد انتشر التعليم النظامي في القطر المصري ، وأحسَّ الأزهر وأهله بذلك ، وكانت البعثة العلمية التي اختارها محمد علي باشا من بين نجباء الطلبة في الأزهر عام (١٢٤٢ هـ الموافق ١٨٢٦م) (وهي البعثة التي ضمت الشيخ رفاعة الطهطاوي - كما سبق وأشرنا) وقد حوّلت عدداً كبيراً من الأذكياء عن التعليم القديم الموروث إلى طريق جديد ، فاعتبرت في المرتبة الأولى علوم كانت في المرتبة الأخيرة - في نظر الأزهريين - وقد ساعدت هذه البعثة على إظهار ما في مناهج التعليم الأزهري من العيوب - كذا - أراد الجيل العلمي الجديد أن يُعرّب (يترجم) كُتباً أوربية مكتوبة في الغالب باللسان الفرنسي ، ومنذ يومئذ دخل الأزهر التنازع بين القديم والجديد ، أما الروح السائدة في التعليم الأزهري فكانت على ما وصفها بعض

١- والتوسل بأولياء الله - تعالى - حسب زعم كثير من المتصوفين يناقض عقيدة التوحيد ، فالرسول ﷺ قال للصحابي ابن عباس - رضي الله عنهما - وهو غلام : «إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله» [الحديث رواه الترمذي (٩/ ٤٣٠) حديث رقم ٢٧٠٦) وصححه الألباني] ويقول الله - عز وجل - ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة : ٣٥] والوسيلة لا تكون إلا من الله - عز وجل - وحده لا شريك له ، ولذلك فالتوسل بأولياء الله - تعالى - غير مشروع ، والاعتقاد بإمداد بشر ميت وإن كان من الصالحين للأحياء هو اعتقاد باطل ، طلب الاستغاثة والوسيلة بغير الله هو نوع من أنواع الشرك ، والذي يوقع فاعله في مهاوي الردى والضلال .. أعاذنا الله والقراء الكرام من ذلك .

علماء الفرنجة بقوله : (ولئن كانت أنماط التعليم والبحث في الأزهر تختلف عما هو مستعمل في الغرب للآن اختلافاً أساسيًّا ، فهي لا تختلف في شيء عن الأنماط التي كانت عندنا قديماً)[١] وبذلك يظهر أن شيخنا حينما جاء إلى الأزهر انضم إلى حزب التصوف ، فكان الأستاذ (أي : الشيخ محمد عبده) متصوفاً في الأزهر مدة الدراسة ، وانساق إلى دراسة الفلسفة الإسلامية بحكم نزوعه إلى التصوف ، والتصوف الإسلامي متأثر بمذاهب الفلسفة ، خصوصاً مذهب أرسطو - كذا - الذي يُعتبر إماماً لفلاسفة العرب[٢] .

وفي عام (١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م) حضر إلى مصر السيد جمال الدين الأفغاني فصاحبه الأستاذ الشيخ محمد عبده ، يحضر دروسه ، ويلازم مجالسه التي كانت مجالس حِكمة وعلم .. وكان السيد الأُفغاني وحده قادراً على تخليص الشيخ محمد عبده من خموله الصوفي ، وتخليصه من الحيرة في التماس الكمال العلمي .. وجملة القول : إن الشيخ محمد عبده كان ما بين (١٢٩٠ هـ/١٨٧٣م) إلى (١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م) صوفيًّا متفلسفاً ، ويظهر أن السيد جمال الدين الأفغاني خلعه من التصوف بمعنى الدروشة والانصراف إلى التحنث والرياضة إلى معنى جديد للتصوف ، فيُروى أن السيد الأفغاني كان يقول : (الفيلسوف إن لبس الخشن وأطال السبحة ، ولزم المسجد فهو صوفي وإن جلس في قهوة متاتيا[٣] ، وشرب الشيشة فهو فيلسوف) .

١- وهكذا تأثر الشيخ مصطفى عبد الرازق بكتابات الغربيين من الإفرنج - على حسب كتاباته - وهنا مكمن الخطورة وبيت القصيد الذي ننشده من كتابات هؤلاء العلماء الذين تأثروا بأفكار ومذاهب وكتابات المستشرقين وحاولوا تطبيق هذا الكلام وتلكم المفاهيم على تلامذتهم وطلابهم في الجامعات ، فقد كان الشيخ مصطفى عبد الرازق مُدرساً لمادة الفلسفة في جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) .

٢- وهذا عين ما قاله تلميذه النجيب الدكتور طه حسين بل إن التلميذ فاق أستاذه - كما سيأتي - وهذا ما قاله أيضاً أحمد لطفي السيد وكلهم نهلوا من معين واحد .

٣- متاتيا : أحد مقاهي القاهرة العتيقة ، ويقع في ميدان العتبة الخضراء ، وقد أُنشئت عمارة متاتيا في عام ١٨٧٥م واسم العمارة والمقهى يرجع لمهندس إيطالي يدعى (ماتيا) كلَّفه الخديوي إسماعيل بتحديث المنطقة المركزية لمدينة القاهرة ، فقام بتخطيط حديقة الأزبكية وتصميم دار الأوبرا (حالياً جراج الأوبرا متعدد الطوابق) =

ولعل الشيخ محمد عبده لما كتب حاشية العقائد كان ألمّ بقهوة (متاتيا) إلماماً[1] ومنذ ذلك العهد توجهت نفس الأستاذ إلى الإصلاح ، بعد أن كانت منصرفة إلى تلمس الحقائق والبحث العلمي ، وقد كان ذلك - من غير شك - بتأثر السيد جمال الدين الأفغاني وهدايته واشتغاله بالفلسفة ، وترجيحه لبعض مذاهب المعتزلة[2] ، ونهيه عن التقليد ودعوته إلى الاشتغال بالعلوم الحديثة وتحبيذه لعلوم الفرنجة .. ولذلك تأثر الشيخ محمد عبده بمبادئ أستاذه السيد جمال الدين الأُفغاني»[3] وهكذا كان تأثر الأفغاني على الشيخ محمد عبده الذي عَمِلَ «تحت إشراف الأفغاني ، وكان فيه خادماً لأهدافه ، يرى بعينيه ، ويُفكر بعقله ، ويكتب بوحيه ، وذلك واضح في رسائله التي ما أكثر ما تجد فيها مثل قوله : (فتلقيت من الأمر الجديد أن أكون على مقربة من الضوضاء) ، أو قوله : (تلقيت من الأمر الجديد أن أنحو نحو الشرق ، حيث مسيل الحادثات) ، أو قوله : (أُذِنْت أن أبعث لك ببعض القواعد التي ينبغي أن يُرفع البناء عليها) ، أو نحو ذلك مما يشهد أنه كان آلة في يده»[4] .

= وبناء عمارة متاتيا وكانت آنذاك إحدى أشهر عمائر مدينة القاهرة ، وكان في أسفل العمارة عدد من البارات والمقاهي وكان المقهى العمومي والمشهور باسم قهوة متاتيا وكان يجلس به الكثيرون من المشاهير منهم : أديب إسحق وهو صحفي أرمني - لبناني - مصري توفي سنة (١٨٨٥م) ، وجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وسعد باشا زغلول ، وقد تصدعت عمارة متاتيا بعد زلزال مصر عام (١٩٩٢م) وتم هدمها بأمر من محافظ القاهرة عام (١٩٩٩) .

١- إشارة من الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى أن الشيخ محمد عبده كان يُقلِّد أستاذه في تدخين الشيشة .

٢- وجميع طوائف المعتزلة قديماً وحديثاً أجمعوا على إعمال العقول في النصوص ، فقدَموا العقل الناقص على النص الكامل والتام من القرآن والسنة الصحيحة فجاءوا بطامات فصَّلتها كتب الفرق والملل والنِّحَل .

٣- بتصرف من مقال بعنوان : ترجمة الأستاذ الإمام ، للشيخ مصطفى عبد الرازق ، نشرته مجلة المنار (المجلد ٢٣، الجزء السابع ، ص ٥٢٠) .

٤- الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين ص ٧٤ ، وقد نقل كلام الشيخ محمد عبده من كتاب : تاريخ الأستاذ الإمام لرشيد رضا (٢-٥٥٣ ، ٥٥٦ ، ٥٦٥) .

وهذا التأثير واضح أيضاً في كتابات الشيخ محمد عبده وعلاقته الوثيقة بالفلسفة (والعلوم الحديثة وتحبيذه لعلوم الفرنج) كما نصَّ على ذلك تلميذه النجيب الشيخ مصطفى عبد الرازق الذي كان يقوم بتدريس هذه العلوم الحديثة وعلم الفلسفة على وجه الخصوص لطلابه وتلاميذه في جامعة القاهرة فخرجت أجيال متأثرة بتلك العلوم الغربية ، ومن المعلوم أن الشعوب المغلوبة والمقهورة دائماً ما تميل إلى تقليد الأمم الغالبة عليها ، وهذا التقليد وتلك المحاكاة تكون في كل شيء حتى في تقليد الأفكار ومحاكاة الطبائع وطُرُق المعيشة ، وقد كان للمسلمين ذلُّ الاتباع والتقليد حتى النخاع للغرب المسيحي «ثم وُجد من أهل العلم فيهم ومن أهل الرأي – من حاول أن يدافع عن الإسلام أسوأ دفاع – فصاروا يتقربون شيئاً فشيئاً لسادتهم ، بتأويل القرآن والسنة ، وتحريف معانيها ، ليقاربوا بين شريعتهم المطهرة ، وشرائع تلك الأمم الضالة المغضوب عليها .. بل ليقاربوا شريعتنا ونصوصنا الصريحة إلى عقائد الملحدين الوثنيين من أهل أوربا وأمريكا ، فكان في علمائنا وكُتَّابنا من يُنكر الغيب أو أكثره ، فيتأولون صفة الملائكة ، ووصف الجن ، ويُنكرون المعجزات النبوية عامة – لأنها لم ترد في القرآن ، زعموا !! ثم يُحرِّفون المعنى فيما ثبت منها في القرآن والسنة المتواترة ، ثم كشفوا عن وجوههم فضربوا على المسلمين قوانين أوربا ، ثم استباحوا أكثر المحرمات ، ويصرحون بإباحتها من غير حياء ولا غيرة ، بل إن من يحمل (شهادة العالمية) من الأزهر كتب في الصحف من غير حياء : (إن الإسلام يُحرِّم تعدد الزوجات) وضَعُف الأزهر كله عن أن يضرب على يديه ، خشية أن يغضب مَن وراءه ومَن ينصره في افترائه على الله»[1] وهذا نتاج طبيعي لدراسة الفلسفة الغربية وهوما حَذَّر منه علماء الأمة الأعلام – كما سبق وأشرنا – من دراسة تلك العلوم التي لا فائدة منها ولا طائل إلا المراء والجدل العقيم ، ولكن الأزهر الشريف للأسف فتح لهذا العلم وتوابعه الباب على مصراعيه وأطلق العنان لأصحابه وأعلى من شأنهم فتبوأوا

١– حكم الجاهلية للعلامة الشيخ أحمد محمد شاكر ص ٧٠ – ٧١ [الناشر مكتبة السنة – القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ – ١٩٩٢] .

أعلى المناصب حتى وصل كثير منهم إلى سدة المشيخة وهم يحملون شهادات الدكتوراه في الفلسفة من الجامعات الأوروبية وخاصة جامعة السوربون الفرنسية التي أعلت من شأن هذا العلم ، لذا فقد خرجت لنا أجيالاً متعاقبة ممن درسوا على أساتذة هذا العلم الجدلي العقيم فغُسلت العقول وفُرِّغت من علوم القرآن والسنة وحُشيت بعلوم أرسطو وأفلاطون وسقراط وبالسفوسطائيين والمناطقة (نسبة إلى علم المنطق اليوناني) . وابتعدوا كل البُعد عن دراسة العلوم الشرعية التي أطلقوا عليها علوم الجمود والتخلف وكل ذلك كان عن تخطيط متعمد ومؤامرة تكشَّفت خيوطها للعيان وهدفها الأساسي إبعاد الإسلام وأحكامه عن معترك الحياة العامة وقصره فقط على المسجد مع التضييق على الدعاة وحملة العلم الربانيين وإبعادهم تماماً عن الظهور وتفريق الناس عنهم .. فهذه كانت المرحلة الثانية من مراحل تأثر كثير من أهل الإسلام واتباعهم لسنن القوم والأمم التي لا تدين بهذا الدين العظيم والتي كانت من أبرز سماتها إرسال بعثات من الأزهر لدراسة العلوم الأفرنجية من الدول الأوربية وعلى رأس تلك الدول فرنسا ثم كانت المرحلة الثالثة والأخيرة من تلك المراحل والتي نضجت فيها الثمرة العفنة التي وضع بذرتها الأولى رفاعة الطهطاوي وهذا ما سنتحدث عنه في الفقرة التالية .

المرحلة الثالثة :

ثم تأتي المرحلة الثالثة من مراحل مسلسل تغريب الأمة وتقليد المذاهب الفكرية المعاصرة وانتقالها إلى عالمنا العربي والإسلامي وهي من أخطر المراحل وأدقها لأنها رسخَّت مفهوم التغريب في أذهان كثير من المتعلمين والمثقفين من خريجي الجامعات المصرية وخاصة جامعة الملك فؤاد الأول (القاهرة حالياً) وذلك لأنها تُعدّ من أكثر المراحل تطرفاً وراء انسياق كل ما هو غربي وأوروبي ، وكانت الدعوة في تلك المرحلة صريحة وواضحة في نبذ تعاليمنا الإسلامية وعاداتنا وتقاليدنا الشرقية واللهث وراء كل ما هو أوربي وغربي على مستوى التعليم والثقافة والإعلام والأدب ونبذ واحتقار كل ما يمت للإسلام بصلة ، وقد أسفرت تلك المرحلة عن حقيقة وبواعث ومكنون

الخطة التي وضعها اللورد كرومر (المندوب السامي البريطاني إبان الاحتلال الإنجليزي لمصر والذي سبق وأشرنا إليه) وهذه الخطة كانت تتمثل في تقاريره التي يرسلها إلى بلاده والتي كانت تتلخص على النحو التالي :

١ - في مصر اليوم جيل جديد يختلف عن أجداده (يقصد بذلك جيل الإصلاح بزعامة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده) في أمور كثيرة ، فيمكن أن تُحدِّثه نفسه يوماً بأن يمد إلى تلك الأركان القديمة يداً لا تعرف حرمة القديم ، فتكون أشد عليها من يد الحكومة التي نمدها اليوم طبقاً لإرشاد قوم لا شأن لهم في الأمر (يعني الإنجليز) لأنهم لا يدينون بالدين الإسلامي : فإذا كان لهذا الحساب نصيب من الصواب ، فالأجدر بأبناء اليوم أن يشرعوا في الإصلاح ويتلافوا الأمر قبل حلوله ، وعسى أن المصلحين من أبناء القطر (المصري) لا تضعف عزائمهم لأول فشل حلَّ بهم ، فإن الرأى العام لأبناء دينهم هو في جانبهم وهو ينمو ويزداد ، وإن كانوا لا يجهرون(١) .

٢ - أعلن كرومر أنه سيمحو من أذهان المصريين وسيهدم فيهم ثلاثاً :

القرآن والكعبة والأسرة المسلمة وجماع آرائه في هذا المجال هي قوله :

أولاً : «إن المسلمين لا يمكنهم أن يرقوا في سلم الحضارة والتجديد إلا بعد أن يتركوا دينهم وينبذوا القرآن وأوامره ظهريًا لأنه يأمرهم بالخمول والتعصب - كذا - ويبث فيهم روح البُغض لمن يخالفهم والشقاق وحب الانتقام ، وأن المانع الأعظم والعقبة الكؤود في سبيل رُقيِّ الأمة المصرية هو القرآن والكعبة والإسلام ، وأن الإسلام يناهض مدنية هذا العصر ويجعل المرأة في مركز منحط»!!

ثانياً : «إن الشاب المصري المسلم أثناء ممارسته التعليم الأوربي يفقد إسلامه أو أفضل قسم منه ، ويقطع حبل المرساة التي تربطه بمرفأ إيمانه . وإن الشبان

١ - وهذا كذب صراح وقلب للحقائق لأن الرأى العام المصري متدين ويميل إلى ذلك منذ القدم .

الذين يتلقون علومهم في أوربا يفقدون صلتهم الثقافية والروحية وبوطنهم ، ولا يستطيعون الالتجاء في نفس الوقت إلى البلد الذي منحهم ثقافته فيتأرجحون في الوسط .

ثالثاً : الإسلام خال من التسامح ويغلب عليه التعصب وأنه يغرس في العقول الانتقام والكُره اللذَيْن يجب أن يكونا أساساً للعلاقات بين الرجل والمرأة .

٣ - دعا كرومر إلى خلق طبقة من المتفرنجين والمستغربين من الوجهة الأوربية والمدنية الحديثة وقال : «إن هؤلاء جديرون بكل تنشيط ومعونة يمكن أن تُعطى لهم . هؤلاء هم حلفاء أوربا من المصلحين وسوف يجد محبو الوطنية المصرية أحسن أمل في ترقي أتباع الشيخ محمد عبده للحصول على مصر مستقلة بالتدريج .. إن هناك حزباً غير الذي استعمل لقب الوطني وهو حزب قلَّما يسمع أحد عنه ، ولكنه يزيد أتباعه يوماً بعْد يوم ويستحق اللقب قبل الحزب الآخر (ويقصد الحزب الوطني الذي كان يتزعمه الرجل الوطني المسلم المخلص مصطفى كامل) ، هذ الحزب هو ما أسميه بالاختصار : حزب أتباع المرحوم المفتي الشيخ محمد عبده ، وهو وطني بالحق لأنه يحاول ترقية مصالح مواطنيه وبنى وطنه وبنى دينه ولكن ليس على صيغة الدعوة الإسلامية ، وقد أرغمهم على مساعدة الأجانب لا مقاومتهم في إدخال التمدن الغربي إلى البلاد ورأيي أن معظم رجال الوطنية المصرية مُعلّق بهذا الحزب ، وفي الماضي لم يُشجعوا على العمل ، ولكن رجلاً من أشهر أعضائهم (يقصد سعد زغلول) عُيِّن أخيراً ناظراً للمعارف ، والغاية من تعيينه أنه يشترك في عمل الإصلاح وهو رجل كفء ومصري مستنير الذهن وهو من هذا الحزب»[١] .

من خلال استعراض بعض خيوط مؤامرة هذا الكرومر تتضح وتتكشف لنا الأمور تماماً أهمية هذه المرحلة الثالثة من تأثير الغرب على أمتنا الإسلامية وارتماء

١- اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار للأستاذ أنور الجندي - رحمه الله - ص ١٧٢ - ١٧٣ [الناشر : دار الاعتصام - القاهرة الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م] .

الكثير من أبناء الأمة في أحضان أفكار ومذاهب الغرب الصليبي الذي لا يكنّ لأمتنا إلا كل حقد وبُغض وعداء ومعهم بالطبع اليهود الملاعين وصدق الله العظيم الذي حذرنا منهم فقال - عز وجل - ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة :١٢٠] يقول الشوكاني عن هذه الآية : «وفي هذه الآية من الوعيد الشديد الذي تُرجف له القلوب ، وتتصدع منه الأفئدة ما يُوجب على أهل العلم الحاملين لحجج الله - سبحانه - والقائمين ببيان شرائعه ، ترك الادّهان لأهل البدع والمتمذهبين بمذاهب السوء ، التاركين العمل بالكتاب والسنة ، المؤثرين لمحض الرأي عليهم ، فإن غالب هؤلاء وإن أظهر قبولاً وأبان من أخلاقه ليناً لا يرضيه إلا اتباع بدعته ، والدخول في مداخله والوقوع في حبائله ، فإن فعل العَالِمَ ذلك بعد أنْ علّمه الله - عز وجل - من العلم ما يستفيد به أن هدى الله - سبحانه هو ما في كتابه وسُنّة رسوله ﷺ ، لا ما هم عليه من تلك البدع التي هي ضلالة محضة ، وجهالة بيِّنة ، ورأي منهار ، وتقليد على شفا جرف هار فهو إذ ذاك ما له من الله - عز وجل - من وليٍّ ولا نصير ، ومن كان كذلك فهو مخذول لا محالة ، وهالك بلا شك ولا شبهة»[١]

وقول الإمام الشوكاني هو الحق بإذن الله - تعالى وهو ما نريد أن نؤكد عليه وهو أن التمسك بالكتاب والسنة والاعتصام بهما النجاة والفلاح لكل مسلم ومسلمة ففيهما الهداية لكل البشر ممن ينتمون لهذا الدين العظيم وهو كذلك ردٌّ عملي على قول اللورد كرومر ومن وقع في شباكه وحبائله من الذين انبهروا بالثقافة الغربية ودافعوا عنها باستماتة وأرادوا محاكاتهم وتقليدهم في أفكارهم ومذاهبهم الضالة .. لذا فمن خلال ما سقناه آنفاً من خلال استعراض بعض خطط ومؤامرات الاستعمار الغربي يتبين لنا أن المرحلة الثالثة التي نحن بصدد الحديث عنها قد أسفرت عن مدرستين كانتا لهما الأثر الأكبر في تغريب عقول كثير من المثقفين والكُتَّاب على مستوى العالم العربي بأكمله حيث لازالت هاتان المدرستان تُخرّجان لنا عقولاً ذات طابع تغريبي والعامل المشترك بينهما دراسة الفلسفة اليونانية .

١- انظر : فتح القدير للشوكاني (١/ ٢٦٤) بتحقيق د. عبد الرحمن عميرة [الناشر : دار الوفاء - المنصورة - مصر] .

المدرسة الأولى : وهي ما يمكن أن نطلق عليها : المدرسة العقلية التغريبية ذات المرجعية الإسلامية . وهي التي سارت على درب ونهج وأسلوب جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده وتلميذه الشيخ مصطفى عبد الرازق والذي كان يُطلق عليه فيلسوف الإسلام وذلك لولعه وهيامه للفلسفة اليونانية وصاحبها أرسطو الذي أثنى عليه كثيراً - كما ذكرنا - وهذه المدرسة أيضاً لها طابع الفكر المعتزلي الذي يُقدِّم العقل الناقص على النص الصريح والصحيح الكامل وقد صبغت هذه المدرسة الفلسفة اليونانية بالفلسفة الإسلامية كما فعل سلفهم أمثال الكندي والفارابي وابن سينا مع أن أساطين المستشرقين أمثال أرنست رينان ، وكونت دي جلارزا وهو أول باحث مستشرق جلبته الجامعة المصرية لتدريس مادة الفلسفة - كما سيأتي - وغيرهما قد أقرُّوا أنه لا توجد فلسفة عربية وإنما هذه الفلسفة المنسوبة إلى العرب قديماً كفلسفة ابن سينا وابن رشد والفارابي إنما هي فلسفة يونانية مكتوبة باللغة العربية ، ثم سار تلامذة هذا المستشرق الذين درسوا على يديه مادة الفلسفة يرددون كالببغاوات هذه المقولة - كما سيأتي أيضاً - إذن فالذي يهمنا أن نتحدث عنه أن هذه المدرسة ذات العقلية التغريبية والمرجعية الإسلامية كان لها رموز كُثر أعملوا عقولهم في النصوص الإسلامية ليخدموا بها مصالح المستعمر الأجنبي وأهم تلك المصالح هي إبعاد الإسلام تماماً عن الحكم وفصل الدين عن السياسة ، وكان من أبرز رموز تلك المدرسة من خريجي الأزهر الشريف :

الشيخ علي عبد الرازق : الأخ الأصغر للشيخ مصطفى عبد الرازق ، شيخ الجامع الأزهر عام (١٩٤٥م) والذي تحدثنا عنه آنفاً .. إذن فاسم الشيخ بالكامل هو : علي بن حسن بن أحمد محمد عبد الرازق من مواليد قرية أبي جرج بمحافظة المنيا عام (١٨٨٨م) وتُوفي عام (١٩٦٦م) عن عمر يناهز (٧٨سنة) وأسره الشيخ كانت تنتمي إلى ما يُسمى بحزب الأحرار الدستوريين[1] وقتذاك وقد تخرَّج الشيخ بشهادة العالمية

١- وهو حزب ليبرالي تحرري ، دافع عن الشيخ علي عبد الرازق باستماتة تحت زعم حرية الرأي والفكر وهذا الحزب العلماني كان يمالئ الإنجليز ويُدافع عن السراي في ذاك الوقت وذلك من خلال جريدتهم الموسومة بـ (السياسة) وقد تزعّم هذا الحزب العلماني عبدالعزيز فهمي باشا عام ١٩٥٢ م وكان يشغل منصب وزير الحقانية (العدل) حين صدور كتاب الشيخ علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) الذي سنتحدث عنه لاحقاً .

كأخيه من الأزهر الشريف وهما ذرية بعضها من بعض فإلى جانب أنهما أزهريان إلا أنهما ينتميان إلى المدرسة التغريبية العقلية فكما أن الشيخ مصطفى عبد الرازق درس اللغة الفرنسية والفلسفة من جامعة السوربون بباريس كذلك الشيخ علي عبد الرازق درس الفلسفة واللغة الإنجليزية من جامعة أكسفورد البريطانية ،وقد حاضر كلاهما في جامعة القاهرة ودرَّسا الفلسفة وعلوم أرسطو وسقراط وأفلاطون وتأثرا بآراء وأفكار كثير من المستشرقين وقد تخرَّج على أيديهما جيلٌ يحمل نفس الفكر التغريبي مما كان له أكبر الأثر السيئ على ثقافتنا العربية والإسلامية - كما سيأتي - .

ولقد كان الشيخ علي عبد الرازق أكثر جرأة من أخيه في تهكمه على ثوابت الإسلام الأصلية ، حيث أصدر عام ١٩٢٥م كتاباً بعنوان (الإسلام وأصول الحكم) والذي أثار جدلاً وضجة كبيرة حين صدوره حيث طرح فيه نظريته الموافقة لنظرية الغرب المسيحي في علمانية الدولة ودعوته الصريحة لفصل الدين الإسلامي عن السياسة والحكم ، وقد خدم بذلك خطة ومؤامرة اللورد كرومر والتي ترتكز على إبعاد الإسلام وشريعته السمحاء نهائيًا عن أصول الحكم وقصره فقط على المساجد وفي أضيق الحدود - كما حصل بعد ذلك وتم له ما أراد - وقد نال الشيخ علي عبد الرازق التشجيع والدعم علي فكرته التي طرحها في كتابه من قِبَل الاستعمار الإنجليزي آنذاك ، وذلك لأنها تتفق وتتماشى مع أهدافهم المنشودة التي تتواءم مع فكر مدرسة الفكر التغريبي والعقلاني ذي المرجعية الإسلامية بزعامة الشيخ محمد عبده وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد عمارة وهو من أصحاب مدرسة الإصلاحيين الجُدد في معرض تفنيده ورده على كتاب الشيخ علي عبد الرازق : الإسلام وأصول الحكم : «فلم يكن علي عبد الرازق سوى امتداد متطور للشيخ محمد عبده في الإصلاح الديني ، بل إن آراءه في موضوع الخلافة قد كانت في عدد من نقاطها الجوهرية تفصيلاً وبلورة وتطويراً لآراء الأستاذ الإمام (يقصد الشيخ محمد عبده) في ذات الموضوع ، وقد أشارت جريدة «التايمز» البريطانية إلى هذه الحقيقة فقالت : (وأما الشيخ علي عبدالرازق

فهو خلف الشيخ محمد عبده وقاسم بك أمين[1] في آرائهما الفكرية السامية ، وقد استطاع الشيخ محمد عبده ، بفضل نفوذ اللورد كرومر ، أن ينجو من المطاعن الكثيرة ومن عداء السراي ، ولم ينل المصلحون الآخرون أنصاراً مثل ما نال الشيخ محمد عبده)[2] .

ثم يقول الدكتور محمد عمارة في نقده لكتاب علي عبد الرازق (الإسلام وأصول الحكم) : «إننا نرى في الكتاب عديداً من نقاط الضعف والمآخذ الفكرية والسلبيات ، وإننا لا نرى رأيَ المؤلف في عدد غير قليل من القضايا والنقاط ، ومن ذلك أن المؤلف كثيراً ما يقع في التناقض عندما يعرض بالتقييم لطبيعة بعض الفترات الزمنية في تاريخنا الإسلامي»[3] ثم أخذ الدكتور عمارة يُفنّد مزاعم الشيخ علي عبد الرازق التي بثها بين ثنايا كتابه والتي ركّز فيها على هدم نظرية الخلافة في الإسلام ، إلا أن الدكتور عمارة كان يميل إلى الفكر المعتزلي في تحليله ونقده للكتاب فنراه يقول : «أما التيار الفكري الذي عبَّر بصدق عن روح الإسلام وتعاليمه الكلية وقوانينه العامة في هذا المجال ،

١- هو : قاسم محمد أمين وُلِدَ عام (١٨٦٣م) وأقام بحيٍّ الحلمية الأرستقراطي - آنذاك - وحصل على الثانوية العامة والتحق بمدرسة الحقوق وتخرَّج منها عام (١٨٨١م) ثم سافر إلى فرنسا في بعثة دراسية وانضم لجامعة (مونبيليه) لدراسة القانون الفرنسي وكان على صلة بجمال الدين الأفغاني واشتغل كمترجم خاص للشيخ محمد عبده أثناء إقامته في باريس ، وقد تأثر كثيراً بأفكار فرنسا التحريرية وعندما عاد إلى مصر ألَّف كتاب (تحرير المرأة) عام ١٨٩٩م بدعم من الشيخ محمد عبده ، وقد زعم في هذا الكتاب أن حجاب المرأة المسلمة ليس من الإسلام ،وقال إن الدعوة إلى السفور ليست خروجاً عن الدين ، وقد تأثر بهذه الفكرة سعد باشا زغلول الذي دعا زوجته صفية زغلول لخلع حجابها وقد ردَّ عليه القائد والزعيم مصطفى كامل حيث هاجمه وربط أفكاره بأفكار الاستعمار الإنجليزي ، وقد رد عليه كثير من العلماء والمشايخ والأدباء إلا أن ردهم ذهب أدراج الرياح وانتصرت دعوة قاسم أمين في الدعوة إلى السفور والتبرج والذي عانت منه الأمة ولا تزال من هذه الدعاوى الهدامة التي تبناها من يُطلق عليهم بزعماء وأساتذة الأمة .. وسوف نأتي بمزيد تعريف لهذا الرجل وفكره عند حديثنا عن رموز المدرسة الثانية

٢- الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق دراسة وثائقية للدكتور محمد عمارة ص ٣١ [الناشر : المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - بنان] .

٣- الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق ، دراسة ووثائق بقلم د. محمد عمارة ص ٤٣ .

فهو تيار المعتزلة الفكري»[1] وقد نال الشيخ علي عبد الرازق قسطاً وافراً من الرد والتقريع من علماء الأمة الإسلامية على آرائه وأفكاره التي طرحها في كتابه المزعوم والتي أراد من خلالها أن يخدم أهداف الاستعمار الإنجليزي على وجه الخصوص - في ذاك الوقت - ويخدم كذلك - وهذا هو الأهم- الفكر التغريبي - على وجه العموم - والذي أراد هذا الفكر إزاحة وتهميش كل ما هو إسلامي ليتربع على كرسي الهيمنة والسيطرة على مقدرات الأمة وعلى جميع المحاور والميادين لينفث من خلال ذلك سموم تعاليم أفكار المذاهب التغريبية الواردة لنا من الغرب المسيحي على مختلف أشكالها وألوانها ، وبذلك تتضح لنا الصورة كاملة لما أخبر به الصادق المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه - في حديث الفصل الذي سقناه آنفاً «لتتبعن سنن من كان قبلكم».

ولذلك لم يقف علماء الأمة الإسلامية مكتوفي الأيدي عندما ظهر كتاب الشيخ علي عبد الرازق ، فقد قام العديد منهم بالرد عليه وتفنيد أفكاره الباطلة التي ذكرها في كتابه منهم الشيخ محمد الخضر حسين - شيخ الأزهر الأسبق ومنهم مفتي تونس السابق فضيلة الشيخ الطاهر بن عاشور والذي قال في معرض رده على الكتاب : «إن الإسلام دين معضد بالدولة وأن دولته في ضمنه لأن امتزاج الدين بالدولة وكون مرجعهما واحداً هو ملاك قوام الدين ودوامه ومنتهى سعادة البشر في اتباعه حتى لا يحتاج الدين - الذي هو مُصلح البشر - في تأييده إلى الوقوف بأبواب غير بابه .. وقد قال الشيخ علي عبد الرازق تحت عنوان (رسالة.. لا حكم ، ودين لا دولة) في كتابه (الإسلام وأصول الحكم) : إن النبي ﷺ لم يكن له مُلك ولا حكومة ولا قام بتأسيس مملكة) وأخذ يتخبط ويهذي ويضطرب وينقض كلامه بعد سطور حيث قال : وقد يسوس الرسول الأمة سياسة الملوك وله وظيفة زائدة وهي اتصاله بأرواح الأمة - كذا - لا سيما ورسول الله ﷺ جاء

١- المصدر السابق ص ٥٠ .

بدعوة عامة ، فهي توجب له من تأييد الله ما يناسب تلك الدعوة ، فلذلك كان سلطانه سلطاناً عامًّا له أقصى ما يمكن من درجات نفوذ القول وهو سلطان ترسله السماء وهي ولاية روحية لا ولاية تدبير مصالح الحياة وعمارة الأرض .. إلى آخر الهذيان والضلال الذي ذكره الشيخ في كتابه ..

ثم قال الشيخ الطاهر بن عاشور : «فهذا الكلام يظهر مقدار اضطرابه ، فإن أوله يُنكر أن للرسول حكومة (ولا دولة) ثم يُثبت زعامته ثم حكم بأنها أقوى من زعامة صاحب الحكومة ، ثم أثبت أنها قد تكون مثل سياسة الملوك ، ثم أثبت له سلطاناً عامًّا ، ثم جعل سلطانه مرسلاً من السماء ، ثم أخيراً حكم بأن ولايته روحية لا ولاية تدبير مصالح .. ولا يعزب عند من لديه مسكة عقل ما في هذا الكلام من الاضطراب وفساد الوضع ... ثم قال الشيخ ابن عاشور : «إن الإسلام وحدة دينية وجامعة وشريعة وسلطان ، ولا معنى للحكومة إلا مجموع هاته الأمور ، وقد جمع رسول الله ﷺ الأمة في دعوته وسنَّ لها قوانين معاملاتها الفردية والاجتماعية وتولى بنفسه الانتصاف من المظلوم للظالم ، فقضى وغرَّم وأقام الحدود من العقوبات وأبطل كل سلطة ورئاسة مدنية ليست جارية على أصول الإسلام ، وتولى الدفاع عن حوزة الإسلام وقاتل أعداء الأمة ومن أراد تفريق جمعها ، ثم قاتل لتوسيع سلطانها وتأمين البلاد وشرع لها موارد مالية لإقامة مصالحها .. أتقوم الدولة والحكومات بغير هذه الأعمال؟!..»[1] .

وقد قام الأزهر الشريف بتأليف لجنة من هيئة كبار العلماء برئاسة شيخ الجامع الأزهر آنذاك : محمد أبو الفضل الجيزاوي[2] . وأصدرت حكمها التاريخي بدار

١- بتصرف من : نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم ص ١٩-٢٠ للأستاذ العلاّمة الجليل الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ، مفتي المالكية بالديار التونسية ، الناشر : المطبعة السلفية ومكتبتها ، الطبعة الأولى عام ١٣٤٤ هـ .

٢- هو فضيلة الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي ، وُلِدَ في قرية الورَّاق بمحافظة الجيزة - مصر عام ١٢٦٤هـ الموافق ١٨٧٤م ، وتلقى تعليمه الأزهري على يد العديد من مشايخ الأزهر الشريف وتولى المشيخة عام ١٣٣٥ هـ الموافق ١٩١٧ م وعاصر أحداث ثورة ١٩١٩م ، وقاد مسيرة الأزهر في خضم أحداث تلك الثورة ولقى ربه - عز وجل - عام ١٣٤٦ هـ الموافق ١٩٢٧ م .

الإدارة العامة للمعاهد الدينية في يوم الأربعاء الموافق الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة ١٣٤٤ هـ الموافق الثاني عشر من شهر أغسطس عام ١٩٢٥ م والذي جاء فيه «حكمنا نحن شيخ الجامع الأزهر بإجماع أربعة وعشرين عالماً معنا من هيئة كبار العلماء بإخراج الشيخ علي عبد الرازق ، أحد علماء الأزهر والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية ، ومؤلف كتاب (الإسلام وأصول الحكم) من زُمرة العلماء»[١] .

وهكذا طُرِد المدعو علي عبد الرازق شر طردة من زُمرة علماء الأزهر وأصبح شريداً طريداً يُدرِّس في الجامعة المصرية ما تلقاه ودرسه عن أساتذته من المستشرقين اليهود والنصارى الذي أكثر من النقل من مصادرهم في كتابه سالف الذكر دون الرجوع إلى مصادره الأصلية والأصيلة التي تعلم من خلالها علمه الشرعي ، فكان جزاؤه تلكم الإهانة والفضيحة التي نالها على رءوس الأشهاد في الدنيا ، وصدق الله - عز وجل - فيه وفي أمثاله قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج : ١٨] .

وهكذا كانت أفكار وآراء الشيخ على عبد الرازق خريج مدرسة الأفغاني والشيخ محمد عبده التغريبية والتي خرج بها عن إجماع علماء الأمة الإسلامية واتبع هواه في تقليد الغرب في أفكارهم ومذاهبهم وبذلك وضع الشيخ علي عبد الرازق في كتابه سالف الذكر أول نواة للدعوة إلى فصل الدين الإسلامي عن السياسة والحكم وهي الدعوة نفسها التي أطلقتها المذاهب الفكرية الغربية تحت دعاوى شتى كالعلمانية والليبرالية وغير ذلك من الدعوات التي لم تكن معروفة في عالمنا العربي والإسلامي ولم تكن لهذه الدعوات أرضية قط في عالمنا العربي إلا عبر طريق هؤلاء ممن يسمون بدعاة التغريب الذين تأثروا وانبهروا بحضارة الغرب فنقلوا

١- راجع : مجلة المنار ، المجلد ٢٦ العدد (٥) الصادر سنة ١٣٤٤ هـ من شهر صفر الموافق شهر سبتمبر عام ١٩٢٥م ص ٣٩٣ .

عنها كل غث وغث وخاصة بعض أصحاب المدرسة التغريبية العقلية ذات المرجعية الإسلامية من أصحاب العمائم ممن درسوا الفلسفة وعلم النفس والاجتماع في الجامعات الغربية وخاصة الفرنسية .

وهذه شهادة من أحد علماء الأزهر الذين درسوا في إحدى الجامعات الفرنسية وهو فضيلة شيخ الأزهر الأسبق الدكتور عبد الحليم محمود[1] رحمه الله تعالى والذي لم تبهره تلكم الحضارة الزائفة كما بهرت غيره من علماء ومشايخ الأزهر الذين سافروا إلى أوربا لينهلوا من علومها الفلسفية الجدلية العقيمة ولم يتأثر كما تأثروا بأساتذتهم من اليهود والنصارى وتمسّك - رحمه الله - بأصوله الإسلامية والمتمثلة في كتاب الله - عز وجل - وسُنَّة نبيه ﷺ فلم تزلَّ قدمه كما زلَّت أقدامهم ولم ينخدع بمعسول كلامهم كما انخدع غيره ممن درسوا علوم القوم وخاصة علم الفلسفة فيقول الشيخ - رحمه الله - تحت عنوان جانبي (تجربتي مع الفلسفة) «لقد كان ذلك أول عهدي بجامعة باريس حينما ذهبت إلى فرنسا للدراسة .. ودخلت الجامعة ، وبدأت الدراسة في علم الاجتماع ، وعلم النفس ، ومادة

١- هو : الشيخ عبد الحليم محمود ، المولود في الثاني من جمادى الأولى عام ١٣٢٨ هـ الموافق الثاني عشر من شهر مايو عام ١٩١٠م بمركز بلبيس بمحافظة الشرقية التحق بالأزهر عام ١٩٢٣م وحصل على الشهادة العالمية (عام ١٣٥١ هـ الموافق ١٩٣٢م) ثم سافر إلى فرنسا على نفقته الخاصة للحصول على الماجستير والدكتوراه من جامعة باريس في الفلسفة الإسلامية عن الحارث المحاسبي وذلك عام ١٣٥٩ هـ الموافق ١٩٤٠م ، ثم عاد إلى مصر وتدرج في سلك التدريس حتى عُيِّن عميداً لكلية أصول الدين عام ١٣٨٤ هـ الموافق ١٩٦٤م، ثم عُيِّن وزيراً للأوقاف ثم صدر قرار تعيينه كشيخ للأزهر في السابع والعشرين من مارس عام ١٩٧٣ .. له الكثير من المواقف التي تشهد بصدعه للحق وأهمها رأيه في الفلسفة الغربية التي درسها في منبعها وأصدر فيها حكمه العادل الذي أثبتناه ، وقد تصدى أيضاً ووقف حائلاً دون تنفيذ قانون الأحوال الشخصية والذي كان يُسمى آنذاك بقانون (جيهان) نسبة إلى جيهان السادات وكانت من أهم دعوات الشيخ دعوته إلى تطبيق الشريعة الإسلامية والتي قال عنها : «لقد آن الأوان لإرواء الأشواق الظامئة في القلوب إلى وضع شريعة الله بيننا في موضعها الصحيح ليبدلنا الله بعسرنا يسرنا وبخوفنا أمناً» رحل الشيخ عن عالمنا في صبيحة يوم الثلاثاء الموافق (١٥ ذو القعدة ١٣٩٧ هـ الموافق ١٧ أكتوبر عام ١٩٧٨) تاركاً ذكرى طيبة ونموذجاً فذًّا لما يجب أن يكون عليه شيخ الأزهر - رحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله خيراً عما قدَّمه للإسلام والمسلمين .

الأخلاق ، وتاريخ الأديان . وكانت هذه المواد يتزعم دراستها وتدريسها الأساتذة اليهود ، أو الذين تتلمذوا على الأساتذة اليهود ، كالأستاذ (دوركايم) اليهودي[١] ، الذي أخذ يعمل بمعاول هدَّامة في كل القيم والمفاهيم الدينية والأخلاقية ، وأخذ تلميذه الأكبر اليهودي (أيضاً) (ليفي بروهل) ينهج منهجه ويسير على طريقه في علم الاجتماع وفي علم الأخلاق . وكتاب ليفي بروهل : (الأخلاق وعلم العادات) - مثل واضح وصارخ لهذا النوع من هدم القيم ومحاولة القضاء على كل المـُثُـل .. والشاب الذي انتقل من الأقسام الثانوية إلى الجامعة يتأثر بأستاذه ، فإذا كان الأساتذة متعاونين على هدم القيم الثابتة والمُثل العليا التي يقررها الدين وتقررها الأخلاق - إذا كان الأمر كذلك - فإن الطالب الذي يعيش في أجواء تتعاون كلها على هدم عقائده ومُثُله وقيمه ينتهي به الأمر - في الغالب الأعم من الحالات - بأن تنهار هذه القيم في شعوره .

ومن هنا كانت الظاهرة التي تجدها في طلبة الجامعات في أوربا من الاستخفاف بكثير من العقائد ، وبكثير من القيم ، وينتهي الطالب إلى الإلحاد ، أو على أقل تقدير بالإيمان الكامن الذي لا فاعليه ولا تأثير له في سلوك الإنسان[٢] .

١- وهذا اليهودي تتلمذ على يديه العديد من مشايخ وعلماء ومُفكري مصر وأشهرهم - كما أشرنا - شيخ الأزهر السابق مصطفى عبد الرازق وتتلمذ على يديه أيضاً الدكتور طه حسين وقاسم أمين صاحب كتاب (تحرير المرأة) وغيرهم ممن تأثروا بفكر هذا اليهودي ممن أعملوا معاول الهدم في قيمهم وعاداتهم وتقاليدهم الإسلامية والشرقية حتى خرج علينا طه حسين - عامله الله بما يستحق - ليتبرأ من ثقافته الإسلامية ويدعو علانية وفي جرأة يحسد عليها إلى الانخراط التام نحو الثقافة الغربية والأوربية - كما سيأتي - فخرجت لنا أجيال ممسوخة عقائديًا وفكريًا ومنسلخة تماماً عن أصولها وجذورها الإسلامية .

٢- وهذا ما أصبح عليه كثير من أبنائنا الذين درسوا علي يد أساتذة يؤمنون تماماً بمثل تلك الأفكار والمذاهب الغربية الضالة والتي تم غسيل أدمغتهم بمثل هذه الأفكار والآراء المنحرفة عن أصولنا الإسلامية فارتابوا في دينهم وتشككوا في إيمانهم فسمعنا عمن تأثروا بالفكر الشيوعي الذي يُنكر وجود الإله أو الذين يعتنقون الفكر العلماني اللاديني المتطرف ، ثم أصبحنا نقرأ عن وجود مواقع إلكترونية تحمل أسماء مثل : اللادينيون العرب أو الملحدون العرب وكل ذلك نتاج دراسة مثل هذه العلوم الغربية التي تسلب الدارس دينه وتشككه في إيمانه - كما ذكر الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود - رحمه الله تعالى .

وكانت هذه المواد تسير في تيار محدد ، هو أنها (علوم مجتمع) ، أي : أنها لا تتقيد بوحي السماء ، ولا تتقيد بالدين على أنه وضع إلهي ، فهي تدرس موضوعاتها على أنها ظواهر اجتماعية وظواهر إنسانية ، وبدأنا في الدراسة نسمع مختلف الآراء في نشأة الدين ، ومختلف الآراء في تفسير النبوة ،وينتهي الأمر برأي الأستاذ في الموضوع .. لقد فسَّرت الجامعات الأوربية العلم على أنه القواعد التي تقوم على التجربة والملاحظة ، والتزمت بأن تُفسِّر وأن تشرح علم الاجتماع، وعلم النفس ، وجميع الظواهر في الآفاق وفي الأنفس ، على هذا الأساس المادي البحت الذي لا علاقة له بالدين أو بوحي السماء ، والتزمت ذلك أيضاً في تاريخ الأديان .. هذه العلوم بالذات وفروعها تتعاون في جامعات الغرب – لتقود الإنسان متساندة إلي الإلحاد .

ثم يتساءل الشيخ : ما هدفهم من ذلك ؟ وما غايتهم ؟ ثم يقول الشيخ : «وما كنت أجد جواباً عن هذا السؤال آنئذ ، لكني عرفت فيما بعد أن هذا هو المنهج اليهودي الذي رسموه بعد تفكير طويل ، والتزموا القيام به بكل الوسائل أو بكل الطرق ، وهو منهج التشكيك في القيم والمُثُل والعقائد والأخلاق ! .

يستخدمون هذا المنهج في المجالات المختلفة لإفساد المجتمعات وتحللها أخلاقيًّا ودينيًّا ، ويُضيفون إليه العمل على إثارة العمال على أصحاب رؤوس الأموال ،وعلى إيجاد الضغائن والفتن بين مختلف فئات الشعب ، والثمرة التي يعملون دائبين على الوصول إليها : أن تكون المجتمعات شاكة مملوءة بالفتن ، وذلك سبيلهم إلى السيطرة.. إن اليهود يهدفون من وراء كل ذلك إلى السيطرة على العالم إنهم يحطمون القيم والمُثل حتى لا يكون في المجتمعات قوة من عقائد ، أو قوة من خُلُق . ومن أجل ذلك تعاونوا على أن تكون لهم الكلمة الأولى في الجامعات (الغربية) في علم الاجتماع وفي علم النفس ، وفي مادة الأخلاق ، وفي تاريخ الأديان .. وفي الفلسفة ، ولم يكن من السهل عليَّ في أثناء هذه الدراسة الاستمساك الواثق بالقيم والمُثُل التي نشأت عليها . ولولا عون الله – سبحانه – وتوفيق منه ، ولولا لطف الله – تعالى – لصرت كواحد من هؤلاء الألوف الذين

يدرسون في الجامعات الأوربية ، ثم يخرجون منها وقد تحطمت في نفوسهم المُثل الدينية الكريمة»[1] .

فهذا اعتراف صارخ وواضح وصريح من أحد المشايخ الذين درسوا في الجامعات الغربية وخاصة الفرنسية منها ودرس العلوم الفلسفية فعصمه الله - عز وجل - من أفكارهم المنحرفة وتشبث بثوابته وأصوله وقيمه الإسلامية والتي نبذها غيره ممن درسوا في نفس الجامعات ونهلوا من نفس التخصصات ودرسوا على يد الأساتذة أنفسهم من اليهود والنصارى - الذين أشار إليهم الشيخ - رحمه الله- ولكنهم للأسف تأثروا بهم تأثراً بالغاً وتم غسل أدمغتهم حتى أصبحوا أكثر تطرفاً وغلوًّا في أفكارهم من غيرهم وهم أصحاب المدرسة الثانية التي سنتحدث عنها في الفقرة القادمة .

المدرسة الثانية :

وهي ما يمكن أن نطلق عليها : المدرسة العقلية التغريبية ذات الأصول والمرجعية الغربية ، وهذه المدرسة حملت على عاتقها تغريب الثقافة الإسلامية ، ومن ثَمَّ نشر ما يُسمى الفكر التنويري (وهو الظلامي) في المجتمع المصري ، وقد ساعد على انتشار هذا الفكر التغريبي إنشاء الجامعة المصرية أو جامعة فؤاد الأول سابقاً ، وقد تأسست هذه الجامعة عام ١٩٠٨م أيام كانت مصر واقعة تحت الانتداب البريطاني بقيادة اللورد كرومر - الذي تحدثنا عنه آنفاً - وقد كان إنشاء الجامعة بمثابة البديل عن التعليم الأساسي في مصر آنذاك والذي كان يتمثل في الأزهر الشريف ومعاهده الدينية المنتشرة في ربوع البلاد فقط .. وقد كانت فكرة إنشاء الجامعة إبان عصر محمد علي باشا قائمة على تعليم وتدريس الهندسة والطب وقد تم بالفعل تأسيس المهندسخانة عام (١٨٢٠م) والمدرسة الطبية عام ١٨٢٧م ولكن ما لبثا أن أُغلقا في عهد الخديوي محمد

١- بتصرف من : المشكلة الأخلاقية والفلاسفة لأندريه كريستون ترجمه وقدَّم له الإمام عبد الحليم محمود والأستاذ أبو بكر ذكري ص ٤٤ وما بعدها [الناشر : مطابع دار الشعب - القاهرة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م] .

سعيد عام (١٨٥٠م) ثم افتتحت الجامعة المصرية بموافقة اللورد كرومر ولكن هذه المرة لتدريس الحقوق والآداب ، فمدرسة الحقوق كان يُدرَّس فيها القانون الفرنسي كبديل عن القانون الإسلامي وأما الآدب فلدراسة العلوم الفلسفية وقد تم جلب العديد من المستشرقين من فرنسا وبريطانيا وإيطاليا لتدريس علوم الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع ودراسة القانون الفرنسي .

ولا يخفى على ذي بصيرة الهدف الحقيقي من وراء دراسة تلكم العلوم التي تحدث عنها الشيخ عبدالحليم محمود - رحمه الله - وخلص إلى الغاية من دراستها - كما سبق وأشرنا إلى ذلك - ناهيك عمن سافروا إلى أوربا لينهلوا من علوم جامعتها ومن ثَمَّ يرجعوا ليُدرسوا تلكم العلوم الفلسفية الباهتة في الجامعة المصرية .. أما عن أبرز نجوم هذه المدرسة التغريبية المتطرفة وأشهر رموزها ممن تأثروا بعلوم الغرب المسيحي وحملوا عبء نشر هذا العلم والفكر الفلسفي التغريبي فهم على سبيل الاختصار لأنهم كُثر :

١ - **أحمد لطفي السيد** : وأصحاب هذه المدرسة يُطلقون عليه عدة ألقاب منها : الفيلسوف المصري ، ورائد حركة النهضة والتنوير في مصر ، وأستاذ الجيل .. إلى غير ذلك من الأوصاف والنعوت التي أسبغها عليه كثيرون من تلامذته ومريديه ، وهو من مواليد مركز السنبلاوين بمحافظة الدقهلية عام ١٨٧٢م ، وتخرّج من مدرسة الحقوق سنة ١٨٩٤م ، وتعرَّف أثناء دراسته على الشيخ محمد عبده وتأثر بأفكاره ، كما تأثر بملازمة جمال الدين الأفغاني ، وكان مولعاً بقراءة كتب أرسطو ونقل بعضها إلى اللغة العربية منها كتاب (علم الأخلاق) عندما كان يعمل مديراً لدار الكتب المصرية عام ١٩٢٥م حيث قال في مقدمة الكتاب : «مع أن نقل كتب الفلسفة لم يكن مقصوراً على كتب أرسطو ، فإن فلسفة أرسطو هي التي غلبت على الفلسفة العربية وطبعتها بطابعها ، والواقع أن الفلسفة العربية ليست شيئاً غير فلسفة أرسطو ، طُبعت بالطابع العربي ،سُميت الفلسفة العربية وبقيت صلة النسب بين الفلسفتين طيبة إلى حد أن الجامعات الأوربية في العصور الأخيرة من القرون الوسطى كانت تدرس الفلسفة

العربية باعتبار أنها فلسفة المشَّائين أي : فلسفة أرسطو»[١] وهذا الرأي نقله أحمد لطفي السيد عن كثير من المستشرقين الغربيين وعلى رأسهم الكونت دي جلارزا الذي يعتبر أول باحث ومستشرق جاء إلى مصر لتدريس مادة الفلسفة ، ثم خلص أحمد لطفي السيد إلى الدعوة الصريحة إلى الاتجاه لنقل العلم الغربي إلى بلادنا فقال : «وكما أن النهضة الأوربية الحديثة عمدت إلى درس فلسفة أرسطو على نصوصها الأصلية فكانت مفتاحاً للتفكير العصري الذي أخرج كثيراً من المواهب الفلسفية الحديثة ، فلا جرم أن نتخذ نحن من فلسفة أرسطو لا سيما أنها أشد المذاهب ائتلافاً مع مألوفاتنا والطريق الأقرب إلى نقل العلم إلى بلادنا وتأقلمه فيها رجاء أن ينتج في النهضة الشرقية مثل ما أنتج في النهضة الغربية»[٢] . وقد قام أحمد لطفي السيد مع جماعة من أعيان مصر منهم سعد زغلول وصديقه القديم عبد العزيز فهمي وبدعم من اللورد كرومر بتأسيس حزب الأمة عام (١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧م) وتولى هو سكرتارية الحزب ورأس صحيفته المعروفة وقتذاك باسم (الجريدة) ومن خلالها حمل أحمد لطفي السيد لواء دعوة جديدة «عارضت الخط الممتد السائد والقائم على مفهومه الأصيل حين دعا إلى (مصر للمصريين) ومهاجمة الدعوة إلى تأسيس الجامعة الإسلامية التي كان يدعو إليها السلطان عبد الحميد الثاني وكان يقول : «نريد الوطن المصري والاحتفاظ به ، والغيرة عليه كغيرة التركي على وطنه ، والإنجليزي على قوميته ، لا أن نجعل أنفسنا وبلادنا على المشاع ، وسط ما يسمى بالجامعة الإسلامية» . وكانت بالطبع هذه الدعوة وأمثالها مما يروق للورد كرومر المندوب السامي البريطاني - آنذاك - والتي تهدف كذلك إلى تحقيق مآربه ومخططاته والتي كان من أهمها :

١- نقلاً عن المؤامرة على الإسلام للأستاذ أنور الجندي ص ١٧٨ (مصدر سابق ، وفلسفة المشائين تُنسب لأفلاطون وليست لأرسطو ، وسُمِّيت بذلك لأن أفلاطون كان يُملي دروسه وأفكاره على تلاميذه وهو يمشي فسُمّيت مدرسته بذلك .

٢- المصدر السابق ص ١٧٩ .

أ - القضاء على فكرة الوحدة الإسلامية : باعتبارها رابطة العالم الإسلامي جغرافيًّا وسياسيًّا .

ب - القضاء على مضمون الفكرة الإسلامية في مجال المجتمع والقانون والدين .

ج - ترسيخ سياسة (فرق - تسد) عن طريق تأجيج العنصرية والدعوة إلى القوميات العربية ..

ومن خلال ما سبق يمكن أن نبلور برنامج وفكر أحمد لطفي السيد التغريبي إلى النحو التالي :

دعوته الصريحة للإيمان بالمبادئ الغربية كالليبرالية والعلمانية عن طريق دعوته الصريحة لنبذ (مألوفاتنا) أي : موروث الأمة الإسلامية والاتجاه نحو النهضة الغربية وقد تمثل ذلك في دعوته إلى :

أولاً : (عدم تعليم أبناء الفقراء) فالتعليم - من وجهة نظره المريضة - يكون قاصراً على أبناء الأعيان الذين سيتولون الحكم ومقاومة تعليم سواد الأمة ومعارضة الاتجاه إلى مجانية التعليم ،وذلك لنشر الجهل والأمية وهذا عين توجه اللورد كرومر وأهم أهداف المستعمر الإنجليزي .

ثانياً : (مقاومة التضامن العربي والإسلامي) ودعوته الصريحة من خلال كتاباته بعدم نُصرة الشعب الليبي إبان احتلال إيطاليا لأرض ليبيا ومهاجمة كل من يمد يد المساعدة للمجاهدين الليبيين ومهاجمة كذلك الدعوة لإنشاء الجامعة الإسلامية - كما سبق وأشرنا - .

ثالثاً : (دعوته للقضاء على الفصحى) وقد هاجم اللغة العربية الفصحى هجوماً عنيفاً ودعا إلى إصلاح الكتابة وتمصيرها ، واقتراحه عام ١٨٩٩م بتغيير الحروف بالدلالة على الحركات وهي دعوة استشراقية دعا إليها بعض

القساوسة أمثال الراهب انستاس الكرميلي[1] ، وقد تبنى أحمد لطفي السيد هذه الدعوة إلى العامية المصرية والكتابة بها !!

وبذلك كان أحمد لطفي السيد خادماً أميناً لأهداف اللورد كرومر التي سبق وأشرنا إليها - ولذلك تأسَّف كثيراً وتحسَّر طويلاً على مغادرة كرومر لمصر بعد أن اطمأن على من سيقوم بتنفيذ سياسته الهدَّامة من بعده والذي وصفهم بأنهم (أصحاب المصالح الحقيقية) ممن سيتسلمون قيادة الأمة من بعده ، وقد قام أحمد لطفي السيد بتكييل المدائح والتمجيد في اللورد كرومر عندما غادر مصر غير مأسوف عليه من قبل المخلصين والوطنيين الحقيقيين ، أما لطفي السيد وأترابه من صنائع المستعمر الإنجليزي فكتبوا فيه الأشعار وأحاطوه بهالة من التمجيد وهو الذي طيلة ربع قرن من الاحتلال الإنجليزي حاول تغريب المجتمع المصري وطبعه بالطابع الإنجليزي ولم يفلح ، حيث قال لطفي السيد يوم خروج كرومر من مصر : «أمامنا الآن رجل عظيم من أعظم عظماء الرجال - كذا - ، ويندر أن نجد في التاريخ المعاصر نِدًّا له يضارعه في عظائم الأعمال». نشر هذا الغثاء في جريدة حزبه المسماة (الجرائد) وفي نفس اليوم ألقى كرومر خطاب الوداع ، فسبَّ المصريين جميعاً وفي تحدٍّ بالغ لهم قال : «إن الاحتلال البريطاني باقٍ إلى الأبد»[2] .

هذا هو أحمد لطفي السيد الذي أسبغ عليه أتباعه ومريدوه وحتى الآن ألقابا لا يستحقها وبذلك خرجت أجيال من مدرسة أحمد لطفي السيد الفكرية التغريبية تدافع عنه وتؤيده في أفكاره التخريبية والتي تأثر فيها بالمذاهب الغربية على اختلاف مشاربها وأهمها دراسة الفكر الأرسطو اليوناني والدعوة إلى الاقتباس منه .

١- انظر : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد محمد حسين (٢/ ٣٦٠) [الناشر مكتبة الآداب - القاهرة] وانظر كذلك اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار للأستاذ أنور الجندي ص ١٧٧ (مصدر سابق) .

٢- انظر : رجال اختلف فيهم الرأي للأستاذ أنور الجندي ص ٥ .

ومن العجيب أن الأستاذ أنور الجندي قال عن الترجمات التي قام بها أحمد لطفي السيد عن أرسطو أنها ليست له ، حيث قال : «تبين أن مترجمات لطفي السيد عن أرسطو (التي تُرجمت من الفرنسية) مثل : (السياسة ، الكون ، والفساد ، والأخلاق) وهي منسوبة إليه ، تبين أنها ليست من أعماله وأنه ليس مترجمها وأن مترجمها الحقيقي هو قسم الترجمة في دار الكتب المصرية !! وذلك بشهادة عديد من معاصريه في هذه الفترة»[1] وهكذا كانت حياة أحمد لطفي السيد الفكرية والعقائدية التي نبذ فيها الإسلام تماماً واتجه نحو الفكر التغريبي الخالص لينهل من معينه الآسن وانتهت حياة هذا الرجل - عليه من الله ما يستحق - في شهر مارس عام ١٩٦٣م وكان هذا الرجل من أبرز رموز هذه المدرسة التغريبية المتطرفة فكريًّا ..

ومن أهم رموز تلك المدرسة التغريبية المتطرفة في أفكارها :

٢ - **قاسم محمد أمين** : المعروف بقاسم أمين أحد ما يسمى بمؤسسي الحركة الوطنية في مصر ورائد حركة تحرير المرأة ، وُلِدَ في بلدة طُرة القريبة من القاهرة في ديسمبر من عام (١٨٦٣م) وحصل على الثانوية العامة والتحق بمدرسة الحقوق والإدارة وحصل منها على الليسانس عام ١٨٨١م ، ثم سافر إلى بعثة دراسية بباريس وانضم إلى جامعة مونبلييه الفرنسية وأنهى دراسة القانون عام ١٨٨٥م وأثناء دراسته بفرنسا جدَّد صلاته مع جمال الدين الأفغاني ومدرسته حيث كان المترجم الخاص للشيخ محمد عبده في باريس قبل أن يتقن الشيخ اللغة الفرنسية ، وعندما عاد إلى مصر كان منبهراً بما شاهده وتعلمه في فرنسا وبدأ دعوته من خلال كتاباته في جريدة (المؤيد) عن العلل الاجتماعية في مصر وذلك من خلال الدعوة إلى تحرير المرأة حيث كان يرى أن تربية النساء هي أساس كل شيء وكان يقول : إن الدعوة إلى السفور ليست خروجاً عن الدين وأن العُزلة بين المرأة والرجل لم تكن أساساً من أسس الشريعة ، ثم دعا إلى

١- المصدر السابق ص ٦ ، أي : أنه سارق للفكر والثقافة كغيره من أرباب هذا الفكر المنحرف ، وكما سيأتي عن طه حسين أيضاً .

التحرير الكامل للمرأة وخروجها إلى الحياة العامة ، وقد أثارت كتاباته ضجة من الاحتجاجات وعاصفة من النقد - في ذاك الوقت - وقد ردّ عليه في نفس السنة التي دعا إلى هذا الانحلال الأخلاقي زعيم الأمة الحقيقي مصطفى كامل - آنذاك - حيث هاجمه وربط أفكاره بالاستعمار الإنجليزي ، وممن ردَّ عليه في حينها رجل الاقتصاد الوطني طلعت باشا حرب بكتاب اسمه (فصل الخطاب في المرأة والحجاب) قال فيه: «إن رفع الحجاب والاختلاط كلاهما أُمنية تتمناها أوربا» .

وهكذا نجد ارتباط الرجل بالعادات الغربية وتقليده الأعمى لها كانت من الأسباب الرئيسة لدعوته إلى سفور المرأة وانحلالها ، وقد احتضن أذناب الفكر التغريبى هذه الدعوة وعلى رأسهم بالطبع أحمد لطفي السيد الذي آزر حركة تحرير المرأة والداعي إليها ، فكتب في صحيفة (الجريدة) التي كانت الناطق بلسان حزب الأمة (آنذاك : «إن قاسم أمين هو القدوة الحسنة وأن على الشباب المصري أن يعتنق أنماط وأفكار قاسم أمين في حُسن تفكيره».

ويقول الدكتور حسين النجار : «حظيت دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة من تأييد أحمد لطفي السيد بما لم تحظ به من كاتب أو صحفي»[1] وتطبيقاً من لطفي السيد لهذه الحركة التحررية للمرأة قام (عندما كان مديراً للجامعة المصرية عام ١٩٢٥م) بخطة ماكرة هو وأذنابه أقرّوا فيها دخول (البنات) لأول مرة في الجامعة المصرية ، وكانت أول مجموعة من الفتيات قبلتهم الجامعة ثلاث طالبات في كلية الآداب وواحدة في كلية الحقوق وكان ذلك عام ١٩٣٣م ، وهذا إيماناً منه بفكرة ودعوة قاسم أمين للاختلاط وخروج المرأة إلى الحياة العامة وهذه القضية قد نذر لها قاسم أمين حياته (١٨٦٣م وحتى وفاته عام ١٩٠٨م) فقد أراد للمرأة المصرية خاصة والعربية عامة أن تتحرر وتقتدي بالمرأة الغربية ، وقد تأثر بدعوته في ذاك الوقت العديد من الشخصيات العامة وعلى رأسهم سعد زغلول وزوجته صفية زغلول التي نزعت الحجاب وسمح

١- أحمد لطفي السيد ، للدكتور حسين النجار ص ٢٤٣ .

لها زوجها (الباشا) بمجالسة أصدقائه من الرجال وفي ذلك يقول الكاتب الصحفي الراحل مصطفى أمين متحدثاً عن واقع بيت زعيم الأمة «كان غريباً في تلك الأيام أن يُدعى رجل من غير أفراد الأسرة للجلوس على مائدة واحدة مع سيدات الأسرة ، ولكن الفلاح الأزهري القديم سعد زغلول كان لا يجد غضاضة في أن يجلس أصدقاؤه المقربون مع أسرته لتناول الغداء والعشاء . وكانت هذه ظاهرة غريبة في بيت سعد زغلول!!» .

إن معاصريه ما كانوا ليسمحوا لزوجاتهم برؤية أصدقائهم ، ولا يذكر أحد من أصدقاء عدلي يكن باشا أنه رأى وجه زوجته ، ولا يذكر أقرب صديق لحسين رشدي باشا أنه تناول معه الغداء في حضور زوجته .. بل الأغرب من هذا كله أن قاسم أمين زعيم تحرير المرأة ، كان يتردد باستمرار على بيت سعد زغلول ويتناول الغداء معه ومع زوجته صفية ، ولكن زوجة قاسم أمين لم تحضر هذا الغداء الدوري مرة واحدة ، وإذا حضرت فكانت لا تكشف وجهها أمامهم ، بل إنها إذا تناولت الغداء مع صفية كانت تُعد لها مائدة في غرفة أخرى ، وبذلك يتضح أن قاسم أمين الرجل الذي دعا المرأة المصرية إلى السفور ونزع الحجاب فشل في إقناع زوجته بأن تنزع حجابها»[1] .

وهكذا نجد أن رمزاً من رموز المدرسة التغريبية والتخريبية ذات الأصول الغربية كان صاحب أكبر معول هدم في الأمة الإسلامية وأنه قد خدم بدعوته وفكرته الهدامة أحد أهم أهداف مخطط اللورد كرومر ألا وهو هدم وتفكيك الأسرة المسلمة المصرية وبذلك من خلال دعوة المرأة للخروج من خدرها واختلاطها بالرجال ومزاحمتهم في الطرقات ، وهذا إن دل فإنما يدل على مدى إيمان قاسم أمين العميق بحضارة الغرب وتأثره بما شاهده وتعلمه في فرنسا وملازمته لمن يسمون بدعاة الإصلاح أمثال الأفغاني ومحمد عبده ، وإعلانه بلا مداراة أن التمسك بالماضي (أي : الإسلام) هو من الأهواء

١- واحد من عشرة لمصطفى أمين ص ١١٩ - ١٢٠ ، نقلاً عن مقال بعنوان : قاسم أمين لأبي الهيثم محمد درويش.

التي يجب أن ينهض الجميع لمحاربتها ، لأنه - حسب زعمه وخياله المريض - ميل يجر إلى التدني والتقهقر ، وأنه هو الداء الذي تلزم المبادرة إلى علاجه ، وليس له دواء إلا من خلال معرفة شؤون المدنية الغربية والحضارة الأوربية والوقوف على كل صغيرة وكبيرة فيها ، وهذا لعمرى هو الهدف الأسمى لهذه المدرسة التغريبية التي نعاني من فلولها وأتباعها إلى الآن .. ولذلك يقول محمد فريد وجدي عن دعوة قاسم أمين : «إن دعوته قد أحدثت تدهوراً مريعاً في الآداب العامة وأحدثت انتشاراً مُفزعاً لمبدأ العزوبة ، وأصبحت ساحات المحاكم مليئة بقضايا هتك الأعراض وهروب الشابات من دور أهلهن» .

وقد كانت هناك ملابسات وأسباب دفعت قاسم أمين لكتابة هذا الكلام الذي كتبه عن تحرير المرأة ، وحول هذا المعنى يقول الأستاذ أنور الجندي - رحمه الله - «في محاولة لتقويم حركة قاسم أمين لتحرير المرأة بعد أن قربت وثائق عدَّة تكشف عن خطة أشبه بالمؤامرة وراء هذه الدعوة ولكي نعرف خلفيات هذه القضية يجب أن نذكر شيئاً مهمًّا وهو أن كتاباً ظهر في مصر عام ١٨٩٤م (أي : بعد الاحتلال البريطاني لمصر بعام واحد) لأحد المحامين المصريين ويدعى (مرقص فهمي) تحت عنوان (المرأة في الشرق) صوّر فيه خطة الاستعمار في المطالبة بتحقيق أربعة أغراض هي :

- القضاء على الحجاب الإسلامي .
- إباحة الاختلاط للمرأة المسلمة بالأجانب عنها .
- تقييد الطلاق ووجوب وقوعه أمام القاضي .
- منع الزواج بأكثر من واحدة .

وكان هذا المخطط هو النواة الأساسية للنفوذ الأجنبي الذي تُدرس على ضوئه حركة قاسم أمين إلى ما يُسمى بتحرير المرأة والتي لم يكن وحده حامل لوائها ، فقد

كتب داود بركات[1] في جريدة الأهرام الصادرة في ٤ مايو عام ١٩٢٧ م مقالاً يقول فيه : «إن قاسم أمين قرأ كتاب الدوق (داركير) المسمى (المصريين) وردَّ عليه بكتاب باللغة الفرنسية وفنّد اتهاماته .. فلما ظهر هذا الكتاب وصف بأنه لم يكن في صف النهضة النسائية .. فقد رفع الكتاب من شأن الحجاب وعدَّه دليلاً على كمال المرأة ، كما ندد بالداعيات إلى السفور ، وقد رأت الأميرة نازلي فاضل[2] تعريضاً بها ثم استطرد يقول : وكانت الأميرة نازلي فاضل لها صالون يحضره سعد زغلول ومحمد عبده وجماعة من الطامعين إلى تولي السلطة في مصر تحت قيادة النفوذ البريطاني وبرعاية اللورد كرومر ويقول داود بركات متابعاً : وقد أُشير على جريدة المقطم - وهي لسان حال الإنجليز في مصر - في ذاك الوقت - أن تكتب ست مقالات عن الكتاب تُفنّد أخطاء قاسم أمين في هذا الاتجاه ودفاعه عن الحجاب واستنكاره اختلاط الجنسين. ثم أوقفت الحملة بعد اتفاق الشيخ محمد عبده وسعد زغلول مع قاسم أمين على تصحيح رأيه .. وقد حمل الشيخ محمد عبده الدعوة إلى تحرير المرأة في دروسه في (الرواق العباسي) بالأزهر حين أعلن أن الرجل والمرأة متساويان عند الله .. وقد ترددت آراء كثيرة بأن الشيخ محمد عبده كتب بعض فصول الكتاب (أي : كتاب تحرير المرأة) أو كان له دور كبير في مراجعته ، ومما أورده لطفي السيد أنه اجتمع في جنيف عام

١- هو : داود بن جريس بن الخوري عبد الله بن الخوري يوسف بن بركات ، وُلِدَ في قرية يحشوش (من كسروان بلبنان) عام ١٢٨٤ هـ الموافق ١٨٦٧ م وقد تولى رئاسة تحرير الأهرام بأمر من أرملة صاحب الجريدة بشارة تقلا (اللبناني) وذلك بعد أن هاجر إلى مصر واشتغل مدرساً في مدرسة الأمريكان بزفتى وطنطا ثم انتقل إلى القاهرة للعمل صحفيًّا ، ويعتبر داود بركات خامس رئيس لتحرير الأهرام وقد نال هذا المنصب لإجادته فن الكتابة في ذاك الوقت وقد نجح في مهمته ونهض بجريدة الأهرام من خلال تحقيقاته وكتاباته ، توفي عام ١٣٥٢ هـ الموافق ١٩٣٣م .

٢- هي : الأميرة نازلي مصطفى باشا نجل إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا ، وهي صاحبة أول صالون نسائي أدبي عربي في القرن التاسع عشر وكان يحضره رموز وقيادات مصر آنذاك مثل الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وأحمد لطفي السيد وقاسم أمين ، وكانت من الداعيات إلى سفور المرأة واختلاطها بالرجال ، وكانت أداة طيعة في أيادي الإنجليز يتلاعبون بها كيف شاؤوا بزعامة اللورد كرومر .

١٨٩٧م بالشيخ محمد عبده وقاسم أمين وسعد زغلول وأن قاسم أمين أخذ يتلو عليه فقرات من كتاب تحرير المرأة وُصفت بأنها تنم عن أسلوب الشيخ محمد عبده نفسه . فهذه شهادة من كاتب ورئيس تحرير جريدة الأهرام الصادرة عام ١٩٢٧م والتي أقرَّ فيها بأن قاسم أمين قد تراجع عن رأيه الذي كتبه دفاعاً عن المرأة مما كتبه المستشرق الفرنسي الدوق (دار كير) الذي هاجم فيه المرأة المصرية خاصة والعربية على وجه العموم ووصفها بأوصاف بذيئة فما من قاسم أمين إلا أن كتب مدافعاً عن المرأة ولكنه سرعان ما نكص على عقبيه بعد تأثير الشيخ محمد عبده وتهديد الأميرة نازلي فاضل له.

ولكي نزيد القارئ الكريم اطمئناناً لهذا الرأي نذكر شهادة الكاتب الصحفي فارس نمر[1] وهو من أصحاب جريدة المقطم والمقال الذي كتبه ذكره الأستاذ أنور الجندي أنه كان في مجلة الحديث (الحلبية) الصادرة عام ١٩٣٩م والذي قال فيه : «إنه ظهر كتاب الدوق (دار كير) يطعن فيه على المصريين طعناً مُرًّا ، ويخص النساء بأكبر قسط منه . إذ رماهن بالجهل وضعف مكانتهن في المجتمع .. فهاتج الشباب وتطوع قاسم أمين للرد على كتابه .. ويستطرد فارس نمر فيقول : وهنا أُشير إلى حقيقة لا يكاد يعلمها إلا ندرة في مصر . هذه الحقيقة أن كتاب قاسم أمين الذي رد فيه على الدوق (دار كير) لم يكن في صف النهضة النسائية التي كانت تمثلها الأميرة نازلي .. بل كان الكتاب يتناول الرد على مطاعن المؤلف الفرنسي ، ويرفع من شأن الحجاب ، ويعده دليلاً على كمال المرأة ، ويندد بالداعيات إلى السفور ، واشتراك المرأة في الأعمال العامة.. ولما ظهر كتابه هذا ساء ما به إخوانه ممن كانوا يترددون على صالون الأميرة نازلي أمثال الشيخ محمد عبده وسعد زغلول ، والمويلحي ،

١- هو : فارس بن نمر بن فارس بنِ أبي ناعسة وُلِدَ في قرية حاصبيا بلبنان عام ١٨٥٦م ، وقد شارك اليهودي يعقوب صروف في إنشاء مجلة المقتطف الشهرية ببيروت عام ١٨٧٦م ، ثم انتقل إلى مصر في أواخر عام ١٨٨٤ م وشارك اليهودي الآخر شاهين مكاريوس جريدة (المقطم) اليومية لسان حال الإنجليز في ذاك الوقت ، وقد توفي في القاهرة عام (١٩٥١م) وقد شغل منصب عضو في مجلس الشيوخ المصري [راجع : الأعلام للزركلي (٥/ ١٢٧)] .

ورأوا فيه تعريضاً لها ، فتشاوروا فيما بينهم في الرد ، واتفقوا أخيراً أن أتولى الكتابة عن هذا الموقف ، ولكن النقد لم يرق في نظرهم ورأوا أن أفضل وسيلة يبذلونها لكي أكفَّ عن الكتابة أن قاسم أمين يرجو الأميرة نازلي فاضل لكي تطلب أن يُغيّر رأيه .. وتطوع الشيخ محمد عبده للقيام بهذه المهمة هو وسعد زغلول والمويلحي وغيرهم على أن يتقدم قاسم أمين بالاعتذار إلى الأميرة .. فقبلت الاعتذار ، ثم أخذ يتردد على صالونها .. وكلما مرَّت الأيام ازدادت في عينيه ، وارتفع مقامها عنده .. وإذا به يضع كتابه الأول عن المرأة الذي كان الفضل فيه للأميرة نازلي والذي أقام الدنيا وأقعدها بعد أن كان أكثر الناس دعوة إلى الحجاب»[1] .

وهكذا تراجع قاسم أمين عن موقفه المؤيد للحجاب بعد إقناع الشيخ محمد عبده وسعد زغلول والمويلحي بتغيير رأيه وخاصة بعد أن خلعت صفية زغلول زوجة سعد زغلول حجابها بمباركة وموافقة من زوجها - كما ذكرنا - .

يقول الأستاذ أنور الجندي - رحمه الله إن قاسم أمين كتب مقالاً قبل وفاته بعام ونصف اكتشف فيه أنه خلال سبع سنوات من دعوته إلى تحرير المرأة أنها جاءت استدراجاً ومرضاة لنفوذ وليست خالصة لوجه الله - تعالى - حيث يقول : (إنها لم تكن قائمة على أُسسها الصحيحة وهي الدعوة إلى تربية الخلق والإيمان بالله ، وأنها لم تكن على طريق الحق) ثم يُعلق الأستاذ الجندي بقوله : «ربما أن قاسم أمين رأى بعد أن تغيَّرت الظروف بزوال اللورد كرومر ووفاة محمد عبده وانطفأ نفوذ نازلي فاضل (ربيبة كرومر) أن يتخفف من التبعية .. وربما كان لبعض التجارب أثرها في نفسه ..

ومما يُروى في ذلك أن صديقاً عزيزاً لقاسم أمين زاره ذات مرة فلما فتح له الباب قال له : جئت هذه المرة من أجل التحدث مع زوجتك !!! فدهش قاسم .. كيف يطلب مقابلة زوجته !! فقال له صديقه : ألست تدعو إلى ذلك ؟ إذن لماذا لا تقبل التجربة مع نفسك .. فبهت قاسم أمين وأطرق صامتاً .

---

١ - مجلة الحديث (الحلبية) الصادرة عام ١٩٣٩ م نقلاً عن رجال اختلف فيهم الرأى ص ٢٠ .

ومما يذكر أن السيدة زوجة قاسم أمين كتبت منذ سنوات تعلن أن دعوة زوجها قاسم أيمن كانت خطيرة وأنها لم تكن قائمة على أساس صحيح»[1] .

وهكذا كانت دعوة قاسم أمين أحد رموز المدرسة التغريبية المتطرفة !!

ومن أشهر رموز هذه المدرسة أيضاً والذي كان له اليد الطولى في تخريب وتغريب كثير من عقول الأجيال المتعاقبة من المصريين خاصة والعرب على وجه العموم وبه نختم حديثنا عن هذه المدرسة التخريبية التغريبية ذات الأصول الغربية والمتطرفة في أفكارها وآرائها ألا وهو :

٣ - الدكتور طه حسين : أطلقوا عليه عميد الأدب العربي ، وقيل إن الغرب وكبار المستشرقين الغربيين من اليهود والنصارى آنذاك هم الذين خلعوا عليه هذا اللقب ، ووصفه أتباعه ومريدوه بعدّة أوصاف منها : رائد التنوير في العالم العربي ، ومُبدع السيرة الذاتية ، ورائد الحركة الأدبية العربية الحديثة إلى غير ذلك مما خلعه عليه دعاة الظلامية في مصر والعالم العربي من التغريبيين .. وُلد طه حسين في الخامس عشر من شهر نوفمبر عام ١٨٨٩م في محافظة المنيا بصعيد مصر ، وأُصيب بالعمى وهو في سن الرابعة ، وتعلَّم في كُتَّاب القرية فحفظ القرآن وفي عام ١٩٠٢م دخل الأزهر وتتلمذ على يد محمد عبده ومصطفى عبد الرازق ، وكان ممن تأثر بهما ، وكذلك كان من المتأثرين بدعوة قاسم أمين ومسَّه من فكره الثائر ما دعاه إلى الثورة التي اعتملت في داخله على الأزهر والأزهريين ثم ثار بعد ذلك على ما أسماه (القديم) ونبذه وخلع رداء الإسلام وعلومه وخاصة اللغة والأدب والدعوة إلى (الجديد) والمتمثل في لبس الرداء الأوربي والتوجه نحو الفكر الغربي بكل ما حواه منبهراً بمحاكاة الغرب ، فكان نصيبه الطرد من الأزهر ، فلجأ إلى الجامعة المصرية الأهلية وكان من أوائل المنتسبين إليها وذلك عام ١٩٠٨م ، وإننا نلحظ هذه الثورة وتلك النقمة على الأزهر والدراسة فيه من خلال تلك الموازنة التي عقدها حين تكلم عن نفسه أثناء دراسته في الأزهر صباحاً على يد مشايخ الأزهر وبين دراسته في المساء على يد المستشرقين الغربيين .

---

١ - بتصرف من رجال اختلف فيهم الرأى للأستاذ أنور الجندي ص ٢١ .

فيقول : «كنت أعيش في ذلك الحيِّ أخرج منه مصبحاً إلى الأزهر فأسمع فيه دروس الأدب من الأستاذ العظيم السيد علي المرصفي ، وأخرج منه مع المساء إلى الجامعة المصرية فأسمع فيه دروس الأدب من الأستاذ العظيم (كارلو نالينو)[1] . وكانت دروس الأدب تلك التي كنت أسمعها في الأزهر حين يرتفع الضحى تردني إلى حياة الطلاب القدماء الذين كانوا يختلفون إلى العلماء في مساجد البصرة والكوفة وبغداد ، وكانت دروس الأدب التي كنت أسمعها في الجامعة حين يُقبل المساء تدفعني إلى حياة الطلاب الذين يختلفون إلى الجامعات في روما وباريس وغيرهما من المدن الجامعية الأوربية الكبرى . فكنت أعيش مع الماضي البعيد وجه النهار ، وأعيش مع الحاضر الأوربي الحديث آخر النهار»[2] .

هذا هو المعنى الحقيقي الذي كان يعيش ويعتمل داخل طه حسين : تمرد ونقمة على ماضٍ سحيق بغيض قديم يتمثل في الأزهر وعلومه بل وكل شيء ينتمي إليه بداية بالحُصْر البالية - حسب تعبيره - التي كان يجلس عليها أثناء تلقيه دروس الأدب في الصباح ونهاية بزي الأزهر والمتمثل في العمائم المتعارف عليها عند القاصي والداني وهي رمز الأزهر وشرف لا يدانيه شرف لمن يرتديه .

ولكن طه حسين تمرد على كل هذا لأنه انبهر قبل سفره إلى فرنسا بكل جديد فانبهر بالجامعة المصرية المدنية المتحضرة التي كان يُدْرس فيها أساتذة أجانب ممن يرتدون الزيِّ الأفرنجي وكان يجلس على الكراسي - حسب تعبيره أيضاً - وكان ذلك عام ١٩١١م إبان الاستعمار الإنجليزي لمصر ، وكان هذا المستشرق الإيطالي ممن يُدرسون إليه وكان من المعجبين به أشد الإعجاب ، فيقول عنه : «إن دروس الأستاذ (نالينو)

١- مستشرق إيطالي جاء إلى مصر ليلقي عدّة محاضرات في الجامعة المصرية الأهلية قبل أن تصبح حكومية وكان ذلك بين عامي (١٩١٠ - ١٩١١ م) وقد جمعت ابنة ذاك المستشرق : مريم نالينو تلك المحاضرات في كتاب وقام طه حسين بالتقديم له .

٢- مقدمة كتاب : تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية ص ٧ لكارلو نالينو [الناشر : دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية] قدَّم له بمقدمة طويلة طه حسين .

في الجامعة المصرية القديمة كانت هي الموجه الأول لنهضتنا العلمية - كذا - في دراسة الأدب مباشرة أو بالواسطة .. وما أعرف للأستاذ (نالينو) نظيراً في التوجيه العميق للنهضة المصرية إلا زميله الأستاذ (ستلانا)[1] الذي أحدث - هو الآخر - في مصر نهضة خطيرة في دراسة الفلسفة الإسلامية وفي الصلة بين هذه الفلسفة وبين الفلسفة اليونانية القديمة»[2] .

وهذا الإعجاب بكل ما هو غربي إنما يرجع إلى أن الشعوب المغلوبة والمقهورة دائماً ما تميل إلى تقليد الأمم الغالبة عليها ، وهذا التقليد الأعمى والمحاكاة البغيضة يكون في كل شيء حتى في تقليد الأفكار والمعتقدات ومحاكاة الطبائع والعادات بل وطُرق المعيشة وفي كل شيء .

وقد كان طه حسين الذي جاء من أقصى قرى محافظة المنيا والذي كان يعيش في أسرة فقيرة وله إخوة كُثر ، تركهم وجاء إلى القاهرة ليدرس في الأزهر فنقم وتبرّم من الدراسة فيه ثم انبهر واندهش بأسلوب المستشرقين من اليهود والنصارى الذي درس على أيديهم في الجامعة المصرية القديمة ولذلك آثر الاستمرار في تلك الدراسة المدنية التي هي في نظره (الجديد الذي يحلم به وتتوق نفسه إليه) وذلك بعدما تمرَّد على الأزهر الذي يرى فيه (الجمود والتخلف وثباته على القديم وعدم قدرته على التجديد - حسب كلامه) والأزهر نفسه لم يتحمل سخافاته وتطاوله عليه ، فطرده الأزهر شر طردة كما طرد من قبله علي عبد الرازق ، ولذلك وجد طه حسين نفسه مع المدنية في

١- هو : المستشرق (ديفيد سانتلانا) ، وُلِدَ في تونس عام (١٨٥٥م) من أسرة يهودية ذات أصول أسبانية ،وحوالي عام (١٨٨٠م) التحق بكلية الحقوق في جامعة روما ، ومنها حصل على ليسانس الحقوق ، وفي عام (١٩١٠م) استدعته الجامعة المصرية الأهلية القديمة ليقوم بتدريس الفلسفة الإسلامية ، وقام بإلقاء عدّة محاضرات عن تاريخ الفلسفة الإسلامية ،وقد ألقاها باللغة العربية التي كان يتقنها شأنه في ذلك شأن بقية المستشرقين الذين جلبتهم الجامعة المصرية - آنذاك - بدعم من اللورد كرومر للتدريس وإلقاء المحاضرات على الطلبة المصريين أمثال طه حسين [راجع ترجمة هذا المستشرق في موسوعة المستشرقين للدكتور عبد الرحمن بدوي ص ٣٤١ الناشر : دار العلم للملايين بيروت] .

٢- مقدمة كتاب : تاريخ الآداب العربية لكارلو نالينو ص ١١ . (مصدر سابق) .

الجامعة المصرية القديمة واحتضنته الجامعة بأساتذتها من المستشرقين الذين وجدوا فيه بغيتهم كأداة طيِّعة لتنفيذ مآربهم ومخططهم الذي وضعه المندوب السامي البريطاني اللورد كرومر - والذي تحدثنا عن أهدافه ومخططاته الداعية إلى خلع مصر من عروبتها وإسلامها عن طريق تغيير ثقافتها وعاداتها وتقاليدها ...

ومن ثَمَّ حصل طه حين على الدكتوراه من الجامعة المصرية القديمة عام (١٩١٤م) وكان موضوع الرسالة عن قدوته وأسوته الذي استلهم من أفكاره وآرائه وأشعاره الإلحادية واقتبس من ظلام كتاباته الكثير والكثير كانت موضوع رسالته عن أبي العلاء المعري[(١)].

وكانت طيلة دراسته في الجامعة ينهل من معين المستشرقين الآسن وقد تم غسل عقله تماماً على يد مجموعة مختارة ومنتقاة من أساتذة في المواد النظرية كالفلسفة والتاريخ وعلم الاجتماع (الغربي) وهؤلاء هم الذين جلبتهم الجامعة المصرية القديمة برعاية وعناية اللورد كرومر - حسب خطته ومؤامرته التي اتضحت خيوطها فيما بعد، فبدلاً من استقدام علماء من المتخصصين في العلوم المهمة كالطب والهندسة والفيزياء

١- هو : أحمد بن عبد الله بن سليمان القضاعي التنوخي المعرِّي ، نسبة إلى مَعَرَّة النعمان (في سوريا) التي وُلِدَ فيها عام (٣٦٣هـ/ ٩٧٣) ، وتوفي بها عام (٤٩٩ هـ-١٠٥٧م) ، فَقَدَ بصره وهو في سن الرابعة من عمره ، وكان شاعراً ثائراً على أوضاعه متمرداً على كل شيء ، وقد اشتهر بآرائه وفلسفته المثيرة للجدل في وقته ، وقد هاجم عقائد الدين الإسلامي واتهمه كثير من علماء عصره بالزندقة والإلحاد ، وقد اهتم بشعره وكتاباته كثير من المستشرقين ، وقد ألَّف المستشرق النمساوي (فون كريمر) كتاباً بعنوان : أشعار أبي العلاء الفلسفية ، أثنى بالطبع عليه وعلى أشعاره وأفكاره كعادة كل المستشرقين الذين يرفعون دائماً من شأن الزنادقة والخارجين على الإسلام ويعلون دائماً من شأن كل من يهاجم الإسلام قديماً وحديثاً كما يؤيدون كل الحركات التي تخرج على أهل الحق والإيمان فهم دائماً يعلون شأن الباطل ويدعِّمون أهله ويقفون موقف المدافع عنهم ، ولا يخفى ما وراء هذا الثناء على أمثال هؤلاء الزنادقة من المستشرقين .. ولذلك فقد اتخذ طه حسين هذا المعري قدوة وأسوة واستلهم منه كثيراً من آرائه وأفكاره الفلسفية المنحرفة ، ومن المعروف عن أبي العلاء المعري أنه انتقد العديد من عقائد الإسلام كالحج الذي وصفه بأنه (رحلة الوثني) وله كثير من المغالط والتهكمات على أصول الإسلام وثوابته [راجع : وفيات الأعيان لابن خلكان (١/ ١١٤) ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (١٨/ ٢٣) ، وتاريخ بغداد (٤/ ٢٤٠)] .

والعلوم التكنولوجية الحديثة وغيرها من العلوم النافعة التي تساعد الأمم على التقدم والازدهار والنمو ، عمدت الجامعة لاستقدام علماء أجانب من اليهود والنصارى ليقوموا بتدريس الطلبة المصريين علومهم وآدابهم الإسلامية فَجُلُّ من جلبتهم الجامعة من المستشرقين هم من الدارسين والمتخصصين لعلومنا الإسلامية كعلوم اللغة والآداب العربية وتاريخها ودراسة بالطبع الفلسفة بمفهومها الأوربي .

وأظن أن الهدف قد وضح لك عزيزي القارئ .. ألا وهو تكوين أول جيل يتخرج على يد تلكم المجموعة من المستشرقين ليكونوا النواة الأولى لغسل أدمغة طلبة وخريجي الجامعة المصرية فيما بعد يكون بعيد الصلة عن أصوله وثوابته الإسلامية ، جيل فاقد لهويته متشكك في دينه وعقائده وكان (عميل) الأدب الغربي هو من أوائل تلك النواة فاتصل اتصالاً مباشراً بالعقلية الأوربية وبالفكر الغربي فتعلم من الأوربيين مناهج البحث وأساليبهم الخبيثة في كيفية دسّ السم في العسل تحت زعم البحث العلمي الأصيل وليس هو بأصيل بل خبيث ، ولذلك وبعد تخرجه وحصوله على درجة الدكتوراه كان من أوائل المرشحين لبعثة خارجية فاختير بعناية فائقة من قِبَل أساتذته المستشرقين للسفر إلى فرنسا للدراسة على أيدي أساطين الاستشراق من اليهود والنصارى هناك ، فقضى أكثر فترة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨م) متنقلاً بين باريس وجامعة مونبليه ، وقد حصل منها على رسالة الدكتوراه الثانية عام (١٩١٨م) عن أطروحته التي كانت بعنوان (الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون) وقد قام بمناقشة هذه الرسالة اليهودي (دوركايم) ، واليهودي (ليفي بروهيل) ، وقد حطَّ طه حسين من العلامة ابن خلدون (مؤسس علم الاجتماع الإسلامي) واتهمه بأنه يرمي عرب أفريقيا الشمالية بالهمجية والوحشية ، ثم يستدل على هذه الدعوة (الباطلة) بأن (أسياده) من الفرنسيين لقوا معاناة ومشقة في سبيل بسط الحضارة الفرنسية والمدنية الأوربية على تلك الشعوب المتوحشة التي ترفض التقدم والاستنارة»[1] .

---

١ - عن مقال للدكتور محمد غلاب ، نشرته مجلة (النهضة الفكرية) في ٢٦/ ١٠/ ١٩٣١م .

ومن عجب أن بعض المستشرقين من المنصفين قد عرفوا قَدر العلامة ابن خلدون وأثنوا عليه عظيم الثناء بينما طه حسين انتقص من قدره ليُرضي أسياده وأساتذته من اليهود والمتعصبين الذين درس عليهم ، وعلى سبيل المثال يقول المؤرخ والمستشرق البريطاني (أرنولد توينبي) عن ابن خلدون : «إن ابن خلدون في المقدمة التي كتبها لتاريخه العام ، قد أدرك وأنشأ علم (فلسفة التاريخ) وهي (أي : المقدمة) أعظم عمل من نوعه أبدعه أيّ عقل بشري في أيِّ زمان ومكان» وقبل مغادرة طه حسين فرنسا وعودته إلى مصر تعرَّف على المسيحية الكاثوليكية (سوزان بريسو) الفرنسية السويسرية ، وقد كان لهذه السيدة أكبر الأثر في حياة طه حسين حيث قرّبته وعرّفته أكثر فأكثر على الحياة الفرنسية ومكنته من التعرّف على الثقافة الغربية التي انبهر بها أشد الأنبهار - كما سيأتي - وقد كانت تقوم بدور القارئ له ولذلك أحبها حبًّا جمًّا حتى قال عنها : «منذ أن سمعت صوتها لم يعرف قلبي الألم».

ويقول الأستاذ أنور الجندي : «ومن يقرأ كتاب (معك) للسيدة سوزان قرينة طه حسين يرى أنه قد دخل عشرات الكنائس ، وسمع مئات التراتيل الكنسية ، ولكنه لم يدخل مسجداً واحداً»[١] .

ثم عاد طه حسين إلى مصر عام (١٩١٩م) بعد أن أتم مهمته في التعرف على الثقافة الغربية وبعد أن تم تجهيزه وإعداده ليكون سفيراً في بلاده وداعية من دعاة الفكر التغريبي للثقافة الغربية والأوربية في مصر ، وقد قام بمهمته خير قيام وقد ساعده على

١- الوجه الآخر لطه حسين ، من مذكرات (معك) لسوزان طه حسين ، وقد كشفت زوجة طه حسين في هذه المذكرات علاقته الوطيدة بكثير من المستشرقين وعلاقته ببابا الكنيسة الكاثوليكية في روما آنذاك وهو : البابا بيوس الحادي عشر ، وكان بيوس الحادي عشر مستشرقاً وقد دعا طه حسين لمؤتمر المستشرقين الذي عُقِدَ في روما ، وفي هذا تقول سوزان زوجة طه حسين : (وقد وجه لطه كلمات في منتهى الرِّقة كما وجَّه إليَّ أيضاً مثلها) عن مذكرات سوزان طه (معك) وهذا ما دعا مجلة الهلال المصرية الصادرة في عددها (مايو ١٩٧٧م) أن تقول : (طه حسين في قفص الاتهام : هل كان طه حسين شيوعيًّا ؟ هل كان طه حسين عميلاً للصهيونية ؟ هل تنصَّر طه حسين في كنيسة في فرنسا؟) [عن مقال بعنوان الوجه الآخر لطه حسين : من مذكرات السيدة سوزان طه (معك) ضمن كتاب رسائل ومقالات للأستاذ أنور الجندي - كتاب إلكتروني].

ذلك توليه عدَّة مناصب هامة وخطيرة داخل القطر المصري بمساعدة المحتل الإنجليزي - آنذاك - وأذنابهم من أصحاب المدرسة التغريبية المتطرفة وعلى رأس هؤلاء أحمد لطفي السيد ، فبعد عودة طه حسين إلى مصر عُيِّن أستاذاً للتاريخ اليوناني والروماني في الجامعة المصرية الأهلية ، وعندما أصبحت الجامعة المصرية تابعة للحكومة عام ١٩٢٥م عُيّن أستاذاً للأدب العربي ، وفي عام ١٩٢٦م كتب كتابه (في الشعر الجاهلي) الذي أثار ضجة كبيرة آنذاك في أوساط المجامع العلمية في العالم الإسلامي ، حيث أراد من خلال هذا الكتاب أن يطرح فكرة التغريبي المتطرف ويعلن تحديه في وقاحة بالغة وإساءة متعمدة لمشاعر جموع المسلمين ، حيث ادعى أن الشعر الجاهلي وُضع أكثره بعد الإسلام ، وكان القصد من وراء هذه الفرية التي اقتبسها من كتابات المستشرقين وخاصة المستشرق الحاقد (مرجليوث)[١] ، وهذه الفرية والأكذوبة تقوم على تحطيم الدعائم التي يعتمد عليها تفسير الألفاظ العربية الموجودة في القرآن الكريم ، وفي هذا الكتاب أراد طه حسين أن يبث مجموعة من الآراء الإلحادية المنحرفة ، ويطرح نظرية الشك الفلسفي التي يتزعمها (ديكارت)[٢] بمعنى أن يُشكك في ثوابتنا الإسلامية ، فيقول في كتابه سالف الذكر متشككاً في الشعر الجاهلي واللغة : «فواضح جدًّا لكل من له الإلمام بالبحث التاريخي عامة ويدرس الأساطير والأقاصيص خاصة أن هذه النظرية مُتكلّفة ومصطنعة - كذا - في عصور

١- هو : ديفيد صموئيل مرجوليوث (١٨٥٨ - ١٩٤٠م) مستشرق يهودي متعصب كتب العديد من المؤلفات بأسلوب غير علمي وغير موضوعي عن الإسلام والمسلمين منها كتاب (العلاقات بين العرب واليهود) والذي ظهر عام ١٩٤٢ م ، وقد نقل الدكتور طه حسين الكثير من آراء هذا المستشرق في كتابه (في الشعر الجاهلي) .

٢- هو : رينيه ديكارت ، فيلسوف فرنسي من القرن السادس عشر الميلادي (١٥٩٦ - ١٦٥٠م) ، يُلقب بأبي الفلسفة الحديثة ،وهو صاحب نظرية الشك الذي يقول عنها : «الشك خطوة ضرورية لابد من اتخاذها ، فخبرتي بالخطأ وتعرضي له منذ عهد بعيد واحتمال تجدده بفعل تلك الأحكام التي خضعت لها ولم أتبيَّن صحتها ، سواء كانت أحكاماً فرضها الغير، أم أحكاماً فرضها عليَّ الحس أو الخيال ، وتعرضها للخطأ معروف .. إن كل هذا يدعوني إلى الشك ، فكلما شككت ازددت تفكيراً» [نقلاً عن مقدمة مبادئ الفلسفة للدكتور نجيب بلدي ص ٨٨ ، الناشر : دار المعارف - مصر] .

متأخرة دعت إليها حاجة دينية أو اقتصادية أو سياسية»[١] . وهذا عين ما قاله (مرجليوث) في كتابه (محمد ونشأة الإسلام) ، وأما عن قصة سيدنا إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - فقد اعتبرهما أنهما من الأساطير التي لا أصل لها وأنكر قصتهما بدون أي سند علمي اللهم إلا النقل عن المستشرقين الحاقدين على الإسلام وأهله ، فقال عنهما بالنص : «للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضاً ، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي - كذا - فضلاً عن إثبات هذه القصة .. أمر هذه القصة إذن واضح ، فهي حديثة العهد ، ظهرت قبل الإسلام ، واستغلها الإسلام لسبب ديني وسياسي ، وإذن فيستطيع التاريخي الأدبي واللغوي أن لا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف على أصل اللغة العربية الفصحى ». ويقول في نفس الكتاب : متشككاً في النسب النبوي الشريف :

«ولأمر ما اقتنع الناس بأن النبي ﷺ يجب أن يكون من صفوة بني هاشم ، ولأمر ما شعروا بالحاجة إلى إثبات أن القرآن كتاب عربي ، مطابق في ألفاظه إلى لغة العرب .. وفي القرآن سورة تسمى الجن أنبأت - كذا - أن الجن استمعوا إلى النبي ». ويقول أيضاً : «وليس من اليسير ، بل ليس من الممكن أن نُصدِّق أن القرآن كان جديداً كله عن العرب ، فلو كان كذلك لما فهموه ولما وعوه ولا آمن به بعضهم ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر»[٢] ووالله الذي لا إله غيره كأني أقرأ لأحد المستشرقين الحاقدين على الإسلام وأهله ، ولما لا ، وطه حسين نفسه يعترف لزوجته بأنه فاق كثيرا من المستشرقين في أفكارهم وآرائهم التي كانت بمثابة مصدر الوحي لدراساته المختلفة ولكتاباته ، فتقول زوجة طه حسين أنه كتب إليها مرة يقول : «إن أبحاثي الشخصية تصل إلى نتائج كبار المستشرقين نفسها . أتدرين أنني قررت ألا أقرأ

١- في الشعر الجاهلي لطه حسين ص ٨ [الناشر : دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٢٦م] .

٢- المصدر السابق ص ٢٦-١٢٥-١٢٧ .

أبحاثهم إلا بعد أن أنجز أبحاثي لأكون على علم بها فقط»[1] هذا هو المستشرق طه حسين الذي تمكّن من العقيدة الاستشراقية بمفاهيمها التي تغلغلت في فكره وكيانه إلى الدرجة التي لم تجعله في حاجة - حسب قوله - إلى أن يقرأ للمستشرقين .

ولذلك قام بعض الغيورين من الأزهر برفع قضية ضد طه حسين عن كتابه (في الشعر الجاهلي) بعد أن أثبتوا عليه .. **أولاً** : تكذيب القرآن الكريم في إخباره عن إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - . **ثانياً** : إنكاره للقراءات السبع المتواترة التي أجمع عليها أهل القرآن من المسلمين . **ثالثاً** : الطعن في نسب النبي ﷺ . **رابعاً** : أنكر أن للإسلام أولية في بلاد العرب ، وأنكر أنه دين إبراهيم - عليه السلام - **خامساً** : التشكيك في ثبوت الشعر الجاهلي وإنكاره لشعراء الجاهلية كامرئ القيس وعنترة بن شداد وغيرهما .. وعندما سأله المحقق (محمد بك أنور رئيس نيابة مصر آنذاك) : هل قرأت هذا في مصادر قبل ذلك ؟ فقال طه حسين : «هذا فرض افترضته دون أن اطلع عليه في كتاب آخر ، وقد أُخبرت بعد أن ظهر الكتاب بأن شيئاً من هذا الفرض يوجد في كتب المبشرين»[2] (أي : المستشرقين من النصارى واليهود) .

ونحن لسنا بصدد الرد على مهاترات وضلالات طه حسين التي أوردها في كتابه سالف الذكر ، فقد قام العديد من العلماء والغيورين على دينهم بدحض شبهاته وكشف عوراته وبيان سرقاته التي سرقها من المستشرقين ثم نسبها لنفسه ، ولكن نحن نريد أن نثبت هنا مدى جرأة هذا الرجل على دين الله - عز وجل - الذي انتسب إليه وندينه من خلال كتاباته ونؤكد على أنه قد فاق أقرانه ممن سبقوه من التغريبيين أمثال مصطفى عبد الرازق وعلي عبد الرازق وأحمد لطفي السيد

١- الوجه الآخر لطه حسين من مذكرات السيدة سوزان طه (معك) ص ٢ للأستاذ أنور الجندي (مصدر سابق) .

٢- راجع مجلة المنار المجلد ٢٨ ، الجزء الخامس ص ٢٦٨ .

وغيرهم وخاصة ممن نهلوا من معين فلسفة أرسطو الفاسد الذي قال عنه طه حسين في جرأة ووقاحة لم يسبقه أحد من قبله أنه هو المعلم الأول للمسلمين في علم البيان، فقال عامله الله بما يستحق - في مقدمة كتاب (نقد النثر) «مما تقدم نرى أيَّ طريق طويل شاق سلكه البيان العربي منذ نشأته في أوائل القرن الثاني إلى أن بلغ في القرن الخامس درجة كمال كان من سوء الحظ نزر الفائدة ، قليل الجدوى .. ولعلنا نكون قد أوضحنا في هذا البحث بما فيه الكفاية أنه كان في جميع أطواره وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية - كذا - أولاً ، وبالبيان اليوناني أخيراً . وإذًا لا يكون أرسطو المعلم الأول للمسلمين في الفلسفة وحدها ؛ ولكنه إلى جانب ذلك معلمهم الأول في علم البيان»[1] ألا كبرت كلمة خرجت من فيك يا طه حسين وذلك لأن علم البيان عند المسلمين هو من جملة العلوم الإسلامية وهو كذلك من أهم ما اعتُمد عليه في خدمة العقيدة الإسلامية ؛ لأنه يعمل على إبراز ما في القرآن الكريم من معانٍ ودلالات بلاغية إعجازية ، وهذا طعن ضمني من طه حسين في القرآن يؤكده ويثبته كتابات طه حسين ، فقد نشرت صحيفة (السياسية) الأسبوعية الصادرة في السابع عشر من شهر يوليو عام ١٩٢٦ م ، ثم أثبته فيما بعد في كتابه (من بعيد) يقول طه حسين : «ظهر تناقض كبير بين نصوص الكتب الدينية ، وما وصل إليه العلم من النظريات والقوانين ، فالدين حيث يثبت وجود الله ونبوة الأنبياء يثبت أمرين لم يعترف بهما العلم ..» ثم خاتمة المطاف من هذا الرجل الذي أثبت بجدارة أنه ربيب قوى الفكر والاستعمار وأحد عملاء الاستشراق بلا منازع

١- تمهيد في البيان العربي من مقدمة كتاب نقد النثر ، لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي (مهّد له وكتب مقدمته طه حسين ص ٣١) [الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان ، صدر عام ١٤٠٠ هـ الموافق ١٩٨٠م] .

ملحوظة : هذا التمهيد الذي كتبه طه حسين لكتاب (نقد النثر) كان قد كتبه باللغة الفرنسية وقد كان بعنوان (تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر الجرجاني) وقد قام الأستاذ عبد الحميد العبادي بترجمة هذا التمهيد عن الأصل الفرنسي ووضعه في مقدمة الكتاب ، وقد ذكر طه حسين كثيراً من طاماته وضلالاته عن البيان العربي في هذا التمهيد .

وكذلك أحد وأهم ركائز الفكر التغريبي المتطرف ، ظهر ذلك كله من خلال كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) الذي دعا من خلاله بكل صراحة ووضوح إلى اتجاه مصر إلى الحضارة الغربية فيقول : «إن سبيل النهضة واضحة بيِّنة مستقيمة ، ليس فيها عوج ولا التواء ، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ، ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها ، وحلوها ومرها ، وما يجب منه وما يكره وما يُحمد منها وما يُعاب ، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادع مخادع» ويقول في موضوع آخر من نفس المصدر : «.... أن نتعلم كما يتعلم الأوربي .. ولنحكم كما يحكم الأوربي ، ثم نعمل كما يعمل الأوربي ، ونتصرف في حياتنا كما يتصرف الأوربي»[١] !!

لذلك فلا غرو أن نقول عن طه حسين إنه عاش حياته كلها يفهم الإسلام فهما استشراقيًّا غربيًّا كنسيًّا ، ولا عجب أيضاً أن نطلق على طه حسين أنه كان مستشرقاً من أبناء الشرق ، فهو كان يتكلم بلسانهم وينهج نهجهم وقد استخدم طه حسين هذا المنهج الاستشراقي التغريبي ببراعة ونجح فيه إلى حدٍّ بعيد ، فعلى غرار أهل الاستشراق «لم يكن طه حسين يؤمن بالدين ولا بالتراث ولا بعظمة هذه الأمة ولا بأمجادها الإسلامية ولا بحركة اليقظة فيها ، ولقد تهدَّمت كل أعماله قبل وفاته وخذلته كل الكتابات الجديدة والإيجابية عن الشعر الجاهلي وعن ابن خلدون ، وعن مفهوم العروبة المرتبط بالإسلام وعن هزيمة الفرعونية وعن اندحار دعوته إلى الغض من شأن الأزهر»[٢] وحتى عن فكرته البالية والتي تقول إن مصر أمة غربية (أي : تنتمي إلي أوربا والغرب) وليست أمة شرقية ، لم تلق هذه الدعوة رواجاً بين المصريين أصحاب الهوية الإسلامية العربية الضاربة في جذورهم ، لذا فسرعان ما ذابت هذه

١- مستقبل الثقافة في مصر (٢/ ٢٨٩) ، (١/ ٤٩) والكتاب صدر عام ١٩٣٥م ثم طبعته دار المعارف بمصر ، وقد قام بالرد على الكتاب ونقده العديد من الكُتَّاب والمثقفين [راجع على سبيل المثال : نقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر للأستاذ سيد قطب] .

٢- رجال اختلف فيهم الرأي للأستاذ أنور الجندي ص ٣٨ (مصدر سابق) .

الدعوة وتلاشى أثرها السيئ من نفوس أهل مصر الذين لم يقبلوا ويرتضوا مثل هذا الهراء الذي صدر من أحد أعمدة ورموز مدرسة التغريب المتطرفة ، لذلك كان هذا الطه حسين مثالاً صارخاً لهذه المدرسة الفكرية التغريبية ذات الأصول والمرجعية الغربية المسيحية المتطرفة ، وللأسف فإن هذه المدرسة قد خرَّجت العديد من الأجيال التي تم غسل أدمغتها عن طريق زرع تلك الأفكار التغريبية في عقولها فحملت كل غث وضال ومنحرف من المذاهب الغربية المتعددة ، بدءاً من الشيوعية البائدة والتي لا زال يؤمن بها العديد من أبناء أمتنا العربي ومروراً بالعلمانية (اللادينية) إلى الليبرالية والاشتراكية وأصحاب الفكر الحديث ، فكل هؤلاء كانوا من خريجي تلك المدرسة التغريبية التي أعلنت العداء الصريح لكل ما هو إسلامي ولرموز العمل الإسلامي على مستوى العالم العربي كله .

وللأسف فإن أصحاب هذه المدرسة المتطرفة في أفكارها وآرائها قد تصدروا وتبوءوا العديد من المواقع القيادية في البلدان العربية وخاصة في مصر واستطاعوا النفوذ والتغلغل في العديد من المناصب الحكومية واستطاعوا السيطرة والهيمنة على جميع وسائل الإعلام الحكومية سواء على مستوى الصحافة التي كان ولا يزال يكتب فيها أساطين هذا الفكر من خريجي هذه المدرسة التغريبية المتطرفة أو على مستوى الإذاعة والتليفزيون وقصور الثقافة والسينما والمسرح وغيرها من الأماكن التي استطاعوا من خلالها بسط سيطرتهم وفرض هيمنتهم لنشر الفكر التغريبي على العقول الإسلامية وغسل عقول العديد من الشباب واستمالتهم نحو أفكارهم الغربية وإفساح المجال لمن يحملون هذا الفكر التغريبي المتطرف لشغل المناصب في تلك الأماكن التي ذكرناها آنفاً وإقصاء كل من يخالف فكرهم وخاصة الشباب الإسلامي من شغل تلك الوظائف ، فنتج عن ذلك تخريب عقول أجيال متعاقبة عن طريق بث تلك الأفكار المنحرفة سواء على المستوى الثقافي والاعتقادي والتي تخالف كل المخالفة ثقافتنا وهويتنا الإسلامية الأصيلة ، وبذلك وقعت الأمة الإسلامية فيما حذَّرها منه الصادق المصدوق من اتباع كثير من المسلمين اليهودَ والنصارى والسير على دربهم واتباع

سننهم وطرقهم ، ومع ذلك فقد وقع ما أخبرنا به نبينا - صلوات ربي وسلامه عليه - في حديث هذا الفصل وهو قوله ﷺ : «لتتبعن سنن من قبلكم شِبراً بشبر وذراعاً بذراع...» الحديث ، فقد تمَّ ما نبأ به ﷺ بكل دِقة ووقعت الأمة فيها حذَّرها منه نبيها ﷺ واتبعت أمم اليهود والنصارى في أفكارهم ومذاهبهم وكان سبب ذلك وأوله هو من سوء طالع ما يُسمى بالفلسفة الهدامة التي نطالب من على صفحات هذا الكتاب بمنع دراستها في مدارسنا وجامعاتنا وذلك بسبب ما جرَّته على الأمة من ويلات ذكرناها وكشفنا الغطاء وأمطنا اللثام عنها من خلال هذا الفصل الذي أجده من أهم فصول الكتاب وأطوله وذلك لأهمية موضوعه وخطورته وما عانته الأمة ولا زالت من نتائجه والتي ذكرنا أن السبب الأساسي والأول الذي يمكن فيه ومن خلاله تشعَّبت الأفكار وتباينت هو علم الفلسفة الذي حذرنا منه فقهاء وعلماء الأمة من تعلم هذا العلم أو الاقتراب منه وقد شاهدنا ورأينا عبر هذا الفصل من الكتاب نتيجة تعلم الفلسفة الغربية وتوابعها وما أروع ما قاله العالم الجليل والفقيه المصري المعروف ابن دقيق العيد عن خطورة دراسة الفلسفة حيث قال : «إنما استولت التتار على بلاد المشرق لظهور الفلسفة فيهم وضعف الشريعة»[1] وحول هذا المعنى يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله تعالى - : «إن الاستعمار لا يغلبنا اليوم بالحديد والنار ، ولكنه يغلبنا قبل كل شيء بالرجال الذين استُعمرت أرواحهم وأفكارهم يغلبنا بهذا السوس الذي تركه الاستعمار في وزارة المعارف (أي : وزارة التربية والتعليم ووزارة التعليم العالي) ، وفي الصحف والكتب ، ويغلبنا بهذه الأقلام التي تُغمس في مداد الذل والهوان الروحي (والعقدي) لتكتب عن أمجاد فرنسا ، وأمجاد بريطانيا ، وأمجاد أمريكا»[2] وقد وصل الحال ببعض هذه الأقلام أن تكتب وتتغزل في دولة أبناء إسرائيل الدولة المحتلة لأرضنا الفلسطينية في زمن الذل والانكسار والتبعية للغرب

١- راجع : جامع الرسائل لشيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ٢٦٦) .

٢- مقال لسيد قطب بعنوان (إن الرجل الأبيض هو عدونا سواء كان في أمريكا أو كان في أوربا) مجلة الرسالة ، العدد ١٠٠٩.

من قِبَل ثلة ممن ينتسبون إلى أمتنا العربية والإسلامية ، ولذلك ينبغي تحرير العقول الإسلامية وتطهير المؤسسات الثقافية والإعلامية والسياسية من هؤلاء الذين باعوا عقولهم وضمائرهم وأقلامهم للتبعية الغربية ، فهؤلاء كالطابور الخامس الذي ينخر كالسوس في عظام الأمة عن طريق تحقيق أهداف التغريب وتقليد الغرب بطبع العرب والمسلمين بطابع الحضارة الغربية والثقافة الأوربية كما كان يتمنى طه حسين وغيره من تلاميذه ممن حاولوا تخريب عقول أبناء الأمة العربية من خلال ما تخطه أقلامهم المسومة في الصحف والمجلات والكتب المتهافتة التي تحمل أفكارهم التغريبية وكذلك ما تنطق به شفاههم في الإذاعات والفضائيات العربية التي ينفثون فيها سمومهم الانهزامية وثقافتهم وشبهاتهم ومثالبهم وأكاذيبهم التي يدافعون بها عن آرائهم وأفكارهم التي اقتبسوها من الغرب ، وهؤلاء الآن بعد الثورات العربية يقاتلون من أجل عدم وصول الإسلاميين إلى سدَّة الحكم ويحاولون باستماتة بالغة إقصاء كل من يحاول أن ينادي بتطبيق الشريعة الإسلامية السمحة فهؤلاء الأذناب التابعون لأسيادهم في الغرب لا يريدون وصول أهل الإسلام للحكم ، وهؤلاء وأسيادهم يتمثل فيهم قول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ «أُعطيتُ خمساً لم يُعطهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي : نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لِيَ الأرض مسجداً وطهوراً ، وأيُّما رجل من أُمتي أدركته الصلاة فليُصلِّ ، وأُحُلَّت لِيَ الغنائم ، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة ، وبُعثت إلى الناس كافة ، وأعطيتُ الشفاعة»[1] .

إذن فعلام كل هذا الخوف والرعب الذي دبَّ في قلوب وأوصال الغرب وأذنابهم في الشرق من وصول الإسلاميين إلى سدَّة الحكم؟

ويجيبنا عن هذا السؤال الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - في مقال كتبه منذ أكثر من ستين عاماً استشرف من خلاله واقعنا الذي نعيشه الآن فيقول : «الإسلام الذي يريده

١- رواه البخاري في الصلاة (٢/ ٢٥٧ حديث رقم ٤٣٨) .

الأمريكان وحلفاؤهم في الشرق الأوسط ليس هو الإسلام الذي يقاوم الاستعمار ، وليس هو الإسلام الذي يقاوم الطغيان ، إنهم لا يريدون للإسلام أن يحكم ، ولا يُطيقون من الإسلام أن يحكم ، لأن الإسلام حين يحكم سينشئ الشعوب نشأة أخرى ، وسيُعلِّم الشعوب أن إعداد القوة فريضة ، وأن طرد المستعمر فريضة ، فالأمريكان وحلفاؤهم يريدون للشرق الأوسط إسلاماً أمريكيّاً ، أما الإسلام الذي يكافح الاستعمار ، وأما الإسلام الذي يحكم الحياة ويُصرِّفها ، فلا تريده أمريكا». ويُحدِّد سيد قطب -رحمه الله- قبل ستين عاماً ساحات المعركة التي سيشنها الغرب على أمتنا وكأنه يعيش بيننا اليوم ، فيقول - رحمه الله - : إن المعركة ستدور في تركيا وإيران والعراق وسوريا ومصر والشمال الأفريقي وفي باكستان وأفغانستان وفي منابع البترول الإيرانية والعربية في عبادان وطهران ، إنها معركة ستدمر مواردنا نحن ، وتحطم حياتنا نحن ، وتدع أرضنا بقعاً خراباً يباباً (كما هو الحال في العراق بعد الاحتلال الأمريكي لها) ، وسنخرج نحن من المعركة فُتاتاً وحُطاماً كما لم تخرج أمة من حرب قط: .

ثم يُقدِّم الأستاذ سيد قطب - رحمه الله تعالى - طوق النجاة الذي لا يراه في غير الإسلام ، وصحوة شباب الإسلام ، فيقول : «إن طريق الخلاص هو أن تبرز إلى الوجود من أرض المعركة المنتظرة كتلة جديدة تقول لهؤلاء الغربيين (وأذنابهم في الشرق) : لا ، إننا لن نسمح لكم أن تديروا المعركة على أشلائنا وحُطامنا ، إننا لن ندع مواردنا تخدم مطامعكم ، ولن ندع أجسادنا تُطهّر حقول ألغامكم ، ولن نسلمكم رقابنا كالخراف والجداء ، إننا نعرف أن الاستعمار لا يغلبنا اليوم بالحديد والنار ، ولكنه يغلبنا قبل كل شيء بهؤلاء الرجال الذين استعمر أرواحهم وأفكارهم ، يغلبنا بهذه الأقلام التي تغمس كرامتها قبل أقلامها في مداد الذل والهوان الروحي لتدافع عن الغرب ، ونحن نعرف أيضاً أننا لن نستطيع التغلب على هذا الاستعمار إلا إذا حطمناه في مشاعرنا وحطمنا معه الأجهزة التي تسحق إيماننا بأنفسنا والأقلام الخائنة الممسوخة التي تُسبِّح بحمد أمريكا والأمريكان ، إننا يوم أن نُنفِّض الاستعمار من أرواحنا

وعقولنا ، ويوم تغلي دماؤنا بالحقد المقدس على كل ما يمت إلى الاستعمار ، ويوم نسحق تحت أقدامنا كل من يربطنا بعجلة الاستعمار ، عندئذ فقط سننال استقلالنا كاملاً ؛ لأننا نلنا الاستقلال داخلنا ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] ، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [1] [الأحزاب : ٦٢] ، رحم الله الأستاذ سيد قطب الذي قال تلك الدرر ولكأنه كان يستشرف ببصيرة المؤمن وفراسته قبل ستين عاماً ما يحدث في عالمنا اليوم في العراق وثورات تونس ومصر وليبيا التي أرادت أن تنفض عن كاهلها هذا الركام من سنين الذل والعار مما سببه أذناب المستعمر الأجنبي الذي جثم على صدورنا طيلة العقود الماضية والتي أسأل الله – عز وجل – بعد هذه الصحوة من شعوب الأمة أن يعود للمسلمين عزتهم وكرامتهم وحريتهم التي سلبها إياهم الطغاة والحكام المستبدون وأن يسود شرع الله – عز وجل – ولو كره أهل الشقاق والنفاق والعناد .

---

١ – عن المقال السابق (مجلة الرسالة ،العدد ١٠٠٩ ، يناير عام ١٩٥٢م) .

فصل :

دلائل النبوة ونور البيان في الإخبار عن جُملة من الأحداث التي نبأ عنها النبي العدنان ﷺ والتي بلغت ذروتها في هذا الزمان

بين يدي هذا الفصل

هذا الفصل سوف تتناول فيه بعون الله تعالى جملة من الأخبار النبوية عن أحداث ووقائع وإن كان قد ظهر شيء من بوادر تلكم الأحداث والوقائع في القرون الماضية إلا أن ثبوت رؤيتها بشكل واضح وجلي سوف نراه من خلال قراءة هذه النصوص الحديثية الصحيحة التي تحدثت عن هذه الوقائع والأحداث بعيون واقعنا الذي نعيش فيه الآن وسوف نراها رأى العين كما أخبر ونبأ بها الصادق المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه - الذي ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ ﴾ [النجم : ٣-٤] .

وهذه الأحداث والوقائع نسوقها من خلال تلك النصوص النبوية الصحيحة بكل حيدة وموضوعية ودون إعمال عقل أو ليِّ عنق نص - كما يفعل البعض - ممن يوقعون بعض النصوص على أحداث بعينها لكي تتماشى مع أهوائهم وأغراضهم ولكن كل ما سنفعله أننا سنشرح ما يحتاج إلى شرح من غريب المعاني وسوف نميط اللثام عن مكنون بعض الألفاظ التي قد تحتاج إلى توضيح مما أجمله النبي العدنان ﷺ الذي أوتي جوامع الكَلِم وذلك لتقريبها إلى ذهن القارئ الكريم دون تدخل منَّا في أصل النص النبوي ، وسوف نرى من خلال هذا الفصل أن ما نبّأ به وأخبر عنه الصادق المصدوق ﷺ من حوادث وفتن ووقائع قد عيانًاها ورأيناها ماثلة أمام أعيننا رأى العين في

عصرنا الحاضر تماماً كما أخبر بها خاتم الأنبياء والمرسلين - صلوات ربي وسلامه عليه - وذلك ليزداد المؤمن إيماناً ويرتدع الشاك والمكذب والرافض لأحاديث النبي العدنان ﷺ وخاصة ممن يسمون بالقرآنين الذين يردون السُّنَّة النبوية ويكتفون بالقرآن الكريم - زعموا - وسوف نفضح عوار هذه الطائفة الضالة في هذا الفصل والذي سنبدأ الحديث فيه عن الإخبار النبوي عن التطاول في البيان ..

الإخبار النبوي عن تطاول الأعراب والبدو في البنيان:

هذه النبوءة التي أخبر عنها الصادق المصدوق ﷺ بدأ ظهورها من القرون الأولى وقد تكلم عنها العلماء قديماً إلا أن هذه النبوءة قد بلغت ذروتها في عصرنا الحاضر - كما سنُبين ذلك تباعاً - وهذه العلامة قد ظهرت منذ عهد الخليفة الثاني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقد روى الدارمي عن تميم الداري - رضي الله عنه - قال: تطاول الناس في البناء في زمن عمر، فقال عمر (رضي الله عنه) : يا معشر العُريب الأرض الأرض، إنه لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة، فمن سوَّده قومه على الفقه كان حياة له ولهم، ومن سوَّدهُ قومه على غير فقه كان هلاكاً له ولهم[1].

عُريب : تصغير عرب .

سوّده قومه على الفقه أي : من ساد قومه عن فقه في الدين وفهم صحيح له كان خيراً له ولقومه .

فهذا الأثر الذي رُوي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يُبيِّن أن التطاول في البنيان بدأ منذ عصر الخليفة العادل عمر - رضي الله عنه - ولكنه مع تفاوت في البناء، ثم بدأ هذا التطاول يأخذ أشكالاً على مرِّ العصور الإسلامية حتى وصل إلى ما وصلت إليه الحال في عصرنا الحاضر والذي بلغ ذروته وأصبح بعض

١- سنن الدارمي، المقدمة ٢٥٧ .

الدول العربية يموج في بحر من ناطحات السحاب والعمارات شاهقة الارتفاع وهذا ما أخبر عنه الصادق المصدوق ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث جبريل - عليه السلام - المشهور الذي رواه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - والذي قال فيه النبي ﷺ عندما سأله جبريل - عليه السلام - عن أمارات الساعة وأشراطها فقال :

«وأن ترى الحُفاة العُراة رعاة الشاة يتطاولون في البنيان» وفي رواية البخاري من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : «وإذا تطاول رعاة الإبل البُهم في البُنيان»[1] .

والبُهم : بضم الباء الموحدة أي : صغار الضأن والماعز .

وعند الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : « ... ورأيت أصحاب الشاة تطاولوا بالبنيان ورأيت الحُفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس فذلك من معالم الساعة وأشراطها» قال يا رسول الله ومن أصحاب الشاة والحُفاة الجياع العالة ؟ قال : «العرب» .

وفي رواية عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «إن من أشراط الساعة أن يُرى رُعاة الشاة رؤوس الناس وأن يُرى الحُفاة العُراة الجُوَّعُ يتبارون في البناء»[2] .

وعند ابن ماجة : «وإذا تطاول رُعاء الغنم في البنيان فذلك من أشراطها»[3] .

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني : «زاد الإسماعيلي في روايته (الصُّم البُكم) قيل لهم ذلك مبالغة في وصفهم بالجهل ، أي : لم يستعملوا أسماعهم ولا أبصارهم في

١- رواه مسلم في الإيمان ١٠٢ ، والبخاري في كتاب الإيمان أيضا ٥٠ .

٢- مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - ٢٩٨١ - ومن مسند أبي هريرة رضي الله عنه - ٩٣٦٦ وصححه الألباني .

٣- سنن ابن ماجة (١/ ٧٧ حديث رقم ٦٧) .

الشيء من أمر دينهم ، وإن كانت حواسهم سليمة ، والمراد بهم أهل البادية .. ومعنى التطاول في البنيان أن كُلاً ممن كان يبني بيتاً يريد أن يكون ارتفاعه أعلى من ارتفاع الآخر ، ويحتمل أن يكون المراد : المباهاة به في الزينة والزخرفة ، أو أعمّ ن ذلك ، وقد وُجِدَ الكثير من ذلك ، وهو في ازدياد»[١] .

وقال القرطبي : «المقصود الإخبار عن تبدل الحال بأن يستولي أهل البادية على الأمر ، ويتملكوا البلاد بالقهر ، فتكثر أموالهم ، وتنصرف هممهم إلى تشييد البنيان والتفاخر به كما هو مُشاهد في هذه الأزمان ، فلا يسمعون موعظة ولا ينزجرون عن معصية فهم صُمٌّ بُكمٌ عميٌ ، وقال قتادة : صمٌّ عن استماع الحق ، بُكم عن التكلم به ، عميٌ عن الإبصار له ، وهذه صفة أهل البادية والجهالة»[٢] . فإن كان القرطبي - رحمه الله تعالى - المتوفى سنة (٦٧١ هـ) والحافظ ابن حجر المتوفى سنة (٨٥٢ هـ) قد وجدا هذا التطاول في البنيان في زمانهما، فماذا نقول نحن في هذا الزمان الذي رأينا فيه كثير من رجال الأعمال العرب يتطاولون في البنيان ويتباهون به ؟

ويا ليت رجال الأعمال هؤلاء يتنافسون على إنقاذ الشعوب العربية والإسلامية من الفقر والمجاعات حيث تعاني دولة كالصومال من المجاعة والفقر المدقع وأهلها يموتون جوعاً ، وصدق الحبيب المصطفى ﷺ في الحديث الذي اختتم به هذه الفقرة والذي رواه الطبراني عن ميمونة - رضي الله عنها - قالت : قال النبي ﷺ ذات يوم : «ما أنتم»وفي رواية (كيف أنتم) : «إذا مَرَج الدين ، وسُفِكَ الدم ، وظهرت الزينة ، وشرَفَ البُنيان ، واختلف الأخَوَان ، وحُرِّق البيت العتيق»[٣]

١- فتح الباري شرح صحيح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني (١/ ٨٠) ، (١٣/ ٨١ ، ٨٢) .

٢- بتصرف من التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للقرطبي (٢/ ٧٥٢) . [الناشر دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان].

٣- رواه الطبراني في المعجم (١٧/ ٢٥٩ حديث رقم ١٩٥١٣) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٥٥٥ حديث رقم ٢٧٤٤) ، ومَرَج أي : اختلط واضطرب والتبس على الناس بحيث اختلط عليهم الحق والباطل وفسد عليهم أمر دينهم .

وأصل الشرف : العلو والارتفاع ، وقد روى الطبراني أيضاً عن خباب بن الأرت - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كل نفقة يُنفقها العبد يؤجر فيها إلا البُنيان»[1] وفي رواية : «إذا أراد الله بعبد هواناً أنفق ماله في البُنيان أو في الماء والطين».

ومما لا شك فيه أن بناء البيوت ورفعها للسكنى والعيش فيها والتوسيع على الأولاد هو من الأمور الدنيوية المباحة وليس على صاحبها وزر بل يؤجر على فعل ذلك إن كان في مقدوره واستطاعته المالية والاقتصادية التوسعة على أهل بيته وعشيرته ، ولكن التطاول في البُنيان الذي حذَّر منه النبي العدنان ﷺ هو هذا النوع الذي يدخل فيه الخيلاء والتباهي والتنافس على الدنيا كما هو مشاهد وحاصل الآن من تفاخر رجال الأعمال العرب فيما بينهم وتنافسهم وتناطحهم على بناء أكبر ناطحة سحاب في العالم وكما هو الحاصل الآن من التنافس أيضاً بين أصحاب الأموال وذوي النفوذ والأعمال في بعض الدول العربية من التباهي والتفاخر في بناء القصور الشاهقة والفارهة والتي تحمل بين جنباتها جميع أنواع الزينة والبهرجة وما خفَّ حمله وغلا ثمنه من مقتنيات بلاد الإفرنج .

إن التطاول في البنيان بين بني العُرب اليوم والتنافس فيما بينهم لبناء الأبراج العالية والتناطح فيما بينهم لبناء أكبر ناطحة سحاب في العالم لهو أكبر دليل وخير شاهد على صدق الصادق الأمين - صلوات ربي وسلامه عليه - فيما أخبر به عن التطاول في البنيان بين الأعراب والبدو .

---

١ - المعجم الكبير للطبراني (٤/ ٧٣ حديث رقم ٣٥٥٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع ٤٥٦٦ .

الإخبار النبوي عن تقارب الزمان

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : «يتقارب الزمان، وينقص العلم ، ويلقى الشح ، ويكثر الهرج ، قالوا : وما الهرج؟ قال : القتل ، القتل»[١] .

قال الإمام النووي في قوله : (يتقارب الزمان) أي : «يقرب من القيامة»[٢] .

وقال ابن بطال : (يتقارب الزمان) أي : «تقارب أحوال أهله في قلة الدين حتى لا يكون فيهم من يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر؛ لغلبة الفسق وظهور أهله»[٣] .

وقال الإمام سليمان الخطابي : «معناه قصر زمان الأعمار ،وقلة البركة فيها، وقيل هو دنو زمان الساعة ، وقيل قصر مدة هذه الأيام والليالي .. وقال البيضاوي : يحتمل أن يكون المراد بتقارب الزمان تسارع الدول إلى الانقضاء ،والقرون إلى الانقراض ، فيتقارب زمانهم ، وتتدانى أيامهم»[٤] .

وفي مسند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً ، قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان ، فتكون السنة كالشهر ، ويكون الشهر كالجمعة، وتكون الجمعة كاليوم ،ويكون اليوم كالساعة ، وتكون الساعة كاحتراق السعفة» . وفي رواية الترمذي عن أنس رضي الله عنه : «وتكون الساعة كالضرمة بالنار»[٥] .

وقال المباركفوري : « قال التوربشتي رحمه الله : يحمل ذلك على قلة بركة الزمان ، وذهاب فائدته في كل مكان ، أو على أن الناس لكثرة اهتمامهم بما دهمهم من النوازل والشدائد ، وشغل قلبهم بالفتن العظام لا يدرون كيف تنقضي أيامهم ولياليهم .

١- متفق عليه ، رواه البخاري في كتاب الآداب ، باب حسن الخلق ٥٥٧٧ ، ومسلم ، باب العلم ٤٨٢٧ .

٢- شرح النووي على مسلم ٩/ ٢٧ .

٣- شرح ابن بطال على البخاري ١٠/ ١٣ .

٤- عون المعبود شرح سنن أبي داود ١١/ ٣٣٢.

٥- مسند أحمد ٢/ ٥٣٧ ، والترمذي ٢٢٥٤ ، وهو في مجمع الزوائد ٧/ ٢٣١ ، وقال : رجاله رجال الصحيح ، وصححه الشيخ الألباني رضي الله عنه في صحيح الجامع ٧٢٩٩ .

وقال الخطابي : يكون ذلك في زمن المهدي أو عيسى عليهما الصلاة والسلام أو كليهما قال القاري : والأخير هو الأظهر؛ لظهور هذا الأمر في خروج الدجال وهو زمانهما.

وقال القاضي رحمه الله : «وتكون الساعة كالضَّرمة»: بفتح الضاد وسكون الراء ، أى : مثلها في سرعة ابتدائها وانقضائها ،وكزمان إيقاد الضرّمة ،وهي ما يوقد به النار أولاً ، كالقصب والكبريت»[1] .

والضرْمة : غصن النخل ، والشيحة نبت في طرفها نار ، فإنها إذا اشتعلت تحرق سريعاً.

والسعفة : السعف أغصان النخلة ، واحدته سعفة [2] .

وتقارب الزمان قال فيه العلماء كلاماً كثيراً ، أشهره وأظهره أن المراد بذلك بقصره وعدم البركة فيه ،وأن اليوم مثلاً يصير الانتفاع به بقدر الانتفاع بالساعة الواحدة ، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله : «فالذي تضمنه الحديث (أي : في تقارب الزمان) قد وجد في زماننا هذا، فإنا نجد من سرعة مر الأيام ما لم نكن نجده في العصر الذي قبل عصرنا هذا»[3].

فإذا كان هذا في زمن الحافظ ابن حجر المتوفى في سنة (٨٥٢هـ) أي : في القرن التاسع الهجري .. فماذا نقول ونحن في القرن الخامس عشر الهجري ، من قلة البركة في الوقت وفي كل شيء؟ نسأل الله العافية .

١- تحفة الأحوذي بشرح الترمذي ، للمباركفوري ٦/ ١١٧ .

٢- راجع لسان العرب ٩/ ١٥١.

٣- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني (٢٠ / ٦٦) .

الإخبار النبوي برفع الأمانة وضياعها :

عن حذيفة - رضي الله عنه - قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر : حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن ، فعملوا من القرآن ، وعملوا من السُّنة ، ثم حدثنا عن رفع الأمانة . قال : ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل الوكت ، ثم ينام النومة فتُقبض الأمانة من قلبه فيظل أثرها مثل المجل كجمر دحرجته على رجلك فنفط ، فتراه منتبراً وليس فيه شيء ، ثم أخذ حصى فدحرجه على رجله ، فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدي الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل : ما أجلده ما أظرفه ، ما أعقله ، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان ، ولقد أتى عليَّ زمان ، وما أبالي أيكم بايعت لئن كان مسلماً ليردنه علي دينه ، ولئن كان نصرانيًّا أو يهوديًّا ليردنه علي ساعيه ، وأما اليوم فما كنت لأبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً[1] .

قال الإمام النووي : أما الجذر فهو بفتح الجيم وكسرها لغتان وبالذال المعجمة وهو الأصل ، وأما الأمانة فالظاهر أن المراد بها التكليف الذي كلف الله - تعالى - به عباده ، والعهد الذي أخذه عليهم ، وقيل هي : الأمانة والطاعة والفرائض التي يتعلق بأدائها الثواب ، وبتضييعها العقاب ، وأما قوله ﷺ : «فيظل أثرها مثل الوكت» وهو الأثر اليسير . وأما المجل : فهو التنفط الذي يصير في اليد من العمل بفأس أو نحوها ، ويصير كالقبة فيه ماء قليل[2] ، وأما قوله «كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبراً ، وليس فيه شيء» فالجمر والدحرجة معروفان ،ونفط بفتح النون وكسر الفاء ، ويقال تنفط بمعناه ، ومنتبراً مرتفعاً ، وأصل هذه اللفظة الارتفاع ، ومنه المنبر لارتفاعه ، وارتفاع الخطيب عليه ، ومعنى الحديث : أن الأمانة تزول عن القلوب شيئاً فشيئاً ؛ فإذا زال نورها، وخلفته ظلمة كالوكت ،

١- متفق عليه ، رواه البخاري في كتاب الرقاق ، باب رفع الأمانة ٦٠١٦ ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة ٢٠٦ .

٢- والذي نسميه بالعامية المصرية (الكالو) .

وهو اعتراض لون مخالف للون الذي قبله ؛ فإذا زال شيء آخر صار كالمجل ، وهو أثر محكم لا يكاد يزول إلا بعد مدة ، وهذه الظلمة فوق التي قبلها، ثم شبه زوال ذلك النور بعد وقوعه في القلب ، وخروجه بعد استقراره فيه ، واعتقاب الظلمة إياه ، بجمر يدحرجه على رجله حتى يؤثر فيها ، ثم يزول الجمر ، ويبقى التنفط ، وأخذه الحصاة ودحرجته إياها أراد بها زيادة البيان وإيضاح المذكور ، وأما قول حذيفة : ولقد أتى عليّ زمان ، وما أبالي أيكم بايعت .. فمعنى المبايعة هنا : البيع والشراء المعروفان ومراده أني كنت أعلم أن الأمانة لم ترتفع ، وأن في الناس وفاء بالعهود ، فكنت أقدم على مبايعة من اتفق غير باحث عن حاله وثوقاً بالناس وأمانتهم ، فإنه إن كان مسلماً فدينه وأمانته تمنعه من الخيانة وتحمله على أداء الأمانة ، وإن كان كافراً (فساعيه) وهو الوالي عليه كان أيضاً يقوم بالأمانة في ولايته ، فيستخرج حقي منه ، وأما اليوم فقد ذهبت الأمانة ، فما بقى لي وثوق بمن أبايعه ، ولا بالساعي في أدائهما الأمانة[1] ، وإن كانت الأمانة قد رفعت من قلوب الرجال في العصور السابقة ؛ فماذا نقول وقد انتشرت الخيانة اليوم في جميع المجالات حتى أصبحت خيانة الأوطان والتعامل مع أعداء الدين والولاء لهم والرضوخ لأوامرهم والانبطاح لقراراتهم ، كل ذلك أصبح من الأمور الاعتيادية اليوم ، ومن يخالف ذلك ؛ فهو الخائن وهو العميل إلى غير ذلك من النعوت والأوصاف التي يوصف بها الأشراف من هذه الأمة من قِبَلِ لاعقي أحذية أعداء الأمة من اليهود والنصارى ، ومن السائرين في ركابهم ، وهذا مصداق قول الحبيب ﷺ : «ويصدق فيها الكاذب ، ويخوَّن الأمين ، ويؤتمن الخائن».

وتضييع الأمانة التي وقعت في عصرنا وبشراسة تحتمل عدة معانٍ ، منها :

١ - تضييع الدين : والمتمثل في تضييع الفرائض من عبادات وأخلاق .

٢ - تضييع الحكم وإسناد أمور الناس لغير مستحقيها، ومنها الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «إذا وسد الأمر إلى

١- شرح النووي على مسلم ٢/ ١٦٨ ، وراجع كذلك تفسير ابن كثير ٦/ ٤٧٧ .

غير أهله فانتظر الساعة»[1] . فإذا ضيع الحاكم الأمانة ؛ فسدت الرعية ، وضيعت كذلك الأمانة ، لذا كان عبد الله بن المبارك يقول : صنفان إذا صلحا صلح الناس ، وإذا فسدا فسد الناس : الحكام والعلماء ، وأنشد يقول :

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلـوب وخير لنفسك عصيانهـا

٣ – ومن تضييع الأمانة كذلك في المعاملات ، ولذلك قال النبي ﷺ : «أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن مَن خانك»[2] ومع ضياع الأمانة في العصر الذي نعيشه الآن انشر القتل وكثر ، كما أخبر بذلك الحبيب ﷺ .

الإخبار النبوي بانتشار القتل بين الناس وموت الفجأة وهو ظاهرة في زماننا :

روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج». قالوا : وما الهرج يا رسول الله ؟ قال : «القتل ، القتل»[3] .

وفي البخاري روى بأكثر من رواية ، نختار منها ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال : النبي ﷺ : «إن بين يدي الساعة أياماً يرفع فيها العلم ، وينزل فيها الجهل ويكثر فيها الهرج»، والهرج : القتل . قال أبو موسي رضي الله عنه الهرج : بلسان الحبشة القتل[4] .

والهرج ذكر فيه علماء اللغة عدة أقوال[5] ، وأصحها المناسب لحديث فقرتنا أن معناها: كثرة القتل وشدته ، وفي رواية للإمام أحمد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن بين يدي الساعة الهرج». قالوا : وما الهرج؟ قال : «القتل». قالوا : أكثر مما نقتل إنا لنقتل كل عام أكثر من سبعين ألفاً . قال : إنه ليس

١– رواه البخاري في كتاب العلم ، حديث رقم ٥٧ .

٢– أخرجه الترمذي في البيوع ١١٨٥ ، وأبو داود في البيوع ٣٠٦٧ ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٤٠ .

٣– رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٥١٥٢ ، وراجع مسلم بشرح النووي ١٨/ ١٣ .

٤– رواه البخاري في كتاب العلم ٨٣ ، والفتن / ٧٠٦٦ ، وراجع فتح الباري ١٣/ ١٤ .

٥– راجع لسان العرب ٢/ ٣٨٩ ، والصحاح للجوهري ، والمحكم ٢/ ١٤٤ .

بقتلكم المشركين ، ولكن قتل بعضكم بعضاً . قالوا : ومعنا عقولنا يومئذ ؟ قال : «إنه لتنزع عقول أهل ذلك الزمان ، ويخلف له هباء من الناس يحسب أكثرهم أنهم على شيء ، وليسوا على شيء»[١] .

وروى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ : «والذي نفسي بيده ، ليأتين على الناس زمان لا يدري القاتل في أي شيء قَتل ، ولا يدري المقتول على أي شيء قُتل» .. وفي رواية «والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يأتي على الناس يوم لا يدرى القاتل فيم قَتل ، ولا المقتول فيم قُتِلَ». فقيل : كيف يكون ذلك ؟ قال : «الهرج ، القاتل والمقتول في النار»[٢] .

والقتل الذي سيكون بين المسلم والمسلم هو ما نبأ به رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة، منها : ما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[٣] .

وقد حدث ما أخبر به منذ حروب الجمل وصفين حتى عصرنا الحاضر ، وما حدث في حرب الخليج الثانية عندما اجتاح صدام حسين الكويت ، ولا تزال الحروب منذ القرون الأولى وحتى الآن تقع بين المسلمين ، ولم يقف أمر القتل على الحروب بين الدول الإسلامية بعضها مع بعض ، ولكن القتل بين أبناء البلد الواحد ، بل القرية الواحدة ، بل الأسرة الواحدة، وهذا ما نسمع ونقرأ عنه من حوادث قتل وسفك للدماء تملأ وتسود بها صفحات الجرائد ، التي أصبحت ذات صفة مستقلة تتحدث عن الجرائم والحوادث من كثرتها ، فجرائد ومجلات الحوادث أصبحت منتشرة في ربوع الوطن العربي والإسلامي ، وهذا إن دل فإنما يدل علي كثرة حوادث القتل التي تقع بين الأفراد ، فنسأل الله العلي القدير العفو والعافية ، وأن يرحمنا ويجنبنا الفتن التي تتوالى على رؤوسنا ؛ حتى أصبح الرجل منا يتمنى الموت كما نبأ بذلك الحبيب المصطفى صلوات ربي وسلامه عليه .

١- رواه أحمد في المسند ١٨٦٧٢ ، وابن ماجة في كتاب الفتن ٢/ ١٣٠٩ ، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة ٣٩٥٩ .

٢- الروايتان في صحيح مسلم ، في كتاب الفتن وأشراط الساعة ٥١٧٨ ، وراجع مسلم بشرح النووي ١٨/ ٣٥ .

٣- رواه البخاري في كتاب العلم ١١٨ .

وأما عن موت الفجأة ، فقد روى الطبراني عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، رفعه إلى النبي قال : «من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قبلاً ، فيقال لليلتين ،وأن تُتَّخذ المساجد طرقاً ، وأن يظهر موت الفجأة»[1] .

وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله باباً في صحيحه باسم (موت الفجأة - البغتة) روى فيه حديثاً عن عائشة أن رجلاً قال للنبي ﷺ : «إن أمي افتلتت نفسها ، وأظنها لو تكلمت تصدقت ؛ فهل لها أجر إن تصدقتُ عنها ؟ قال : نعم»[2] .

وقال الحافظ ابن حجر : قوله : افتلتت ، يقال : افتلت فلان ، أي مات فجأة ، وافتلتت نفسه كذلك ، والفلتة والافتلات ما وقع بغتة من غير روية ، وقد نقل عن أحمد وبعض الشافعية كراهة موت الفجأة»[3] .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ مرَّ بجدار أو حائط مائل ، فأسرع المشي ، فقيل له : كأنك خفت هذا الحائط ؟ قال رسول الله ﷺ : «إني أكره موت الفوات»[4] . (أي : موت الفجأة) وروي عن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن موت الفجأة ، فقال : «راحة على المؤمن ، وأسف على الفاجر»[5] ، قال ابن بطال : والأسف : الغضب ، ويحتمل أن يكون ذلك ، والله أعلم، لما في موت الفجأة من خوف حرمان الوصية ، وترك الإعداد للمعاد ، والاغترار الكاذبة ، والتسويف بالتوبة[6] وقد انتشر موت الفجأة في هذا الزمان انتشاراً كبيراً ، وهو ما يطلق عليه في الأوساط الطبية بالسكتة القلبية .

١- المعجم الصغير للطبراني ١١٢٨ ، ورواه الداني في الفتن مرسلاً عن الشعبي ١/ ٤٦٣ ، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٥/ ٣٦٦ - ٢٢٩٢ .

٢- صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب : موت الفجأة ١٢٩٩ .

٣- بتصرف من فتح الباري ٤/ ٤٦٩ .

٤- رواه أحمد في المسند ٨٣١٢ ، والبيهقي في شعب الإيمان وقال : تفرد به إبراهيم بن الفضل وهو ضعيف ، وروى عن وجه آخر ضعيف ٣٦/ ٣٩٨ .

٥- رواه أحمد في مسنده .

٦- راجع شرح ابن بطال على البخاري ٥/ ٤٢٤ .

الإخبار النبوي عن تمني الناس الموت من شدة الفتن والابتلاء:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ، فيقول : يا ليتني مكانه»[1] .

وفي رواية مسلم : لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر ، فيتمرغ عليه ، ويقول : يا ليتني مكان صاحب هذا القبر ، وليس به الدين ، إلا البلاء»[2] .

قال ابن بطال : تغبيط أهل القبور وتمني الموت عند ظهور الفتن ، إنما هو خوف ذهاب الدين لغلبة الباطل وأهله ، وظهور المعاصي والمنكر[3] .

وهذا لعمري هو الواقع بعينه الآن ، فلقد استشرى الباطل ،وظهرت المعاصي ، وأصبح العلماء والدعاة لا يستطيع أحدهم أن يأمر بمعروف أو ينكر المنكر ؛ خوفاً من بطش الظلمة وأعوانهم ، وقال الحافظ ابن حجر : قال ابن عبد البر : ظن بعضهم أن هذا الحديث معارض للنهي عن تمني الموت ، وليس كذلك ، وإنما في هذا أن هذا القَدْر سيكون لشدة تنزل بالناس من فساد الحال في الدين أو ضعفه أو خوف ذهابه ، لا لضرر ينزل في الجسم ، ثم قال الحافظ : ويؤيده ثبوت تمني الموت عند فساد أمر الدين عن جماعة من السلف ، قال القرطبي : كأن في الحديث إشارة إلى أن الفتن والمشقة البالغة ستقع حتى يخف أمر الدين ، ويقل الاعتناء بأمره ، ولا يبقى لأحد اعتناء إلا بأمر دنياه ومعاشه نفسه ، وما يتعلق به ، ومن ثَمَّ عَظُمَ قدر العبادة أيام الفتنة ، كما أخرج مسلم من حديث معقل بن يسار رفعه : «العبادة في الهرج كهجرة إليَّ[4] وروى الحاكم في المستدرك عن عبد الرحمن قال : عدت[5] أبا هريرة فسندته إلى صدري ، ثم

١- متفق عليه ، رواه البخاري في الفتن ٧١١٥ ، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٥١٧٥ .

٢- مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٥١٧٦ ، وراجع مسلم بشرح النووي ١٨/ ٣٤ .

٣- راجع شرح ابن بطال على صحيح البخاري ١٠/ ٧٢ .

٤- مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٥٢٤٢ ، وراجع فتح الباري شرح البخاري لابن حجر (١٣/ ٧٦) .

٥- أي زيارة مريض .

قلت : اللهم اشف أبا هريرة ، فقال : اللهم لا ترجعها، ثم قال : إن استطعت يا أبا سلمة أن تموت فمت ، فقلت : يا أبا هريرة ، إنا لنحب الحياة ، فقال : والذي نفس أبي هريرة بيده ليأتين على العلماء زمان الموت أحب إلى أحدهم من الذهب الأحمر ، ليأتين أحدكم على قبر أخيه فيقول : ليتني مكانه[1] .

وروى أبو عمرو الداني أن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إنه سيأتي عليكم زمان لو وجد فيه أحدكم الموت يباع لاشتراه ، وسيأتي عليكم زمان يغبط فيه الرجل بخفة الحاذ[2] ، كما يغبط فيه بكثرة المال والولد[3] .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن أبا ذر رضي الله عنه قال : يوشك يا بن أخي أن ترى الجنازة يمر بها على القوم ، فيقول القائل : يا ليتني على أعوادك ، فيقول : إنك لا تدري ما كان ، قال : على ما كان . قلت : ذلك من بلاء عظيم؟ قال : أجل ، يابن أخي ، عظيم عظيم عظيم[4] .

ولقد شاهدت كثيراً من الفضلاء في عصرنا يتمنون الموت ، وكثيراً ما أسمع من مشايخ وعلماء كُثر (أن باطن الأرض خير من ظهرها) ، وخاصة في تلكم الأيام النحسات التي نعيشها اليوم وسط هذا الزخم الهائل من الفتن والابتلاءات التي تمر بها الأمة الإسلامية من قتل في كل مكان وفي جميع البلدان الإسلامية تقريباً ، والمسلم لا يستطيع أن يفعل شيئاً إلا أن يسترجع حتى يأذن الله - تعالى - بتغيير هذه الحال إلى حال أفضل منها ، وسيكون ذلك لا محالة ، فإن مع العسر يسراً .

١- رواه الحاكم في المستدرك في كتاب الفتن ٨٧٢٧ ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه .

٢- خفة الحاذ أي : قلة المال والولد ، وخفتهما معاً .

٣- السنن الواردة في الفتن لأبي عمرو الداني ١٨٤ (١/ ٢١٦) .

٤- المتمنين لابن أبي الدنيا ص ١٥٧ ، وراجع فتح الباري للحافظ ابن حجر ١٣/ ٧٦ .

الإخبار النبوي بأن رجالاً من أمته سيخضبون لحاهم بالسواد ، فتكون كحواصل الحمام :

روى أبو داود والنسائي وأحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «يكون قوم يخضبون في آخر الزمان بالسواد كحواصل الحمام ، لا يريحون رائحة الجنة»[1] .

يخضبون : من خضاب وتغيير لون الشعر من الشيب ، أي في اللون الأبيض إلى اللون الأسود ، وذلك لتعمد التصابي ، وإخفاء هذا الشيب ، وقد اختلف العلماء في مسألة الخضاب بالسواد ، والأرجح عندي أنه من يتعمد تغيير الشيب ليأتي أفعالاً منكرة؛ فهو من هذا الصنف .

وأما التشبيه (كحواصل الحمام) ، فقد قال أبو الطيب شمس الحق العظيم آبادي : قال الطيبي : معناه كحواصل الحمام في الغالب ؛ لأن حواصل بعض الحمامات ليست بسود . وأصل الحوصلة : المعدة ،والمراد هنا صدره الأسود[2] .

أما عن الذين هؤلاء صفتهم ، وما نبأ به النبي ﷺ بأنهم لا يريحون رائحة الجنة ؛ فلعل ذلك يكون بسبب أفعال وجرائم ارتكبوها في حق دينهم وأنفسهم ، كالخيانة العظمى أو النفاق الأكبر الذي لا ينفع معه توبة ، أو أنهم ارتكبوا من المعاصي والآثام والذنوب ما يجعلهم يستحقون ألا يريحوا رائحة الجنة ، وأن صفات هؤلاء وسيماهم الواضحة هي أن تكون لحاهم مثل حواصل الحمام ، وهم كُثُرٌ في زماننا ؛ لأنه لم يظهر على مدى التاريخ الإسلامي مَن يحلقون لحالهم ، ويتركون الشعر النابت على أذقانهم إلا في عصرنا الحاضر؛ لذا فلينتبه كل من يفعل ذلك أو يتصف بصفة هؤلاء؛ لكي لا يقع في المحظور تماماً كما جعل رسول الله ﷺ علامة وسمة للخوارج وهي التحليق (أي: حلق شعر الرأس بالموسي) فعن أبي سعيد الخدري وأنس بن مالك رضي الله

١- سنن أبي داود كتاب الترجل ٤٢١٢ ، وسنن النسائي في كتاب الزينة ٤٩٨٨ ، ومسند أحمد ٢٣٤١ ، وصححه الألباني .

٢- عون المعبود ، شرح سنن أبي داود ٩/ ٢٥٧ .

عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «سيكون في أمتي اختلاف وفرقة ، قوم يحسنون القيل ، ويسيئون الفعل ، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية ، لا يرجعون حتى يرتد على فوقه ، هم شر الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم وقتلوه ، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شيء ، مَن قاتلهم كان أولى بالله منهم» . قالوا : يا رسول الله ، ما سيماهم ؟ قال : «التحليق»[1].

ومعنى (لا يرتد على فوقه) أي : أنهم لا يرجعون إلى الدين مرة أخرى كما لا يرجع السهم إلى فوقه ، وهو موضع الوتر من السهم ، وهذا تعليق بالمحال ، فإن ارتداد السهم على الفوق محال ، فرجوعهم إلى الدين أيضاً محال[2].

وهؤلاء الخوارج كانوا أيام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقاتلهم في معركة النهروان ، وقد ذكرنا أن النبي ﷺ نبأ بهم ؛ فكان أول ظهور لهم ولأفكارهم المنحرفة في القرون الأولى ، واستمرت تلك الأفكار المنحرفة سائدة حتى عصرنا الحاضر ، ولذلك حذرنا منهم رسول الله ﷺ واعتبرهم (شر الخلق والخليقة) ، كما وصفهم لنا ، وأعلمنا أن من سيماهم البارزة (التحليق) ؛ لذلك كره بعض العلماء الحلق بالموسي إلا لمن كان به أذى برأسه أي : مرض ، أو من كان حاجًّا أو معتمراً ؛ لأن السنة فيهما (الحلق) ، أما في غير ذلك فقد كرهه الإمام مالك ، وهو مذهبه ورواية عن الإمام أحمد ، وحجتهم في ذلك أن حلق الرأس شعار أهل البدع، فإن الخوارج كانوا يحلقون رؤوسهم ، وبعض الخوارج يعدون حلق الرأس من تمام التوبة والنسك [3] . لذا كانت الكراهية ؛ لكي لا يتصف الذي يفعل ذلك بصفة هؤلاء الخوارج .

كذلك الحال بالنسبة للذين يحلقون لحاهم ، ويتركون شعر أذقانهم ، لا ينبغي لهم فعل هؤلاء الذين وصفهم رسول الله ﷺ أنهم لا يريحون رائحة الجنة ؛ لكي لا يقعوا

١- سنن أبي داود ٤/ ٢٤٣ ، حديث رقم ٤٧٦٥ ، وصححه الألباني .

٢- عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٠/ ٢٨٦ .

٣- راجع : فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (٤/ ٤٠٥) .

في التشبيه والتقليد ، كما أن حلق لحية الرجل ليست من الفطرة السليمة ،ومخالف للسنة النبوية .

وقد رأيت العلامة ابن الجوزي رحمه الله قد ذكر نحواً مما ذكرناه قبل أن نطلع على رأيه ، ونحمد الله العلي القدير أن رزقنا فهم سلفنا من العلماء الأعلام ، فقد قال : يحتمل أن يكون المعنى : (لا يريحون رائحة الجنة) لفعل يصدر منهم ، أو اعتقاد ، لا لعلة الخضاب ، ويكون الخضاب سيماهم ، كما قال في الخوارج سيماهم التحليق ،وإن كان تحليق الشعر ليس بحرام[١] .

أما عن نهي الخضاب بالسواد ، فقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : أتى بأبي قحافة[٢] يوم فتح مكة ورأسه ولحيته كالثغامة[٣] بياضاً . فقال رسول الله ﷺ «غيروا هذا بشيء واجتنبوا السواد» .

قال الإمام النووي : «يحرم الخِضاب بالسواد على الأصح ، وقيل : يُكره كراهية تنزيه ، والمختار : التحريم لقوله ﷺ : (واجتنبوا السواد)[٤] .

الإخبار النبوي بكثرة الزلازل والصواعق وارتفاع حرارة الأرض في هذا الزمان :

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل..[٥] .

وروى أبو داود عن عبد الله بن حوالة الأزدي رضي الله عنه أنه قال : بعثنا رسول الله ﷺ لنغنم على أقدامنا ، فرجعنا فلم نغنم شيئاً ،وعرف الجهد في وجوهنا ، فقام فينا ،

١- كتاب الموضوعات لابن الجوزي (٣/ ٥٥) .

٢- هو : والد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - .

٣- الثغامة : نبات شديد البياض .

٤- مسلم بشرح النووي (١٤/ ٨٠) .

٥- رواه البخاري في باب الاستسقاء ٢/ ٥٢١ ، وباب الفتن ، راجع فتح الباري ١٣/ ٨١ .

فقال : «اللهم لا تكلهم إليَّ فأضعف عنهم ،ولا تكلهم إلى أنفسهم فيعجزوا عنها ،ولا تكلهم إلى الناس فيستأثروا عليهم» ، ثم وضع يده على رأسي - أو قال على هامتي - ثم قال : يا بن حوالة إذا رأيت الخلافة قد نزلت الأرض المقدسة ؛ فقد دنت الزلازل والبلابل والأمور العظام ، والساعة يومئذ أقرب من الناس من يدي هذه من رأسك[1] .

قال شمس الحق العظيم آبادي : إذا رأيت الخلافة - أي : خلافة النبوة - قد نزلت الأرض المقدسة - أي من المدينة إلى أرض الشام ، كما وقعت في إمارة بني أمية (قاله القاري) - فقد دنت البلابل . قال الخطابي : البلابل : الهرم والأحزان ،وبلبلة الصدر وسواس الهموم واضطرابها[2] .

قال الحافظ ابن حجر : لما كان هبوب الريح الشديدة يوجب التخوف المفضي إلى الخشوع والإنابة ؛ كانت الزلزلة ونحوها من الآيات أولى بذلك ، لا سيما وقد نص في الخبر على أن كثرة الزلازل من أشراط الساعة ، وقد وقع في كثير من البلاد الشمالية والشرقية والغربية كثيرٌ من الزلازل ،ولكن الذي يظهر أن المراد بكثرتها شمولها ودوامها[3] .

وقد ورد في الحديث عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ جعل الله عذاب أمتي في الدنيا ، القتل ، والزلازل ، والفتن[4] .

وأخرج الإمام أحمد والطبراني عن سلمة بن نفيل السكوني ، قال : قال رسول الله ﷺ : بين يدي الساعة موتان شديد ، وبعده سنوات الزلازل[5] .

١- سنن أبي داود ٣/ ١٩ ، باب الجهاد ، ومسند الإمام أحمد / ٢١٤٤٩ ، والحاكم في المستدرك ٤/ ٤٢٥، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي ، وصححه الألباني في صحيح أبي داود ، وفي مسند أحمد : (البلايا) .

٢- عون المعبود ٥/ ٤٣٢ .

٣- بتصرف من فتح الباري ، للحافظ ابن حجر ٣٤٧٩ ، ١٣/ ٨٧ .

٤- سنن أبي داود ، كتاب الفتن ، باب : ما يُرجى في القتل / ٤٢٨٠ وصححه الألباني .

٥- مسند الإمام أحمد ٤/ ١٠٤ ، والمعجم الكبير للطبراني ٦/ ١٥٥ ، وسنن الدارمي - المقدمة ١/ ٢٩-٣٠ ، والحاكم في المستدرك ٤/ ٤٤٨ ، وقال : صحيح على شرط الشيخين .

وأخرج ابن أبي شيبة والبيهقي عن صفية بنت أبي عبيد ، قالت : زلزلت الأرض على عهد عمر رضي الله عنه حتى اصطفقت السرر[١] ، فخطب عمر الناس ، فقال : أحدثتم[٢] ، لقد عجلتم ، لئن عادت لأخرجن من بين ظهرانيكم[٣] .

وقد تتبع الشيخ السيوطي رحمه الله الزلازل التي وقعت عبر العصور الإسلامية ، منذ القرن الأول وحتى العاشر ، وقد وصف الزلزال الذي وقع عام (٤٢٥هـ) ، فقال: وفي سنة خمس وعشرين وأربعمائة : كثرت الزلازل بمصر ، والشام ، فهدمت شيئاً كثيراً ،ومات تحت الردم خلق كثير .. وسقط حائط بيت المقدس ، ووقع محراب داود ؛ قطعة منه ، وقطعة من مسجد إبراهيم ؛ وسقطت منارة عسقلان ،ورأس منارة غزة ، وسقط نصف بنيان نابلس[٤] .

وقد أرخ ابن العماد في شذرات الذهب للزلزال الذي وقع في بلاد اليمن في كل من عدن عام ٩٠٨ هـ ، ومدينة زبيد عام (٩١٠ هـ)[٥] ثم اطلعت على مقال نشرته مجلة المنار لمحمد الرشيدي بك آل الحجازي ذكر فيه أحداث الزلزال الذي ضرب اليابان عام ١٩٢٤ م ، ومن المعروف أن بلاد اليابان والشرق الأقصى والمحيط الهادى من أكثر بلدان العالم التي تتعرض للزلازل والهزات الأرضية العنيفة .. ثم تتبع الزلازل التي وقعت في بعض البلدان الأوربية والصين ، ثم ذكر الزلزال الذي وقع بمصر عام ١٨٧٠م ، والذي ضرب كلاً من مصر والسودان وطرابلس وتونس غرباً ، وقسماً كبيراً من بلاد العرب وسوريا والأناضول حتى وصل إلى جنوب إيطاليا ، ثم قال : تسجل مراصد الزلازل في أنحاء العالم آلافاً من الزلازل في كل عام[٦] .

١- اصطفاق السرر أي : تصادمها ببعض من شدة الرجفة والاهتزاز الناتج عن الزلزال .

٢- أحدثتم أي : ابتدعتم في الدين ما ليس فيه .

٣- رواه ابن أبي شيبة في المصنف ٢/ ٤٧٣ ، والبيهقي في السنن ٣/ ٣٤٢ ، وسنده صحيح .

٤- كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة ، للسيوطي ، ص ٨٧ .

٥- راجع شذرات الذهب ، لابن العماد الحنبلي المتوفي (١٠٨٩ هـ) [٨/ ٤٤ - ٤٥] .

٦- مجلة المنار لصاحبها السيد محمد رشيد رضا رحمه الله ، المجلد ٢٥ ،الجزء الثالث ، ص ٢٠٩.

وهو يحكي عن كثرة الزلازل في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين الميلادي ،وما زالت كوارث الزلازل تتوالى في جميع أنحاء العالم ، ولا ننسى زلزال عام ١٩٩٢م ، الذي ضرب مصر ،وزلزال المغرب والجزائر واليمن في نهايات القرن العشرين ، أما في بدايات القرن الواحد والعشرين فكانت كارثة (تسونامي) ، وهو عبارة عن زلزال ضخم ضرب منطقة المحيط الهندي بلغت قوته تسع درجات بمقياس ريختر للزلازل ، وقد أعقب الزلزال ظاهرة تعرف بـ (أمواج تسونامي) أحدثت دماراً واسعاً ، وقتلت عشرات الآلاف من البشر معظمهم من مسلمي إندونيسيا .

وأخيراً وليس آخراً ، الزلزال الذي ضرب أنحاء من المدينة النبوية في أواخر شهر رمضان من عام ١٤٢٨ هـ الموافق ١٦/ ١٠/ ٢٠٠٧ م ، وكانت الهزة الأرضية التي وقعت بمنطقة العيص ، التابعة لمنطقة المدينة النبوية ، بقولة (٢,٣ درجة حسب مقياس ريختر) ، وقد أكد الدكتور عبد الله العمري ، رئيس قسم الجيولوجيا والمشرف على مركز الدراسات الزلزالية بجامعة الملك سعود بالمملكة العربية ، بأنه لا مخاوف من الزلزال ، كما أكد الدكتور صلاح حمد محمود رئيس المعهد القومي للبحوث الفلكية والجيوفيزيقية بأنه لا خطورة على المدينة المنورة من النشاط الزلزالي الذي شهدته أخيراً.. وهكذا نجد أن منطقة المدينة النبوية لم تسلم من الزلزال ، ونحن نؤمن بأن الزلازل ستكثر في الأعوام القادمة ، وذلك مصداقاً لما نبأ به الذي لا ينطق عن الهوى - صلوات ربي وسلامه عليه - وكما أخبرنا عن الزلازل وكثرة وقوعها أنبأنا كذلك ﷺ عن الصواعق؛ فقد أخرج الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة حتى يأتي الرجل القوم ، فيقول من صعق تلكم الغداة ، فيقولون : صعق فلان وفلان[(١)] .

وأخرج الإمام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك[(٢)] .

١- مسند أحمد ١١١٩٤ (الطبعة الإلكترونية) وذكره الحافظ في الفتح ١٣/ ٨٧ .

٢- رواه أحمد ٥٥٠٣ ، والترمذي ٣٣٧٢ ، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ٤٤٢١ .

وأخرج البخاري في الأدب المفرد أن ابن عباس رضي الله عنه كان إذا سمع صوت الرعد ، قال سبحان الذي سبحت له . قال : إن الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه[1] .

وأخرج أيضاً عن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث ، وقال : «سبحان الذي يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته . ثم يقول : إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض[2] .

وأخرج السيوطي عن ابن أبي شيبة ، عن عبد الله بن أبي زكريا ، قال : بلغني أن من سمع صوت الرعد ، فقال : سبحان الله وبحمده ، لم تصبه صاعقة[3] .

وأما عن اشتداد حرارة الأرض كما هو الحاصل الآن ، وهو ما يسمى بالاحتباس الحراري وهو عبارة عن ارتفاع درجة الحرارة في بيئة ما ؛ نتيجة سيلان الطاقة الحرارية من البيئة وإليها ، وعادة ما يطلق هذا الاسم على ظاهرة ارتفاع درجات حرارة الأرض في معدلها ، وعن مسببات هذه الظاهرة على المستوى الأرضي ، أي : عن سبب ظاهرة ارتفاع حرارة كوكب الأرض ، ينقسم العلماء ، فمنهم من يقول : إن هذه الظاهرة طبيعية ، وأن مناخ الأرض يشهد بطبيعته فترات ساخنة وفترات باردة ، ومستشهدين في ذلك بالفترة الجليدية أو الباردة التي وقعت ما بين القرن السابع عشر والثامن عشر الميلادي في أوربا ، ولكن الأغلبية الكبرى من العلماء ، والتي قد لا تنفي أن الظاهرة طبيعية أصلاً متفقة على أن إصدارات الغازات الملوثة ، كالأوزون وثاني أكسيد الكربون يقويان ظاهرة الاحتباس الحراري .

ومن آثار ارتفاع درجة حرارة الأرض ذوبان الجليد عند القطبين أي : الشمالي والجنوبي وهو ما يُقدر العلماء أنه في حال استمراره ؛ فإن ذلك سيؤدي إلى إغراق كثير

١- الأدب المفرد ١/ ٢٥٢ ،وحسنه الألباني .

٢- المصدر السابق ١/ ٢٥٢، وصححه الألباني .

٣- الدر المنثور، للسيوطي ٥/ ٤٩٠.

من المدن الساحلية حول العالم ، كما سيؤدي ارتفاع حرارة الأرض إلى تغيير المناخ العالمي ،وسوف تتصحَّر مساحات كبيرة من الأرض[١] .

أما عما يُثبت ارتفاع درجة حرارة الأرض في تراثنا ومصادرنا ؛ فقد أخرج أبو عمرو الداني ، قال : حدثنا محمد بن أحمد بن القاسم الفاكهي ، قال : حدثنا محمد بن شعبان ، قال : قال مالك (أي : ابن أنس) : سمعت عمرو بن سعيد ابن أخي حسن ، شيخ قديم من أهل اليمن يقول : من علامة قُرب الساعة اشتداد حرّ الأرض[٢] .

ولله الأمر من قبل ومن بعد .

الإخبار النبوي أن قراءة القرآن ستكون بلحون العجم كما هو الحاصل في عصرنا:

روى البيهقي عن حذيفة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإيّاكم ولحون أهل العشق ولحون أهل الكتابين ، وسيجيء بعدي قوم يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والنَّوح لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب الذين يعجبهم شأنهم»[٣] .

وفي رواية الطبراني : «اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها ،وإياكم ولحون أهل الكتابين وأهل الفسق ، فإنه سيجيء بعدي يقوم يُرجِّعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية والنَّوح ، لا يجاوز حناجرهم ، مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم»[٤].

١- نقلاً عن بعض المقالات العلمية التي ورد كثيراً منها عن ظاهرة الاحتباس الحراري على شبكة الإنترنت ، وراجع على سبيل المثال لا الحصر : موسوعة ويكيبيديا .

٢- السنن الواردة في الفتن لأبي عمرو الداني (٥/ ٢ ، حديث رقم ٤٣٢) .

٣- شعب الإيمان للبيهقي ، فصل : في ترك التعمق في القرآن ٢٥٤١.

٤- رواه الطبراني في المعجم الأوسط (١٦/ ٦ حديث رقم ٧٤٣٠) قال الهيثمي في مجمع الزوائد : فيه راو لم يُسم ، وبقيَّة أيضاً (أي : بقية بن الوليد أحد الضعفاء المدلسين) [٧/ ٨٤] وقال السيوطي : والخبر منكر (جمع الجوامع ١/ ٤٤٨٧) .

وروى الدارمي قال : أخبرنا عبد الله بن سعيد عن عبد الله بن إدريس عن الأعمش قال : قرأ رجل عند أنس - رضي الله عنه - بلحن من هذه الألحان ، فكره ذلك أنس» .

وروى أيضاً عن سفيان عن ابن عُليّة عن ابن عون عن محمد قال : كانوا يرون هذه الألحان في القرآن مُحدثة[1] .

ومعنى (بلحون العرب) أي : تطريبها ، و(أصواتها) أي : ترنماتها الحسنة (يُرجّعون) أي : يرددون بالقرآن .

وروايات الحديث التي رواها البيهقي والطبراني بها ضعف في الإسناد إلا أن المعنى صحيح وقد وقع عبر القرون الماضية وبلغ ذروته كالعادة في عصرنا الحاضر ، وهذا بالطبع لا يُنافي قول الحبيب ﷺ من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «زينوا القرآن بأصواتكم»[2] .

قال السيوطي : «يُسن تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها ، فإن لم يكن حسن الصوت حسَّنه ما استطاع بحيث لا يخرج إلى حد التمطيط ، وأما القراءة بالألحان فنصَّ الشافعي في المختصر أنه لا بأس بها ، وعن رواية الربيع الجيزي أنها مكروهة ، قال الرافعي : فقال الجمهور : ليست على قولين ، بل المكروه أن يفرط في المدِّ وفي إشباع الحركات ، والصحيح أن الإفراط على الوجه المذكور حرام ، يفسق به القارئ ويأثم المستمع»[3] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : قال أبو بكر الأشرم : سألت أبا عبد الله (يعني : الإمام أحمد بن حنبل) عن القراءة بالألحان فقال : كل شيء مُحدث فإنه لا يُعجبني إلا أن يكون صوت الرجل لا يتكلفه[4] .

١- سنن الدارمي ، باب كراهية الألحان في القرآن ٣٥٦٦ ، ٣٥٦٧ .

٢- رواه أبو داود في السنن كتاب الوتر ١٤٧٠ ، والنسائي باب تزيين القرآن بالصوت ١٠٢٤ وابن ماجة باب في حسن الصوت ١٤٠٣ وصححه الألباني .

٣- الإتقان في علوم القرن للسيوطي (١/ ١٢٨) ، وراجع كلام الشافعية في : روضة الطالبين للنووي (٤/ ١٦٥) وكذلك المجموع (٢٠/ ٢٣١) .

٤- مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣/ ١٥٠) .

وقال ابن قدامة : «كره أبو عبد الله (أي : أحمد بن حنبل) القراءة بالألحان ، وقال : هي بدعة ؛ وذلك لما رُوِىَ عن النبي ﷺ : (أنه ذكر في أشراط الساعة أن يُتخذ القرآن مزامير ، يُقدِّمون أحدهم ليس بأقرئهم ولا أفضلهم إلا ليُغنيهم غناء)[١] . ولأن القرآن معجز في لفظه ونظمه ، والألحان تُغيِّره» [٢] .

وقالت الموسوعة الفقهية عن اللحن الخفي إنه : خطأ يطرأ على اللفظ ، فيخل بعُرف القراءة ولا يخل بالمعنى وسبب الإخلال القراءة بالألحان المطربة المرجعة كترجيع الغناء ،وهو ممنوع لما فيه من إخراج التلاوة عن أوضاعها الصحيحة ، وتشبيه القرآن بالأغاني التي يُقصد بها الطرب ، وقد قال الشيخ زكريا الأنصاري في معنى (لحون العرب) أي : القراءة بالطبع والسليقة كما جُبلوا عليه من غير زيادة ولا نقص ، والمراد بلحون أهل الفسق والكبائر : الأنغام المستفادة من علم الموسيقى [٣] .

وقال الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله تعالى - بعد أن ساق حديث الطبراني سالف الذكر ، وبعد أن ذكر أدلة المبيحين والمانعين قال : «وفصل النزاع أن يقال التطريب والتغني على وجهين أحدهما : ما اقتضته الطبيعة ، وسمحت به من غير تكلُّف ولا تمرين ولا تعليم ، بل إذا خُلِّيَ وطبعه واسترسلت طبيعته جاءت بذلك التطريب والتلحين فذلك جائز ، وإن أعان طبيعته بفضل تزيين وتحسين الصوت ، والحزين ومن هاجه الطرب والحب والشوق لا يملك من نفسه دفع التحزين والتطريب في القراءة ولكن النفوس تقبله وتستحليه لموافقته الطبع وعدم التكلف والتصنع فيه فهو مطبوع لا متطبع ، وهذا هو الذي كان السلف يفعلونه ويستمعونه وهو التغني الممدوح المحمود وهو الذي يتأثر به التالي والسامع . أما الوجه الثاني فهو

---

١ - الحديث رواه الطبراني وسيأتي تمامه عند حديثنا عن الثورات العربية الحديثة .

٢- المغني في الفقه الحنبلي لابن قدامة المقدسي (٣/ ٤٠٤) .

٣- الموسوعة الفقهية الكويتية ، مادة : تجويد (٢/ ٣٦٠١) .

ما كان من ذلك صناعة من الصنائع وليس في الطبع السماحة به ، بل لا يحصل إلا بتكلف وتصنع وتمرّن كما يتعلم أصوات الغناء بأنواع الألحان البسيطة والمركبة على إيقاعات مخصوصة وأوزان مخترعة لا تحصل إلا بالتعلم والتكلف ، فهذه هي التي كرهها السلف وعابوها وذموها ومنعوا القراءة بها وأنكروا على من قرأ بها ، وكل من له علم بأحوال السلف يعلم قطعاً أنهم برآء من القراءة بألحان الموسيقى المتكلفة التي هي إيقاعات وحركات موزونة ومعدودة محدودة وأنهم أتقى لله من أن يقرؤوا بها ويسوغوها»[1] .

وقال الشيخ ناصر الألباني - رحمه الله تعالى - : «والسُّنَّة أن يُرتل القرآن ترتيلاً ، لا هذًّا ولا عجلة بل قراءة مُفسَّرة حرفاً حرفاً ، ويُزين القرآن بصوته ويتغنى به في حدود الأحكام المعروفة عند أهل العلم بالتجويد ولا يتغنى به على الألحان المبتدعة ولا على القوانين الموسيقية»[2] .

فهذه الجملة من فتاوى وأقوال علماء المسلمين قديماً وحديثاً في القول بقراءة القرآن بالألحان الموسيقية والتي بلغت ذروتها في عصرنا الحاضر فقد حدثني الشيخ إبراهيم الأخضر[3] بالمدينة النبوية أن شيخه الشيخ عبد الفتاح القاضي[4] - رحمه الله - كان يُقرئ بالألحان وكان من أفضل الشيوخ الذين قرأوا عليه على

١- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية (١/ ٤٦٣) [الناشر : مؤسسة الرسالة - بيروت] بتحقيق شعيب الأرناؤوط .

٢- مختصر صفة الصلاة للشيخ الألباني ص ٢٤ فقرة رقم ٦٧ .

٣- هو : الشيخ إبراهيم الأخضر علي القيم أحد مشايخ الحرم النبوي سابقاً .

٤- هو شيخ عموم القراءات في مصر والعالم الإسلامي : عبد الفتاح عبد الغني محمد القاضي وُلِدَ في مدينة دمنهور عام (١٩٠٧م الموافق عام ١٣٢٥ هـ ، وتوفي في القاهرة عام ١٤٠٣هـ الموافق عام ١٩٨٢م) وقد قرأ عليه كثير من مشايخ العالم الإسلامي وعلى رأسهم الشيخ مصطفى إسماعيل وكانت وصية من قارئ مصر الكبير الشيخ محمد رفعت ، وقرأ على الشيخ القاضي الشيخ محمود خليل الحصري والشيخ الطبلاوي وإمام الحرم النبوي الحالي الشيخ علي عبد الرحمن الحذيفي والشيخ إبراهيم الأخضر وغيرهم .

هذا النحو هو القارئ المصري الشهير مصطفى إسماعيل[1] حيث كان يُثني الشيخ القاضي عليه كثيراً وقد أخبرني الشيخ الأخضر أن الشيخ القاضي كان يقول للشيخ مصطفى إسماعيل اقرأ هذه الآية على نغمة الصبا أو تلك الآية على نغمة السيكا أو النهاوند وهذه مقامات السلم الموسيقي فكان الشيخ مصطفى إسماعيل من الإجادة بمكان حيث كان يقرأ الآيات على النحو الذي يريده الشيخ القاضي ، وكان الشيخ محمود خليل الحصري[2] أحد كبار قراء القرآن في مصر والعالم الإسلامي ممن قرأوا علي الشيخ القاضي وكان لا يحسن القراءة بالألحان أو على وقع نغمات السلم الموسيقي عكس الشيخ مصطفى إسماعيل الذي كان يجيد هذا النوع من الفن عند قراءة القرآن ، ولذلك آثرت أن أذكر تلك الواقعة التي حدثني عنها الشيخ إبراهيم الأخضر عن الشيخ مصطفى إسماعيل والتي قصَّها عليه الشيخ عبد الفتاح القاضي لكي أدلل على صدق معنى الحديث الذي رواه البيهقي والطبراني والذي كان عنواناً لهذه الفقرة التي نحن بصدد الحديث عنها ولنؤكد على كراهة السلف لها - كما أخبر بذلك الشيخ ابن قيم الجوزية - رحمه الله - وذلك لأن بعض الجهلة من القُرَّاء المُحدثين قد خرجوا عن المألوف وقرأوا بالقراءات الشاذة التي حرَّم القراءة بها علماء القراءات ومنهم من قرأ بالألحان بشكل ممجوج بحيث تخرج سامع القرآن عن التدبر وتلهيه في شكل الصوت وأسلوب النغمة حتى سمعنا أحد القراء وهو يقرأ في سورة الحاقة في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة : ٣٢] فقال له أحد السامعين من الحاضرين في المسجد: ربنا يزيدك يا عم الشيخ ، وهذا هو ما دعانا إلى تحرير هذه الفقرة ، وأختتم بما قاله الإمام الذهبي- رحمه الله - «القُرَّاء المجوِّدة

١- هو الشيخ قارئ القصر الملكي الشيخ مصطفى إسماعيل من مواليد طنطا عام (١٩٠٥م) وتوفي عام (١٩٧٨م) .

٢- هو القارىء الشيخ محمود خليل الحصري شيخ القراء المصريين وُلِدَ في مدينة طنطا وتحديداً في قرية (شبرا النملة) عام ١٩١٧م ، وتوفي في القاهرة عام (١٩٨٠م) .

فيهم تنطع وتحرير زائد ، يؤدي إلى أن المجوِّد القارئ يبقى مصروف الهمة إلى مراعاة الحروف وكيفية إخراجها على الوجه الصحيح حتى يصل به الأمر إلى التنطع في تجويدها ، بحيث يُشغله ذلك عن تدبر كتاب الله ، ويصرفه عن الخشوع في التلاوة حتى ذكر أنهم ينظرون إلى حُفَّاظ كتاب الله بعين المقت»[1] . ولذلك فينبغي على المؤمن الابتعاد عن القراءة بهذا الأسلوب الذي يُخلّ بالقراءة ويُخرج القارئ عن التدبر والخشوع لآيات القرآن الكريم وخاصة إذا علمنا أن معظم إن لم يكن كل القراء الذين يقرأون بهذا الأسلوب يتقاضون أجراً نظير القراءة في المآتم والحفلات التي تقام لمناسبات شتى ، بل أصبح بعضهم لا يقرأ إلا إذا أخذ أجرة باهظة على المأتم أو الحفلة التي سيقرأ فيها فأمثال هؤلاء ينطبق عليهم الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أكثر منافقي أُمتي قُرَّاؤها»[2] وقد كنت أقرأ على شيخي عبد الفتاح المرصفي[3] - رحمه الله تعالى - هذا الحديث فكان يرتعد ويكاد يبكي من شدّة وقع هذا الحديث عليه مع أنه كان من المشايخ القراء القلائل الذين فتحوا بيوتهم لتلامذتهم للقراءة عليهم فرحمه الله رحمة واسعة وتغمده في فسيح جناته - اللهم آمين - .

١- راجع : حاشية الروض المربع على شرح زاد المستقنع (٢/ ٢٠٧ : ٢١٠) .

٢- مسند الإمام أحمد من مسند عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - ٦٧٩٢ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥/ ٢٨١ حديث رقم ٢٢٤٠) .

٣- هو الشيخ المقرئ الشهير والعلامة النحرير فضيلة الشيخ عبد الفتاح بن السيد عجمي ، المرصفي ولادة ونشأة حيث وُلِدَ في مرصفا من أعمال محافظة القليوبية بمصر عام ١٩٢٣م الموافق عام ١٣٤٠هـ ، وقد شرفت بالقراءة عليه أثناء إقامته بالمدينة النبوية التي توفي بها عام ١٤٠٩ هـ الموافق ١٩٨٩م ، وذلك بعد صلاة العصر وكان أحد طلابه يقرأ عليه في سورة الملك وعندما وصل القارئ قوله تعالي : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ [سورة الملك : ١٢] فاضت روح الشيخ - رحمه الله - وصعدت إلى بارئها وقد تم دفنه في بقيع الغرقد في المدينة النبوية ووري جثمانه بين قبر سيدنا عثمان - رضي الله عنه - وشهداء الحرَّة ، وكنت ممن شاركوا في تشييع جثمانه فأسأل الله - تعالى - أن يُحسن خاتمتنا كما أحسن خاتمته إنه ولي ذلك والقادر عليه وأن يتغمده بواسع مغفرته .

الإخبار النبوي عن حصار الغرب المسيحي للدول العربية :

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله - ﷺ : «منعت العراق درهمها وقفيزها ، ومنعت الشام مُديها ودينارها ،ومُنعت مصر إردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم ، وعدتم من حيث بدأتم ،وعدتم من حيث بدأتم» شهد على ذلك لحم أبي هريرة ودمه[1] .

وفي رواية أخرى لمسلم عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : يوشك أهل العراق ألا يُجبى إليهم قفيز ولا درهم . قلنا : من أين ذاك ؟ قال : من قِبَل العجم ، يمنعون ذاك . ثم قال : يوشك أهل الشام ألا يُجبى إليهم دينار ولا مُدْي . قلنا : من أين ذاك ؟ قال : من قِبَل الروم»[2] .

القفيز : مكيال معروف لأهل العراق ، قيل إنه يعادل ستة عشر كيلوجراماً .

المُدْي : مكيال لأهل الشام ، وكذلك : الإردب : مكيال معروف لأهل مصر .

قال الإمام النووي - رحمه الله - : «وفي معنى (منعت العراق) قولان مشهوران : أحدهما لإسلامهم فتسقط عنهم الجزية ، وهذا قد وُجِدَ ، والثاني - وهو الأشهر - معناه : أن العجم والروم يستولون على البلاد في آخر الزمان ، فيمنعون حصول ذلك للمسلمين»[3] .

وقال أبو عبيد القاسم بن سلام : «معناه - والله أعلم - أن هذا كائن ، وأنه سيمنع بعد في آخر الزمان»[4] . وقال الإمام ابن حزم : «وهذا إنذار منه ﷺ بسوء العاقبة في آخر الأمر وأن المسلمين سيمنعون من حقوقهم في هذه البلاد ويعودون كما بدأوا ، وهذا حق أيضاً قد ظهر وإنا لله وإنا إليه راجعون»[5] .

١- رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٨٩٦ ، وأبو داود في كتاب الخراج ٣٠٣٥ .

٢- رواه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٥١٨٩ ، وأحمد في المسند ١٣٨٨٦ .

٣- مسلم بشرح النووي (٩/ ٢٧٥) .

٤- كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (١/ ١٨٣) .

٥- المحلى لابن حزم (٧/ ٣٤٣) .

وهكذا أجمع علماء وفقهاء الأمة أن هذا الحديث ستقع أحداثه لا محالة في آخر الزمان حتى قال العلامة صديق حسن خان القنوجي المتوفى عام (١٣٠٧ هـ) الموافق (١٨٩٠م) : «وقد وُجِدَ ذلك كله في هذا الزمان الحاضر ، في العراق ، وفي الشام ، ومصر ، واستولى الروم على أكثر البلاد في هذه المائة الثالثة عشرة (أي : من الهجرة) ، ولهم الاستيلاء على سائرها كل يوم ، ولله الأمر من قبل ومن بعد»[١] .

والحقيقة التي لا مرية فيها أن وقائع هذا الحديث قد رأيناها رأى العين في عصرنا الحاضر ، فقد حاصر الروم وعلى رأسهم زعيمة الدول الصليبية في القرن الحادي والعشرين الولايات المتحدة الأمريكية وأذنابها من الدول الأوربية ، وقد أجمع شُرَّاح الحديث من علماء الأمة الإسلامية أن أحداث ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ في الحديث الذي نحن بصدد التعليق عليه ستكون لا محالة في آخر الزمان ، ولا أخال أن هذا الزمان ما هو إلا زماننا ، حيث إن حديثنا عن العراق الذي يعتبر أول البلاد هلاكاً في كل زمان يغزو فيه أعداء الإسلام بلادنا العربية كما حدث إبان الغزو التتاري والغزو الصليبي في القرون الوسطى الإسلامية ، فقد بدأ الحصار الدولي على العراق في أغسطس من عام١٩٩٠م ، وكان عقب الغزو العراقي للكويت ونصَّ قرار الأمم المتحدة الصادر في نفس التاريخ والذي حمل رقم ٦٦١ على عقوبات اقتصادية خانقة على العراق وقد استمر هذا الحصار الظالم قرابة ثلاثة عشر عاماً وقد انتهى هذا الحصار الذي راح ضحيته ملايين من أبناء الشعب العراقي أغلبهم من الأطفال بعد الغزو الأمريكي للعراق وسقوط النظام عام ٢٠٠٣م بزعامة صدام حسين حيث أصبح العراق الآن متشرذماً ومُفتتاً ومُقسَّماً وصدق أثر كعب الأحبار الذي ذكره أبو نعيم الأصبهاني حيث قال : «سيأتي زمان على العراق ستُعرك فيه عرك الأديم ، وتفتُّ فيه فتَّ البعرة»[٢] .

١- السراج الوهاج في كشف مطالب صحيح مسلم بن الحجاج لصديق حسن خان (١١/ ٣٦٨).

٢- حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٢/ ٤٦٣) .

وللأسف فقد شارك كثير من الحكومات العربية دون رغبة الشعوب في حصار العراق الظالم حيث إن هذه الحكومات كانت تدور في فلك الدول الاستعمارية الكبرى وعلى رأس هذه القوى حامية الصليبية العالمية الولايات المتحدة الأمريكية ، وقد كانت مُحصلة هذا الحصار تدمير الإنسان العراقي من الداخل بعد أن سُلبت آدميته وانتهكت كرامته على يد جنود وضباط الاحتلال الأمريكي ، ولا زال هذا الانتهاك مستمرًّا في ظل الاحتلال الغاشم والظالم لأهلنا في العراق من قبل المحتل الأمريكي الذي لا يراعي إلًّا ولا ذمة في شعب العراق .

أما عن حصار الشام فقد بدأ بحصار أهلنا في غزة التي تعتبر بوابة الشام من جهة مصر فقد منع عنها اليهود وعملاء اليهود الأموال ومنع عنهم الأغذية والأدوية حتى أصبحت الأنفاق التي صنعوها على حدود مصر وتحديداً في رفح بمدينة العريش هي المنفذ والسبيل الوحيد لوصول الأغذية والأدوية إلى قطاع غزة المحاصر حتى الآن ، ثم ابتدأ حصار سوريا التي هي قلب الشام ، وقد تمثَّل هذا الحصار في فرض عقوبات أوربية وأمريكية على سوريا حيث تم الحصار على شركات الاتصال والبنوك وتحويلاتها إلى سوريا وكذلك على النفط والغاز ومشتقاتها ،وهذا مصداق قول النبي ﷺ «يوشك أهل الشام ألا يُجبى إليهم دينار ....» الحديث .

وأما عن حصار مصر فإنه لم يأت بعد ولعله على وشك الحدوث لأن الأحداث التي تمر بها مصر في الفترة الحالية لا تُبشر بخير والله أعلم بما هو آت والذي أسأله - سبحانه وتعالى - أن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن .

الإخبار النبوي عن ظهور طائفة القرآنيين :

روى أبو داود عن عبد الرحمن بن أبي عوف عن المقدام بن معد يكرب - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه قال : «ألا إني أُوتيت الكتاب ومثله معه ألا يوشك رجلٌ شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلُّوه ،وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه...»[١] .

وله أيضاً عن أبي رافع عن أبيه عن النبي ﷺ قال : «لا أُلْفينَّ أحدكم مُتكئاً على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرتُ به أو نهيتُ عنه فيقول : لا ندرى ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه»[٢] .

وفي رواية للإمام أحمد عن المقدام - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «يوشك أحدكم أن يُكذبني وهو متكئ على أريكته يُحدِّث بحديثي فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرَّمناه . ألا وإن ما حرَّم رسول الله مثل ما حرَّم الله»[٣] .

وروى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «إنما مَثَلي ومَثَل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه ، فقال يا قوم ، إني رأيت الجيش بعيني ، وإني أنا النذير العُريان ، فالنجاء .. النجاء . فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا ، فانطلقوا على مُهلتهم ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبَّحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مَثَل من أطاعني واتبع ما جئتُ به ، ومثل من عصاني وكذَّب ما جئتُ به من الحق»[٤] .

١- سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب شرح السنة ٤٦٠٦ وصححه الألباني .

٢- المصدر السابق حديث رقم ٤٦٠٧ وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود .

٣- رواه الإمام أحمد في المسند ١٧٦٥٧ والترمذي في كتاب العلم ٨٧٦.

٤- رواه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة من صحيحه ٧٢٨٣ ، ومسلم في الفضائل ، باب شفقته ﷺ على أمته ٦٠٩٤.

شرح بعض مفردات ومعاني الكلمات التي وردت في الأحاديث السابقة :

(أوتيت الكتاب) أي : القرآن الكريم ، (ومثله معه) أي : الوحي الباطن غير المتلو ، قال الإمام البيهقي : هذا الحديث يحتمل وجهين : أحدهما أنه أوتي من الوحي الباطن غير المتلو مثل ما أوتي من الظاهر المتلوّ ،والثاني أن معناه أنه أوتي الكتاب وحيًا يُتلى ، وأوتي مثله من البيان أي : أذن له أن يُبيِّن ما في الكتاب فيعمّ ويخصّ وأن يزيد عليه فيُشرِّع ما ليس في الكتاب له ذكر ، فيكون ذلك في وجوب الحكم ولزوم العمل به كالظاهر المتلوّ من القرآن الكريم .

(ألا يوشك) قال الخطابي : يُحذر بذلك مخالفة السنن التي سنها رسول الله ﷺ مما ليس له ذكر في القرآن على ما ذهبت إليه بعض الفرق التي تنتسب للإسلام من الفرق الضالة ، فإنهم تعلَّقوا بظاهر القرآن وتركوا السُّنن التي ضمنت بيان الكتاب ، فتحيَّروا وضلوا .

(رجل شبعان) هو كناية عن البلادة وسوء الفهم الناشئ عن الشبع أو عن الحماقة اللازمة للتنعيم والغرور بالمال والجاه .

(على أريكته) أي : على سريره ، وأراد بهذه الصفة أصحاب التَّرفُّه والدَّعة الذين لزموا البيوت ولم يطلبوا العلم من مظانه .

(لا أُلفينَّ) أي : لا أجدن من أَلْفيته[1] .

(وأنا النذير العريان) قال النووي : قال العلماء : أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه، وأشار به إليهم إذا كان بعيداً منهم ليخبرهم بما دهمهم وأكثر ما يفعل هذا طليعة القوم ورقيبهم .

قالوا : وإنما يفعل ذلك لأنه أبين للناظر ، وأغرب وأشنع منظراً ، فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب لملاقاة العدو .

١- راجع : عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٠/ ١٢٥) .

(فالنجاء) أي : انجوا أو اطلبوا النجاء .

(فأدلجوا) بإسكان الدال ،ومعناه ساروا من أول الليل .

(على مُهلتهم) وفي رواية بفتحتين والمراد به الهينة والسكينة .

(فصبحهم الجيش) أي : أتاهم صباحاً ، هذا أصله ثم كثر استعماله حتى استعمل فيمن طُرِق بغتة في أي وقت كان[1] .

وهذه الأحاديث تدل على صدق حدس النبي ﷺ فيما أخبر به ونبّأ عنه ، كيف لا ؟ وهو الصادق المصدوق والنبي الخاتم الذي لا ينطق عن الهوى الذي يأتيه الخبر من السماء فيبلغه كما سمعه فأشهد أنه بلَّغ الرسالة حق التبليغ وأدى الأمانة حق الأداء ووقع ما أخبر به من ظهور فئة في القديم ادعت الاكتفاء بالقرآن الكريم عن الأحاديث من خلال بعض الفرق الضالة والمنحرفة التي أرادت تقويض الدين كله في إنكار السُّنة النبوية لهدم الإسلام - زعموا - وقد تصدى لهؤلاء الأقزام علماء أفذاذ أماطوا اللثام عن مكنون غرض هذه الفرق فدحضوا شبهاتهم وانطفأ نار حقدهم على الإسلام بقوة نور الحق الذي أضاءه أهل العلم الذين ألزموهم جحورهم حتى جاء العصر الذي نعيش فيه فخرجت خفافيش الظلام مرة أخرى من جحورها وبدأوا الدعوة إلى إنكار السُّنة النبوية والاكتفاء بالقرآن الكريم ، وقد كانت بداية هذه الدعوة الباطلة في العصر الحاضر من بلاد الهند فيقول شمس الحق العظيم آبادي - صحب كتاب عون المعبود شرح سنن أبي داود- : «لقد ظهرت معجزة النبي ﷺ ووقع ما أخبر به ، فإن رجلاً خرج من البنجاب من إقليم الهند وانتسب بأهل القرآن وشتَّان بينه وبين أهل القرآن بل هو من أهل الإلحاد والمرتدين ، وكان قبل ذلك من الصالحين فأضله الشيطان وأغواه وأبعده عن الصراط المستقيم ، فتفوه بما لا يتكلم به أهل الإسلام ، فأطال لسانه في إهانة النبي ﷺ ، وردَّ الأحاديث الصحيحة بأسرها وقال هذه كلها مكذوبة

١- راجع : شرح النووي على صحيح مسلم (٧/ ٤٨٤) ، وفتح الباري شرح البخاري للحافظ ابن حجر العسقلاني (١٨/ ٣١٠) .

ومفتريات على الله - تعالى - ، وإنما يجب العمل على القرآن العظيم فقط دون أحاديث النبي ﷺ وإن كانت صحيحة متواترة ، من عمل على غير القرآن فهو داخل تحت قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، وغير ذلك من أقواله الكفرية ، وتبعه على ذلك كثير من الجُهَّال ، وجعلوه إماماً ، وقد أفتى علماء العصر بكفره وإلحاده وخروجه عن دائرة الإسلام ، والأمر كما قالوا ، والله أعلم[1] وقد بدأت دعوة هذا الرجل الهندي ويدعى (أحمد خان)[2] عندما ثار الهنود المسلمون في دلهى على الاستعمار البريطاني في بلادهم عام ١٨٥٧م وقد كان هذا الرجل عوناً للإنجليز على دحض هذه الثروة ، وكان رأيه أن سبب الثورة أو (التمرد) كما أطلق هو عليها أن الشعب الهندي أساء فهم طبيعة الحكم الإنجليزي ، وقد أكرم المستعمر الإنجليزي أحمد خان على خيانته لشعبه وبني جلدته وأنعموا عليه بلقب (صاحب نجمة الهند) ، كما عُيّن زميلاً وعضو شرف في الجمعية الملكية الأسيوية بلندن وعينوا له راتباً شهريًّا يرثه ابنه البكر من بعده ، وهذا ديدن المستعمر السابق والحالي فيمن يجدهم أداة طيعة ينفذون له مآربه وخططه ، فقام هذا الخان بنشر الثقافة الغربية بين بني قومه من المسلمين واعتبر أن هذا الأسلوب هو وسيلة ناجحة لإصلاح أحوالهم وفي عام ١٨٦٢م قام بنشر شرح واسع للإنجيل ، ليكون أول مسلم يقوم بهذا

١- عون المعبود شرح سنن أبي داود لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي (١٠/ ١٢٥) .

٢- هو : أحمد خان بن أحمد مير المتقي بن عماد الحسيني ، وُلِدَ في مدينة دهلى في أكتوبر من عام ١٨١٧م ، بدأ دراسته بالقرآن الكريم ، ثم تعلم العربية والفارسية ثم درس العلوم الدينية ، وعندما توفي والده وكان في الحادية والعشرين من عمره التحق للعمل بالشركة الإنجليزية التي كانت تعرف بشركة الهند الشرقية ، وكان ذلك بداية اتصاله بالإنجليز الذين أعجبوا بذكائه وطموحه ، ورأوا فيه ضالتهم التي يبحثون عنها وذلك من خلال انحيازه التام لهم وولائه الكلي لأسياده فأغدقوا عليه المال والحماية ،وقد عرف هو فضلهم عليه فتفانى في خدمتهم ومعاونتهم والدفاع عن سياستهم الاستعمارية ، ووقف معهم صفًّا واحداً ضد أمته ودينه ، حيث كان نشطاً في التأليف والكتابة وإصدار المجلات العلمية ، مسخراً ذلك كله لخدمة أهدافه وأهداف أسياده ، وقد هلك هذا الخائن أحمد خان في مارس عام ١٨٩٧م .. ومن المعلوم أن المستعمر الإنجليزي قد استفاد كثيراً من أفكار وآراء هذا الخائن وحاول تطبيقها في مصر بعد احتلالها عم ١٨٨٢م وقد كان له أذناب وعملاء في مصر قاموا بالتفاني في خدمته - كما فصلنا ذلك آنفاً - .

النوع من الأبحاث بين المسلمين وفيما يتعلق بمنهجه فقد قام هذا الخان بتفسير آيات القرآن الكريم تفسيرًا عقليًّا حسب هواه المريض محاولاً توفيق وتلفيق الآيات مع العصر وأخذ يؤول المعجزات المذكورة في القرآن تأويلاً مخالفاً لما عليه عموم المسلمين حيث قال بأنه لا يوجد في القرآن ما يدل صراحة على أن المسيح – عليه السلام – وُلِد من غير أب ، كما حاول تفسير آيات الجنة والنار تفسيرات روحية رمزية، خلاف مضمونها الظاهري ، كما رفض أحاديث علامات الساعة جملة وتفصيلاً. ولذلك كان حرياً بالإنجليز من احتضان هذا المخرّف وإسباغ الألقاب عليه مثل المجدد ، والرجل المسلم العصري .. إلى غير ذلك من الألقاب والنعوت التي يلصقونها بأذانبهم ومن يدور في فلكهم ممن يخلعون ربقة الإسلام من أعناقهم ويسيرون وراء الغرب المسيحي الذي يغدق على هؤلاء الأموال الذين يلهثون وراء متاع الحياة الدنيا الزائل ويبيعون دينهم بعرض رخيص من أعراض الدنيا .. وأمثال هؤلاء يجدون كل التشجيع والعون من أعداء الله – عز وجل – الذين يريدون إطفاء نور الله بأقوال وأعمال أمثال هؤلاء العملاء الخونة من التغريبيين[1] .

ثم سرعان ما انتشرت هذه الفكرة في العصر الحديث إلى البلدان الإسلامية والعربية الأخرى حيث ظهر في السودان جماعة تقول بإنكار السنة النبوية وتكتفي بالقرآن الكريم وقد تبلورت هذه الفرقة في قالب جديد يسمى الحزب الجمهوري ، وقد أسسه المدعو (محمود محمد طه) الذي وُلِدَ عام ١٩١١م وتخرَّج في جامعة الخرطوم إبان الاحتلال الإنجليزي للسودان من كلية الهندسة ،وقد تبنى هذا الحزب بزعامة مؤسسه فهماً خاصًّا للقرآن امتزج بالأفكار الاشتراكية والصوفية الغالية والفلسفات الغربية المختلفة ، وقد تبنت فرقة الجمهوريين التأويل الباطني لأصول الإسلام مع نبذ وإنكار الأحاديث التي لا تتماشى مع هذا التأويل الباطل ، فيقول محمود محمد طه عن الشرك إنه هو : (الكبت الذي

١- راجع : كتاب شبهات القرآنيين حول السنة النبوية للدكتور محمود محمد مزروعة [كتاب إلكتروني].

انقسمت به النفس الإنسانية إلى عقل واع وعقل باطن بينهما تضاد وعارض) ويقول محمود محمد طه عن الإسلام : (إن الإسلام في أصوله يحوي شريعة الإنسان ، ولكنه في فروعه لا يزال يحوي بعض سمات شريعة وقانون الغابة) ، وله تفسيرات وتأويلات وخزعبلات عديدة نشرها عبر مقالاته الباطلة وكتبه المنتشرة بين أتباعه وأنصار حزبه ، وقد غالى فيه أتباعه واعتقدوه المسيح المنتظر وأقرهم هو إلى ذلك ولم يعترض ، ولذلك تم القبض عليه هو وأتباعه بعد أن اعترض على تطبيق الشريعة في السودان وقام بتحريض الجنوبيين السودانيين النصارى على الحكومة السودانية في ثمانينيات القرن الماضي مما أدى إلى صدور حكم بالإعدام ضده مع بعض أنصاره بتهمة الزندقة وأمهلته الحكومة السودانية - آنذاك - ثلاثة أيام ليعلن توبته عن أفكاره الضالة والمنحرفة والمخالفة لأصول وثوابت الإسلام ، ولكنه رفض وأصرَّ على موقفه فأُعدم شنقاً صباح يوم الجمعة في السابع والعشرين من ربيع الثاني عام ١٤٢٥ هـ الموافق الثامن عشر من شهر يناير عام ١٩٨٥م وعلى مرأى من أتباعه ، وقد أراح الله - عز وجل - أهل السودان من شروره وآثامه وأفكاره الباطلة[١] .

ثم انتقل هذا الفكر المنحرف والمتمثل في إنكار السنة النبوية والقول بالاكتفاء بالقرآن لفهم الإسلام إلى مصر على يد أحد رجالات الأزهر الشريف الذي سارع إلى فصله وطرده شر طردة نتيجة أفكاره المخالفة لمنهج أهل الإسلام والسنة والجماعة هذا الرجل هو المدعو : أحمد صبحي منصور الذي يعتبر زعيم هذه الفرقة الضالة المسماة بالقرآنيين في عصرنا الحاضر ، وهو من مواليد محافظة الشرقية عام ١٩٤٩م ، تخرَّج من جامعة الأزهر عام ١٩٧٣م ، وحصل على الماجستير والدكتوراه من قسم الحضارة والتاريخ الإسلامي ، ثم عمل مدرساً بجامعة الأزهر

١- راجع الموسوعة الميسرة للأديان والفرق المعاصرة ، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الحزب الجمهوري في السودان ، ومقال عن القرآنيين لمحمد جمال عرفة عن مجلة الراصد العدد ٥٠ ، شعبان ١٤٢٨هـ.

ولكنه فُصِلَ من الجامعة عام ١٩٨٧م نتيجة إنكاره السُّنة النبوية واعتبر أن السُّنَّة القولية عنده هي عبارة عن حديث الله - تعالى - في القرآن الذي يؤمن به كمصدر وحيد للإسلام ، ثم أسس أحمد صبحي منصور مذهبه الذي يدعو للاكتفاء بالقرآن وحده كمصدر للتشريع الإسلامي وإنكار الأحاديث النبوية الصحيحة والثابتة عن النبي ﷺ وعندما حُكم عليه بالارتداد عن دين الإسلام نتيجة أفكاره الضالة هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث احتضنته المخابرات الأمريكية كغنيمة وكوسيلة للضغط على الحكومة المصرية تحت أي ذريعة ، ثم عاد إلى مصر ليصبح أحد أقطاب مركز (ابن خلدون) لحقوق الإنسان الذي أسسه عالم الاجتماع المصري الأمريكي سعد الدين إبراهيم ، وهو مركز مشبوه بعلاقاته الوطيدة بالمخابرات الأمريكية وبعد أن تم إغلاق هذا المركز عاد أحمد صبحي منصور إلى الولايات المتحدة بعد أن فشل في الدور الذي رسمته له المخابرات الأمريكية أن يؤديه في مصر ألا وهو زعزعة المسلمين وتشكيكهم في إسلامهم من خلال رفض أحاديث وسُنة نبيهم ﷺ وهناك في أمريكا قام بتأسيس وتدشين موقعه الإلكتروني المسمى (أهل القرآن) والذي قال فيه : «أهل القرآن هو موقع يجمع كل من يؤمن بأن القرآن هو المصدر الوحيد للإسلام وشريعته ، وأنه لم يُفرِّط في شيء يحتاج إليه المسلمون»[١] ومن أقوال أحمد صبحي منصور الضال - حسب موقعه . «إن القرآنيين يرفضون نسبة (الأحاديث النبوية) للنبي محمد ﷺ ونرفض أن تكون جزءاً من الإسلام ، لأن الإسلام اكتمل بالقرآن .. نؤمن أنه (أي : النبي ﷺ) بلَّغ الرسالة كاملة تامة .. ولكن المسلمين بعده بدَّلوا وغيَّروا وحاولوا تبرير وتسويغ ما يفعلون فاخترعوا - كذا - تلك الأحاديث لتبرر لهم خروجهم عن الإسلام وتفرقهم وحروبهم»[٢] وبذلك يعتبر أحمد صبحي منصور قد أنكر معلومة من الدين بالضرورة وهي إنكار السُّنة النبوية جملة وتفصيلاً واعتبر على حد قوله أن

١- موقع أهل القرآن الإلكتروني ، وهو الناطق الرسمي باسم الضال أحمد صبحي منصور .

٢- المصدر السابق ومقالاته الغثائية في ذاك الموقع كثيرة .

القرآن هو المصدر الوحيد للإسلام مع أن القرآن الكريم يحتاج إلى الأحاديث النبوية الثابتة والصحيحة لتفُسِّره وتُبيِّن أحكامه ، وقد أجمع واتفق علماء الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً على حُجيَّة السُّنَّة النبوية ، سواء ما كان منها على سبيل البيان أو سبيل الاستقلال ، يقول الإمام الشوكاني : «اعلم أنه قد اتفق من يُعتدّ به من أهل العلم على أن السُّنَّة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام وأن ثبوت حُجيّة السُّنة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ولا يخالف في ذلك إلا من لاحظَّ له في دين الإسلام[1] .

إذن فأحمد صبحي منصور وطائفته ومن سار على دربه ممن أنكروا السُّنَّة النبوية لا حظَّ لهم في الإسلام ،ومن عجب أن هذا المدعو أحمد صبحي منصور في حين أنه ينفي ويُنكر السنة النبوية المطهرة إلا أنه يؤمن ويعتقد بالأساطير والخزعبلات فيقول عن أسطورة ما يسمى بلعنة الفراعنة : «إن الأغلب في كتابة المؤلفين الغربيين عن الفراعنة ولعنة الفراعنة هو عدم الاهتمام بما كتبه المؤرخون المسلمون عن هذه الآثار عبر القرون ، صحيح أن المؤرخين المسلمين كتبوا عن الأهرامات والآثار الفرعونية روايات يدخل أكثرها في بند الأساطير ،ولكن هذه الأساطير في حدِّ ذاتها كانت صادقة في التعبير عن مشاعر قائليها من المصريين ، وكانت صادقة في تصويرها لفهم الناس لتلك الآثار ، وكانت أخيراً صادقة في سرد الروايات التي تناقلها المصريون عن أسلافهم عبر الأجيال ، ثم إن الأساطير برغم ابتعادها عن الحقائق التاريخية إلا أنها تحمل المفاتيح في فهم الألغاز الفرعونية ومنها موضوع لعنة الفراعنة، فهنا يتزاوج الواقع مع الخيال .!!![2]

هذا هو أحمد صبحي منصور الذي يؤمن بصدق سرد الروايات التي تناقلها

١- بتصرف من إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق في علم الأصول للشوكاني ص ٣٣ [الناشر : دار الفكر - بيروت].

٢- مقال بعنوان : لعنة الفراعنة بين الفكر الغربي والموروث العربي لأحمد صبحي منصور بتاريخ ١٢/ ٥/ ٢٠٠٧م، نقلاً عن موقع : شفاف الشرق الأوسط الإلكتروني .

المصريون عن أسلافهم حول أسطورة لعنة الفراعنة ، ولا يؤمن بسرد وصدق الروايات التي تناقلها الأثبات والعدول من أهل العلم من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها عن صدق الأحاديث والروايات التي ثبتت صحتها عن الصادق المصدوق ﷺ والتي منها روايات أحاديث الفصل الذي نحن بصدده والتي تتحدث عن المنكرين والرافضين لأحاديث وسُنة النبي ﷺ وأن ما أخبر به الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يُوحَى - صلوات ربي وسلامه عليه - قد تحقق وبوضوح في زماننا هذا في أمثال أحمد صبحى منصور صاحب موقع أهل القرآن ، وأهل القرآن والسنة من المسلمين الصادقين برءاء من موقعه ومن كتاباته المليئة بالطعن في الإسلام ورموزه ، مثله تماماً كمثل بقية الأقلام المأجورة من أصحاب الفكر التغريبي ، ومن خلال اطلاعنا على موقعه المذكور وجدنا أنه قد فتح صفحات موقعه لكل علماني وليبرالي وماركسي ولا ديني للكتابة في هذا الموقع المشبوه والتي تنضح مقالاتهم المسمومة بكل غث وفكر منحرف وتحريف للكلم عن مواضعه ضد كل ما هو إسلامي ، وهذا إن دل فإنما يدل على مدى العلاقة الوطيدة التي تجمع بين قوى الكفر من الصليبيين الحاقدين واليهود الماكرين مع اللادينيين والمنافقين من أهل الشقاق والجدال والعناد ممن ينتسبون إلى الإسلام وهم في حقيقة كتاباتهم خونة مأجورون وعملاء وأذناب قوى الشر في العالم وعلى رأسهم اليهود والولايات المتحدة وأذنابها من الدول الأوربية المسيحية الذين اجتمعوا في هذا الزمان على الإسلام كما تجتمع الأكلة على قصعتها وهذا ما نبأ به وأخبر عنه الصادق المصدوق ﷺ والذي نراه في عصرنا الحاضر وأيامنا هذه النحسات رأى العين ونلمسه ونعاني منه كأمة مغلوبة على أمرها قد اجتمعت عليها الأمم قاطبة ، وهذا ما سنتحدث عنه في الفصل القادم بشيء من التفصيل والبيان .

الإخبار النبوي عن زمن القصعة واجتماع الأمم على الإسلام :

هذه الفقرة سنتناول الحديث فيها عن معجزة من معجزات الصادق المصدوق ﷺ وإن بدت معالمها تظهر منذ زمن إلا أنها ظهرت واتضحت وتجلّت تماماً في عصرنا الحاضر الذي نعيش فيه الآن . هذه المعجزة تتمثل في إخبار النبي ﷺ عن اجتماع قوى الكفر والضلال من الأمم والملل الأخرى على أمة الإسلام تماماً كما تجتمع الأكلة إلى القصعة حتى أصبح المسلمون أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام ، ولا زالت قوى الشر من أمم الكفر والضلال والبهتان تُقطِّع في أوصال الأمة وتحاول أن تُجزِّئ المقطع وتُفتِّت المجزئ حتى أصبحت أمتنا العربية خاصة والإسلامية عامة كالكلأ المباح لتلك القوى الشريرة التي تعبث بمقدرات أمتنا .

والرسول ﷺ قد نبّأ ، وأخبر ووصف حال الأمة في عصرنا الحاضر وصفاً دقيقاً حول اجتماع أمم الكفر وتكالبهم علينا ، فقد روى أبو داود وغيره عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : «يُوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها» . فقال قائل : ومن قِلَّة نحن يومئذ ؟ قال : «بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غُثاءُ كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم وليقذفن في قلوبكم الوهن» . فقال قائل : يا رسول الله وما الوَهَن؟ قال : «حُبُّ الدنيا وكراهية الموت» . وفي رواية : توشك الأمم أن تداعى عليكم كما يتداعى القوم على قصعتهم ، يُنزع الوهن من قلوب عدوكم ويُجعل في قلوبكم ، وتُحبَّب إليكم الدنيا ، قالوا : من قِلَّةٍ ؟ قال : أكثركم غثاء كغثاء السيل» . وفي رواية : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى القوم إلى قصعتهم» قيل : من قِلَّة ؟ قال : «لا ، ولكنه غثاء كغثاء السيل ، يجعل الوهن في قلوبكم ، وينزع الرعب من قلوب عدوكم لحبِّكم الدنيا وكراهيتكم الموت» . وفي رواية المسند للإمام أحمد عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أُفُق كما تداعى الأكلة على قصعتها» قال : قلنا يا رسول الله أمِنْ قِلّة بنا يومئذ ؟

قال: «أنتم يومئذ كثير ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل ، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن» قلنا : وما الوَهَنُ ؟ قال : «حب الحياة وكراهية الموت»[1] .

هذه هي روايات الحديث وكلها عن ثوبان - رضي الله عنه - مولى رسول الله ﷺ .

- شرح معاني ومفردات الحديث :

(يوشك) وفي رواية : (توشك) بالتاء أي : يقترب أو تقترب أو سرعان ما تجتمع عليكم قوى الكفر والضلال من الأمم الأخرى .

(تداعى عليكم) بحذف إحدى التائين أي : تتداعى بأن يدعو بعضهم بعضاً والمعنى أن قوى الكفر من الأمم الأخرى دعت بعضها بعضاً لتجتمع على أمة الإسلام .

(كما تداعى الأكلة) وفي رواية (كما تداعى القوم) أي : كما يدعو أكلة الطعام بعضهم بعضاً ، أو كما يدعو القوم بعضهم بعضاً على طعام .

(قصعتها) وفي رواية (قصعتهم) الضمير في الحالتين للأكلة والقصعة الضخمة تُشبع العشرة من الرجال ، وهذا تشبيه بليغ من النبي ﷺ حيث شبه اجتماع القوم من قوى الكفر والضلال على أمة الإسلام باجتماع القوم على القصعة الضخمة لتناول الطعام فيتناولون ويأخذون ما يريدون من أمة الإسلام بلا مانع ولا مُنازع فيأكلونها عفواً صفواً بلا تعب ينالهم أو ضرر يلحقهم أو بأس يمنعهم .

(غُثاء) : بالضم والمدّ وهو ما يحمله السيل من زبد وقَذر ، وهذا تشبيه دقيق من الصادق المصدوق ﷺ لما سيكون عليه حال أهل الإسلام في ذاك الزمان ولا أخاله إلا

١- تخريج الحديث حسب الروايات : سنن أبي داود ، كتاب الملاحم ، باب : في تداعي الأمم / ٤٢٩٩ ، مصنف ابن أبي شيبة (٨/ ٦١٣) ، مسند الطيالسي (٣/ ١٤٥ حديث رقم ١٠٧٤) ، مسند الإمام أحمد من حديث ثوبان - رضي الله عنه ٢٣٠٦٠ ، وهو في مسند الروياني (١/ ٤٢٧) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ٦٤٧ ، حديث رقم ٩٥٨) .

زماننا الذي نعيش فيه من قلّة الشجاعة ودناءة قَدْر أمة الإسلام عند الأمم الأخرى واستضعافهم فهو على هذا الحال كالزَّبد والقذر الذي يحمله السيل مما لا نفع فيه ، لأنه من المعلوم أن الغثاء يكون تبعاً للسيل الجارف بحيث لا يقوى على المصادمة والمدافعة ، فشأن هذا الغثاء الإذعان والطاعة العمياء للسيل الجارف ، هي حال بعض المسلمين من حيث الإذعان والسمع والطاعة لقوى الكفر وخاصة القوى الغاشمة في عصرنا الحاضر ومن يُحرّكها من اللوبي الصهيوني العالمي .

(ولينزعن) أي : ليقتلعن ، من نزع الشيء ينزعه وهو من الاستلاب ،والمعنى أن الله يُزيل ويقتلع ويسلب من أمة الإسلام ما كان يعتمل في صدور أعداء الإسلام وهو:

(المهابة) أي : الخوف والرعب والإجلال من المسلمين الذين يؤمنون بالله ربًّا وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولاً وبصحابة رسول الله – عليه السلام – أسوة وقدوة وسلفاً صالحاً من الذين يسيرون بهدى القرآن الكريم وسنة النبي العدنان وبفهم واقعهم الذي يعيشون فيه ، فهؤلاء هم المسلمون حقًّا الذين يهاب ويخاف منهم أعداء الإسلام .

(وليقذفن) : قذف بالشيء يقذف قذفاً فانقذف أي : رمى ، والمعنى : وليرمينَّ الله – تعالى – .

(الوهن) أي : الضعف ، ثم فسَّره النبي الحبيب – صلوات ربي عليه وآله وسلم – عندما سُئل عن معنى (الوهن) الذي يقصده فقال ﷺ :

(حب الدنيا وكراهية الموت) قال الطيبي : «وهما متلازمان ، فكأنهما شيء واحد يدعوهم إلى إعطاء الدنيَّة في الدين من العدو المبين ، ونسأل الله العافية»[1] .

١- راجع : عون المعبود شرح سنن أبي داود (١١/ ٤٠٤) ، ولسان العرب لابن منظور (١٠/ ٥١٢) ، (١٤/ ٢٥٧)، (٨/ ٢٧٤).

قراءة في حديث القصعة من خلال واقعنا المعاصر :

من خلال استقراء مفردات معاني حديث القصعة فقط تنجلي لكل ذي بصيرة من المسلمين مدى التصوير النبوي الدقيق الذي صاغه الصادق المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه - في كل فقرة بل في كل كلمة من كلمات وفقرات الحديث الإعجازي وكأنه ﷺ يعيش بين أظهرنا بأبي هو وأمي ، وذلك لأنه إن كانت وقعت في الأزمنة الإسلامية السابقة اجتماع قوى الشر من الأمم الأخرى على أمة الإسلام كما حدث إبان أيام التتار والصليبيين إلا أنه لم تجتمع أو تتكالب أمم الكفر والضلال على أمة الإسلام كما اجتمعت وتكالبت علينا في واقعنا المعاصر ، ولم تكن أمة الإسلام على مدار تاريخها الإسلامي بهذه الكثرة التي هي عليه الآن في عصرنا الحاضر حيث وصفهم الصادق المصدوق ﷺ بأنهم (يومئذ كثير) حيث يبلغ عدد أهل الإسلام على وجه المعمورة في عصرنا الحاضر حوالي المليار ونصف مليار مسلم ولكنهم كما وصفهم الصادق المصدوق بالغثاء الذي لا فائدة فيه ولا نفع وذلك لأسباب سوف نتطرق لها تباعاً ولكن لكي نؤكد ونُدلل على التصوير النبوي الدقيق على معنى تكالب أمم الكفر والضلال على أمتنا الإسلامية في عصرنا المعاصر واجتماعهم علينا عن ذي قبل نقول :

أولاً : لم تقم لليهود دولة بالمعنى الحقيقي منذ عهد نبي الله سليمان - عليه السلام - إلا في عصرنا الحاضر ، وتحديداً منذ القرن الماضي عقب حرب عام ١٩٤٨م التي اجتمعت فيه قوى الضلال من الصليبيين من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين على أمة الإسلام حيث تم تقسيم دولنا العربية بين الدول الاستعمارية وتم زرع الدولة المغتصبة المسماة (إسرائيل) لأرضنا الفلسطينية وسط عالمنا العربي لتكون كالشوكة بين أظهرنا ، وهؤلاء اليهود تكالبوا على أرضنا الفلسطينية فجاءوا من كل حدب وصوب ليعيشوا على أرضنا العربية ويعيثوا فيها الفساد[1] كما هو مُعاين ومشاهد على مرأى ومسمع من العالم أجمع .

---

١ - راجع كابنا : اليهود المتخفون ، وأثرهم في المسيحية والإسلام ، وراجع كتابنا : التوراة العدو اللدود للسامية ، وكذلك كتابنا : السبي الأخير لبني إسرائيل [الناشر : دار الكتاب العربي ، دمشق - القاهرة] .

ثانياً : اجتماع وتكالب قوى الضلال من الصليبيين على أمة الإسلام على مدار التاريخ الإسلامي ، فكم هي كانت ولا زالت المحاولات والمؤامرات الصليبية التي تكيد للإسلام والمسلمين سواء كانت العسكرية أو الفكرية والثقافية ، وكم وضعوا من الخطط لتنصير الشعوب الإسلامية وفي هذا الصدد يقولون :

«لقد كانت عملية تنصير المسلمين من أعظم التحديات التي واجهت الكنيسة على مر العصور ، وأصبح ذلك التحدي أكثر وضوحاً بسبب الأحداث السياسية التي تشد الأنظار نحو الأراضي الإسلامية ، إضافة إلى الانفتاح الحديث الذي يشير إلى استعداد بعض المسلمين لتقبل رسالة المسيح ، فهنالك على الأقل حقيقتان معاصرتان عن الإسلام تؤيدان هذا التفاؤل ، أولاً : الخلافات والفُرقة في داخل الإسلام ، والضغوط التي تدعو إلى التغيير والتي تهاجمه ، لاحظوا أن الإسلام لم يعد ذلك الدين المتماسك - كذا - كما كان عادة يوصف في السنوات الماضية ، بل هم عالم من الخلافات والاضطرابات الواسعة ومن التفرق والتشرذم . ثانياً : يضاف إلى اختلاف المسلمين أنفسهم أن الإسلام كعقيدة يتعرض لضغوط عديدة منها : اندفاع المسلمين لتقليد الغرب والأفكار العلمانية ، والتغييرات الاجتماعية . فهؤلاء فجأة أصبحوا يركبون المرسيدس ، وتم افتتاح فروع (دجاج كنتاكي) في أكثر من دولة عربية وإسلامية ، حيث يتمكن العرب والمسلمون من مضغ قطع لحوم الدواجن المشحونة من ولاية كارولينا الشمالية بالولايات المتحدة الأمريكية[1] . وهذا غيض من فيض من محاولات وخطط أهل الغرب أو بني الأصفر من الروم لتنصير شعوب العالم الإسلامي ، إلا أننا نعيش مع أهل الغرب من الروم فترة هدنة وهذا وصف نبوي دقيق حيث روى ابن ماجة والبيهقي عن عوف بن مالك - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «تكون

١- التنصير .. خطة لغزو العالم الإسلامي ، الترجمة الكاملة لأعمال المؤتمر التنصيري الذي عُقد في مدينة جلين آيري بولاية كلورادو في الولايات المتحدة الأمريكية سنة (١٩٧٨م) ونشرته دار (MARC) للنشر ، عن الخطاب الرئيسي للمؤتمر الذي ألقاه : وستانلي مونيهام ص ٢٣ ، ٢٤ .

بينكم وبين بني الأصفر هدنة ، فيغدرون بكم ، فيسيرون إليكم في ثمانين غاية تحت كل غاية منهم اثنا عشر ألفا»[1] وقد أوشكت هذه الهدنة على الانقضاء والتي سيعقبها الملحمة الكبرى[2] ، ولكننا الآن نعيش في نهاية فترة تلك الهدنة وخاصة بعد الثورات العربية التي أطاحت بالحكام الموالين للغرب المسيحي .

ثالثاً : ومن الأمم التي اجتمعت وتكالبت على أمة الإسلام في عصرنا الحاضر الأمة الهندوسية الكافرة الذين وضعوا بروتوكولات ضد أهل الإسلام ، وقد شاهدت بأم عين رأسي معبداً للهندوس الذين وضعوا كتاباً باسم (هُبوا معشر الهندوس) وضعوا فيه ثلاث عشرة فقرة تحتوي على كم هائل من الحقد والكراهية للمسلمين والعرب .

وقد وُزِّع الكتاب في لندن على مدى خمسة أيام قبل أن تسحبه السلطات الإنجليزية ؛ خوفاً من إثارة الاحتجاجات والنعرات في العالم العربي على غرار ما فعله كتاب المرتد سليمان رشدي (آيات شيطانية) وسط الجالية العربية والإسلامية هناك . تقول فقرات تلك البروتوكولات الهندوسية :

١ - يجب على الهندوسي اعتبار إسرائيل الصديق الوفي ؛ لأنها تحمل مشاعر سالبة ضد المسلمين .

٢ - يجب نشر الرذيلة والأفكار الإباحية وسط المسلمين .

٣ - يجب أن تُبنى المعابد الهندوسية في أماكن يسهل الوصول إليها ،ويجب أن تُزار كل يوم ، ويجب وضع تمثال للإله (رام) [3] في مكان العمل .

١- رواه ابن ماجة (٢/ ١٣٧١ حديث رقم ٤٠٩٥) والبيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٩٧) وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٩٩١ .

٢- راجع كتابنا : الإعجاز النبوي في الفتن والملاحم (مصدر سابق) .

٣- هو إله الهندوس الذي يعبدونه من دون الله - سبحانه وتعالى - راجع كتابنا : الإعجاز النبوي في الفتن والملاحم (مصدر سابق) .

٤ - يجب أن تُعقد الاجتماعات بصفة منتظمة للتخطيط للعمل ضد الإسلام .

٥ - يجب نشر المواد المُخدّرة والبغاء في الدول الإسلامية التي تعيش فيها جاليات هندوسية .

٦ - يجب تشجيع إقامة علاقات جنسية مع المسلمات لإنجاب أطفال هندوس منهن .

٧ - إذا كنت صيدلانيًّا أو طبيباً ؛ فاعمل مهما كلفك الأمر لإحداث عيوب خلقية في الأجنة عند المسلمين أو إسقاط الحوامل بوسائل شتى .

٨ - إذا كنت طبيباً أو مُمرضاً ، فاهمس في أذن الوليد المسلم باسم (رام) .

٩ - إذا كنت تعمل في محل يملكه مسلم ، حاول أن تخرب البضاعة الموجودة في المحل أو تعمل على إفسادها،وذلك ليتكبد الخسائر الفادحة .

١٠ - صاحب المسلمين ، واكسب ثقتهم وودهم ، واطعنهم من خلف ظهورهم .

١١ - حَرِّض الآخرين ضدهم وخاصة اليهود والنصارى .

١٢ - إذا كنت تعمل في بيت من بيوتهم ، حاول أن تؤثر على طريقة تفكير الأطفال والنساء .

١٣ - لفّ معصمك بخيط أسود وأنت وسطهم ، ليتعرَّف عليك إخوانك وأقرانك من الهندوس ولتكون مميزًا عنهم .

انتهت فقرات البروتوكولات التي وضعها الهندوس للنيل من الإسلام والمسلمين ، وصدق فيهم قول الله - عز وجل - : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾ [المائدة : ٨٢] . قال الفخر الرازي : «اعلم أنه - سبحانه وتعالى - لما ذكر أن أحوال أهل الكتاب من اليهود والنصارى ما ذكره ، ذكر في هذه الآية أن اليهود في غاية العدوانية مع المسلمين ، ولذلك جعلهم قرناء المشركين في شدَّة العداوة ، بل نبه على أنهم أشد في العداوة من المشركين من جهة أنه قدَّم ذكرهم على

ذكر المشركين»[١] ويقول سيد قطب : «وأما في العصر الحديث فإن ضراوة المعركة بين الوثنية الهندية والإسلام ضراوة ظاهرة ؛ ولكنها لا تبلغ ضراوة الصهيونية العالمية»[٢].

وهكذا نجد تكالب واجتماع قوى الشر من اليهود والنصارى والمشركين من الهندوس وغيرهم من أمم وملل الكفر الأخرى قد ازداد حدَّة وضراوة وقسوة في واقعنا المعاصر ، ثم نزيد على هؤلاء ..

رابعاً : اجتماع وتكالب مذاهب الكفر المعاصرة من العلمانية والمتطرفة والليبرالية الإباحية والشيوعية أو اليسارية من أصحاب الفكر المتطرف الذين يحقدون على كل ما هو إسلامي ويحاربون ويعادون كل ما هو ديني وما أدلُّ على ذلك من انتشار كُتابهم الذين تنضح كتاباتهم بكل حقد وبُغض وغلٍّ للإسلام ورموزه ، وما أسهل ما تجد ذلك إذا تصفحّت الجرائد والمجلات والصحف والمنتديات التي تحمل بصمات كتاباتهم وكلامهم والتي تعلن بوضوح لا لبس فيه من البراءة من الدين الإسلامي وراجع على سبيل المثال مقالات بعض الكتاب في بعض الصحف المصرية ومنتديات (اللادينيون العرب ، والملحدون العرب) وغيرها من وسائل الإعلام التي يسيطر على معظمها رموز المدرسة التغريبية المتطرفة التي تحدثنا عنها آنفاً .

وهكذا نجد أن إخبار الصادق المصدوق ﷺ بأن قوى الضلال والبهتان والمذاهب الضالة ستجتمع وتتكالب على أمتنا الإسلامية قد تحقق في عصرنا الحاضر ورأيناه رأى العين فقد اجتمعت كل قوى الكفر والضلال التي ذكرناها آنفاً على الأمة الإسلامية كما تجتمع فعلاً الأكلة إلى قصعتها ولم يكن ذلك عن قلة ولكن كان عن ضعف ووهن وخذلان نتيجة (حب الدنيا وكراهية الموت) ، وحب الدنيا يتمثل في زيادة الرفاهية

١- تفسير الفخر الرازي المسمى بـ (مفاتيح الغيب) ٦/ ١٣٣ .

٢- في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ٩٦١) .

فيها كما وصف القس النصراني تكالب الشعوب على ركوب السيارات الفارهة وافتتاح فروع الكنتاكي الأمريكي واستعمال أدوات الزينة والتجميل التي تُجلب من أوربا والتي يُصرف عليها بالملايين وذلك لإلهاء الشعوب العربية بالدنيا وتمسكهم بها فتهلكهم كما أهلكتهم وهذا وصف نبوي دقيق لكل من يتمسك ويتشبث بالحياة الدنيا ، فقد روى البخاري ومسلم عن عمرو بن عوف الأنصاري - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : «فو الله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تُبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»[١] .

وعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ : «ليأتين على الناس زمان قلوبهم قلوب الأعاجم قيل وما قلوب الأعاجم ؟ قال : حب الدنيا ، سنتهم سُنَّة الأعراب ،ما أتاهم من رزق جعلوه في الحيوان ، يرون الجهاد ضرراً والزكاة مغرماً» [٢] ، وقد تشبَّه المسلمون بالأعاجم في حبهم للدنيا وكراهية الموت تماماً كما قال الله - عز وجل - عن أهل الكتاب ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾[البقرة : ٩٦] قال ابن كثير : قال الحسن البصري: المنافق أحرص الناس على حياة[٣] وقد روى الإمام أحمد في المسند عن محمود بن لبيد أن النبي ﷺ قال : «اثنتان يكرههما ابن آدم : الموت ، والموت خير للمؤمن من الفتنة ، ويكره قِلَّة المال ، وقِلَّة المال أقلُّ للحساب»[٤] ولذلك وصانا الحبيب المصطفى ﷺ بكثرة ذكر الموت حتى لا يتشبث ويتعلق بها أحد من المسلمين ، فقد روى الترمذي

١- متفق عليه ، رواه البخاري في كتاب الجزية ٣١٥٨ ، ومسلم في الزهد ٧٦١٤.

٢- رواه الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٦٥) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ، الجزء السابع ٣٣٥٧.

٣- تفسير ابن كثير (١/ ٣٣٥) .

٤- رواه الإمام أحمد في المسند من حديث محمود بن لبيد ٢٤٣٤٣ وصححه الألباني في صحيح الجامع ١٣٩ .

والنسائي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «أكثروا ذكر هاذم اللذات» يعني الموت[1] فهذه وصايا رسول الله ﷺ من تمسَّك بها فاز ونجا وأفلح وكان مثواه الجنة بإذن الله تعالى - ومن تركها وعصى أبا القاسم ﷺ واتبع هواه والشيطان غوى وهلك وضل وكان مثواه النار ، نسأل الله العافية .

ولذلك نجد أن السببين الأساسيين لضياع أمة الإسلام وخذلانهم وما هم عليهم الآن من حالات الضعف والوهن هما : حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة ، وكراهية الموت وهما من أسباب ودواعي الخضوع والخنوع والذل والهوان ولذلك استحقوا ما هم عليه الآن ، فإذا نفَّضوا عن كاهلهم هذين السببين فسوف تعود الأمة الإسلامية إلى عزتها وكرامتها وسيهابها الأعداء والخصوم وذلك إذا عادوا إلى قرآنهم وسُنَّة نبيهم فتمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ فعندها ستعود للإسلام عزته وكرامته التي أهانها بعض أهل الإسلام الذين إذا صلحوا صلح حال الأمة وإذا فسدوا فسدت الأمة ، والذي أسأل الله بأسمائه الحسنى أن يُغيِّر حال الأمة كلها بعد العودة إلى الحكم الإسلامي الرشيد بإذن الله - تعالى - فهل يا ترى قد أخبر الصادق المصدوق ﷺ ونبَّأ بها أُمته ، هذا ما سنستعرضه في الفقرة التالية .

١- رواه الترمذي في السنن كتاب الزهد ٢٤٧٧ ، وقال : هذا حديث حسن غريب ، والنسائي في كتاب الجنائز ١٨٣٥ .

هل أخبر النبي ﷺ بثورات بعض الشعوب العربية في هذا الزمان :

بادئ ذي بدء نقول إن هذه الفقرة ليست من باب التخرصات أو إعمال العقول أو إنزال بعض النصوص الشرعية وليِّ أعناقها لتتماشى مع الحدث الذي نحن بصدد الحديث عنه ولكن الذي يمكن قوله إنه من باب استقراء الواقع الذي نعيشه من خلال فهمنا لنصوص القرآن والسنة النبوية الصحيحة - كما ذكرنا ذلك آنفاً - فما تعيشه أمتنا العربية الآن التي انتفضت لتسترد كرامتها المهدرة وثرواتها من بعض الحكام الذين لم يراعوا الله - عز وجل - في شعوبهم ولا أوطانهم وظلموا وطغوا وتجبروا فكان حريٌّ بالشعوب التي ذاقت من ويلات هؤلاء الحُكَّام أن تنتفض من سباتها الذي دام طويلاً في ظل هذا الحكم وهذا الحُكم هو الذي أخبر عنه الصادق المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه - والذي كان من نتائجه الأحداث التي تشهدها أمتنا العربية وهذا ما سنتناوله بالشرح والتفنيد لروايات الحديث الذي نبّأ به المصطفى ﷺ.

روى الإمام أحمد والبيهقي عن حذيفة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثم تكون خلافة على منهاج النبوة فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون مُلكاً عاضًا فيكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون مُلكاً جبريًّا يكون ما شاء أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ... ثم سكت .. وعند الطبراني عن أبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : «إن فيكم النبوة ، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ، ثم يكون مُلكاً وجَبريَّة» .

وفي رواية الدارمي عن أبي عبيدة بن الجراح - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «أول دينكم نُبوة ورحمة ، ثم مُلْكٌ ورحمةٌ ، ثم مُلكٌ أعْفَرُ ، ثم مُلكٌ وجبروت يُستحل فيها الخمر والحرير» . وفي رواية الطيالسي عن أبي عبيدة بن الجراح ، ومعاذ بن جبل ، وأبي ثعلبة الخشني (رضي الله عنهم) عن النبي ﷺ قال : «إن الله - عز وجل - بدأ

هذا الأمر نبوة ورحمة ، وكائناً خلافة ورحمة ، وكائناً مُلكاً عضوضاً ، وكائناً عُنوة وجبرية وفساداً في الأرض يستحلون الفروج والخمور والحرير ويُنصرون على ذلك يُرزقون أبداً حتى يلقوا الله»[1] .

شرح معاني ومفردات روايات الحديث :

- منهاج النبوة : النهج بتشديد النون وسكون الهاء أي : الطريق ، والمعنى أن الخلافة التي ستكون بعد النبوة ستسير وفق النهج والطريق النبوي وهي الخلافة الراشدة .
- (مُلكاً عاضًا أو عضوضاً) والعضوض جمع عِض بكسر العين وتشديد الضاد أي : مُلكاً خبيثاً شرساً عنيفاً .
- (أعْفَرَ) بسكون العين وفتح الفاء (التي في رواية الدارمي) أي : مُلكاً يُساس بالخبث والمكر والدهاء .

(مُلكاً جبرية ، أو (جبروت) أي : مُلكاً قهريًّا قسريًّا [2] ، ومعنى الجبر بفتح الجيم المعجمة والباء أي : الحمل على الفعل بالقوة ، وهو ما يمكن أن نُطلق عليه الحكم بالانقلابات العسكرية أو المُلك القهري الذي لا ترضيه الشعوب ولكنهم يحملونهم على هذا المُلك بالقوة والقهر ونذكر بعض سمات وصفات تلك المرحلة التي أكدها لنا وأخبرنا عنها الصادق المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه - وأبان عن ملامحها ووصف حال حُكَّام هذه الفترة التي عاشتها وتعيشها أمتنا العربية والإسلامية.

١- تخريج الحديث حسب الروايات : مسند الإمام أحمد من حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه - ١٨٩٠٣ ، ودلائل النبوة للبيهقي (٧/ ٣/ ٤ حديث رقم ٢٨٤٣) ، المعجم الكبير للطبراني (١/ ١٥٩ حديث رقم ٣٧٢)، سنن الدارمي (٦/ ٣٣٨ ، حديث رقم ٢١٥٤) ، مسند الطيالسي (١/ ٢٣٤ حديث رقم ٢٢٢) ، والحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٣٤ حديث رقم ٥) .

٢- راجع : النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير (٣/ ٤٩٤) . ولسان العرب لابن منظور (٧/ ١٨٨) ، وتاج العروس للزبيدي (١/ ٤٦٧٣) .

قراءة الحديث برواياته بعيون واقعنا المعاصر :

وقبل قراءة الحديث من خلال واقعنا الذي نعيشه الآن نذكر سمات وصفات هذا الحكم الجبري والقسري وماذا قال الحبيب المصطفي - صلوات ربي وسلامه عليه - عن أخلاق الحُكَّام والمحكومين لتلك المرحلة والتي أراها تنطبق تمام الانطباق على واقعنا المعاصر . فمن هذه الصفات التي ستكون ملازمة الحكام : الكذب .

عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يبعث الله أمراء كذبة ، ووزراء فجرة ، وأمناء خونة ، وفقهاء فسقة ، سمتهم سمة الرهبان وليس لهم رعية .. فيلبسهم الله فتنة غبراء أو مظلمة يتهوكون بها تهوك اليهود في الظلم»[١] .

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «إنها ستكون أُمراء بعدي يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، لا إيمان بعده»[٢] .

وعن عبد الله بن خباب عن أبيه ، أن النبي ﷺ قال : «تكون عليم أمراء يكذبون ويظلمون ، فمن أنكر فقد برئ ، ومن كره فقد سلم ، ولكن من رَضيَ وتابع ، قالوا : أفلا نقتلهم ؟ قال : لا ، ما أقاموا الصلاة»[٣] وقد سمعنا وقرأنا عن كذب بعض من حُكام ومسؤولين في عصرنا الحاضر في كثير من الأمور على شعوبهم ومواطنيهم من خلال تصريحاتهم وخطبهم عبر كل وسائل الإعلام سواء كانت المقروءة أو المسموعة أو المرئية .

١- مسند البزار من حديث معاذ بن جبل (٤/ ٢٤٦ حديث رقم ٢٦٣٠) .

٢- مسند البزار من مسند عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - (٢/ ٤٤٧ حديث رقم ١٨٩٦) .

٣- مسند البزار من مسند خباب بن الأرت - رضي الله عنه (٤/ ٢٥ حديث رقم ٢١٢٣) .

ومن صفات وسمات بعض حُكام عصرنا الذي نعيشه : الظلم .

٢ – عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال قال رسول الله ﷺ «يكون في آخر الزمان أمراء ظلمة ووزراء فسقة وقُضاة خونة وفقهاء كذبة ، فمن أدرك ذلك الزمان منكم فلا يكون لهم كاتباً ولا عريفاً ولا شُرطيًّا»[١] .

وعن أبي أمامة (رضي الله عنه) عن رسول الله ﷺ قال : «صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي : إمام ظلوم غشوم وكل غالٍ مارق»[٢] .

وعن كعب بن عُجْرة – رضي الله عنه – قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن تسعة فقال : إنه ستكون بعدي أمراء من صدَّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولستُ منه وليس بوارد على الحوض، ومن لم يصدقهم بكذبهم ولم يُعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه وهو وارد على الحوض»[٣] .

ومما لا شك فيه أن بعض حُكام عصرنا الحاضر قد كثُر ظلمهم وزاد طغيانهم واستشرى بطشهم بشعوبهم .

ومن صفات وسمات بعض حُكَّام هذا العصر الذي نعيشه : السفاهة

وقيل هي : خِفَّة العقل وقيل معناها : الجهل وهي صفات كانت ملازمة لكل الحُكام الذين أُطيح بهم حديثاً .

٣ – عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – أن النبي ﷺ قال لكعب بن عُجرة – رضي الله عنه – : «أعاذك الله من إمارة السفهاء ، وقال : وما أمارة السفهاء ؟ قال أمراء يكونون بعدي لا يهتدون بهديي ولا يستنون بسنتي ، ومن صدَّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فأولئك ليسوا مني ولست منهم»[٤] .

١- سبق تخريجه .

٢- رواه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ٣٢٧ حديث رقم ٨٠٠٥) وقال الهيثمي : ورجال الطبراني ثقات (راجع مجمع الزوائد للهيثمي (٥/ ٢٨٥ حديث رقم ٩١٩٥) .

٣- سنن النسائى ٤٢٢٤ وصححه الألباني .

٤- رواه الترمذي ٢٤٢٥ وقال : هذا حديث صحيح غريب ، وصححه الألباني .

وعن عوف بن مالك قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «أخاف عليكم ستًّا : إمارة السفهاء ، وسفك الدماء ، وبيع الحُكم ، وقطيعة الرحم ، ونشواً يتخذون القرآن مزامير، وكثرة الشُرَط».

وفي رواية : «يا ابن أخي إني أُبادر خِلالاً سمعتهن من رسول الله ﷺ تكن في آخر الزمان يتخوفهن على أُمته : «إمارة السفهاء،وكثرة الشُّرَط ، واستخفاف بالدم ، وقطيعة الرَّحم ونشوٌ ينشأ يتخذون القرآن مزامير يُقدِّمون الرجل ليس بأفقههم في الدين ، ولا بأعلمهم ، وفيهم من هو أفقه منهم وأعلم يُقدِّمونهم ليُغنِّيهُم غناء»[1] .

ووالله الذي لا إله غيره فقد رأيت بأم عيني وسمعت بأذني عن جُل هذه الأصناف التي ذكرها الصادق المصدوق ﷺ ففي زماننا رأينا الحُكام السفهاء ، وشاهدنا كثرة القمع وشراسته في بعض الدول العربية والإسلامية ، وشاهدنا الاستخفاف بالقتل على أتفه الأسباب وحقارتها ،وسمعنا عن كثير من الناس الذين يشتكون من قطيعة الرحم وأخيراً فقد شاهدت بعض قُرَّاء القرآن من أصحاب الأصوات الرخيمة والذين يتغنون بالقرآن على نغمات الموسيقى يتقدمون للصلاة وقد كان من بيننا من هو أعلم وأفقه منه ، فصلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله ﷺ .

كذلك من صفات وسمات بعض حُكَّام هذا العصر الذي نعيشه الاستعانة بشرار القوم من السوقة والسارقين ووضع الرجل غير المناسب في المنصب والمكان الذي لا يليق به ولا يُحسنه ولكن كان التعيين في تلك المناصب الحساسة من الدول يتم عن طريق المحسوبية والأقارب والموالاة .

٤ - عن أبي سعيد وأبي هريرة - رضي الله عنهما - قالا : قال رسول الله ﷺ : «ليأتين عليكم أمراء يُقرِّبون شِرار الناس ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها ، فمن أدرك

---

١ - رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ٣٩٣ حديث رقم ١٤٤٨٩) وصححه الألباني في صحيح الجامع / ٢١٦.

ذلك منكم فلا يكونن عرِّيفاً ولا شُرطيًّا ولا جابياً ولا خازناً»[1] وهؤلاء الذين استعان بهم الحاكم الظالم والسفيه والغشوم من بعض حُكام عصرنا وصفهم رسولنا الكريم - صلوات ربي وسلامه عليه - أنهم : وزراء فجرة ، وأمناء خونة ، وفقهاء فسقة ، وقُضاة خونة طبعاً إلا من رحم الله منهم وعصم في عصرنا الحاضر .

فكل هذه الصفات والسمات التي ذكرناها آنفاً عن بعض حكام عصرنا الحالي من : الكذب والظلم والسّفه وتقديم شرار الناس هي من الصفات اللازمة للحكم الظالم الذي أخبر عنه الصادق المصدوق - صلوات ربي وسلامه عليه - في حديث الفقرة التي نحن بصدد الحديث عنها .

أما عن صفات المحكومين أو الرعيّة في زمن الحكم الجبري فقد روى البيهقي بسند ضعيف عن أبي إسحاق السُّبيْعي عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ «ما تكونوا كذلك يُؤمَّر عليكم»[2] وقد وصف الحبيب ﷺ أحوال الناس في زمن الحكم الجبري فقال عنهم في حديث معاذ بن جبل - رضي الله عنه - الذي سقناه آنفاً أنهم «يستحلّون الفروج والخمور والحرير»[3] وقد تحدثنا في فصول سابقة من هذا الكتاب عن استباحة الزنا والخمور ولبس الحرير للرجال ، وهذه الأمور واقعة وماثلة أمام أعيننا من خلال ما نشاهده ونسمعه وهذا هو أيضاً زمن الحكم الجبري الذي عانينا منه القهر والظلم والبطش ، ولذلك انتفضت الشعوب بتلك الثورات المسالمة التي قابلتها بعض الحكومات العربية بالآلة العسكرية وقتلت المئات والأفراد كما حدث في ليبيا ، أسأل الله - عز وجل - أن يحقن دماء المسلمين في كل مكان وأن يهلك الظالمين بالظالمين ويخرجنا من بين أيديهم سالمين غانمين ، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

١- رواه ابن حبان في صحيحه ، كتاب السير ، باب : طاعة الأئمة (١٩/ ١٧٦ حديث ٤٦٦٩) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٧٠١ حديث رقم ٣٦٠) .

٢- شُعب الإيمان للبيهقي ، فصل : فضل الإمام العادل (١٥٤٤٠ حديث رقم ٧١٣٨) والحديث ضعفه الألباني في ضعيف الجامع ٤٢٧٥ .

٣- سبق تخريجه .

وقبل أن أضع القلم من يدي أحب أن أختم هذا السِّفر الذي أسأل الله بأسمائه الحسنى أن يجعله في ميزان حسناتي يوم القيامة بهذا الحديث الذي جمع بين ثناياه وفقراته وكلماته أحداث ووقائع أشراط الساعة الصغرى .

والحديث جامع شامل لتلك النبوءات التي وقعت على مدار التاريخ الإسلامي حتى عصرنا الحاضر ؛ فقد أخرج أبو نعيم الأصبهاني عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «من اقتراب الساعة اثنتان وسبعون خصلة : إذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة ، وأضاعوا الأمانة ، وأكلوا الربا ، واستحلوا الكذب ، واستخفوا الدماء ، واستعلوا البناء ،و باعوا الدين بالدنيا ، وتقطعت الأرحام ، ويكون الحكم ضعفاً ، والكذب صدقاً ، والحرير لباساً ، وظهور الجور ، وكثرة الطلاق ، وموت الفجأة ، وأُئتمن الخائن ، وخُوِّن الأمين ، وصُدِّق الكاذب ، وكُذب الصادق ، وكثر القذف[1] ، وكان المطر قيظاً ، والولد غيظاً ، وفاض اللئام فيضاً ، وغاض الكرام غيضاً[2] . وكان الأمراء فجرة ، والوزراء كذبة ، والأمناء خونة ، والعُرفاء ظلمة[3] ، والقُرَّاء فسقة[4] ، إذا لبسوا مسوك الضأن[5] ، قلوبهم أنتن من الجيفة ، وأمرُّ من الصبر ، يغشيهم الله فتنة يتهاوكون فيها تهاوك [6] اليهود الظلمة ، وتظهر الصفراء - يعني الدنانير ، وتطلب البيضاء - يعني الدراهم ، وتكثر الخطايا ، وتغل الأمراء[7] ، وحُليت المصاحف ، وصُوِّرت المساجد وطوِّلت المنائر ، وخرِّبت القلوب ، وشُربت الخمور ، وعُطلت الحدود ، وولدت الأَمة ربها ، وترى الحفاة العراة وقد صاروا ملوكاً ، وشاركت المرأة

١- أي : قذف المحصنات المؤمنات بما ليس فيهن إفكاً وبهتاناً .

٢- أي : كثر اللئام بشدة ، وقل الكرام بين الناس .

٣- جمع عريف : وهو القيم بأمور القبيلة أو الجماعة من الناس .

٤- وقد أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أكثر منافقي أمتي قراؤها . [مسند الإمام أحمد ٦٣٤٤ ، وصححه الألباني في الصحيحين ٢/ ٣٨٦ / ٧٥٠] .

٥- مسوك : جمع مسك ، بفتح الميم وسكون السين وهو الجلد ، وفي رواية : مسوح الضأن .

٦- المتهاوك : المتحير ، وقيل : معناه مترددون ، ساقطون مثل اليهود الظلمة .

٧- من الغلول ، وهو الخيانة ، والمعنى : وتخون الأمراء .

زوجها في التجارة ، وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ، وحُلف بالله (من غير أن يُستحلف) ، وشهد المرء من غير أن يُستشهد ، وسُلِّم للمعرفة ، وتُفقِّه لغير الدين ، وطلبت الدنيا بعمل الآخرة ، واتخذ المغنم دولاً والأمانة مغنماً[١] ، والزكاة مغرماً[٢] ، وكان زعيم القوم أرذلهم ، وعقَّ الرجل أباه ، وجفا أمه[٣] ، وبر صديقه ، وأطاع زوجته ، وعلت أصوات الفسقة في المساجد ، وأخذت القينات والمعازف ، وشُربت الخمور في الطرق ، واتخذ الظلم فخراً[٤] ، وبيع الحكم ، وكثرت الشرط[٥] ، واتخذ القرآن مزامير ، وجلود السباع صفاقاً[٦] ولعن آخر هذه الأمة أولها[٧] ، فليرتقبوا عند ذلك : ريحاً حمراء ، وخسفاً ومسخا وآيات». قال أبو نعيم : غريب من حديث عبد الله بن عبيد بن عمير ، لم يروه عنه فيما أعلم إلا فرج بن فضالة[٨] .

والحديث وإن كان فيه ضعف ، لكنه جامع لخصال وعلامات وآيات أشراط الساعة الصغرى ، قد ذكرنا معظمها في أحاديث صحيحة أخرى[٩] ، وكلها بيِّنة المعنى ، ووقعت كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ ، إنما الدافع لذكرنا هذا الحديث أنه جامع لتلك الخصال والعلامات للنبوءات النبوية التي حدثت عبر القرون الإسلامية وحتى

١- المغنم : ما أخذ من أموال أهل الحرب ، ودولاً : جمع دُولة بالضم ، وهو ما يتداول من المال بين الناس ، والمعنى : توزيع المال الناتج من الحروب توزيعاً غير عادل ، فترتفع الأمانة ، وتفقد فيمن يقوم بتوزيع تلك المغانم والأموال .

٢- أي : يرى رب المال أن إخراج زكاته غرامة يغرمها .

٣- جفا أمه : من الجفاء ، وهو غلظ الطبع .

٤- أى : يفتخر الظالم بظلمه .

٥- أي تكثر الشرطة ، وينتشر رجال الأمن انتشاراً كبيراً .

٦- والمعنى : اتخاذ جلود السباع الرقيقة الجلد من الخارج ، والمبطنة من الداخل بالشعر أو الفرو ، كما هو مشاهد الآن .

٧- وهو ما يحدث الآن من (الروافض) الذين يُكثرون من شتم وسب الصحابة رضي الله عنهم .

٨- رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، وذكره القرطبي في التذكرة ص ٧٥٨ ، وقد ذكر أبو عمرو الداني أثراً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه جمع فيه كثيراً من تلك الخصال [السنن الواردة في الفتن ٢/ ٤].

٩- وقد فصَّلنا ذلك في كتابنا : (الإعجاز النبوي في الفتن والملاحم – مصدر سابق) .

عصرنا الحاضر، وكلها من أشراط الساعة الصغرى التي يمكن القول بأنها قد ظهرت معظمها، إن لم يكن جلها - كما ذكرنا آنفاً. والله أعلم.

****

أسأل الله العلي القدير أن ينفع بهذا الكتاب إخواني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وأن لا ينسوني من دعوة صالحة وأن يجعل الله - عز وجل - هذا السِّفر لي ذخراً يوم القيامة .. اللهم آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.

سيدنا محمد وعلى آله أجمعين.

المراجع

أولاً :

١ - القرآن الكريم .

٢ - العهد القديم (التوراة) [الناشر : دار حلمي للطباعة ، القاهرة ١٩٧٠م) .

ثانياً : كتب التفاسير وعلوم القرآن :

١ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن المعروف بتفسير الطبري ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري [الناشر : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان] .

٢ - تفسير القرطبي ، المسمى : الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي [الناشر : دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥م] .

٣ - تفسير القرآن العظيم ، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ، قدَّم له د.يوسف عبد الرحمن المرعشلي [الناشر : دار المعرفة ، ١٤١٢هـ] .

٤ - تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير محمد بن علي ابن محمد الشوكاني ، تحقيق : د. عبد الرحمن عميرة [الناشر : دار الوفاء ، المنصورة - مصر ، الطبعة الثانية : ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨م] .

٥ - تفسير الرازي المعروف بمفاتيح الغيب ، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي ، الملقب بالفخر الرازي [كتاب إلكتروني] .

٦ - في ظلال القرآن - سيد قطب . [الناشر : دار الشروق - القاهرة ، بيروت - الطبعة التاسعة : ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م] .

٧ - الإتقان في علوم القرآن ، جلال الدين عبد الرحمن السيوطي . [الناشر : شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الطبعة الرابعة ، ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٨] .

ثالثاً : كتب اللغة والأدب :

١ - لسان العرب ، لابن منظور الأفريقي المصري .[الناشر : دار الفكر ، بيروت] .
٢ - تاج العروس من جواهر القاموس ، محمد مرتضى الزبيدي . [الناشر : مكتبة الحياة، بيروت ، لبنان] .
٣ - النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير الجزري . [الناشر : دار الفكر ، بيروت ، لبنان] .
٤ - القاموس المحيط ، الفيروز آبادي . [الناشر : مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان] .
٥ - تهذيب اللغة للأزهري [كتاب إلكتروني] .
٦ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، لأبي العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري [كتاب إلكتروني] .
٧ - المُخصص ، لأبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي المعروف بابن سيده [كتاب إلكتروني] .
٨ - الموسوعة الشعرية [موسوعة إلكترونية] .
٩ - العقد الفريد للفقيه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي . تحقيق د. مفيد محمد قميحة [الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان] .
١٠ - البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر ، المعروف بالجاحظ [كتاب إلكتروني].
١١ - أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي . تحقيق : مصطفى السقا [الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان] .
١٢ - الأدب الصغير والكبير - ابن المقفع . [الناشر : دار بيروت للطباعة والنشر ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧م] .
١٣ - الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي ، تحقيق : أحمد أمين وأحمد الزين [الناشر : المكتبة العصرية - بيروت - صيدا - لبنان] .
١٤ - صُبح الأعشى في صناعة الإنشا ، لأحمد بن علي القلقشندي . تحقيق : د. يوسف علي طويل [الناشر : دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م] .
١٥ - التمثيل والمحاضرة للثعالبي [كتاب إلكتروني] .

١٦- في الشعر الجاهلي ، د. طه حسين [الناشر : دار الكتب المصرية ١٩٢٦م] .
١٧- تاريخ الآداب العربية ، لكارلو نالينو المستشرق ، قدَّم له د. طه حسين [الناشر : دار المعارف - مصر] .
١٨- نقد النثر لأبي الفرج قدامة بن جعفر ، قدَّم له د. طه حسين [الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٨٠م] .

رابعاً : كتب الحديث وشروحها وعلوم الحديث :

١ - صحيح البخارى ، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي . [الناشر : دار الفكر ، بيروت ، لبنان] .
٢ - صحيح مسلم ، للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري . [الناشر : دار الفكر ، بيروت ، لبنان] .
٣ - صحيح ابن حبان [كتاب إلكتروني] .
٤ - صحيح ابن خُزيمة [كتاب إلكتروني] .
٥ - سنن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني . [الناشر : دار الفكر ، بيروت ، لبنان] .
٦ - سنن الترمذي ، لأبي عيسي محمد بن عيسي بن سَورة الترمذي . [الناشر : دار الفكر ، بيروت ، لبنان] .
٧ - سنن النَّسائي بشرح السيوطي ، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن بحر النسائى. [الناشر : دار الفكر ، بيروت ، لبنان] .
٨ - سنن ابن ماجة ، لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني . [الناشر : دار الفكر ، بيروت ، لبنان] .
٩ - مسند الإمام أحمد ، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل . [الناشر : دار صادر ، بيروت ، لبنان] .
١٠ - مسند الإمام أحمد ، بتحقيق الشيخ أحمد شاكر . [الناشر : دار المعارف للطباعة والنشر بمصر ، الطبعة الثالثة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩م] .

١١ - المستدرك على الصحيحين ، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري . [الناشر : دار المعرفة ، بيروت ، لبنان] .
١٢ - السنن الكبرى ، لأبي بكر أحمد بن الحسين علي البيهقي. [الناشر : دار الفكر ، بيروت ، لبنان] .
١٣ - دلائل النبوة ، أبي بكر أحمد بن الحسين علي البيهقي [كتاب إلكتروني] .
١٤ - شُعب الإيمان لأبي بكر أحمد بن الحسين علي البيهقي [كتاب إلكتروني] .
١٥ - مصنف ابن أبي شيبة [كتاب إلكتروني] .
١٦ - المعجم الكبير ، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ، بتحقيق : حمدي عبدالمجيد السلفي . [الناشر : مكتبة ابن تيمية ، القاهرة ، مصر] .
١٧ - المعجم الأوسط ، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ، بتحقيق : قسم التراث بدار الحرمين . [الناشر : دار الحرمين ، المملكة العربية السعودية] .
١٨ - المصنف - عبد الرزاق الصنعاني [كتاب إلكتروني] .
١٩ - بُغية الحارث - للحارث بن أبي أسامة [كتاب إلكتروني] .
٢٠ - جمع الجوامع للسيوطي [كتاب إلكتروني] .
٢١ - صحيح الجامع الصغير وزيادته للشيخ محمد ناصر الدين الألباني [الناشر : المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى : ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م] .
٢٢ - ضعيف الجامع وزيادته للشيخ محمد ناصر الدين الألباني . [الناشر : المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ] .
٢٣ - صحيح الترغيب والترهيب للشيخ محمد ناصر الدين الألباني . [الناشر : المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى : ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م] .
٢٤ - ضعيف سنن الترمذي ، وصحيح سنن الترمذي للشيخ محمد ناصر الدين الألباني . [الناشر : المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١م] .
٢٥ - صحيح وضعيف النسائى ، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني . [الناشر : المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى : ١٤١١ هـ/ ١٩٩١م] .

٢٦ - صحيح وضعيف سنن أبي داود ، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني . [الناشر : المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الأولى : ١٤١١ هـ/ ١٩٩١م] .
٢٧ - سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها . للشيخ محمد ناصرالدين الألباني . [الناشر : المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ] .
٢٨ - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني . [الناشر : المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ] .
٢٩ - سنن الدارمي - لعبد الله بن بهرام الدارمي . [الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان] .
٣٠ - السنن الواردة في الفتن - لأبي عمرو عثمان بن سعيد المقريء الداني . [الناشر : دار العاصمة - الرياض - السعودية - الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م] .
٣١ - كتاب السُّنَّة أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني ومعه : ظلال الجنة في تخريج أحاديث السنة للشيخ محمد ناصر الدين الألباني .
٣٢ - فتح الباري شرح صحيح البخاري ، لابن حجر العسقلاني . [الناشر : دار المعرفة ، بيروت ، لبنان] .
٣٣ - شرح مسلم ، للإمام يحيي بن شرف النووي الدمشقي . [الناشر : دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان] .
٣٤ - تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي للمباركفوري . [الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان] .
٣٥ - عون المعبود شرح سنن أبي داود ، لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي. [الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان] .
٣٦ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للحافظ أبي بكر الهيثمي ، بتحرير الحافظ العراقي، وابن حجر العسقلاني . [الناشر : مؤسسة المعارف - بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م] .

٣٧ - فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير لمحمد عبدالرؤوف المناوي ، ضبطه وصححه أحمد عبد السلام . [الناشر : دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م] .
٣٨ - شرح ابن بطال على صحيح البخاري [كتاب إلكتروني] .
٣٩ - عمدة القارئ بشرح صحيح البخاري لبدر الدين العيني الحنفي [كتاب إلكتروني] .
٤٠ - المنار المنيف في الصحيح والضعيف ، لابن قيم الجوزية ، تحقيق عبد الفتاح أبوغدة - [الناشر : مطبعة ومكتب المطبوعات الإسلامية - دمشق - الطبعة الأولى ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠م] .
٤١ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع - للخطيب البغدادي . [الناشر : مكتبة المعارف ،السعودية ١٤٠٣هـ] .
٤٢ - جامع بيان العلم وفضله لأبي عمرو يوسف بن عبد البر . [الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م] .
٤٣ - الأدب المفرد للبخاري [كتاب إلكتروني] .
٤٤ - الموضوعات لابن الجوزي . [كتاب إلكتروني] .

خامساً : كتب التاريخ والتراجم والسير :

١ - تاريخ الطبري ، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري . [الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان] .
٢ - البداية والنهاية ، لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي . [الناشر : دار المعارف ، بيروت ، لبنان] .
٣ - الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري [كتاب إلكتروني] .
٤ - أُسد الغابة لابن الأثير الجزري [كتاب إلكتروني] .
٥ - مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري [كتاب إلكتروني] .
٦ - الفَرق بين الفِرق لعبد القاهر البغدادي . [الناشر : دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان] .

٧ - الملل والنِّحل للشهرستاني [الناشر : دار المعرفة ، بيروت ، لبنان] .
٨ - سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، تحقيق الشيخ : شعيب الأرناؤوط . [الناشر : مؤسسة الرسالة ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ] .
٩ - تهذيب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني [كتاب إلكتروني] .
١٠ - شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي [كتاب إلكتروني] .
١١ - الجرح والتعديل للعلامة الحافظ الشيخ أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد ابن إدريس بن المنذر التميمي الرازي . [الناشر : دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان] .
١٢- الأعلام لخير الدين الزركلي . [الناشر : دار العلم للملايين بيروت ، لبنان ، الطبعة الخامسة ١٩٨٠م] .
١٣ - الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر الأندلسي [كتاب إلكتروني] .

سادساً : كتب الفقه والفتاوى :

١ - المجموع شرح المهذب في الفقه الشافعي لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي [الناشر : دار الفكر ، بيروت ، لبنان] .
٢ - المُغني في الفقه الحنبلي لموفق الدين أبي محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي [الناشر : دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان] .
٣ - المدخل - لأبي عبد الله محمد بن محمد بن العبدري القبيلي الفاسي ثم المصري المشهور بابن الحاج [كتاب إلكتروني] .
٤ - تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق في الفقه الحنفي للزيلعي [كتاب إلكتروني] .
٥ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية - جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي [طبعة إدارة المساحة العسكرية - القاهرة ١٤٠٤هـ] .
٦ - فتاوى معاصرة للشيخ د. علي جمعة [كتاب إلكتروني] .

٧ - فتاوى دار الإفتاء المصرية [موقع وزارة الأوقاف المصرية] .
٨ - الموسوعة الفقهية [وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية دولة الكويت].

سابعاً : كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية :

١ - الاستقامة للشيخ أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس . [الناشر : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ بتحقيق : د.محمد رشاد سالم] .
٢ - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم ، لشيخ الإسلام ابن تيمية . [الناشر : مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٦٩هـ. بتحقيق : محمد حامد الفقي] .
٣ - جامع الرسائل ، رسالة : فصل في الدليل على فضل العرب لشيخ الإسلام ابن تيمية بتحقيق د. محمد رشاد سالم [كتاب إلكتروني] .
٤ - زاد المعاد في هدي خير العباد ، لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله المعروف بابن قيم الجوزية بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط . [الناشر : مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية ، بيرروت ، الكويت ، الطبعة الرابعة عشرة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦م] .
٥ - أعلام الموقعين لابن قيم الجوزية بتحقيق : طه عبدالرؤوف سعد . [الناشر : دار الجيل - بيروت - لبنان ١٩٧٣م] .
٦ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء) لابن قيم الجوزية . [الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت ، لبان] .

ثامناً : كتب يوسف رشاد :

١ - العفن الفني [الناشر : دار الكلمة للنشر والتوزيع - المنصورة - مصر] .
٢ - الأسلوب الأمثل لتربية البنات في الإسلام . [الناشر : دار ابن الجوزي - القاهرة - مصر] .
٣ - ذم الجدل والمراء . [الناشر : دار الكلمة للنشر والتوزيع - المنصورة - مصر] .

٤ - الإعجاز النبوي في الفتن والملاحم .. التسلسل التاريخي للنبوءات عبر التاريخ الإسلامي. [الناشر : دار الفاروق للاستثمارات الثقافية ، الجيزة ، مصر] .
٥ - السبي الأخير لبني إسرائيل . [الناشر : دار الكتاب العربي - دمشق - القاهرة] .
٦ - كيد النساء .. الداء والدواء . [الناشر : دار الكتاب العربي ، دمشق ، القاهرة] .
٧ - اليهود المتخفون وأثرهم على المسيحية والإسلام [الناشر : دار الكتاب العربي، دمشق ، القاهرة] .
٨ - المسيحان يلوحان في الأفق في الديانات الثلاث: اليهودية والمسيحية والإسلام . [الناشر : دار الكتاب العربي ، دمشق ، القاهرة] .

تاسعاً : كتب عامة :

١ - إبطال الحيل لأبي عبد الله بن عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي [كتاب إلكتروني] .
٢ - الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ، لأبي عبد الله بن محمد ابن بطة العكبري الحنبلي [تحقيق ودراسة : رضا بن نعسان معطي ، الناشر : دار الراية للنشر والتوزيع - الرياض - السعودية - الطبعة الأولى : ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م] .
٣ - التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة للإمام القرطبي ، تحقيق د. أحمد حجازي السقا ، [الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٤٠٢ هـ/ ١٩٨٢م] .
٤ - ذم المُسكر لابن أبي الدنيا [كتاب إلكتروني] .
٥ - الخمر بين الطب والفقه للدكتور محمد علي البار . [الناشر : دار الشروق ، جدة ، السعودية] .
٦ - الشرطة ومهامها في الدولة الإسلامية للدكتور فاروق عبد السلام . [الناشر : دار الصحوة للنشر والتوزيع - القاهرة - مصر] .
٧ - المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي [كتاب إلكتروني] .

٨ - الفكر الفلسفي في الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود . [الناشر : دار المعارف ، الطبعة الثانية ، مصر] . ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - مصر .
٩ - نهاية العالم ، أشراط الساعة الصغرى والكبرى للدكتور محمد بن عبد الرحمن العريفي . [الناشر : دار التدمرية - الرياض - السعودية - دار الآثار ، القاهرة ، مصر].
١٠ - الإسلام والمذاهب الفلسفية للدكتور مصطفي حلمي [كتاب إلكتروني] .
١١ - تخليص الإبريز في تلخيص باريز رفاعة رافع الطهطاوي [كتاب إلكتروني] .
١٢ - الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين [الناشر : دار الرسالة بيروت] .
١٣ - الإسلام وأصول الحكم .. دراسة ووثائق بقلم د. محمد عمارة . [المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - لبنان] .
١٤ - اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار . للأستاذ / أنور الجندي . [الناشر : دار الاعتصام - القاهرة - مصر] .
١٥ - نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم للطاهر بن عاشور . [الناشر : المطبعة السلفية ومكتبتها، الطبعة الأولي ١٣٤٤هـ] .
١٦ - المشكلة الأخلاقية والفلاسفة لأندريه كريسون ، ترجمه وقدَّم له الإمام عبدالحليم محمود والأستاذ / أبو بكر ذكري . [لناشر : مطابع دار الشعب - القاهرة ١٣٩٩هـ] .
١٧ - المؤامرة على الإسلام للأستاذ / أنور الجندي . [دار الاعتصام - القاهرة - مصر] .
١٨ - الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د. محمد محمد حسين . [مكتبة الآداب - القاهرة - مصر] .
١٩ - رجال اختلف فيهم الرأي ، الأستاذ / أنور الجندي [كتاب إلكتروني] .
٢٠ - مستقبل الثقافة في مصر ، د. طه حسين . [طبعة دار المعارف - مصر ١٩٣٥م].

٢١- المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي . [الناشر : المكتب الإسلامي - بيروت - لبنان الطبعة السادسة ١٤٠٤هـ] .
٢٢- قالوا عن الإسلام للدكتور / عماد الدين خليل . [الناشر : الندوة العلمية للشباب الإسلامي - الرياض - السعودية] .
٢٣- التنصير .. خطة لغزو العالم الإسلامي .. الترجمة الكاملة للمؤتمر التنصيري الذي عقد في ولاية كولورادو بأمريكا عام ١٩٧٨م .

عاشراً : الموسوعات العلمية والدوريات والمجلات:

١ - دائرة المعارف الإسلامية مجموعة من المستشرقين . [الناشر : دار المعرفة - بيروت - لبنان] .
٢ - مجلة المنار ، لصاحبها ومديرها محمد رشيد رضا . [مجلة إلكترونية ، إنتاج مؤسسة ماس للبرمجة ونظم المعلومات] .
٣ - الموسوعة الميسرة للأديان والفرق المعاصرة ، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي [الناشر : الندوة العالمية للشباب الإسلامي ، الرياض ، السعودية ط. أولى ١٤١٢هـ] .
٤ - العديد من المقالات التي أثبتناها في موقعها على الإنترنت .
٥ - العديد من المواقع الإلكترونية والصحف والمجلات .

الفهرس


منتدى اقرا الثقافي
www.iqra.forumarabia.com

النبوءات النبوية لأحداث هذا الزمان

هـذا الكتـاب عبـارة عـن عـرض للأحـاديث الصحيحـة التي أخبـرت عـن كل أحـداث هـذا الزمان الذي نعيش فيـه ، وهـذه الأحاديث هي نبوءات تحققت دعونا نلقي عليها الضوء بشيء من التفصيـل وذلك من خـلال الإطـلالة على واقعنا المعاصـر وما نتعرض له فيـه مـن فتن وابتـلاءات - عصمنـا اللـه عز وجل - وإياكـم من جميع الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وذلك لندلل على أمر جليل والذي يتمثل في التمسك بديننـا الحنيف بمصـدريـه الأسـاسيين كتابـنا وقرآننـا العظيـم الـذي "لا يأتيه البـاطـل مـن بيـن يديـه ولا مـن خلفـه تنزيـل مـن حكيـم حميـد" (فصلت :٤٢) وسـنّة نبينـا محمـد - صلـى اللـه عليـه وآلـه وسلـم - والذي قال عنه الله تعالى" ومـا ينطـق عن الهوى إن هـو إلا وحـي يوحـى" (النجـم / ٣،٤) والـذي تركنـا على المحجة البيضاء والذي أبان لنا خير بيان عـن فتن هـذا الزمان لكي نحـذرها ونتجنبهـا، ومـع ذلك وقـع كثيـر من أهـل زماننـا فـي هـذه الفتن فأردنا من خـلال هـذا الكتاب أن نخرج من أعمـاق كتب تراثنـا الإسـلامي كنـوز ودُرر الأحـاديث النبويـة الصحيحـة التي أخبرتنـا بوقوع تلك الفتن منذ أكثر من أربعة عشر قرناً وذلك ليحيا من حي عن بَينة ويهلك من يهلك عن بَينة ....فهل يا ترى أخبر نبينا المصطفى -صلى الله -عليه وآله وسلم -عن وقوع واندلاع ثورات الشعوب العربية الحالية ؟ هذاما ستعرفه أيضاً عزيزي القارئ بين ثنايا هذا الكتاب.




978-977-376-670-5